

الجامع لأحكام القرآن

وَالْمُبَيِّنُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْفُرْقَانِ

تَأليفُ

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد الحسنى التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي ماهر حبوش

الجزء السابع عشر

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجامع لأحكام القرآن

والبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

جميع الحقوق محفوظة للنّاشِر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



مؤسسة الرسالة - طي المصيبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تليفاكس: ٣٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

تفسير سورة السجدة

وهي مكِّيَّة، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى تمام ثلاث آيات؛ قاله الكلبي ومقاتل^(١). وقال غيرهما: إلا خمس آيات، من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ تِلْكَ وَهُوَ يَكْفُرُ﴾^(٢). وهي ثلاثون آية. وقيل: تسع وعشرون.

وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة: ﴿الْآلَ . تَنْزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ الحديث^(٣).

وخرج الدرامي أبو محمد في «مسنده» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْآلَ . تَنْزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٤).

قال الدرامي: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثتنا^(٥) عبدة، عن خالد بن معدان قال: اقرؤوا المُنْجِيَّةَ، وهي ﴿الْآلَ . تَنْزِيلُ﴾، فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا، فَنَشَرَتْ جَنَاحَهَا عَلَيْهِ وقالت: رَبِّ اغْفِرْ لَهُ، فإنه كان يُكْثِرُ^(٦) قراءتي. فشفعها الربُّ فيه وقال: «اكتبوا له بكل خطيئة حسنة»

(١) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣٥٢/٤، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٨٠/٢ عن ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٣٥٢/٤.

(٣) صحيح مسلم (٨٧٩)، وهو عند أحمد (١٩٩٣). وأخرجه أيضاً أحمد (١٠١٠٢)، والبخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٤) سنن الدرامي (٣٤١١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) - (٧٠٩).

(٥) في النسخ: حدثنا، وهو خطأ.

(٦) بعدها في (د) و (م): من

وارفَعُوا لَهُ دَرَجَةً»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَمْ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿الَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الإجماع على رَفَعٍ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، ولو كان منصوباً على المصدر لجاز، كما قرأ الكوفيون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٣-٥]^(٢).

و «تَنْزِيلُ» رَفَعٌ بالابتداء، والخبر ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو خبرٌ على إضمارٍ مبتدأ، أي: هذا تنزيلٌ، أو: المَثَلُ تنزيلٌ، أو: هذه الحروف تنزيلٌ. ودلَّت «الم» على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون «لَا رَيْبَ فِيهِ» في موضع الحال من «الكتاب»، و ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الخبر، قال مكِّي^(٣): وهو أَحْسَنُهَا.

ومعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لا شك فيه أنه من عند الله، فليس بسحرٍ ولا شعرٍ ولا كَهَانَةٍ ولا أساطير الأولين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعة التي تقدر بِبَلْ وَالْف

(١) سنن الدرامي (٣٤٠٨)، وهو ضعيف لإرساله. خالد بن معدان: ثقة عابد يرسل كثيراً، وأبو المغيرة: هو عبد القدوس بن الحجاج، ثقة. كذا في «تقريب التهذيب». وعبد: هي بنت خالد بن معدان ذكرها ابن حبان في الثقات ٣٠٧/٧.

(٢) وهي قراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي، وقرأ الباقر من السبعة بضم اللام. السبعة ص ٥٣٩، والتيسير ص ١٨٣. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢٩١/٣.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٥٦٧/٢، وما قبله منه.

الاستفهام، أي: بل يقولون^(١). وهي تدلُّ على خروج من حديثٍ إلى حديث، فإنه عزَّ وجلَّ أثبتَّ أنه تنزِيلٌ من ربِّ العالمين، وأنَّ ذلك ممَّا لا ريبَ فيه، ثم أَضْرَبَ عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أي: افْتَعَلَهُ واختَلَقَهُ.

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كَذَّبَهُمْ فِي دَعْوَى الْاِفْتِرَاءِ. ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا﴾ قال قتادة: يعني قريشاً، كانوا أمةً أُمِّيَّةً لم يأتهم نذيرٌ من قَبْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٢). و «لِنُنْذِرَ» متعلِّقٌ بما قَبْلَهَا فلا يُوقَفُ على «مِن رَّبِّكَ». ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوف، التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقفُ على «مِن رَّبِّكَ»^(٣). و «ما» في قوله: ﴿مَا أَنَّهُمْ﴾ نَفْيٌ. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلة، و «نَذِيرٍ» في محلِّ الرفع، وهو الْمُعْلِمُ الْمُخَوِّفُ.

وقيل: المرادُ بالقوم أهلُ الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل^(٤). وقيل: كانت الحجةُ ثابتةً لله جلَّ وعزَّ عليهم بإنذارٍ مِّن تقدَّم من الرسل وإن لم يَرَوْا رسولاً، وقد تقدَّم هذا المعنى^(٥).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرَّفهم كمالَ قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه. ومعنى «خَلَقَ»: أَبْدَعَ وَأَوْجَدَ بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إنَّ اليوم من الأيام الستة التي خَلَقَ الله فيها السماواتِ

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٠٣/٤، والإملاء للمكبري ١٨٣/٤.

(٢) أخرجه الطبري ٥٩٠/١٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣٥٧/٤.

(٤) ذكره عنهما البغوي في تفسيره ٤٩٧/٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣٥٧/٤.

(٥) ينظر ٤٤/١٣، وسلف الكلام على أهل الفترة ٣٩٠/٧.

والأَرْضَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: فِي سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ، أَيْ: فِي مَدَّةِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ^(١).

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْغُرِّ﴾ تَقَدَّمَ فِي «الْأَعْرَافِ» وَ «الْبَقَرَةِ»^(٢) وَغَيْرِهِمَا، وَذَكَرْنَا مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي «الْكِتَابِ الْأَسْنَى فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى»^(٣). وَلَيْسَتْ «ثُمَّ» لِلتَّرْتِيبِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى الْوَاوِ.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أَيْ: مَا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَلِيٍّ يَمْنَعُ مِنْ عَذَابِهِمْ «وَلَا شَفِيعٍ». وَيَجُوزُ الرُّفْعُ عَلَى الْمَوْضِعِ^(٤). ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي قُدْرَتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَذُبُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَذُبُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُنْزِلُ الْقَضَاءَ وَالْقَدْرَ^(٥). وَقِيلَ: يُنْزِلُ الْوَحْيَ مَعَ جِبْرِيلَ^(٦). وَرَوَى عَمْرُو بْنُ مَرْثَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ قَالَ: يَذُبُّ أَمْرَ الدُّنْيَا أَرْبَعَةً: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ، وَإِسْرَافِيلُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. فَأَمَّا جِبْرِيلُ فَمَوْكَلٌ بِالرِّيَّاحِ وَالْجُنُودِ، وَأَمَّا مِيكَائِيلُ فَمَوْكَلٌ بِالْقَطْرِ وَالْمَاءِ، وَأَمَّا مَلَكُ الْمَوْتِ فَمَوْكَلٌ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَأَمَّا إِسْرَافِيلُ فَهُوَ يُنْزِلُ بِالْأَمْرِ عَلَيْهِمْ^(٧).

(١) أَخْرَجَ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ الطَّبْرِيِّ ٥٩٤/١٨. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي الْمَحَرَّرِ الْوَجِيزِ ٣٥٨/٤: وَهَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ مُكْرَهَةٌ لَفَظًا هَذِهِ الْآيَةُ عَلَيْهِ، رَأْدَةٌ لَهُ الْأَحَادِيثُ الَّتِي يَبْنِي أَيَّامَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَخْلُوقَاتِ.

(٢) ٢٣٨/٩ وَمَا بَعْدَهَا، وَ ٣٨٠/١ وَمَا بَعْدَهَا.

(٣) ص ١٨٧ وَمَا بَعْدَهَا.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٢٩١/٣.

(٥) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَسِيطِ ٤٥٠/٣، وَالْبَغَوِيُّ ٤٩٧/٣ دُونَ نِسْبَةٍ.

(٦) تَفْسِيرُ الْبَغَوِيِّ ٤٩٧/٣.

(٧) النُّكْتُ وَالْعِيُونُ ٣٥٣/٤، وَأَخْرَجَهُ أَبُو الْوَلِيدِ فِي التَّفْسِيرِ ٢٨/٣، وَأَبُو الشَّيْخِ فِي الْعِظْمَةِ (٣٧٨) وَ (٣٨٠)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الشَّعْبِ (١٥٨).

وقد قيل: إِنَّ العرش موضعُ التدبير، كما أَنَّ ما دون العرش موضعُ التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد: ٢]، وما دون السماوات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرْجِعْ إِلَيْهِ﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريلُ يصعدُ إلى السماء بعد نزوله بالوحي. النقَّاش: هو المَلَكُ الذي يدبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض. وقيل: إِنَّهَا أخبارُ أهلِ الأرض تَصْعَدُ إليه مع حَمَلَتِهَا من الملائكة؛ قاله ابن شجرة^(١). ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَرْجِعْ إِلَيْهِ﴾ أي: يرجع ذلك الأمرُ والتدبيرُ إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يومُ القيامة.

وعلى الأقوال المتقدمة؛ فالكنايةُ في «يَرْجِعُ» كنايةٌ عن المَلَكِ، ولم يَجْرِ له ذِكْرٌ لأنه مفهومٌ من المعنى، وقد جاء صريحاً في ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قوله: ﴿تَرْجِعُ الْمَلِكُةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السماء على لغةٍ مَنْ يذكُرُها، أو على مكان المَلَكِ الذي يَرْجِعُ إليه. أو على اسم الله تعالى؛ والمرادُ: إلى الموضع الذي أقرَّه فيه، وإذا رَجَعَتْ إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي: إلى سِدْرَةِ المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصْعَدُ به من الأرض، ومنها ينزل ما يُهْبَطُ به إليها، ثبت معنى ذلك في «صحيح» مسلم^(٢).

والهاءُ في «مِقْدَارُهُ» راجعةٌ إلى التدبير، والمعنى: كان مقدارُ ذلك التدبيرِ أَلْفَ

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٢٥٣/٤-٢٥٤.

(٢) برقم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥)، وهو من حديث عبد الله بن مسعود ؓ، ولفظه: لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، انْتَهَى به إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنْتَهِي ما يُعْرَجُ به من الأرض فيقبض منها، وإليها يَنْتَهِي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها...

سنة من سني الدنيا، أي: يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد، ثم يُلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد^(١).

وقيل: الهاء للعروج. وقيل: المعنى: أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يفرج إليه ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة^(٢).

وقيل: المعنى: يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة.

وقال ابن عباس: المعنى: كان مقداره لو سارَه غير الملك ألف سنة؛ لأنَّ النزول خمس مئة، والصعود خمس مئة. ورُوي ذلك عن جماعة من المفسرين، وهو اختيار الطبري^(٣)؛ ذكره المهدوي. وهو معنى القول الأول، أي: إنَّ جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم؛ ذكره الزمخشري^(٤).

وذكر الماوردي^(٥) عن ابن عباس والضحاك: أنَّ الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة. وعن قتادة: أنَّ الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة. فيكون مقدار نزوله خمس مئة سنة، ومقدار صعوده خمس مئة على قول قتادة والسدي. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزول ألف سنة، والصعود ألف سنة.

﴿مِمَّا تَعْدُونَ﴾ أي: مما تحسبون من أيام الدنيا. وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدَّر بألف سنة من سني العالم، وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين؛ لأنَّ ذلك ليس عند الله. والعرب قد تعبر عن مدَّة العصر باليوم، كما قال الشاعر:

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٩٥.

(٢) الكشف ٣/ ٢٤١.

(٣) في تفسيره ١٨/ ٥٩٦، وقد أخرج قول ابن عباس بنحوه ١٨/ ٥٩٣، وأخرجه أيضاً عن مجاهد وقاتدة.

(٤) في الكشف ٣/ ٢٤٠، ويعني بالقول الأول قول يحيى بن سلام.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤.

يومان يومٌ مقاماتٍ وأنديّةً ويومٌ سيرٍ إلى الأعداء تأويب^(١)
وليس يريد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبر عن
كل واحد من الشطرين بيوم^(٢).

وقرأ ابن أبي عبلّة: «يُغْرَجُ» على البناء للمفعول. وقرئ: «يَعْدُونَ» بالياء^(٣).

فأما قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمُشْكِلٌ مع هذه الآية. وقد
سأل عبد الله بن فيروز الدبليّ عبد الله بن عباس عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿فِي
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: أيامٌ سمّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكره
أن أقول فيها مالا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال: لا أدري. فأخبرته بقول
ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل: هذا ابنُ عباس اتقى أن يقول فيها وهو أعلمُ
مني^(٤).

ثم تكلم العلماء في ذلك فقليل: إن آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو إشارة إلى يوم القيامة،
بخلاف هذه الآية، والمعنى: أن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين
ألف سنة؛ قاله ابن عباس^(٥). والعربُ تصِفُ أيامَ المكروه بالطول وأيامَ السرور
بالقصر؛ قال:

ويومٍ كظِلِّ الرَّمْحِ قَصُرَ طَوْلُهُ دُمُ الرِّقِّ عَنَّا واضْطَفَأُ الْمَزَاهِرِ^(٦)

(١) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص ٩٤، والخزانة ٢٧/٤. والكلام في النكت والعيون
٣٥٤/٤. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. وتأويب:
صفه سير، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

(٢) النكت والعيون ٣٥٤/٤.

(٣) الكشف ٢٤١/٣، ونسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٥٨/٤ قراءة: (يعدون) للأعمش والحسن
بخلاف عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١٠٨/٢. وقوله: فأخبرته بقول ابن عباس، القائل هو ابن أبي مليكة،
وهو الذي روى الخبر. وأخرجه بنحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٧-٢٢٨، والطبري ٢٣/٢٥٤،
والحاكم ٤/٦١٠.

(٥) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٣٩٩/٥.

(٦) قائله يزيد بن الطثري، كما في الحيوان ١٧٩/٦، والصحاح (صفق)، وجمهرة الأمثال ١٩/٢، =

وقيل: إنَّ يومَ القيامةِ فيه أيام، فمنه ما مقداره ألف سنة، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة^(١).

وقيل: أوقاتُ القيامةِ مختلفةٌ، فيعذبُ الكافرُ بجنسٍ من العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى جنسٍ آخر مدته خمسون ألف سنة.

وقيل: مواقفُ القيامةِ خمسون موقفاً، كلُّ موقفٍ ألف سنة. فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: مقدارُ وقتٍ أو موقفٍ من يومِ القيامة.

وقال النحاس^(٢): اليومُ في اللغة بمعنى الوقت، فالمعنى: تعرج الملائكةُ والروحُ إليه في وقتٍ كان مقداره ألف سنة، وفي وقتٍ آخر كان مقداره خمسين ألف سنة.

وعن وهب بن منبه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ما بين أسفل الأرض إلى العرش^(٣).

وذكر الثعلبي عن مجاهدٍ وقتادة والضحاك في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد: من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريلُ والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يومٍ واحدٍ من أيام الدنيا^(٤).

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ أراد أرض الشام.

= وثمار القلوب للثعالبي ص ٦٢٦، ومجمع الأمثال ٤٣٧/١ وأساس البلاغة (رمح). وذكره صاحب اللسان (صفق) وقال: قال ابن بري: نسب الجوهري هذا البيت ليزيد بن الطثرية، وصوابه لشبرقة بن الطفيل. اهـ. ويعني بدم الزق: الخمر، ووقع في ثمار القلوب: دم الدن.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٠٠/٥.

(٢) في معاني القرآن ٣٠٠/٥.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٢٩٩/٥.

(٤) ذكره عن مجاهد وقتادة البغوي ٤٩٧/٣-٤٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى المدينة.

وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «أتاني ملكٌ من ربي عزَّ وجلَّ برسالةٍ، ثم رَفَعَ رجله، فوضعها فوق السماء، والأخرى على الأرض لم يَرَفَعها بعد»^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عَلِيمٌ ما غاب عن الخلق وما حَصَرهم. و«ذَلِكَ» بمعنى أنا. حسبما تقدَّم بيانه في أول «البقرة»^(٢). وفي الكلام معنى التهديد والوعيد، أي: أَخْلَصُوا أفعالكم وأقوالكم، فإني أجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ^(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ^(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ^(٩)

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «خَلَقَهُ» بإسكان اللام. وفتحها الباقون^(٣)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسهولتها. وهو فعلٌ ماضٍ في موضعٍ خفضٍ نعتٍ لـ «شيء». والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أَخْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، أي: جاء به على ما أراد، لم يتغيَّر على إرادته. وقول آخر: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ حَسَنٌ؛ لأنه لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بمثله، وهو دالٌّ على خالقه^(٤).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٨٥)، وابن عدي في الكامل ١٣٩٢/٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٠/١: فيه صدقة بن عبد الله التنيسي، والأكثر على تضعيفه، ووثقه يحيى بن معين ودُحِّيم. اهـ وقال ابن عدي: أحاديث صدقة منها ما توبع عليه، وأكثره مما لا يتابع عليه، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق. اهـ وقد حسَّنه المناوي في فيض القدير ١٠٥/١.

(٢) ٢٤٢/١

(٣) السبعة ص ٥١٦، والتيسير ص ١٧٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٢/٣.

وَمَنْ أَسْكَنَ اللَّامَ فَهُوَ مُصَدَّرٌ عِنْدَ سِيبَوِيهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْتُ﴾ يَدُلُّ عَلَى: خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا، فَهُوَ مِثْلُ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨] و ﴿يَكْتُبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]^(١). وَعِنْدَ غَيْرِهِ مَنْصُوبٌ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ «كُلِّ» أَي: الَّذِي أَحْسَنَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ. وَهُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ عِنْدَ بَعْضِ النُّحَوِيِّينَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَعْنَى «أَحْسَنَ»: أَفْهَمَ وَأَعْلَمَ، فَيَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، أَي: أَفْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ^(٢).

وقيل: هو منصوبٌ على التفسير، والمعنى: أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا.

وقيل: هو منصوبٌ بِإِسْقَاطِ حَرْفِ الْجَرِّ، والمعنى: أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ فِي خَلْقِهِ، وَرَوَى مَعْنَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣).

و﴿أَحْسَنَ﴾ أَي: أَتَقَنَّ وَأَحْكَمَ، فَهُوَ حَسَنٌ^(٤) مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ لِمَقَاصِدِهِ الَّتِي أُرِيدَ لَهَا، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى [مَا] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ: لَيْسَتْ اسْتُ الْقَرْدُ بِحَسَنَةٍ، وَلَكِنَّهَا مَتَقَنَةٌ مُحْكَمَةٌ^(٥).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْتُ﴾ قَالَ: أَتَقَنَهُ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: ٥٠] أَي: لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ عَلَى خَلْقِ الْبَهِيمَةِ وَلَا خَلَقَ الْبَهِيمَةَ [عَلَى] خَلْقِ الْإِنْسَانِ^(٦).

(١) يَنْظُرُ الْكِتَابُ ١/ ٣٨١-٣٨٢، وَإِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٣/ ٢٩٢، وَمَشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٢/ ٥٦٧. قَالَ سِيبَوِيهِ: وَقَالَ: «كُتِبَ اللَّهُ» تَوْكِيدًا، كَمَا قَالَ: «صُنِعَ اللَّهُ»، وَكَذَلِكَ: «وَعَدَ اللَّهُ» [الرُّوم: ٥]؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي قَبْلَهُ وَغَدَ وَصُنِعَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ جَلَّ وَعَزَّ: وَغَدَا وَصُنِعَا وَخَلَقَا وَكِتَابًا. أَهـ. فَالْهَاءُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَعُودُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَ«خَلَقَهُ» مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ. الدَّر الْمَصُون ٩/ ٨٢.

(٢) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٣/ ٢٩٢.

(٣) ذَكَرَهُ النَّحَاسُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٥/ ٣٠١.

(٤) فِي (ظ) وَ (م): أَحْسَنَ، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ بَاقِي النُّسخِ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا فِي الْمَحْرَرِ الْوَجِيزِ ٤/ ٣٥٩، وَالْكَلَامُ مِنْهُ.

(٥) الْمَحْرَرِ الْوَجِيزِ ٤/ ٣٥٩، وَمَا سَلَفَ بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ. وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٨/ ٥٩٧ - ٥٩٨ مِنْ طَرِيقِ عِكْرَمَةَ عَنْهُ.

(٦) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٥/ ٣٠٠-٣٠١، وَمَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ. وَأَخْرَجَ قَوْلَ مُجَاهِدٍ الطَّبْرِيُّ ١٨/ ٥٩٨.

ويجوز: «خَلَقَهُ» بالرفع، على تقدير: ذلك خَلَقَهُ^(١).

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ؛ خصوصٌ في المعنى، والمعنى: حَسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ حَسَنَ.

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ والمعنى: أي: جعل كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ حسناً، حتى جَعَلَ الْكَلْبَ فِي خَلْقِهِ حسناً؛ قاله ابن عباس^(٢). وقال قتادة في استِ القرد: حسنة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ تقدّم في «المؤمنون»^(٤) وغيرها. وقال الزّجاج: ﴿مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾: ضعيف. وقال غيره: «مَّهِينٍ»: لا خَطَرَ له عند الناس^(٥).

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رَجَعَ إِلَى آدم، أي: سَوَّى خَلْقَهُ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، ثم رجع إلى ذَرَّتِهِ، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾.

وقيل: ثم جعل ذلك الماء المَّهِينَ خَلْقاً معتدلاً، ورَّكَّبَ فيه الروحَ، وأضافه إلى نَفْسِهِ تشريفاً، وأيضاً فإنه مِن فِعْلِهِ وَخَلْقِهِ، كما أضاف العبدُ إليه بقوله: «عَبْدِي». وعَبَّرَ عنه بالنفخ؛ لأنَّ الروحَ في جنس الريح. وقد مضى هذا مَبِيناً في «النساء»^(٦) وغيرها. ﴿فَلَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ثم أنتم لا تشكرون، بل تكفرون.

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٢٠٤/٤، وعنه النحاس في إعراب القرآن ٢٩٢/٣. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها.

(٢) النكت والعيون ٣٥٥/٤، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ١٧٢/٥، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣٠١/٥.

(٣) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق في التفسير ١٠٩/٢ عن قتادة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

(٤) ١٧/١٥ - ١٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٢/٣، وقول الزجاج في معاني القرآن ٢٠٥/٤.

(٦) ٢٣٢/٧.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا قول مُنْكَرِي البعث، أي: هَلَكْنَا وَبَطَلْنَا وَصِرْنَا تَرَابًا. وأصله من قول العرب: ضلَّ الماء في اللَّبْن: إذا ذهب. والعرب تقول للشيء غَلَبَ عليه غيره حتى خَفِيَ فيه أثره: قد ضلَّ، قال الأخطل:

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزِيدٍ قَذَفَ الْآتِيُّ بِهِ فَضْلًا ضَلَالًا^(١)

وقال قُطْرُب: معنى ضَلَلْنَا: غَبْنَا^(٢) في الأرض. وأنشد قولَ النابغة الذبياني:

فَأَبْ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وَغُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلٌ^(٣)

وقرأ ابن مُحِيصِن وَيحْيَى بْنُ يَعْمُرَ: «ضَلَلْنَا» بكسر اللَّام، وهي لغة^(٤). قال الجوهري^(٥): «وَقَدْ ضَلَلْتُ أَضِلُّ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾» [سبأ: ٥٠]. فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلَلْتُ» - بكسر اللام - أَضِلُّ. وهو ضالٌّ تالٌّ، وهي الضلالة والتلالة. وأضله، أي: أضاعه وأهلكه. يقال: أَضِلُّ الْمَيْتَ: إِذَا دُفِنَ؛ قَالَ: وَأَبْ^(٦) مُضِلُّوهُ، الْبَيْت.

(١) ديوان الأخطل ص ٥٠. وقوله: الْآتِيُّ، أي: السيل الغريب. القاموس (أنتى)، والكلام في تفسير الطبري ٦٠٢/١٨، والنكت والعيون ٣٥٦/٤.

(٢) في (د) و(ظ): أَغْبَا، وفي النكت والعيون ٣٥٦/٤ (والكلام منه): غُبِينَا.

(٣) النكت والعيون ٣٥٦/٤، والمحزر الوجيز ٣٦٠/٤، واللسان (ضلل). وهو في ديوانه ص ٩٠ برواية: مَضِلُّوهُ. وفي الجمهرة ٢٢٨/٣ برواية: مَضِلُّوهُم. قال ابن دريد: لأنهم كانوا نصارى، ويروي الكوفيون: مُضِلُّوهُ. أي: دافنوه. اهـ وقال صاحب اللسان: وقوله: بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ، أي: بخبر صادق أنه مات، والجولان: موضع بالشام. أي: دُفِنَ بِدُفْنِ النعمان الحزْم والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني، والبيت من قصيدة في رثائه.

(٤) القراءات الشاذة ص ١١٨ عن يحيى بن وثاب، وإعراب القرآن للنحاس ٢٩٣/٣ عن أبي رجاء وطلحة.

(٥) في الصحاح (ضلل).

(٦) في (م): فَأَبْ، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح.

ابن السكيت: أضللتُ بعيري: إذا ذهب منك. وضللت المسجد والدار: إذا لم تعرف موضعهما. وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى له. وفي الحديث: «لعلِّي أضلُّ الله»^(١) يريد: أضلُّ عنه، أي: أخفى عليه، من قوله تعالى: ﴿أَوَدَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خفيّا. وأضله الله فضلاً؛ تقول: إنك تهدي الضالَّ ولا تهدي المتضالَّ.

وقرأ الأعمش والحسن: «صللنا» بالصاد، أي: أنتنا. وهي قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢). النحاس: ولا يُعرف في اللغة: صللنا، ولكن [يُعرف صللنا] يقال: صلل اللحم وأصل، وخم وأخم: إذا أنتن^(٣). الجوهري: صلل اللحم يصل - بالكسر - ضلولاً، أي: أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً؛ قال الحطّية:

ذاك فتى يبذل ذا قدره لا يفسد اللحم لديه الضلول
وأصل مثله^(٤).

﴿إنا^(٥) لفي خلق جديد﴾ أي: نُخلق بعد ذلك خلقاً جديداً؟ ويُقرأ: ﴿أنا﴾^(٦). النحاس: وفي هذا سؤال صعب من العربية؛ يقال: ما العامل في «إذا»، و«إن» لا

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠١٢) من حديث معاوية بن حيدة عليه السلام في قصة الرجل الذي طلب أن يحرقوه بعد موته ثم يذروه، وقد سلف نحوه ٢٧٢/١٤ من حديث أبي هريرة.

(٢) المحتسب ١٧٣/٢، دون ذكر الأعمش، وزاد نسبتها لابن عباس وأبان بن سعيد بن العاص، وقال: قرأ أيضاً بالصاد - مفتوحة اللام - الحسن بخلاف. غير أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٦٠/٤، وأبا حيان في البحر المحيط ٢٠٠/٧ نسباً إليهم القراءة بفتح اللام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٣/٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٣٣١/٢. قال السمين في الدر المصون ٨٤/٩ - بعد أن ذكر قول النحاس -: وقد عرفها غير أبي جعفر. اهـ. وقال ابن جني في المحتسب ١٧٤/٢: صلل يصل، وصل يصل - بالفتح -، والكسر أقوى اللغتين.

(٤) الصحاح (صلل)، والبيت في شرح ديوان الحطّية ص ٧٧.

(٥) في (د) و(ظ): أننا، وهي قراءة على ما يأتي.

(٦) قرأ نافع والكسائي: «إنا». والباقون من السبعة بالاستفهام؛ كل على أصله. ينظر السبعة ص ٢٨٥-٢٨٦، والتيسير ص ١٣٢ - ١٣٣.

يعمل ما بعدها فيما قبلها؟ والسؤال في الاستفهام أشد؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر ألا يعمل فيما قبله من «إن»، كيف وقد اجتماعاً؟ فالجواب على قراءة من قرأ: «إننا»: أن العامل «ضللنا»، وعلى قراءة من قرأ: «أئنا» أن العامل مضمر، والتقدير: أنبئت إذا مثنا؟ وفيه أيضاً سؤال آخر، يقال: أين جواب «إذا» على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط؟ فالقول في ذلك أن بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جاز هذا^(١).

﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ أي: ليس لهم جحد قدرة الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(١١) فيه مسألان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث؛ ذكر توفيتهم وأنه يُعيدهم. ﴿يَتَوَفَّنَا﴾ من تَوَفَّى العدد والشيء: إذا استوفاه وقبضه جميعاً. يقال: تَوَفَّاه الله، أي: استوفى روحه ثم قبضه. وتَوَفَّيتُ مالي من فلان، أي: استوفيته.

﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ واسمه عزرائيل، ومعناه: عبد الله؛ كما تقدّم في «البقرة»^(٢). وتصرّفه كلّه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه. وروي في الحديث أن: «البهائم كلّها يتوفّى الله أرواحها دون ملك الموت» كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية^(٣).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٣/٤، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٢٠٥/٤.

(٢) ٢٦٥/٢. وتسمية ملك الموت بعزرائيل أمر اشتهر عند كثير من أهل التفسير، ولم ينقل في ذلك نص صحيح.

(٣) في المحرر الوجيز ٣٦٠/٤. والحديث أخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٣٢١/٤، وأبو الشيخ في العظمة (١٢٣٢)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٦٤٥) عن أنس ؓ. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وقال العقيلي: هذا الحديث لا أصل له.

قلت: وقد روي خلافه، وأنَّ مَلَكَ الموت يتوفى أرواحَ جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَكِ الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «ارْزُقْ بصاحبي فإنه مؤمن» فقال مَلَكُ الموت عليه السلام: «يا محمد، طِبَّ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا، فَإِنِّي بَكْلٌ مُؤْمِنٌ رَفِيقٌ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مَدْرٍ وَلَا شَعْرٍ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا وَأَنَا أَتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، حَتَّى لَأَنَا أَغْرَفُ بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ. وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ مَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الْآمِرُ بِقَبْضِهَا». قال جعفر بن علي: بلغني أنه يتصفَّحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماوردي^(١).

وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال: حدَّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلَّال قال: حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصَّفَّار قال: حدَّثنا أبو بكر حامد المصري قال: حدَّثنا يحيى بنُ أيوب العَلَّاف قال: حدَّثنا سليمان ابن مُهَيْر الكلابي قال: حضرتُ مالك بن أنس رضي الله عنه فأتاه رجلٌ فسأله: أبا عبد الله، البراغيثُ؛ أملكُ الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطرقَ مالك طويلاً ثم قال: أَلَهَا أَنْفُسٌ؟ قال: نعم! قال: مَلَكُ الموت يقبض أرواحها؛ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

قال ابن عطية بعد ذكره الحديث^(٢): وكذلك الأمرُ في بني آدم، إلَّا أنه نوعٌ شَرَفٌ

(١) في النكت والعيون ٣٧٥/٤، وجعفر بن علي هو جعفر بن محمد بن علي راوي الخبر، وقد أخرجه هكذا منقطعاً أبو الشيخ في العظمة (٤٧٥)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٢٥٤)، والبخاري (٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبي ﷺ. وفي إسناده عمرو بن شعور، قال الحافظ في الإصابة ٩٣/٣: متروك الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٣٦٠/٤، ويعني بالحديث حديث أنس السالف: «البهائم كلها يتوفى الله أرواحها...».

بتصرفِ مَلَكٍ وملائكةٍ معه في قبضِ أرواحهم.

فَخَلَقَ اللهُ تعالى مَلَكَ الموت، وَخَلَقَ على يديه قَبْضَ الأرواح واستِلاَها من الجِسام وإِخراجها منها، وَخَلَقَ اللهُ تعالى جنَداً يكونون معه يعملون عَمَلَهُ بأمره، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّيْتَهُمْ رَسُولًا﴾ [الأنعام: ٦١] وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»^(١). والبارئُ خالقُ الكلِّ، الفاعِلُ حقيقةً لكلِّ فِعْلٍ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فمَلَكُ الموت يقبض، والأعوانُ يعالجون، والله تعالى يُزهِقُ الروح. وهذا هو الجمعُ بين الآيِ والأحاديث، لكنه لَمَّا كان مَلَكُ الموت متولِّي ذلك بالوساطة والمباشرة، أُضيف التوفيُّ إليه كما أُضيف الخَلْقُ للمَلَك، كما تقدَّم في «الحج»^(٢).

ورُوي عن مجاهدٍ: أَنَّ الدنيا بين يدي مَلَكِ الموت كالطَّسْتِ بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء^(٣). وقد رويَ هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»^(٤). ورويَ أَنَّ مَلَكَ الموت لَمَّا وَكَّلَهُ اللهُ تعالى بِقَبْضِ الأرواح قال: رَبِّ جعلتني أذكر بسوءٍ ويشتمني بنو آدم. فقال اللهُ تعالى له: «إني أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام يَنْسِبُونَ الموتَ إليها فلا يذكرك أحدٌ إلَّا بخير». وقد

(١) ٤١٠/٨.

(٢) ٣١٥/١٤ - ٣١٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٠٩، والطبري ١٨/٦٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٣٥) و(٤٣٦).

(٤) ص ٩٣، وذكر المصنف في هذا المعنى حديثاً عن ابن عباس في قصة الإسراء، ولم تقف عليه عند غير المصنف، وأخرج ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/١٧٢ عن زهير بن محمد عن النبي ﷺ مثل خبر مجاهد، وهو منقطع.

ذكرناه في «التذكرة» مستوفى^(١) - وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيبه ويقبضها، ثم يُسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب - بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك^(٢).

الثانية: استدلل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وَكُلَّ بِكُمْ﴾ أي: بقبض الأرواح. قال ابن العربي^(٣): وهذا أخذ من لفظه لا من معناه، ولو اطرّد ذلك لقلنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]: إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى، ووكالة في تبليغ رسالته، وقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾: إنه وكالة؛ فإن الله تعالى ضَمِنَ الرِّزْقَ لكل دابةٍ، وخصّ الأغنياء بالأغذية، وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقدراً^(٤) معلوماً في وقت معلوم، دبره بعلمه، وأنفذه من حكمه، وقدره بحكمته. والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تُعَلّقَ عليها. ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] ولا يقال: هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده؛ لأنّ المقصدين مختلفان.

أما إنه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال^(٥): إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحقّ ممّن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

(١) ص ٧٠، وأخرج نحوه أبو الشيخ في العظمة (٤٣٩) عن جابر بن زيد قوله.

(٢) ينظر التذكرة ص ١١٩ وما بعدها، وذكر فيه المصنف حديث البراء رضي الله عنه، وقد سلف تخريجه ٢١٨/٩ و ٣٨٧/١٤.

(٣) في أحكام القرآن ١٤٨٨/٣ - ١٤٨٥.

(٤) في (خ) و(م): مقداراً، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) العبارة في أحكام القرآن: أما إنه إذا لم يكن بدّ من التسوّر على المعاني، ودفع الجهل عنها في غير موضعها، والإعراض عن المقاصد في ذلك فيقال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِذْنَا نَعْمَلًا صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداءً وخبر. قال الزجاج^(١): والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب. ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى: يا محمد، قل للمجرم: ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك^(٢).

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ أي: من الندم والخزي والحزن والذل والغم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم. ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ربنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أي: أبصرنا ما كنا نكذب ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنا نُنكر. وقيل: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ تصديق رُسلك، أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع.

﴿فَاتَّخِذْنَا﴾ أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلًا صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش. وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوري: فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]^(٣).

وقيل: معنى «إِنَّا مُوقِنُونَ» أي: قد زالت عنا الشكوك الآن، وكانوا يسمعون ويُبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبرون، وكانوا كَمَن لا يُبصر ولا يسمع، فلما تبَّهوا في الآخرة صاروا حيثئذ كأنهم سمعوا وأبصروا.

وقيل: أي: ربنا لك الحجة، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا،

(١) في معاني القرآن ٢٠٦/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢٩٤/٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٤/٣، وأبو العباس هو محمد بن يزيد المبرّد.

(٣) ذكر هذه الأقوال المأودري في النكت والعيون ٣٥٩/٤.

وسمعنا كلامهم، فلا حجة لنا. فهذا اعتراف منهم، ثم طلبوا أن يُردُّوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣)

قال محمد بن كعب القرظي: لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ يقول: لو شئتُ لهديتُ الناسَ جميعاً فلم يختلِف منهم أحدٌ ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ الآية. ذكره ابن المبارك في «رقائقه» في حديث طويل. وقد ذكرناه في «التذكرة»^(١).

النحَّاس^(٢): ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنه في الدنيا. والآخر: أن سياق الكلام يدلُّ على أنه في الآخرة، أي: لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: حقَّ القولُ مِنِّي لأعذبَنَّ مَنْ عصاني بنارِ جهنَّم. وعَلِمَ الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردَّهم لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهذه الهداية معناها خَلَقُ المعرفة في القلب. وتأويلُ المعتزلة: ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة، لكن لا يَحْسُنُ منه فِعْلُهُ؛ لأنه يَنْقُضُ الغرضَ المُجْرَى بالتكليف إليه، وهو الثواب الذي لا يُسْتَحَقُّ إِلَّا بما يفعله المكلف باختياره^(٣).

(١) ص ٤١٧، وقد ذكره المصنف فيه بتمامه، وورد بعضه في الزهد لابن المبارك ص ٩١ (زوائد نعيم) وسقط معظمه بسبب سقط ورقة من الأصل كما ذكر محققه. وأخرجه من طريق ابن المبارك الطبري . ١١٩/١٧

(٢) في إعراب القرآن ٢٩٤/٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) قاله الزمخشري في الكشاف ٢٤٢/٣.

وقالت الإمامية في تأويلها^(١): إنه يجوز أن يريد هُداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكنَّ حقَّ القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكلِّ إليها، قالوا: بل الواجب هداية المعصومين، فأما من له ذنبٌ فجائزٌ هدايته إلى النار جزاءً على أفعاله.

وفي جواز ذلك منعٌ؛ لقطعهم على أن المراد: هُداها إلى الإيمان.

وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين. وأقرب ما لهم في الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار^(٢)، والإكراه، فصار يؤدِّي ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب رذلٌ عندنا وعندكم، فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هُداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصحَّ التكليف، فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً؛ قال الله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]. ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، والتكوير: ٢٩]. فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم، ونفى أن يشاؤوا إلا أن يشاء الله، ولهذا أفرطت^(٣) المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق^(٤) بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخلقُ مجبورون في طاعتهم كلَّها، التفاتاً إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ بمشيئة العباد، فقالوا: الخلقُ خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

(١) الكلام من هذا الموضع حتى آخر تفسير الآية من حز الغلاصم لشيخ بن إبراهيم ص ٨٦ - ٨٨.

(٢) في حز الغلاصم: على طريق الإلجاء؛ لأن الإلجاء هو الإجبار...

(٣) في النسخ: فرطت، والمثبت من حز الغلاصم.

(٤) في (ط): أن هدايتهم مقرونة.

ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد، وهو مذهب بين مذهبي المُجبِرة والقدرية، وخيرُ الأمور أوساطُها. وذلك أنَّ أهل الحق قالوا: نحن نفرِّق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، وهو أنَّنا نُدركُ تفرُّقَ بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير مُحاولته وإرادته ولا مقرونة بقُدْرته، وبين حركة الاختيار إذا حرَّك يده حركةً مماثلةً لحركة الارتعاش. ومن لا يفرِّق بين الحركتين: حركة الارتعاش وحركة الاختيار - وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته - فهو معتوً في عقله، ومختلٌّ في حسِّه، وخارجٌ من جُزْب العقلاء. وهذا هو الحقُّ المُبين، وهو طريقٌ بين طريقي الإفراط والتفريط، و:

كَلَّا طَرَفَيْ قَضِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ^(١)

وبهذا الاعتبار اختارَ أهلُ النَّظر من العلماء أن سَمَّوا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْباً^(٢)، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من النسيان الذي لا ذِكرَ معه، أي: لم يعملوا لهذا اليوم، فكانوا بمنزلة النَّاسِين. والآخر: أنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى^(٣) تركتم، وكذا ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾؛ واحتجَّ محمد بنُ يزيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] قال: والدليلُ على

(١) سلف ٢٢٩/٧ عن الإمام حَمْد بن محمد الخطابي، وصدّره: ولا تَغُلْ في شيءٍ من الأمر واقتَصِدْ. وإنما ضَمَّنَه الخطابي في شعره، كما ذكر البغدادي في الخزانة ١٢٢/٢ - ١٢٣، حيث ذكر صدره برواية ثانية وقرن به بيتاً آخر وقال: وكلّهُ بالمصارع الثلاثة صاحب العباب في شرح أبيات الآداب (وهو حسن بن صالح العدوي اليمني) وقال البغدادي: ولا أعلم قائل هذين البيتين، ولا رأيتُهما إلا في كتاب العباب.

(٢) مذهب الأشاعرة في مسألة الكسب يؤول إلى سلب الإرادة عن العبد والوقوع في مذهب المجبرة.

(٣) في النسخ: بما، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢٩٤/٣، والكلام منه.

أَنَّهُ بِمَعْنَى تَرَكَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ عَنْ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَا تَهَنُّكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكَّره، وأنشد: كأنه خارجاً من جنبٍ صفحته سَقُودُ شَرِبِ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدٍ^(١) أي: تركوه. ولو كان من النسيان لكانوا^(٢) قد عملوا به مرّة.

قال الضحّاك: «نَسِيتُمْ» أي: تركتُم أمري. يحيى بن سلام: أي: تركتُم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نَسِيتُكُمْ﴾: تركناكم من الخير؛ قاله السُّدِّي. مجاهد: تركناكم في العذاب^(٣).

وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِيتُكُمْ﴾ وبناء الفعل على «إِنَّ» واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا، أي: ما أنتم فيه من نكسِ الرؤوس والخزي والعَمِّ بسبب نسيان الله. أو: ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبر بالدُّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً؛ لإحساسها به كإحساسها بذوقِ المطعوم؛ قال عمر بن أبي ربيعة^(٤):

فَذُقْ هَجْرَهَا إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ رَشَادُ^(٥) أَلَا يَا رَبِّمَا كَذَبَ الرَّغْمُ

(١) البيت للناطقة الذبياني، وهو في ديوانه ص ٣٢، والخزانة ١٨٥/٣ وفيه: الهاء في «كأنه» عائدة على قرن ثور مذكور قبلاً، وخارجاً حال من الهاء، والضمير في صفحته عائد على كلب مذكور قبلاً، والسُّقُود خبر كان، وهي الحديدية التي يشوى بها الكباب، شبه قرن الثور النافذ من الكلب عندما ضربه به بسُقُود فيه شواء. والمفتأد المشتوى والمطبخ، وهو محل القأد، وهو الطبخ والنضج.

(٢) في النسخ: لكان، والمثبت من إعراب القرآن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٣٦٠/٤.

(٤) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٣٦٠/٤، والكلام منه، والذي في المصادر أنه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص ٢٣٦، وأما القالي ٢٠/٢، والأغاني ١٥٠/٩، ومصارع العشاق ٣٢١/١، واللسان (زعم)، والخزانة ١٣٣/٩.

(٥) في النسخ: أنها فساد، والمثبت من النكت والعيون، وهو موافق للمصادر.

الجوهري^(١): وَدُقْتُ ما عند فلان، أي: خَبِرْتُه. وَدُقْتُ الْقَوْسَ: إذا جَذَبْتَ وَتَرَهَا لَتَنْظُرَ ما شِدَّتْهَا. وأذاقه الله وَبَالَ أمره؛ قال طُفيل:

فَذُوقُوا كَمَا دُقْنَا عَدَاةَ مُحَجَّرٍ من الغيظ في أكبادنا والتَّحَوُّبِ^(٢)
وتذوّقته، أي: دُقُّهُ شيئاً بعد شيء. وأمرٌ مُسْتَذَاقٌ، أي: مجرَّبٌ معلوم؛ قال الشاعر:

وعهد الغانيات كعهد قَيْنٍ وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتَذَاقِ^(٣)
والذَّوَّاق: المَلُول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥)

هذه تسليّة للنبي ﷺ، أي: إِنَّهُمْ لَأَلْفَهُم الكفر لا يؤمنون بك، إِنَّمَا يُؤْمِنُ بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به، وهم الذين إذا قُرئ عليهم القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: رُكْعاً - قال المهدوي: وهذا على مذهب مَنْ يرى الركوع عند قراءة السجدة - واستدلّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابٌ﴾ [ص: ٢٤]^(٤).

وقيل: المراد به السُّجود، وعليه أكثر العلماء، أي: خَرُّوا سُجَّدًا لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خَلَطُوا التسبيح بالحمد، أي: نَزَّهوه وَحَمِدوه، فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربِّي الأعلى وبحمده، أي: تنزيهاً

(١) في الصحاح (ذوق).

(٢) سلف ٢٣/٦، وطفيل هو ابن عوف الغنوي.

(٣) قائله نهشل بن حَرْي، كما في الحيوان ٣٠/٥، وأمالى المرتضى ٢٢٧/٢، وتهذيب اللغة ٢٦٣/٩، وأساس البلاغة (ذوق)، ومنتهى الطلب ١٧/٨، واللسان (ذوق). قال المرتضى: القين: الحداد، والجعائل جمع جعالة، وهي أجرته، أراد: أن القين إذا عدم الجعالة؛ رحل ولم يستقر في مكان.

(٤) ذكر خبر ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٦١/٤.

لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صَلَّوْا حَمْدًا لربهم. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته؛ قاله يحيى بن سلام. النقاش: لا يَسْتَكْبِرُونَ كما استَكْبَر أهل مكة عن السجود^(١).

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتنبؤ عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضع نصبٍ على الحال، أي: مُتَجَافِيَةً جُنُوبُهُمْ. والمضاجع جمعُ مَضْجَع، وهي مواضع النوم. ويَحْتَمِلُ: عن وقت الاضطجاع، ولكنه مجازٌ، والحقيقة أولى. ومنه قولُ عبد الله بن رَوَاحَة:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه إذا انشَقَّ معروفٌ من الصبحِ ساطِعُ
يبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عن فراشه إذا استنقلتُ بالمشرِكين المَضَاجِعُ^(٢)

قال الزجَّاج والرُّمَّانِي: التَّجَافَى: التَّنَحَّى إلى جهةٍ فوق. وكذلك هو في الصَّفْح عن المخطئ في سَبِّ ونحوه. والجُنُوبُ جمعُ جَنْبٍ^(٣).

وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان: أحدهما: لذكر الله تعالى، إمَّا في صلاة، وإمَّا في غير صلاة؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثاني: للصلاة^(٤).

وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال:

(١) النكت والعيون ٣٦١/٤.

(٢) سلف البيتان ٣٤٦/٦ باختلاف يسير في البيت الأول، وهما بهذه الرواية في صحيح البخاري (١١٥٥) حيث أخرج من طريق الهيثم بن أبي سنان: أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه - وهو يَقْصُصُ في قَصَصِهِ - وهو يذكر رسول الله ﷺ: إِنَّ أَخَا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّقَّتْ. يعني بذلك عبد الله بن رَوَاحَة، ثم ذكر ثلاثة أبيات منها هذان البيتان.

(٣) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤، وقول الزجَّاج بنحوه في معاني القرآن ٢٠٧/٤.

(٤) النكت والعيون ٣٦١/٤ - ٣٦٢، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ٦١٢/١٨ - ٦١٣.

أحدها: التَّنْفُلُ بالليل؛ قاله الجمهور من المفسرين، وعليه أكثرُ الناس، وهو الذي فيه المدح^(١)، وهو قول مجاهد والأوزاعي ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم^(٢). ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنَّهم جُوزُوا على ما أُخْفُوا بما خَفِيَ، والله أعلم. وسيأتي بيانه.

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة؛ منها حديث معاذ بن جبل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»، والقاضي إسماعيل بن إسحاق، وأبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح^(٣).

الثاني: صلاةُ العشاء التي يقال لها: العتمة؛ قاله الحسن وعطاء^(٤). وفي الترمذي عن أنس بن مالك: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ نَزَلَتْ فِي أَنْتَظَارِ الصَّلَاةِ الَّتِي تُدْعَى: الْعَتَمَةُ، قال: هذا حديث حسن [صحيح] غريب^(٥).

الثالث: التَّنْفُلُ ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادة وعكرمة^(٦). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ^(٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء.

(١) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٢) النكت والعيون ٣٦٣/٤، وأخرجه عن الحسن أبو داود (١٣٢١)، وعبد الرزاق في التفسير ١١٠/٢، والطبري ٦١٢/١٨ عنه وعن مجاهد.

(٣) سنن الترمذي (٢٦١٦)، ومسند الطيالسي (٥٦٠)، وهو عند أحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) النكت والعيون ٣٦٣/٤.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ٤٢٩/١، وتحفة الأحوذى ٥٥/٩.

(٦) النكت والعيون ٣٦٣/٤.

(٧) في سننه (١٣٢١)، وأخرجه الطبري ٦٠٩/١٨ - ٦١١.

الرابع: قال الضحاك: تَجَافِي الْجَنْبِ: هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدرداء وعبادة^(١).

قلت: وهذا قول حسن، وهو يجمع الأقوال بالمعنى، وذلك أن مُنْتَظَرَ العشاء - إلى أن يصليها - في صلاة وذكر لله جلّ وعزّ، كما قال النبي ﷺ: «لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة»^(٢). وقال أنس: المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يؤخّرها إلى نحو ثلث الليل، قال ابن عطية^(٣): وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً شاقاً.

ومصلي الصبح في جماعة لاسيما في أول الوقت كما كان عليه الصلاة والسلام يصليها. والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت، يقوم سحراً يتوضأ ويصلي ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر. فقد حصل التجافي أول الليل وآخره. يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله»^(٤). ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث: «من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان له قيام ليلة»^(٥). وقد مضى في سورة النور عن كعب فيمن صلى بعد العشاء الآخرة

(١) ذكره عن الضحاك ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، وعن أبي الدرداء وعبادة الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، والبخاري ٣/ ٥٠٠. قال ابن عطية: وهذا قول حسن يساعده لفظ الآية.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ؓ أخرجه البخاري (٦٤٧).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، وما قبله منه، وخبر أنس ؓ سلف بنحوه قريباً. وأحاديث تأخير النبي ﷺ لصلاة العشاء سلفت ٢/ ٤٥٢.

(٤) صحيح مسلم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠ - ١٨١، و١٥/ ٣٣٧.

(٥) سنن الترمذي (٢٢١)، وسنن أبي داود (٥٥٥)، وسلف ٤/ ١٨١.

أربع ركعات كنَّ له بمنزلة ليلة القدر^(١).

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال: حدَّثني محمد بن الحجاج - أو ابن أبي الحجاج - أنه سمع عبد الكريم يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَكَعَ عَشْرَ رَكَعَاتٍ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ». فقال له عمر بن الخطاب: إِذَا تَكَثَّرَ قُصُورُنَا وَيَبُوتُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٢) وأفضلُ أو قال: «أَظْيَبُ»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صلاةُ الأوَّابين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى يثوبَ الناس إلى الصلاة^(٤).

وكان عبد الله بن مسعود يصلِّي في تلك الساعة ويقول: [نَعْمَ] صلاةُ الغفلة بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك^(٥).

ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ جَفَّتْ جَنْبَاهُ عَنِ الْمَصَاجِعِ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ؛ بُنِيَ لَهُ قَصْرَانِ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةَ عَامٍ، وَفِيهِمَا مِنْ

(١) ينظر ٣٣٧/١٥ - ٣٣٨.

(٢) في (د) و(م): أكبر.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٢٦٤) دون قوله: أو ابن أبي الحجاج، وعبد الكريم هو ابن الحارث، وهذا إسناد منقطع. كما أن محمد بن الحجاج اللخمي قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: هو وضع حديث الهريسة. وقال الدارقطني: كذاب. الميزان ٥٠٩/٣.

(٤) الزهد لابن المبارك (١٢٦٠)، وفي إسناده موسى بن عبيدة بن نسيط، قال عنه الحافظ في التقریب: ضعيف.

(٥) في الزهد (١٢٦١)، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٤٧٢٥)، والطبراني في الكبير (٩٤٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٣٠: فيه جابر الجعفي، وفيه كلام كثير. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقریب: ضعيف. وأخرجه الطبراني (٩٤٤٩) بإسناد آخر عن ابن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٣٠: فيه ليث بن أبي سليم، وفيه كلام. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقریب: صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك.

الشجر ما لو نَزَّلَهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَأَوْسَعْتَهُمْ فَاكْهَةً^(١). وهي صلاةُ الأوابين وغَفْلَةُ الغافلين، وإنَّ من الدعاءِ المستجابِ الذي لا يُرَدُّ الدعاءُ بين المغرب والعشاء.

فصل في فضل التَّجَافِي: ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: ستعلمون اليومَ مَنْ أصحابُ الْكَرَمِ؛ لِيَقْمَ الْحَامِدُونَ لله على كلِّ حال. فيقومون فيُسْرَحُونَ إلى الجنة. ثم ينادي ثانية: ستعلمون اليومَ مَنْ أصحابُ الْكَرَمِ؛ لِيَقْمَ الَّذِينَ كَانَتْ جَنُوبُهُمْ تَتَجَافَى عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قال: فيقومون فيُسْرَحُونَ إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثة: ستعلمون اليومَ مَنْ أصحابُ الْكَرَمِ؛ لِيَقْمَ الَّذِينَ كَانُوا ﴿لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِنَّهُمْ الزَّكَاةُ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، فيقومون فيُسْرَحُونَ إلى الجنة^(٢).

ذكره الثعلبي مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد: قال النبي ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَاءَ مَنَادٍ فَنَادَى بِصَوْتٍ تَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ: سَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ الْيَوْمَ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ، لِيَقْمَ الَّذِينَ كَانَتْ تَتَجَافَى جَنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ. فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانية: ستعلمون اليومَ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ؛ لِيَقْمَ الَّذِينَ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. فيقومون، ثم ينادي الثالثة: ستعلمون اليومَ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ؛ لِيَقْمَ الْحَامِدُونَ لله على كلِّ حال في السَّراءِ والضَّراءِ. فيقومون وهم قليل، فيُسْرَحُونَ جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسبُ سائرُ النَّاسِ»^(٣).

(١) لم نقف عليه.

(٢) الزهد (٣٥٣ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١١٢٢)، وحسن إسناده الحافظ في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد به. وعبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب به. وأبان متروك، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩ من طريق عبد الله بن =

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي العلاء بن الشَّخِير، عن أبي ذر قال: ثلاثة يَضْحَكُ الله إليهم وَيَسْتَبْشِرُ الله بهم: رجلٌ قام من الليل وترك فراشه ودِفْئَه، ثم توضَّأ فأَحْسَنَ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فيقولُ الله لملائكته: ما حَمَلَ عَبدِي على ما صَنَعَ؟ فيقولون: رَبَّنَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا. فيقول: أنا أعلمُ به ولكن أخبروني. فيقولون: رَجِيَّتَهُ شَيْئاً فَرَجَاهُ، وَخَوْفَتَهُ فَخَافَهُ. فيقول: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قد أَمَّنْتُه مما خاف، وَأَوْجَبْتُ له ما رَجَاهُ. قال: ورجلٌ كان في سَرِيَّةٍ فلَقِيَ العدوَّ، فانهزم أصحابه وَثَبَّتَ هو حتى يُقْتَلَ أو يَفْتَحَ الله عليهم، فيقولُ الله لملائكته مثلَ هذه القصة. ورجل سَرَى في ليلةٍ، حتى إذا كان في آخِرِ الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلي، فيقولُ الله لملائكته...» وذكر القصة^(١).

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في موضع نصبٍ على الحال، أي: داعين. وَيَحْتَمِلُ أن تكون صفةٌ مُستأنفةٌ، أي: تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كلِّ حالٍ يدعون رَبَّهُمْ لَيْلَهُمْ ونهارَهُمْ^(٢). و﴿خَوْفاً﴾ مفعولٌ من أَجْلِهِ. ويجوز أن يكون مصدراً. ﴿وَطَمَعاً﴾ مثله، أي: خوفاً من العذاب، وطمعاً في الثواب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تكون «ما» بمعنى الذي، وتكونُ مصدرًا، وفي كِلَا الوجهين يجب أن تكون منفصلةً من «مِنْ»^(٣).

= عطاء عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المزي في تهذيب الكمال ٣١٢/١٥.

(١) الزهد لابن المبارك (١٢١٢). وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٢) عن معمر، عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء به. وأخرجه بنحوه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ؓ كما في مجمع الزوائد ٢٥٥/٢. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٥/٣. و«ما» في هذا الموضع موصولة بـ«مِنْ» في رسم المصحف، وذكر أبو عمرو الداني في المقنع ص ٦٩: أن «مِنْ ما» مقطوعة في ثلاثة مواضع: الآية (٢٥) من سورة النساء، والآية (٢٨) من سورة الروم، والآية (١٠) من سورة المنافقين.

و«يُنْفِقُونَ» قيل: معناه الزكاة المفروضة. وقيل: النوافل، وهذا القول أمدح^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧)

قرأ حمزة: ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُم﴾ بإسكان الياء. وفتحتها الباقون^(٢). وفي قراءة عبد الله: «ما نُخْفِي» بالنون مضمومة^(٣). وروى المفضل عن الأعمش: «ما يُخْفَى لَهُم» بالياء المضمومة وفتح الفاء^(٤). وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: «مِنْ قُرَّاتٍ أَعْيُنٍ»^(٥).

فَمَنْ أَسْكَنَ الياء مِنْ قوله: «ما أُخْفِيَ» فهو مستقبل، وألفه ألف المتكلم، و«ما» في موضع نصب بـ «أخفي» وهي استفهام، والجملة في موضع نصب؛ لوقوعها موقع المفعولين^(٦)، والضمير العائد على «ما» محذوف^(٧).

وَمَنْ فَتَحَ الياء فهو فعل ماضٍ مبني للمفعول، و«ما» في موضع رفع بالابتداء، والخبر «أخفي» وما بعده، والضمير في «أخفي» عائد على «ما»^(٨).

قال الزجاج: ويُقرأ: «ما أُخْفَى لَهُم»، بمعنى: ما أُخْفَى الله لهم^(٩). وهي قراءة

(١) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٢) السبعة ص ٥١٦، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) القراءات الشاذة ص ١١٨.

(٤) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٥) المحتسب ١٧٤/٢.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٥٦٨/٢، والكشف عن وجوه القراءات ١٩٣/٢ - ١٩٤.

(٧) وهذا إذا جعلنا «ما» موصولة بمعنى الذي، فـ «ما» يجوز أن تكون استفهامية كما سلف، ويجوز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: أخفيه، وتكون «ما» في موضع نصب بـ «تعلم». مشكل إعراب القرآن ٥٦٨/٢ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٣٦٢/٤، والدر المصون ٨٧/٩ - ٨٨.

(٨) ويجوز في «ما» الوجهان على هذه القراءة أيضاً، فإن كانت استفهامية فهي في موضع رفع بالابتداء، وإن كانت موصولة فهي في موضع نصب بـ «تعلم»، والعائد هو الضمير المرفوع في «أخفي». ينظر مشكل إعراب القرآن ٥٦٨/٢ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٢٠٨/٤.

محمد بن كعب^(١)، و«ما» في موضع نصب.

المهدوي^(٢): وَمَنْ قرأ: «قُرَّاتُ أعين» فهو جمعُ قُرَّة، وَحَسَنَ الجمعُ فيه لإضافته إلى جمع، والإفرادُ لأنه مصدر، وهو اسمٌ للجنس.

وقال أبو بكر الأنباري^(٣): وهذا غيرُ مخالفٍ للمصحف؛ لأنَّ تاء «قُرَّة» تكتبُ تاءً على لغةٍ مَنْ يُجري الوصلَ على الوقف، كما كتبوا: «رحمت الله» بالتاء. ولا يُستنكر سقوطُ الألفِ من «قُرَّات» في الخطِّ، وهو موجودٌ في اللَّفظ، كما لم يُستنكر سقوطُ الألفِ من السماوات، وهي ثابتةٌ في اللسان والنُّطق.

والمعنى المرادُ: أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تَعْلَمْهُ نفسٌ ولا بشرٌ ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآية قال النبي ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشرٍ» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. خرَّجه الصَّحيح من حديث سهل بن سعد الساعدي^(٢).

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشرٍ^(٣). وقال ابن عباس: الأمرُ في هذا أجلُّ وأعظمُ من أن يُعرف تفسيره^(٤).

قلت: وهذه الكرامةُ إنما هي لأعلى أهلِ الجنة منزلاً، كما جاء مبيناً في «صحيح» مسلم^(٥) عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى

(١) المحرر الوجيز ٣٦٢/٤.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٢٥)، وهو عند أحمد (٢٢٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١١٢/١٣، والطبري ٦١٧/١٨.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤٥٣/٣.

(٥) برقم (١٨٩): (٣١٢).

عليه السلام رَبِّهِ فَقَالَ: يَا رَبِّ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَأْتِي بَعْدَمَا يُدْخَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فيقال له: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فيقول: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَحْذَاتِهِمْ؟ فيقال له: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مُلْكٍ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا؟ فيقول: رَضِيْتُ رَبِّ! فيقول: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ^(١)، فقال في الخامسة: رَضِيْتُ رَبِّ! فيقال: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَيْتَ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فيقول: رَضِيْتُ رَبِّ! قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أَذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. قَالَ: «وَمُضِدَّافُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾». وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْمَغِيرَةِ مَوْقُوفًا قَوْلُهُ^(٢).

وخرَّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلَّهَ مَا أَطْلَعَكُمْ [اللَّهُ] عَلَيْهِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٣).

وقال ابن سيرين: المرادُ به: النظرُ إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أَخْفَى الْقَوْمُ أَعْمَالًا، فَأَخْفَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ^(٤).

(١) في (ظ): «ومثله معه». في المواضع الأربعة.

(٢) صحيح مسلم (١٨٩): (٣١٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٤): (٤) وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (١٠٠١٧)، والبخاري (٤٧٨٠).

قوله: بَلَّهَ، هو من أسماء الأفعال، بمعنى: دَعَّ وَاتَرَكَ. والمعنى: دَعَّ عَنْكَ مَا أَطْلَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. ينظر النهاية (بله)، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٦٦/١٧.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٣٦٤/٤.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي: ليس المؤمن كالفاسق؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم. قال ابن عباس وعطاء ابن يسار: نزلت الآية في علي بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط، وذلك أنهما تَلَاَحِيَا، فقال له الوليد: أنا أَبْسَطُ منك لساناً، وأَحَدُ سِنَاناً، وأَرَدُ للكتيبة، وروي: وأَمْلَأُ في الكتيبة جسداً. فقال له علي: اسكت! فإنك فاسق، فنزلت الآية^(١).

وذكر الزَّجَّاج والنَّحَّاس أنها نزلت في علي وعُقبة بن أبي مُعَيْط؛ قال ابن عطية^(٢): وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية؛ لأنَّ عُقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَفَ رسولِ الله ﷺ من بدر. ويُعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد. وذلك يَحْتَمِلُ أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه، أو لِمَا رَوِي من نَقْلِهِ عن بني المُضْطَلِق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي فَتَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] على ما يأتي في «الحُجَرَات» بيانه، وَيَحْتَمِلُ أن تُطْلَقَ الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرفٍ مِمَّا يَتَّقَى^(٣)، وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان ؓ، وصلى الصبح بالناس ثم التفت وقال: أتريدون أن أزيدكم^(٤)، ونحو هذا ممَّا يطول ذِكرُهُ.

(١) أخرجه عن ابن عباس أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣)، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٦٧-٣٦٨. وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٧٩/٢ - ٥٨٠ دون تسمية علي ؓ والوليد. وأخرجه عن عطاء الطبري ٦٢٥/١٨.

(٢) في المحرر الوجيز ٣٦٣/٤، وما قبله منه. وقول الزججاج في معاني القرآن ٢٠٨/٤، أما النحاس فالذي ذكره في إعراب القرآن ٢٩٦/٣، وفي معاني القرآن ٣٠٧/٥: الوليد بن عُقبة بن أبي معيط، وليس عُقبة بن أبي معيط.

(٣) في (د): نبغي، وفي (م) ومطبوع المحرر الوجيز: يبغي، ولم تجود في (خ)، وسقط هذا الموضع من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٠٧)، وأحمد (٦٢٤) و(١٢٣٠).

الثانية: لَمَّا قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسَّقهم بالكفر - لأنَّ التكذيب في آخر الآية يقتضي ذلك^(١) - اقتضى ذلك نفْي المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القصاص بينهما؛ إذ مِنْ شَرْطِ وجوبِ القصاصِ المساواة بين القاتل والمقتول. وبذلك احتجَّ علماؤنا على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمِّ. وقال: أراد نفْي^(٢) المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب، وفي الدنيا في العدالة. ونحن حَمَلْنَاهُ على عمومهِ، وهو أصحُّ؛ إذ لا دليلَ يخصُّهُ؛ قاله ابن العربي^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ قال الزَّجَّاج وغيره: «مَنْ» يَصْلُحُ للواحد والجمع^(٤). النُّحَّاس^(٥): لفظُ «مَنْ» يؤدِّي عن الجماعة، فلهذا قال: «لا يستون»؛ هذا قولٌ كثيرٌ من النحويين. وقال بعضهم: «لا يستون» لاثنين؛ لأنَّ^(٦) الاثنين جمع، لأنه واحدٌ جمع مع آخر. وقاله الزَّجَّاج أيضاً. والحديث يدلُّ على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال: نزلت ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ في علي بن أبي طالب عليه السلام، ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط^(٧). وقال الشاعر:

أليس الموت بينهما سواء إذا ماتوا وصاروا في القبور^(٨)

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أخبر عن مَقَرِّ

(١) يعني في آخر الآية (٢٠).

(٢) في (د) و(ظ): بنفي.

(٣) في أحكام القرآن ٣/١٤٩٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٠٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٢٩٦.

(٦) في إعراب القرآن: إلا أن، بدل: لأن.

(٧) سلف في المسألة الأولى.

(٨) سلف ٦/١٢١.

الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جناتُ المأوى، أي: يأوون إلى الجنات، فأضاف الجناتِ إلى المأوى؛ لأنَّ ذلك الموضع يتضمَّن جنات. ﴿تَزَلَّ﴾ أي: ضيافة. والنَّزْلُ: ما يُهَيَّأ للنَّازِلِ والضيِّف. وقد مضى في آخر «آل عمران»^(١) وهو نصبُ على الحال من الجنات، أي: لهم الجناتُ معدَّة، ويجوز أن يكون مفعولاً له.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَا وَهُمْ نَارُ﴾ أي: مقامهم فيها. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي: إذا دَفَعهم لهبُ النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في «الحج»^(٢).

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خَزَنَةُ جهنم، أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانه^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ قال الحسنُ وأبو العالية والضحاك وأبي بن كعب وإبراهيم النَّخَعِيُّ: العذابُ الأدنى: مصائبُ الدنيا وأسقامُها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا. وقاله ابن عباس^(٤). وعنه أيضاً: أنه الحدود^(٥).

(١) ٤٨٢/٥ - ٤٨٣.

(٢) ٣٤٥/١٤.

(٣) ص ٢٦ و ٢٧ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه قولهم الطبري ٦٢٧/١٨ - ٦٢٩، وأخرجه بنحوه عن أبي أيضاً مسلم (٢٧٩٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٧٣).

(٥) أخرجه الطبري ٦٢٩/١٨. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٦٣/٤: ويتجه على هذا التأويل أن تكون في فسقة المؤمنين.

وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث: هو القتلُ بالسيف يومَ بدر^(١).

وقال مقاتل: الجوعُ سبعَ سنين بمكة حتى أكلوا الجِيفَ^(٢)؛ وقاله مجاهد^(٣).
وعنه أيضاً: العذاب الأدنى: عذابُ القبر، وقاله البراء بن عازب^(٤)، قالوا:
والأكبرُ: عذابُ يوم القيامة؛ قال القُشَيْرِيُّ: وقيل: عذاب القبر، وفيه نظر؛ لقوله:
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال: وَمَنْ حَمَلَ الْعَذَابَ عَلَى الْقَتْلِ قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
أي: يرجع مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ. ولا خلاف أنَّ العذاب الأكبر عذابُ جهنم، إلا ما روي عن
جعفر بن محمد: أنه خروجُ المهديّ بالسيف، والأدنى غلاءُ السعر^(٥).

وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قولِ مجاهدٍ والبراء: أي:
لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛ كقوله: ﴿فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]،
وَسُمِّيَتْ إِرَادَةُ الرَّجُوعِ رَجُوعًا كَمَا سُمِّيَتْ إِرَادَةُ الْقِيَامِ قِيَامًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا
قُتِلْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، ويدلُّ عليه قراءةٌ مَنْ قرأ: «يُرْجَعُونَ» على البناء للمفعول؛ ذكره
الرَّمْخُسِيُّ^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْقِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أَظْلَمُ لنفسه ﴿وَمِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾

(١) أخرج قولهم الطبري ٦٢٩/١٨ - ٦٣٠ ، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين، وكذلك وقع في
المحرر الوجيز ٣٦٣/٤ .

(٢) ذكره البغوي ٥٠٢/٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٦٣٠/١٨ بلفظ: القتل والجوع لقريش في الدنيا.

(٤) النكت والعيون ٣٦٥/٤ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٦٣١/١٨ .

(٥) ذكره عن جعفر الصادق الماوردي في النكت والعيون ٣٦٥/٤ .

(٦) في الكشف ٢٤٥/٣ .

أي: بحججه وعلاماته ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بترك القبول. ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ لنكذبيهم وإعراضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا مَعْرِبُا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي: فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس، وقد لقيه ليلة الإسراء^(١). قتادة: المعنى: فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء^(٢). والمعنى واحد. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها^(٣).

وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول؛ قاله مجاهد والزجاج^(٤).

وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ فأوذي وكُذِّب، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى. فالهاء عائدة على محذوف، والمعنى: من لقاء ما لاقى. النحاس^(٥): وهذا قول غريب، إلا أنه من رواية عمرو بن عبيد.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل

(١) ذكره عن ابن عباس بنحوه البغوي ٣/٥٠٣، وحديث ابن عباس في لقاء النبي ﷺ موسى عليه السلام في الإسراء أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، والطبري ١٨/٦٣٦.

(٢) تفسير الطبري ١٨/٦٣٦، وأخرجه بنحوه مسلم إثر الحديث (١٦٥).

(٣) النكت والعيون ٤/٣٦٦.

(٤) في معاني القرآن ٤/٢٠٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٢٩٧، وما قبله منه.

بكم، فلا تكن في مِرْيَةٍ من لقائه، فجاء معترضاً بين ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١).

والضميرُ في «وَجَعَلْنَاهُ» فيه وجهان: أحدهما: جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني: جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن^(٢).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً﴾ أي: قَادَةً وَقُدُوةً يُقْتَدَى بِهِمْ في دينهم. والكوفيون يقرؤون: ﴿أُمَمَةً﴾^(٣)؛ النحاس^(٤): وهو لَحْنٌ عند جميع النحويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، وهو من دقيق النحو؛ وشرُّه: أَنَّ الأصل: «أُمَمَةٌ»، ثم أُلْقِيَتْ حَرَكَةُ الميم [الأولى] على الهمزة وأدغمت الميم [في الميم] وخَفُفَت الهمزة الثانية لثَلَا يجتمع همزتان، والجمعُ بين همزتين في حرفين بعيد، فأَمَّا في حرفٍ واحدٍ^(٥) فلا يجوز إلَّا بتخفيف الثانية، نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أَوُّمٌ من هذا وأَيِّمٌ، بالواو والياء. وقد مضى هذا في «براءة»^(٦)، والله تعالى أعلم.

﴿يَهْدُونَكُ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخَلْقَ إلى طاعتنا. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: أَمْرُنَاهُمْ بذلك. وقيل: «بِأَمْرِنَا» أي: لأَمْرِنَا، أي: يهدون الناس لديننا. ثم قيل: المرادُ الأنبياءُ عليهم السلام؛ قاله قتادة^(٧). وقيل: المرادُ الفقهاء والعلماء.

﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ قراءةُ العامة: «لَمَّا» بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها، أي: حين

(١) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٦٤/٤.

(٢) النكت والعيون ٣٦٦/٤، وقول قتادة أخرجه الطبري ٦٣٧/١٨.

(٣) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وسهل الثانية نافع وأبو عمرو وابن كثير. ينظر التيسير ص ٣٢.

(٤) في إعراب القرآن ٢٩٧/٣، وما قبله وما سبب بين حاصرتين منه.

(٥) يعني في كلمة واحدة. ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٠٩/٤.

(٦) ١٢٧/١٠.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣٦٦/٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٤٤/٦ دون نسبة. وأخرج الطبري عن قتادة أنه قال في معنى «أمة»: رؤساء في الخير.

صبروا. وقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخلف ورؤيس عن يعقوب: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١) أي: لِصَبْرِهِمْ جعلناهم أئمة. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود: «بما صَبَرُوا» بالباء^(٢).

وهذا الصبرُ صبرٌ على الدين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كُلًّا بما يَسْتَحِقُّ. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاة النقاش^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: «نَهْدَ لَهُمْ» بالنون، فهذه قراءة بيّنة^(٤). النحاس: وبالياء فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ «يَهْدِ»؟ فتكلم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: «كَمْ» في موضع رفع بـ «يَهْدِ». وهذا نقضٌ لأصول النحويين في قولهم: إنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولا في «كَمْ» بوجه، أعني ما قبلها. ومذهب أبي العباس: أنَّ «يَهْدِ» يدلُّ على الهدى؛ والمعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمُ الْهُدَى. وقيل: المعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ اللَّهُ لَهُمْ، فيكون معنى الياء والنون واحداً، أي: أَوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهُمْ إِهْلَاكَنَا الْقُرُونِ الْكَافِرَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ. وقال الزجاج: «كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «أَهْلَكْنَا»^(٥).

(١) السبعة ص ٥١٦، والتيسير ص ١٧٧، والنشر ٢/٣٤٧ عن حمزة والكسائي ورويس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/٣٣٢، وتفسير الطبري ١٨/٦٣٨.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/٣٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٩٨ عن السلمي وقتادة، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٨ عن علي وابن عباس والسلمي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٩٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٣٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/٢١١.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِرِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ الضَّمِيرُ فِي «يَمْشُونَ» أَنْ يَعُودَ عَلَى الْمَاشِينَ فِي مَسَاكِنِ الْمُهْلَكِينَ، أَيْ: وَهَؤُلَاءِ يَمْشُونَ وَلَا يَعْتَبِرُونَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْمَهْلَكِينَ فَيَكُونُ حَالاً، وَالْمَعْنَى: أَهْلَكْنَاهُمْ مَاشِينَ فِي مَسَاكِنِهِمْ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيَاتِ اللَّهِ وَعِظَاتِهِ فَيَتَعَطَّوْنَ؟!

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧)

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أَيْ: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا كَمَا لَقَدْ رَتَبْنَا بِسُقُونَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا لِتُخَيِّبَهَا. الرَّمْخُشْرِيُّ^(١): الْجُرْزُ: الْأَرْضُ الَّتِي جُرِزَ نَبَاتُهَا، أَيْ: قُطِعَ؛ إِمَّا لِعُذْمِ الْمَاءِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ رُعِيَ وَأُزِيلَ. وَلَا يَقَالُ لِلَّتِي لَا تُنْبِتُ كَالسَّبَاخِ: جُرْزٌ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

قال ابن عباس: هي أرض باليمن. وقال مجاهد: هي أَيْبَنُ^(٢). وقال عكرمة: هي الأرض الظَّمْأَى. وقال الضحَّاك: هي الأرض الميتة العَطَشَى. وقال الفراء^(٣): هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقال محمد بن يزيد: يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا أَرْضاً بَعِينَهَا لِدُخُولِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ، إِلَّا أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى قَوْلِ مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ^(٤). [قال أبو جعفر:] وَالْإِسْنَادُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ صَحِيحٌ لَا مَطْعَنَ فِيهِ. وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ نَعْتُ، وَالنَعْتُ لِلْمَعْرِفَةِ يَكُونُ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَجُلٌ جَرُورٌ: إِذَا كَانَ لَا يُبْقِي شَيْئاً إِلَّا أَكَلَهُ؛ قَالَ الرَّاجِزُ:

(١) الكشف ٢٤٧/٣.

(٢) أخرج القولين الطبري ١٨/٦٤١ - ٦٤٢، وذكرهما النحاس في إعراب القرآن ٣/٢٩٨. وأبين: موضع في اليمن. ينظر معجم البلدان ١/٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/٣٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٢٩٨ - ٢٩٩، وما قبله وما سجد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام إلا أنه يجوز على قول من قال العباس والضحاك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

خَبُّ جَرَوْزٌ وإذا جاع بَكَّى ويأكل التمر ولا يُلقِي النَّوَى^(١)
وكذلك ناقة جَرَوْزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء تَجِدُّه. وسيف جُراز: أي: قاطع
ماضي. وَجَرَزَتِ الجرادُ الزَّرْعَ: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفراء^(٢) وغيره أنه يقال:
أَرْضٌ جُرْزٌ وَجُرْزٌ وَجُرْزٌ وَجَرَزَ. وكذلك بُخل ورُغب ورُهب؛ في الأربعة أربع لغات.
وقد روي أنَّ هذه الأرض لا أنهارَ فيها، وهي بعيدة من البحر، وإنما يأتيها في
كلِّ عامٍ واديان، فيزرعون ثلاثَ مراتٍ في كلِّ عام. وعن مجاهد أيضاً: أنَّها أرضُ
النَّيل.

﴿فَنُخْرِجْ بِهِ﴾ أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ من الكلاً والحشيش
﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ من الحَبِّ والخَضِيرِ والفواكه ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ هذا فيعلمون أننا نقدِّرُ على
إعادتهم؟! إعادتهم؟!

و«فَنُخْرِجْ» يكون معطوفاً على «نَسُوقُ»، أو منقطعاً ممَّا قبله. «تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ»
في موضع نصبٍ على النعت.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَوْمَ
الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ «مَتَى» في موضع
رفع، ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الظرف^(٣). قال قتادة: الفتح: القضاء^(٤).
وقال الفراء والقُتَيْبِيُّ: يعني فتح مكة^(٥). وأولى من هذا ما قاله مجاهد، قال: يعني يومَ
القيامة.

(١) الرجز للشمخ، وهو في ديوانه ص ٣٨٠ - ٣٨١، والأول منهما برواية: خَبُّ جَبَانٍ. وهو برواية
المصنف في المقصور والممدود للفراء ص ٦٧، ومقاييس اللغة ٧٩/٢، والصحاح (حطب) والنكت
والعيون ٣٦٧/٤، واللسان (حنا) و(حطب). وفيه: الخب، أي: اللثيم.

(٢) في معاني القرآن ٣٣٣/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢٩٩/٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٩/٣.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣١٤/٥، وأبو الليث ٣٣/٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣٣٣/٢، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص ٣٤٧.

وَيُرَوَّى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: سَيَحْكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُثِيبُ الْمُحْسِنَ وَيُعَاقِبُ الْمُسِيءَ، فَقَالَ الْكَفَّارُ عَلَى التَّهْزِيءِ: مَتَى يَوْمُ الْفَتْحِ؟ أَيْ: هَذَا الْحُكْمُ. وَيُقَالُ لِلْحَاكِمِ: فَاتِحٌ وَفَتَّاحٌ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَنْفَتِحُ عَلَى يَدَيْهِ وَتَنْفَصِلُ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] ^(١) وقد مضى هذا في «البقرة» ^(٢) وغيرها.

﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ عَلَى الظَّرْفِ. وَأَجَازُ الْفَرَاءُ الرِّفْعُ ^(٣). ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَيْ: يُوَخَّرُونَ وَيُؤَمَّلُونَ لِلتَّوْبَةِ، إِنْ كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ فَتْحِ مَكَّةَ. فَفِي بَدْرٍ قُتِلُوا، وَيَوْمَ الْفَتْحِ هَرَبُوا، فَلَحَقَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَتَلَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ ^(٤)

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: فَأَعْرِضْ عَنْ سَفَهِهِمْ وَلَا تُجِيبْهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتُ بِهِ ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أَيْ: انتَظِرْ يَوْمَ الْفَتْحِ، يَوْمَ يَحْكُمُ اللَّهُ لَكَ عَلَيْهِمْ ^(٥).

ابن عباس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أَيْ: عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، وَأَنَّ هَذَا مَنْسُوخٌ بِالسَّيْفِ فِي «بَرَاءة» فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ^(٥)، ﴿وَانْتَظِرْ﴾ أَيْ: مُوَعِدِي لَكَ. قِيلَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ. ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أَيْ: يَنْتَظِرُونَ بِكُمْ حَوَادِثَ الزَّمَانِ.

وقيل: الْآيَةُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ؛ إِذْ قَدْ يَقَعُ الْإِعْرَاضُ مَعَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ؛ كَالْهُذْنَةِ وَغَيْرِهَا. وَقِيلَ: أَعْرِضْ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا بَلَغَتْ الْحُجَّةُ، وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٩٩/٣ - ٣٠٠.

(٢) ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٠٠/٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣٣٣/٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٠٠/٣.

(٥) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٨١/٢ من طريق جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس.

إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان :
أحدهما : أن يكون المعنى : إنهم منتظرون الموت ، وهو من أسباب القيامة ،
فيكون هذا مجازاً .

والآخر : أن فيهم مَنْ يشكُّ ، وفيهم مَنْ يؤمن بالقيامة ، فيكون هذا جواباً لهذين
الصَّنْفَيْنِ . والله أعلم^(١) .

وقرأ ابن السَّمِيعِ : «إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ» بفتح الظاء^(٢) . ورويت عن مجاهد وابن
مُحَيِّصِنٍ . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازة : إنهم منتظرون بهم . قال أبو
حاتم : الصحيحُ الكسر^(٣) ، أي : انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمِيعِ - بفتح الظاء - معناها : وانتظر هلاكهم ، فإنهم
أحقاء بأن ينتظر هلاكهم ، يعني أنهم هالكون لا محالة ، [أو] وانتظر ذلك ، فإن
الملائكة في السماء ينتظرونه ؛ ذكره الزمخشري^(٤) . وهو معنى قول الفراء . والله أعلم .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥ ، والكشاف ٣/ ٤٧ .

(٣) ذكر قول أبي حاتم ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٥ ، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له .

(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه .

سورة الأحزاب

مدنيّة في قول جميعهم، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها، وهي ثلاثٌ وسبعون آية. وكانت هذه السورة تُعدّل سورة البقرة. وكانت فيها آية الرّجم: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»؛ ذكره أبو بكر الأنباري عن أبيّ بن كعب^(١). وهذا يَحْمِلُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ إِلَيْهِ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا، وَأَنَّ آيَةَ الرّجْمِ رُفِعَ لَفْظُهَا، وَقَدْ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، عَنْ ابْنِ لَهْيَعَةَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ سُورَةُ الْأَحْزَابِ تُعَدَّلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلِي آيَةٍ، فَلَمَّا كُتِبَ الْمَصْحَفُ لَمْ يَقْدَرْ مِنْهَا إِلَّا عَلَى مَا هِيَ الْآنَ^(٢). قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَمَعْنَى هَذَا مِنْ قَوْلِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا عِنْدَنَا. قُلْتُ: هَذَا وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ النِّسْخِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ» الْقَوْلُ فِيهِ مُسْتَوْفَى^(٣) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

وَرَوَى زُرَّ قَالَ: قَالَ لِي أَبِيّ بْنُ كَعْبٍ: كَمْ تَعُدُّونَ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟ قُلْتُ: ثَلَاثًا

(١) هو عند ابن الأنباري في المصاحف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١٧٩/٥، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٩٠-١٩١، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (٧١١٢)، وسيرد لفظه بتمامه.

(٢) هو عند ابن الأنباري فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١٨٠/٥، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٩٠، وفيهما: فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها... الخ. والقائل: حدثنا أحمد ابن الهيثم... هو ابن الأنباري. وقد ردّ الباقلاني هذه الروايات في الانتصار ٣٩٤/١، ونقلنا كلامه ٣٠٢/٢.

(٣) ٣٠٠/٢.

وسبعين آية. قال: فوالذي يحلفُ به أُبَيُّ بن كعب، إن كانت لتُعْدِلُ سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّ نَكَالاً من الله والله عزيز حكيم»^(١). أراد أُبَيُّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن. وأمّا ما يُحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الدّاجنُ؛ فمَنْ تأليف الملاحدة والروافض^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ضُمَّت «أي» لأنه نداء مُفْرَد، والتنبيه لازمٌ لها. و«النبي» نعتٌ لأيّ عند النحويين، إلّا الأَخْفَش فإنه يقول: إنه صلة لأيّ^(٣). مكّي: ولا يُعرف في كلام العرب اسمٌ مفردٌ صلة لشيء^(٤). النحاس: وهو خطأ عند أكثر النحويين؛ لأنّ الصّلة لا تكون إلّا جملة. والاحتياال له فيما قال، أنّه لمّا كان نعتاً لازماً سُمّي صلة، وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلة لها^(٥).

ولا يجوز نضبه على الموضع عند أكثر النحويين. وأجازه المازني، جعله كقولك: يا زيدُ الظريف، بنصب «الظريف» على موضع زيد؛ مكّي^(٦): وهذا نعتٌ

(١) سلف تخريج حديث أُبَيِّ قبل تعليق، وينظر فتح الباري ١٢/١٤٣.

(٢) الكشف للزمخشري ٣/٢٤٨. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشف ص ١٣٢: بل راويها ثقة غير منهم... وكان المصنف (يعني الزمخشري) فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدّعيه الروافض: أن القرآن ذهب منه أشياء، وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ. اهـ. وينظر تأويل مختلف الحديث ص ٢١٠. والخبر أخرجه ابن ماجه (١٩٤٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠١.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/٥٧٢، وغير محقّقه لفظ: لشيء، إلى لفظ: لأيّ.

(٥) إعراب القرآن ٣/٣٠١.

(٦) في مشكل إعراب القرآن ٢/٥٧٢، وما قبله منه.

يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَنَعْتُ «أَيَّ» لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، فَلَا يَخُسْنُ نَصْبُهُ عَلَى الْمَوْضِعِ. وَأَيْضاً فَإِنَّ نَعْتَ «أَيَّ» هُوَ الْمَنَادَى فِي الْمَعْنَى فَلَا يَخُسْنُ نَصْبُهُ.

وروي أن رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود: فُرِيظَةً والنَّضِيرَ وَبَنِي قَيْنِقَاعَ، وَقَدْ تَابَعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ عَلَى التَّفَاقِ، فَكَانَ يُلَيِّنُ لَهُمْ جَانِبَهُ، وَيَكْرُمُ صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، وَإِذَا أَتَى مِنْهُمْ قَبِيحٌ تَجَاوَزَ عَنْهُ، وَكَانَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ، فَتَزَلَّتْ^(١).

وقيل: إنها نزلت - فيما ذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ وَالْقَشِيرِيُّ وَالثَّعْلَبِيُّ وَالْمَاوَزْدِيُّ وَغَيْرُهُمْ - فِي أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَعِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَأَبِي الْأَعُورِ عَمْرٍو^(٢) بْنِ سَفْيَانَ، نَزَلُوا الْمَدِينَةَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِي إِبْنِ سُلُولٍ - رَأْسِ الْمَنَافِقِينَ - بَعْدَ أُحُدٍ، وَقَدْ أَعْطَاهُم النَّبِيُّ ﷺ الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يَكْلُمُوهُ، فَقَامَ مَعَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَطُعْمَةُ بْنُ أَبِي بِرْقٍ، فَقَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ارْزُقْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا اللَّاتِ وَالْعَزَّى وَمَنَاةَ، وَقُلْ إِنَّ لَهَا شِفَاعَةً وَمَنْعَةً لِمَنْ عَبَدَهَا، وَنَدْعُكَ وَرَبِّكَ. فَشَقَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا قَالُوا. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي قَتْلِهِمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ» فَقَالَ عُمَرُ: اخْرُجُوا فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ^(٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ: خَفِيَ اللَّهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَعْنِي أَبَا سَفْيَانَ وَأَبَا الْأَعُورِ وَعِكْرَمَةَ ﴿وَالْمُتَفَقِّينَ﴾ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، يَعْنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي طُعْمَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ فِيمَا نُهِيَ عَنْهُ، وَلَا تَمِلْ إِلَيْهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿حَكِيمًا﴾ فِيمَا يَفْعَلُ بِهِمْ.

الرَّزْمَخَشَرِيُّ^(٤): وَرُوي أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَعِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَأَبَا الْأَعُورِ

(١) الكشاف ٢٤٨/٣. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٢: لم أجده.

(٢) في السسخ: عمر، والمثبت هو الصواب. ينظر الإصابة ١١٤/٧.

(٣) أسباب النزول للواحد ص ٣٦٨، وتفسير البغوي ٥٠٥/٣، وبنحوه في معاني القرآن للفراء ٣٣٤/٢، والنكت والعيون ٣٦٦/٤، والكشاف ٢٤٨/٣. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٢: هكذا ذكره الثعلبي والواحد دون سند. اهـ وسيذكره المصنف عن الرزْمَخَشَرِيِّ.

(٤) في الكشاف ٢٤٨/٣.

السُّلَمِيُّ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمُوَادَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، وَقَامَ مَعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي مُعْتَبٍ بْنُ قُشَيْرٍ وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ ، فَقَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : اَرْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا . وَذَكَرَ الْخَبْرَ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ . وَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ وَنَبْذِ الْمُوَادَّةِ . ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِيمَا طَلَبُوا إِلَيْكَ .

وَرَوَى أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ وَيُعْطُوهُ شَطْرَ أَمْوَالِهِمْ ، وَيَزُوجَهُ شَيْبَةَ بِنْتُ رِبْعَةَ بِنْتَهُ ، وَخَوْفُهُ مَنَافِقُو الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ ، فَتَزَلَّتْ ^(١) .

النَّحَّاسُ ^(٢) : وَدَلَّ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَمِيلُ إِلَيْهِمْ اسْتِدْعَاءً لَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، أَيْ : لَوْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مِثْلَكَ إِلَيْهِمْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَمَا نَهَاكَ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ حَكِيمٌ . ثُمَّ قِيلَ : الْخَطَابُ لَهُ وَلَأَمْتُهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ . وَفِيهِ زَجْرٌ عَنْ اتِّبَاعِ مَرَاسِمِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَمْرٌ بِجِهَادِهِمْ وَمُنَابَذَتِهِمْ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَرْكِ اتِّبَاعِ الْآرَاءِ مَعَ وَجُودِ النَّصِّ . وَالْخَطَابُ لَهُ وَلَأَمْتُهُ .

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بَتَاءٍ عَلَى الْخَطَابِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي عُبَيْدٍ وَأَبِي حَاتِمٍ . وَقَرَأَ السُّلَمِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ : «يَعْمَلُونَ» بِالْيَاءِ عَلَى الْخَبَرِ ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] ^(٣) .

(١) الكشف ٢٤٨/٣ . وذكره بنحوه السيوطي في الدر المنثور ١٨٠/٥ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، وعزاه لابن جرير ، ولم نقف عليه في تفسيره .

(٢) في إعراب القرآن ٣/٣٠١ .

(٣) السبعة ص ٥١٨ و ٥١٩ ، والتيسير ص ١٧٧ عن أبي عمرو .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمد عليه في كلِّ أحوالك فهو الذي يمنُّكَ^(١)، ولا يضرُّكَ مَنْ خَذَلَكَ. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: حافظاً.

وقال شيخٌ من أهل الشام: قدِمَ على النبي ﷺ وفدٌ من ثقيفٍ، فطلبوا منه أنْ يمتَّعهم باللَّات سنةً - وهي الطاغيةُ التي كانت ثقيف تعبدها - وقالوا: لتعلم قريش منزلتنا عندك، فهَمَّ النبي ﷺ بذلك، فنزلت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كافياً لك ما تخافُه منهم^(٢).

و«بالله» في موضع رفعٍ لأنَّه الفاعل. و«وكيلاً» نصبٌ على البيان أو الحال^(٣).

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَاءِ تَطْلِهْرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قال مجاهد: نزلت في رجلٍ من قريش كان يُدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إنَّ لي في جَوْفي قلبين، أغْضِلُ بكلِّ واحدٍ منهما أفضلَ من عَقْلِ محمد. قال: وكان من فُهر^(٤).

الواحدِيُّ والقُشَيْرِيُّ وغيرهما: نزلت في جميل بن معمر الفُهْرِيِّ، وكان رجلاً حافظاً لِمَا يسمع. فقالت قريش: ما حفظ^(٥) هذه الأشياء إلا وله قلبان. وكان يقول: لي قلبان أغْضِلُ بهما أفضلَ من عقل محمد. فلَمَّا هُزِمَ المشركون يومَ بدر ومعهم جميل ابن معمر، رآه أبو سفيان في العير وهو معلقٌ إحدى نَعْلَيْهِ في يده والأخرى في رجله،

(١) في (ظ): ينفَعك.

(٢) لم تقف عليه.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ٨/ ١٩، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٧٢).

(٥) في (م): يحفظ.

فقال أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرتُ إلا أنهما في رجلتي؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لمَا نسي نَعْلَهُ في يده^(١).

وقال السَّهْلِيُّ: كان جميل بنَ معمر الجُمَحِيُّ، وهو ابنُ معمر بن حبيب بن وهب ابن حُذافة بن جُمَح، واسم جمح: تَيْم، وكان يدعى ذا القلبين، فنزلت فيه الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثَوائي بالمدينة بعد ما قضى وَطراً منها جَمِيلُ بن معمر^(٢)

قلت: كذا قالوا: جميل بن معمر. وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: جميل بنُ أسد الفُهْرِي^(٣).

وقال ابن عباس: سببها أن بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأنه ربَّما كان في شيء؛ فَتَزَعَّ في غيره نزعةً ثم عاد إلى شأنه الأوَّل، فقالوا ذلك عنه، فأكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ^(٤).

وقيل: نزلت في عبد الله بن حَظَل^(٥).

وقال الزُّهْرِيُّ وابن حَيَّان: نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبناه النبي ﷺ، فالمعنى: كما لا يكون لرجل قلبان، كذلك لا يكون ولدٌ واحدٌ لرجلين^(٦). قال

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١ بنحوه وعزاه للسدي.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٣٥ ، وذكر البيت أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ٥٦٤ ، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٩٧ ، والحافظ في الإصابة ٢/ ٩٨ .

(٣) الكشف ٣/ ٢٤٩ ، وترجم له الحافظ في الإصابة ٢/ ٩٦ ، فسماه: جميل بن أسيد، وذكر في اسمه أقوالاً ثم قال: وقيل: إن ذا القلبين جميل بن معمر؛ قاله السهلي، والمشهور أنه غيره.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨ . وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤١٠)، والترمذي (٣١٩٩)، والطبري ١٩/ ٧ ، والحاكم ٢/ ٤١٥ . وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقول: قابوس ضعيف. اهـ . وقابوس هو ابن أبي ظبيان أحد رجال الإسناد.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢١٣ - ٢١٤ ، والنحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٩ .

(٦) أخرجه عن الزهري بنحوه الطبري ١٩/ ٩ ، وذكره عن مقاتل بن حيان الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧١ .

النحاس^(١): وهذا قولٌ ضعيفٌ لا يصحُّ في اللغة، وهو من مُنْقَطَعات الزُّهريّ، رواه معمر عنه.

وقيل: هو مَثَلٌ ضُرب للمُظَاهِر، أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المُظَاهِر أُمَّه حتى تكون له أُمّان^(٢).

وقيل: كان الواحدُ من المنافقين يقول: لي قلبٌ يأمرني بكذا، وقلبٌ يأمرني بكذا، فالمنافقُ ذو قلبين، فالمقصودُ ردُّ النفاق.

وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف، فالمعنى: لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب.

ويظهر من الآية بجملتها نَفْيُ أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلامٌ بحقيقة الأمر، والله أعلم.

الثانية: القلبُ بَضْعَةٌ^(٣) صغيرةٌ على هيئة الصَّنَوْبَةِ، خَلَقَهَا الله تعالى في الآدميّ وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يَسَعُ في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخَطِّ الإلهيّ، ويضبطه فيه بالحفظ الرّبّاني، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئاً. وهو بين لَمَتَيْن: لَمَّةٌ من المَلِك، وَلَمَّةٌ من الشيطان^(٤). كما قال ﷺ: خرّجه الترمذي، وقد مضى في «البقرة»^(٥).

وهو محلُّ الخَطَرَات والوساوس، ومكانُ الكفر والإيمان، وموضعُ الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة. والمعنى في الآية: أنه لا يجتمع في القلب

(١) في معاني القرآن ٣١٩/٥.

(٢) ذكره البغوي ٥٠٣/٣ عن الزهري ومقاتل.

(٣) البَضْعَةُ - وقد تكسر -: القطعة من اللحم. القاموس (بضع).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٩٢/٣. واللمة: الخطرة تقع في القلب. النهاية (لم).

(٥) ٣٥٥/٤، وهو عند الترمذي (٢٩٨٨).

الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد في ذلك من حقيقة أو مجاز^(١)، والله أعلم.

الثالثة: أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لا أحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم، أي: إنما هو قلب واحد، فإما فيه إيمان، وإما فيه كفر؛ لأن درجة النفاق كأنها متوسطة، فنفاها الله تعالى، وبين أنه قلب واحد. وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وهم، يقول على جهة الاعتذار: ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعني قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وذلك مذكور في سورة المجادلة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة. وروى الأئمة أن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣).

وكان زيد فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مسبياً من الشام، سبته خيل من تهمامة، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمرته خديجة، فوهبته خديجة للنبي ﷺ، فأعتقه وتبناه، فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ وذلك قبل البعث: «خيراه، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء». فاختار الرق مع رسول الله ﷺ على حرّيته وقومه، فقال محمد ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه» وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٩٢/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣٦٨/٤.

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٧٩)، والبخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).

ذلك، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا^(١). وكان أبوه لما سُبي يدور على الشام ويقول:

بكيث على زيد ولم أدر ما فعل
فوالله لا أدري وإنني لسائل
فيا ليت شعري هل لك الدهر أوبة
تذكرنيهِ الشمس عند طلوعها
وإن هبت الأرياح^(٢) هيخن ذكره
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً
حياتي أو تأتي علي مزيتي
أحيي فيرجى أم أتى دونه الأجل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
وتعرض ذكره إذا غرّبها أفل
فيا طول ما حزني عليه وما وجل
ولا أسأ التّطواف أو تسأ الإبل
فكل امرئ فان وإن غره الأمل^(٣)

فأخبر أنه بمكة، فجاء إليه فهلك عنده، وروي أنه جاء إليه، فخيره النبي ﷺ -
كما ذكرنا - وانصرف^(٤). وسيأتي من ذكره وفضله وشرّفه شفاءً عند قوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ
زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الآية: ٣٧] إن شاء الله تعالى.

وقتل زيد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة، وكان النبي ﷺ أمره في
تلك الغزاة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، فإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة». فقتل

(١) ذكر هذا الخبر مطولاً ابن سعد في الطبقات ٣/ ٤٠ - ٤٢ ثم قال: هذا كله حدثنا به هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وعن جميل بن مرثد الطائي وغيرهما، وقد ذكر بعض هذا الحديث عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس. اهـ. وذكره عن ابن عباس أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٤٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨١ وعزاه لابن مردويه. ولم نقف عليه عن أنس.

(٢) في المصادر: الأرواح. والأرواح جمع ريح، جمعه على الأصل؛ لأن الأصل فيه الواو. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ١/ ١٦٣.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٨، وطبقات ابن سعد ٣/ ٤١، والاستيعاب ٤/ ٤٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٣، وصفة الصفوة ١/ ٣٧٨. قوله: بجل، هي كلمة بمعنى حَسَب، ومعناها جميعاً الاكتفاء بالشيء. وقوله: إذا غرّبها أفل، الأفل: غيبوبة الشمس، ونسب الغروب إلى الأفول اتساعاً ومجازاً. والنص: أرفع السير. الإملاء المختصر ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٥.

الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعِيُّ زَيْدٍ وَجَعْفَرُ بَكِي وَقَالَ: «أَخَوَايَ وَمُؤَنَسَايَ وَمُحَدَّثَايَ»^(١).

قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ نزلت في زيد بن حارثة، على ما تقدم بيانه. وفي قول ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، دليل على أن التَّبَنِّيَّ كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتَوَارَثُ به ويُتَنَصَّرُ، إلى أن نَسَخَ اللَّهُ ذلك بقوله: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أَعْدَلُ. فَرَفَعَ اللَّهُ حُكْمَ التَّبَنِّيِّ، وَمَنَعَ من إطلاق لفظه، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن يُنسَبَ الرجل إلى أبيه نَسَباً^(٢).

فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلدُ الرجل وظرفُه ضمَّه إلى نفسه، وجعل له نصيبَ الذكر من أولاده من ميراثه، وكان يُنسب إليه فيقال: فلان بن فلان^(٣).

وقال النحاس^(٤): هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التَّبَنِّيِّ، وهو من نَسَخِ السَّنَةِ بالقرآن، فأمر أن يدعوا مَنْ دَعَوْا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أبٌ معروفٌ نَسَبوه

(١) الاستيعاب ٥٣/٤ والمفهم ٣٠٦/٦. وقوله: «إن قتل زيد فجعفر...» أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث ابن عمر ؓ. وأخرجه أحمد (١٧٥٠) من حديث عبد الله بن جعفر ؓ. و(٢٢٥٥١) من حديث أبي قتادة ؓ.

(٢) المفهم ٣٠٦/٦ - ٣٠٧.

(٣) الكشف ٢٥٠/٣.

(٤) في النسخ والمنسوخ ٥٨٣/٢.

إلى ولاته، فإن لم يكن له ولاءٌ معروفٌ قال^(١): يا أخي، يعني في الدين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الثانية: لو نسبته إنساناً إلى أبيه من التبني فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد، فلا إثم ولا مؤاخذه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٢). وكذلك لو دعوت رجلاً إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه، ليس عليك بأس؛ قاله قتادة^(٣).

ولا يجري هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبني، كالحال في المقداد بن عمرو؛ فإنه كان غلب عليه نسب التبني، فلا يكاد يُعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود ابن عبد يغوث كان قد تبناه في الجاهلية وعُرف به، فلما نزلت الآية قال المقداد: أنا ابنُ عمرو^(٤)، ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه. ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَى مُطَلِقَ ذلك عليه وإن كان متعمداً. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يُدعى لأبي حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبني وانتسب لغير أبيه وشُهر بذلك وغلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه: زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمداً عَصَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: فعليكم الجُنَاح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: «غُفُورًا» للعمد، و«رَحِيمًا» برفع إثم الخطأ^(٥).

الثالثة: وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا

(١) في (م): قال له.

(٢) المفهم ٣٠٧/٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ١١١/٢، والطبري ١٣/١٩.

(٤) ذكره بهذا اللفظ أبو العباس في المفهم ٣٠٧/٦، والكلام منه، وذكره الحافظ في الإصابة ٢٧٣/٩ بنحوه عن ابن الكلبي.

(٥) المفهم ٣٠٧/٦.

وَكَيْلًا ﴿مُجْمَلٌ، أَي: وليس عليكم جناحٌ في شيءٍ أخطأتم به، وكانت فتياً عطاءٍ وكثيرٍ من العلماء على هذا: إِذَا حَلَفَ رَجُلٌ أَلَّا يَفَارِقَ غَرِيمَهُ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهُ حَقَّهُ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَا يَرَى أَنَّهُ جَيِّدٌ مِنْ دَنَانِيرٍ، فَوَجَدَهَا زُيُوفًا^(١)، أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ. وكذلك عنده إِذَا حَلَفَ أَلَّا يَسْلُمَ عَلَى فُلَانٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، أَنَّهُ لَا يَحْنُثُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ذَلِكَ. و﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [«ما» في موضع خفضٍ رداً على «ما» التي مع «أخطأتم»، ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، والتقدير: ولكن الذي تواخِذون به ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ. قال قتادةٌ وغيره: مَنْ نَسَبَ رَجُلًا إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ - وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَبُوهُ - خَطَأً، فَذَلِكَ مِنَ الَّذِي رَفَعَ اللَّهُ فِيهِ الْجُنَاحَ^(٢).

وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يَا بُنَيَّ؛ على غير تَبَيَّنٍ^(٣).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ «بأفواهكم» تأكيدٌ لبطلان القول، أي: إنه قولٌ لا حقيقةَ له في الوجود، إنما هو قولٌ لسانِيٍّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشي إليك على قَدَمٍ، فإنما تريد بذلك المبرّة، وهذا كثير^(٤). وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع^(٥). ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ «الحق» نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: يقول القولَ الحقَّ. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبيِّن، فهو يتعدّى بغير حرفٍ جرٍّ.

الخامسة: الأدعياءُ جمع الدَّعيِّ، وهو الذي يُدَّعى ابناً لغير أبيه، أو يدَّعي غير أبيه، والمصدرُ: الدَّعوة بالكسر. فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصلب، فَمَنْ جُهِلَ ذَلِكَ فِيهِ وَلَمْ تَشْتَهَرْ أُنْسَابُهُمْ كَانَ مَوْلىً وَأَخاً فِي الدِّينِ. وذكر الطبريُّ أَنَّ أبا بَكْرَةَ قرأ هذه الآية وقال: أنا مَمَّنْ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ، فأنا أخوكم في الدِّينِ ومولاكم. قال

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٣ والكلام منه: زجاجاً، والمثبت من (م).

(٢) سلف في المسألة الثانية.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/٣٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٦٩. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ من الآية السابقة.

(٥) ينظر ٥/٤٠٥ و ١٠/١٧٤.

الراوي عنه: ولو علم - والله - أن أباه حمارٌ لانتفى إليه. ورجال الحديث يقولون في أبي بكر: نفع بن الحارث^(١).

السادسة: روى الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكر كلاهما قال: سمعته أذناي ووعاه قلبي محمداً ﷺ يقول: «مَنْ ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام»^(٢). وفي حديث أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس من رجل ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»^(٣).

قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَّا أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها: أنه ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفّي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته» أخرجه الصحيحان^(٤). وفيهما أيضاً: «فأيكم

(١) المحرر الوجيز ٣٦٩/٤، وخبر أبي بكر في تفسير الطبري ١٣/١٩. قال الحافظ في التهذيب ٢٣٨/٤: نفع بن الحارث بن كلدة، أبو بكر الثقفي، وقيل: اسمه مسروح، وقيل: كان أبوه عبداً للحارث بن كلدة يقال له: مسروح، فاستلحق الحارث أبا بكر.

(٢) صحيح البخاري (٦٧٦٦) و(٦٧٦٧)، وصحيح مسلم (٦٣): (١١٥) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٤٥٤). ونصب «محمداً» على البدل من الضمير في «سمعته أذناي». شرح النووي لصحيح مسلم ٥٣/٢.

(٣) صحيح البخاري (٣٥٠٨)، وصحيح مسلم (٦١)، وهو عند أحمد (٢١٤٦٥). قال أبو العباس في المفهم ٢٥٤/١: مَنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ مُسْتَحِلًّا فَهُوَ كَافِرٌ حَقِيقَةً، فيبقى الحديث على ظاهره، أما إن كان غير مستحل، فيكون الكفر الذي في الحديث محمولاً على كفران النعم والحقوق.

(٤) صحيح البخاري (٢٢٩٨)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٤)، وهو عند أحمد (٧٨٩٩) وهو من حديث أبي هريرة ؓ.

تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَأَنَا مَوْلَاهُ»^(١). قال ابن العربي: فانقلبت الآن الحال بالذنوب، فإن تركوا مالا ضويق العَصْبَةُ فيه، وإن تركوا ضياعاً أسلموا إليه، فهذا تفسيرُ الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبي ﷺ وتبيينه^(٢)، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس^(٣).

قال ابن عطية^(٤): وقال بعض العلماء العارفين: هو أولى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهم يدعوهم إلى النجاة. قال ابن عطية: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا آخذٌ بحُجَزِكُم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحُم الفراش».

قلت: هذا قولٌ حسنٌ في معنى الآية وتفسيرها، والحديث الذي ذكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُم وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»^(٥). وعن جابرٍ مثله؛ وقال: «وَأَنْتُمْ تَقَلَّتُونَ مِنْ يَدِي»^(٦). قال العلماء: الحُجَزَةُ للسراويل، والمَعْقِدُ للإزار، فإذا أراد الرجلُ إمساكاً مَنْ يخافُ سقوطه أَخَذَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ مِنْهُ. وهذا مَثَلٌ لاجتهاد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تَخْلُصِنَا مِنَ الْهَلَكَاتِ التي بين أيدينا، فهو أولى بنا من أنفسنا. وَلِجَهْلِنَا بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَغَلَبَةِ شَهَوَاتِنَا عَلَيْنَا، وَظَفَرِ عَدُوِّنَا اللَّعِينِ بِنَا، صِرْنَا أَحَقَرَ مِنْ

(١) صحيح البخاري (٢٣٩٩)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٥)، وهو عند أحمد (٨٤١٨) وهو من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) في (م): وتبيينه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٩٦/٣. وقوله: لا عطر بعد عروس، ذكره ابن قتيبة دون نسبة في الشعر والشعراء ٦٢٦/٢ عَجَزَ بيت، وصدرة: فالآن قبل وفاتي. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢١١/٢، والزمخشري في المستقصى ٢٦٤/٢. قال الميداني: يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس.

(٤) في المحرر الوجيز ٣٧٠/٤.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٨٤)، وهو عند أحمد (٧٣٢١) و(٨١١٧)، والبخاري (٦٤٨٣).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٨٥).

الفرّاش وأذلّ من الفرّاش^(١)، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم!
وقيل: أولى بهم، أي إنه إذا أمر بشيء، ودعت النفس إلى غيره، كان أمر
النبي ﷺ أولى^(٢).

وقيل: أولى بهم، أي: هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في
أنفسهم، أي: فيما يحكمون به لأنفسهم ممّا يخالف حكمه.

الثانية: قال بعض أهل العلم: يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين
الفقراء اقتداءً بالنبي ﷺ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال: «فعليّ قضاؤه»
والضّياغ - بفتح الضاد - مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما هو بصدد أن يضيع، من
عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيم له. وسميت الأرض ضيعةً لأنها معرضة
للضياع، وتُجمع ضياعاً بكسر الضاد^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ شَرَّفَ الله تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن
جعلهنّ أمهات المؤمنين، أي: في وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال، وحُرْمَةِ النكاح
على الرجال، وحجّهنّ رضي الله تعالى عنهنّ بخلاف الأمّهات^(٤). وقيل: لما كانت
شَفَقَتُهُنّ عليهم كشفقة الأمّهات أنزلن منزلة الأمّهات. ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثاً
كأمومة التَّبَنِّي. وجاز تزويج بناتهنّ؛ ولا يُجعلن أخوات للناس. وسيأتي عدد أزواج
النبي ﷺ في آية التخيير^(٥) إن شاء الله تعالى.

واختلف الناس؛ هل هنّ أمّهات الرجال والنساء، أم أمّهات الرجال خاصة؟

(١) المفهم ٨٦/٦ - ٨٧، وقعت العبارة الأخيرة فيه: حتى صرنا أحقر من الفرّاش والجنّادب وأذلّ من
الطين اللازب.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٣.

(٣) المفهم ٥٧٥/٤ - ٥٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٧٠.

(٥) ينظر ص ١١٩ من هذا الجزء.

على قولين: فروى الشعبي عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أُمّة، فقالت لها: لست لك بأُمّ، إنّما أنا أُمّ رجالكم. قال ابن العربي^(١): وهو الصحيح.

قلت: لا فائدة في اختصاص الحَضَر في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يظهر لي أنهنَّ أمّهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحَقُّهن على الرجال والنساء. يدلُّ عليه صدرُ الآية: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً. ويدلُّ على ذلك حديثُ أبي هريرة وجابر، فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع. ثم إنَّ في مصحف أبي بن كعب: «وأزواجه أمهاتهم وهو أبُّ لهم»^(٢). وقرأ ابن عباس: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ وهو أبُّ [لهم] وأزواجه [أمهاتهم]»^(٣). وهذا كله يوهن ما رواه مسروق - إن صح - من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به في التخصيص، وبقينا على الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهم. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ قيل: إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، وبالمهاجرين قريشاً. وفيه قولان:

أحدهما: أنه ناسخٌ للتوارث بالهجرة؛ حكى سعيد عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الآية: ٧٢] فتوارث المسلمون بالهجرة؛ فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم

(١) في أحكام القرآن ٣/١٤٩٦ - ١٤٩٧ وما قبله منه، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/٦٥ و ٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٧٠.

(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/٣٣٥، والنحاس في معاني القرآن ٣/٣٦٨ وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٧٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقد سلفت ٨٦/٧، و ١٧٧/١١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٧٠، وما بين حاصرتين منه. وسترّد في المسألة السادسة.

المهاجر شيئاً حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(١).

الثاني: أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين؛ روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قَدِمْنَا المدينة قَدِمْنَا ولا أموالَ لنا، فوجدنا الأنصارَ نِعَمَ الإخوان فأخيناهم، فأورثونا وأورثناهم، فأخى أبو بكر خارجةً بن زيد، وأخيتُ أنا كعب بن مالك، فجئتُ فوجدتُ السلاحَ قد أثقله، فوالله لو مات^(٢) عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، فرجعنا إلى موارثنا.

وثبت عن عروة أن رسول الله ﷺ آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك، فارتث كعب يوم أحد، فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته، فلو مات يومئذ كعب عن الضح والريح لورثه الزبير، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. فبين الله تعالى أن القرابة أولى من الحلف، فترك الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة^(٣). وقد مضى في «الأنفال» الكلام في توريث ذوي الأرحام^(٤).

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ

(١) أخرجه الطبري ٢٩٢/١١، والنحاس في النسخ والمنسوخ ٢٩٤/٢. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣٧٥/٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) في النسخ: لقد مات، وكذا في النكت والعيون ٣٧٥/٤، والكلام منه، وهو خطأ. وقد أخرجه ابن أبي حاتم ١٧٤٢/٥ (٩٢٠٦)، والحاكم ٣٤٤/٤ - ٣٤٥، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وقُتل الزبير سنة ست وثلاثين متصرفه من وقعة الجمل، ومات كعب بن مالك سنة أربعين، وقيل: سنة خمسين. ينظر السير ٦٤/١ و ٥٢٦/٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٩٧/٣، وخبر عروة أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ١٩٤/٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٨٧/٥٠. قوله: فارتث، الارتثات: أن يُحمل الجريح وهو ضعيف قد أنختته الجراح. وقوله: الضح والريح، أراد أنه لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح، كنى بهما عن كثرة المال. النهاية (رثث) و(ضحح).

(٤) ٩٠/١٠.

الذي قَضَى فيه أحوالَ خَلْقِهِ^(١). و﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلّق بـ ﴿يَهُ﴾ لا بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ بالإجماع؛ لأنّ ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلاف في عمومها، وهذا حلٌّ إشكالها؛ قاله ابن العربي^(٢).

النَّحَّاس^(٣): ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يتعلّق «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بـ «أُولُو» فيكون التقدير: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين. ويجوز أن يكون المعنى: أولى من المؤمنين.

وقال المَهْدَوِيُّ: وقيل: إنّ معناه: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إلّا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ أن يُذَعِّن أمّهات المؤمنين. والله تعالى أعلم.

الخامسة: واختُلف في كونهنّ كالأمّهات في المَحْرَم وإباحة النظر على وجهين: أحدهما: هنّ مَحْرَمٌ، لا يَحْرُمُ النظر إليهنّ [لتحريم نكاحهن].

الثاني: أنّ النظر إليهنّ محرّم؛ لأنّ تحريم نكاحهنّ إنّما كان حفظاً لحقّ رسول الله ﷺ فيهنّ، وكان من جَفِظَ حقّه تحريمُ النظر إليهنّ؛ ولأنّ عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخولَ رجلٍ عليها، أمرت أختها أسماء أن تُرضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَمًا يَسْتَبِيحُ النَّظَرَ^(٤).

وأما اللاتي طَلَّقَهُنَّ رسول الله ﷺ في حياته، فقد اختلف في ثبوت هذه الحرمة لهنّ على ثلاثة أوجه:

أحدها: ثبتت لهنّ هذه الحرمةُ تغليياً لحرمة رسول الله ﷺ.

(١) النكت والعيون ٣٧٥/٤.

(٢) في أحكام القرآن ١٤٩٧/٣.

(٣) في إعراب القرآن ٣٠٣/٣ - ٣٠٤.

(٤) النكت والعيون ٣٧٤/٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرج مالك في الموطأ ٦٠٣/٢ عن سالم بن عبد الله بن عمر: أن عائشة أم المؤمنين أرسلت به وهو يرضع إلى أختها أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق فقالت: أرضعنيه عشر رضعات حتى يدخل عليّ... .

الثاني: لا يثبت لهنَّ ذلك، بل هنَّ كسائر النساء؛ لأنَّ النبي ﷺ قد أثبت عصمتَهُنَّ، وقال: «أزواجي في الدنيا هنَّ أزواجي في الآخرة»^(١).

الثالث: مَنْ دخل بها رسول الله ﷺ منهنَّ ثبتت حرمتها وحرُم نكاحها وإن طَلَّقها؛ حِفْظاً لحرمة وحراسة لخلوته. وَمَنْ لم يَدْخُلْ بها لم تثبت لها هذه الحرمة، وقد همَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجم امرأة فارَّقها رسول الله ﷺ فتزوَّجت، فقالت^(٢): لَمْ هَذَا! وما ضَرَبَ عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ حجاباً، ولا سُمِّيتُ أُمَّ المؤمنين، فكفَّ عنها عمر رضي الله عنه^(٣).

السادسة: قال قومٌ: لا يجوز أن يُسَمَّى النبي ﷺ أباً لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولكن يقال: مِثْل الأبِ للمؤمنين، كما قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم...» الحديث. خرَّجه أبو داود^(٤). والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أبٌ للمؤمنين، أي: في الحرمة، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: في النسب. وسيأتي.

وقرأ ابن عباس: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَهَاتُهُمْ»^(٥). وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: حُكِّها يا غلام؟ فقال: إِنَّها في مصحف أبيّ، فذهب إليه فسأله، فقال له أبيّ: إنه كان يُلهيني القرآن ويلهيك الصَّفْقُ بالأسواق. وأَغْلَظَ

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤. والحديث ذكره ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٢ بلفظ: زوجاتي في الدنيا...، وقال: لم أجدّه بهذا اللفظ، وفي البخاري عن عمار أنه ذكر عائشة فقال: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأخرجه أبو الشيخ في كتاب السنة من حديثه مرفوعاً. اهـ. وخبر عمار في صحيح البخاري (٣٧٧٢).

(٢) في (ظ): فارَّقها رسول الله ﷺ قبل البناء بها أرادت أن تتزوج فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤. وخبر عمر ذكره أيضاً ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٦، وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٦ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في سننه (٨).

(٥) قوله: أمهاتهم، من (ظ)، وقد سلفت هذه القراءة في المسألة الثالثة.

لعمر^(١). وقد قيل في قول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨]: إنما أراد المؤمنات، أي: تزوجهن. وقد تقدّم^(٢).

السابعة: قال قوم: لا يقال: بناته أخوات المؤمنين، ولا أخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعي رحمه الله: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت عائشة، ولم يقل: هي خالة المؤمنين^(٣). وأطلق قوم هذا وقالوا: معاوية خال المؤمنين^(٤)؛ يعني في الحرمة لا في النسب.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت، أي: إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء^(٥). وقال محمد ابن الحنفية: نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني^(٦). أي: يفعل هذا مع الولي والقريب وإن كان كافراً، فالمشرك ولي في النسب لا في الدين، فيوصى له بوصية.

واختلف العلماء؛ هل يجعل الكافر وصياً؟ فجوز بعض ومنع بعض. وردّ النظر إلى السلطان في ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرّماني إلى أن المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم [لفظ] الولي أيضاً حسن. وولاية النسب لا تدفع [في] الكافر، وإنما يدفع أن

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١١٢/٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٦٩/٧.

(٢) ١٧٧/١١.

(٣) الوسيط ٤٥٩/٣، وتفسير البغوي ٥٠٧/٣.

(٤) ذكر البيهقي في الدلائل ٤٥٩/٣ في «باب قول الله عز وجل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾» وتزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان عن ابن عباس قال: كانت المودة التي جعل الله بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين. اهـ. وهو من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عنه.

(٥) المحرر الوجيز ٣٧٠/٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣٠٤/٣، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/١٩.

يُلْقَى إِلَيْهِ بِالْمَوْدَّةِ كَوَلِّيَ الْإِسْلَامِ^(١).

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ «الكتاب» يَحْتَمِلُ الوجهين المذكورين المتقدمين في «كتاب الله»^(٢). و«مسطوراً» من قولك: سطرْتُ الكتابَ: إذا أثَبْتَهُ أسطَراً^(٣). وقال قتادة: أي: مكتوباً عند الله عزَّ وجلَّ ألا يرث كافرٌ مسلماً. قال قتادة: وفي بعض القراءة: «كان ذلك عند الله مكتوباً»^(٤). وقال القُرْطُبِيُّ: كان ذلك في التوراة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عَهِدَهُمْ على الوفاء بما حَمَلُوا، وأن يَشْرَعَ بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً، أي: كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائنٌ، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وإنما خصَّ هؤلاء الخمسة - وإن دَخَلُوا في زمرة النبيين - تفضيلاً لهم. وقيل: لأنهم أصحابُ الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل، وأئمة الأمم.

وَيَحْتَمِلُ أن يكون هذا تعظيماً في قَطْعِ الْوَلَايَةِ بين المسلمين والكافرين، أي: هذا مما لم تَخْتَلِفْ فيه الشرائع، أي: شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي: كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سببٌ متأكّد في الدِّيانَةِ، ثم توارثوا

(١) المحرر الوجيز ٣٧٠/٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/١٩.

(٢) في المسألة الرابعة.

(٣) المحرر الوجيز ٣٧٠/٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/١٩.

(٥) ذكره البغوي ٥٠٨/٣.

بالقربة مع الإيمان وهو سبب وكيد. فأما التَّوَارُثُ بين مؤمنٍ وكافرٍ فلم يكن في دين أحدٍ من الأنبياء الذين أخذ عليهم الموائيق، فلا تُدَاهِنُوا فِي الدِّينِ، وَلَا تُمَالِئُوا الْكَفَّارَ، ونظيره: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنَفَرُوا فِيهِ﴾﴾ [الشورى: ١٣] ومن تَرَكَ التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ تَرَكَ مَوَالَاةَ الْكَفَّارِ.

وقيل: أي: النبيُّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به الموائيق من الأنبياء.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً. والميثاقُ هو اليمينُ بالله تعالى، فالميثاقُ الثاني تأكيدٌ للميثاق الأول باليمين.

وقيل: الأولُ هو الإقرارُ بالله تعالى، والثاني في أمر النبوة، ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ الآية [آل عمران: ٨١]. أي: أخذ عليهم أن يعلنوا أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، ويعلن محمدٌ ﷺ أن لا نبيَّ بعده.

وقدَّم محمداً في الذِّكْرِ لِمَا رَوَى قَتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: «كنتُ أولَهم في الخلق، وآخِرَهم في البعث»^(١). وقال مجاهد: هذا في ظَهرِ آدَمَ عليه

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٩١٩/٣ و ١٢٠٩، وتمام في فوائده (١٣٩٩)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣)، والواحدي في الوسيط ٤٥٩/٣ - ٤٦٠. وأخرجه ابن سعد ١/١٤٩، والطبري ٢٣/١٩ من طريق قَتَادَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مرسلاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهو أشبه.

قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٢٧: وله شاهد بلفظ: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. اهـ. وأخرج الشاهد أحمد (٢٠٥٩٦) من حديث مَيْسَرَةَ الْفَجْرِ ﷺ. والترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حسن صحيح غريب.

الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: لَيْسَ لَكَ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ تَبْلِيغِهِمُ الرِّسَالَةَ إِلَى قَوْمِهِمْ؛ حكاية النقاش. وفي هذا

تنبيه، أي: إذا كان الأنبياء يُسألون، فكيف مَنْ سواهم؟

الثاني: لَيْسَ لَكَ الْأَنْبِيَاءُ عَمَّا أَجَابَهُمْ بِهِ قَوْمِهِمْ؛ حكاية علي بن عيسى.

الثالث: لَيْسَ لَكَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنْ الْوَفَاءِ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ؛

حكاية ابن شجرة.

الرابع: لَيْسَ لَكَ الْأَفْوَاءُ الصَّادِقَةُ عَنْ الْقُلُوبِ الْمُخْلِصَةِ^(١). وفي التنزيل: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ

الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠] وقد تقدّم.

وقيل: فائدة سؤالهم توبيخ الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

[المائدة: ١١٦]. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿٩﴾

يعني غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة، وكانت حالاً شديدة مُعَقِّبَةً بنعمة

ورخاء وغبطة، وتضمّنت أحكاماً كثيرة وآيات باهرات عزيزة، ونحن نذكر من ذلك

بعون الله تعالى ما يكفي في عشر مسائل:

الأولى: اختلف في أيّ سنة كانت؛ فقال ابن إسحاق: كانت في سؤال من السنة

الخامسة^(٢). وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله: كانت وقعة الخندق

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٣٧٨/٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٢١٤/٢.

سنة أربع، وهي وبنو قريظة في يوم واحد، وبين بني قريظة والنضير أربع سنين^(١). قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: أمر رسول الله ﷺ بالقتال من المدينة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: ذلك يوم الخندق؛ جاءت قريش من هاهنا، واليهود من هاهنا، والنجدية من هاهنا. يريد مالك أن الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وعطفان^(٢).

وكان سببها: أن نفراً من اليهود؛ منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام ابن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم؛ وخي بن أخطب؛ النضريون، وهوذة بن قيس، وأبو عمار من بني وائل - وهم كلهم يهود، وهم الذين حاربوا الأحزاب وألبوا وجمعوا - خرجوا في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فاتوا مكة فدعوا [قريشاً] إلى حرب رسول الله ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى عطفان، فدعواهم إلى مثل ذلك، فأجابوهم. فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت عطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة، والحارث بن عوف المرِّي على بني مرة، ومسعود بن ربيعة على أشجع. فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخرجهم شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضي رأيته. وقال المهاجرون يومئذ: سلمان منا. وقال الأنصار: سلمان منا. فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»^(٣).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٩٧ من طريق أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عن مالك. قال البيهقي: لا اختلاف بينهم في الحقيقة... فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨.

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٩٠، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «سلمان منا..» =

وكان الخندقُ أوَّلَ مشهَدٍ شَهِدَهُ سَلَمَانُ مَعَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو يومئذٍ حرٌّ. فقال: يا رسول الله، إِنَّا كُنَّا بِفَارِسٍ إِذَا حُوصِرْنَا خَنَدَقْنَا^(١).

فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون، وجعلوا يتسلَّلون لِوِإِذَا، فنزلت فيهم آياتٌ من القرآن ذكرها ابنُ إسحاق وغيره. وكان مَنْ فَرَّغَ من المسلمين من حصَّته عاد إلى غيره، حتى كملَ الخندق. وكانت فيه آياتٌ بيِّناتٌ وعلاماتٌ للنَّبَواتِ^(٢).

قلت: ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي:
الثانية: مشاورَةُ السُلطانِ أَصْحابَهُ وَخاصَّتَهُ في أمر القتال، وقد مضى ذلك في «آل عمران» و«النمل»^(٣).

وفيه التحصُّنُ من العدوِّ بما أُمكِّن من الأسباب واستعمالها، وقد مضى ذلك في غير موضع^(٤).

وفيه أَنَّ حَفَرَ الخندق يكون مقسوماً على الناس، فَمَنْ فَرَّغَ منهم عاونَ مَنْ لم يفرغ، فالمسلمون يدُّ على مَنْ سواهم؛ وفي البخاريٍّ ومسلم عن البراء بن عازبٍ قال: لَمَّا كان يومُ الأحزابِ وَخَنَدَقَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبارُ جِلْدَةً بطنِهِ، وكان كثيرُ الشَّعرِ، فسمعتُه يَرتَجِزُ بكلماتِ ابنِ رَواحَةَ ويقول:

= أخرجه مطولاً ومختصراً ابن سعد ٨٢/٤ - ٨٣ و ٣١٨/٧، والطبري ٣٩/١٩ - ٤٢، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم ٥٩٨/٣، والبيهقي في الدلائل ٤١٨/٣ من حديث عمرو بن عوف المزنيّ رحمه الله.

(١) تاريخ الطبري ٥٦٦/٢.

(٢) الدرر ص ١٩١، وينظر ما ذكره ابن هشام في السيرة ٢/٢١٧ عن ابن إسحاق من المعجزات. قوله: لِوِإِذَا، قال ابن هشام: اللواذ: الاستتار بالشيء عند الهرب.

(٣) ٣٨٠/٥ وعند تفسير الآية (٣٢) من سورة النمل.

(٤) ينظر ٣٠٠/٥ و ١٠٨/٧.

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا^(١)
وَأَمَّا مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَهِيَ:

الثالثة: فروى النسائي^(٢) عن أبي سكينَةَ - رجلٍ من المحرَّرين - عن رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لَمَّا أَمَرَ رسول الله ﷺ بحفرِ الخندقِ عَرَضَتْ لَهُمْ صَخْرَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَفْرِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَ الْمِغْوَلَ، وَوَضَعَ رِءَاةَ نَاحِيَةِ الْخَنْدِقِ وَقَالَ: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية [الأنعام: ١١٥]، فَتَدَرَّ ثُلُثُ الْحَجَرِ، وَسَلَمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ، فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَرْقَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ وَقَالَ: ﴿وَكَمَتَ﴾ الآية، فَتَدَرَّ الثُّلُثُ الْآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ، فَرَأَاهَا سَلَمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية، فَتَدَرَّ الثُّلُثُ الْبَاقِي. وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ رِءَاةَ وَجَلَسَ، قَالَ سَلَمَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ، مَا تَضَرَّبُ ضَرْبَةً إِلَّا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلَمَانُ؟» فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الْأُولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كَسَرَى وَمَا حَوْلَهَا، وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا بَعَيْنِي - قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيَغْنَمْنَا ذُرَارِيَهُمْ^(٣) وَيَخْرُبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا بَعَيْنِي - قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيَغْنَمْنَا ذُرَارِيَهُمْ وَيَخْرُبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّالِثَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبْشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى حَتَّى رَأَيْتُهَا بَعَيْنِي» قَالَ

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٣)، وهو عند أحمد (١٨٥١٣) و(١٨٥٧٠). ونقله المصنف عن الأحكام الصغرى لعبد الحق ٥١٠/٢.

(٢) في المجتبى ٤٣/٦.

(٣) في سنن النسائي: ديارهم، في الموضعين.

رسول الله ﷺ عند ذلك: «دَعُوا الحِجْشَةَ مَا وَدَّعُوكُمْ، وَاتْرَكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ»

وخرَّجَه أيضاً عن البراء قال: لَمَّا أَمَرْنَا رسول الله ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الخَنْدُقَ، عَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَاشْتَكِينَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ وَأَخَذَ الْمِغْوَلَ وَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثَلَاثَ الصَّخْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مِفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا بُصِيرُ إِلَى قُصُورِهَا الْحِمَرَاءِ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ» فَكَسَرَ ثَلَاثًا أُخْرَى ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مِفَاتِيحَ فَارَسَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا بُصِيرُ قُصُورَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضِ». ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ» فَقَطَعَ الْحَجَرَ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مِفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا بُصِيرُ بَابَ صَنْعَاءَ». صَحَّحَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ (١).

الرابعة: فَلَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَفْرِ الخَنْدُقِ، أَقْبَلَتْ قَرِيشٌ فِي نَحْوِ عَشْرَةِ آلَافٍ بَيْنَ مَعَهُمْ مِنْ كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ بَيْنَ مَعَهَا مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى نَزَلُوا إِلَى جَانِبِ أَحَدٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلُوا بِظَهْرِ سَلْعٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَضَرَبُوا عَسْكَرَهُمْ وَالْخَنْدُقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ. وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، فِي قَوْلِ ابْنِ شِهَابٍ.

وخرج عدو الله حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدِ الْقُرَظِيِّ، وَكَانَ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قَرِيزَةَ وَرُئَسَاهُمْ، وَكَانَ قَدْ وَادَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعَاقَدَهُ وَعَاهَدَهُ. فَلَمَّا سَمِعَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حَصْنِهِ وَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: افْتَحْ لِي يَا أَخِي (٢)، فَقَالَ لَهُ: لَا أَفْتَحُ لَكَ، فَإِنَّكَ رَجُلٌ مَشْؤُومٌ، تَدْعُونِي إِلَى خِلَافِ مُحَمَّدٍ وَأَنَا قَدْ عَاقَدْتُهُ وَعَاهَدْتُهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ. فَقَالَ حُيَيُّ: افْتَحْ لِي حَتَّى أَكَلِّمَكَ وَأَنْصَرِفَ عَنْكَ، فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ، فَقَالَ:

(١) فِي الْأَحْكَامِ الصَّغَرَى ٥١٠/٢، وَهُوَ فِي سَنَنِ النَّسَائِيِّ الْكَبِيرَى (٨٨٠٧). وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٦٩٤).

(٢) فِي الدَّرَرِ ص ١٩٣ (وَالْكَلامُ مِنْهُ): افْتَحْ لِي يَا كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ. وَنَحْوَهُ وَقَعَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ ٢٢٠/٢،

وَتَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ ٣٢/١٩، وَتَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ٥٧١/٢.

إِنَّمَا تَخَافُ أَنْ أَكُلَ مَعَكَ جَشِيشَتَكَ^(١)، فغضب كعبٌ وفتح له. فقال: يا كعب! إِنَّمَا جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، جِئْتُكَ بِقَرِيشٍ وَسَادَتِهَا، وَغَطَفَانَ وَقَادَتِهَا، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَى أَنْ يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: جِئْتَنِي وَاللَّهِ بِذَلِكَ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ لَا غَيْثَ فِيهِ^(٢)، وَيَحَاكَ يَا حُيَيَّ! دَغْنِي فَلَسْتُ بِفَاعِلٍ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ. فَلَمْ يَزَلْ حُيَيٌّ بِكَعْبٍ يَعِدُّهُ وَيَعْرِهُ، حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ وَعَاقَدَهُ عَلَى خِذْلَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَأَنْ يَسِيرَ مَعَهُمْ. وَقَالَ لَهُ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ: إِنْ أَنْصَرَفْتُ قَرِيشَ وَغَطَفَانَ دَخَلْتُ عِنْدَكَ بِمَنْ مَعِيَ مِنَ الْيَهُودِ.

فلما انتهى خبرُ كعبٍ وحُيَيَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بعث سعد بنُ عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الْخَرْجِ، وَسَيِّدُ الْأَوْسِ سعد بنُ معاذٍ، وبعثَ مَعَهُمَا عبد الله بنُ رَوَاحَةَ وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ، وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنْ كَانَ مَا قِيلَ لَنَا حَقًّا فَالْحَنُوا لَنَا لَحْنًا [نَعْرِفُهُ]^(٣) وَلَا تَقْتُلُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ». فَاَنْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدَهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا قِيلَ لَهُمْ عَنْهُمْ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: لَا عَهْدَ لَهُ عِنْدَنَا. فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَتْ فِيهِ حِدَّةٌ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: دَغَّ عَنْكَ مُشَاتَمَتُهُمْ، فَالَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ^(٤). ثُمَّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعِدٌ حَتَّى أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَا: عَظْلُ وَالْقَارَةِ؛ يُعْرِضَانِ بِغَدْرِ عَظْلٍ وَالْقَارَةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُبَشِّرُوا يَا

(١) الجشيشة هي أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً، ثم تُجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دشيصة. النهاية (جشش).

(٢) الجَهَام: السحاب الذي فرغ ماؤه، أي: الذي تَعْرِضُهُ عَلَيَّ مِنَ الدِّينِ لَا خَيْرَ فِيهِ، كَالْجَهَامِ الَّذِي لَا مَاءَ فِيهِ. النهاية (جهم).

(٣) زيادة من الدرر ص ١٩٣ (والكلام منه)، وهو موافق لما في تفسير الطبري ٣٣/١٩، وتاريخه ٥٧٢/٢. ووقع في سيرة ابن هشام ٢٢٢/٢: أعرفه. والمعنى: أشيرا إِلَيَّ وَلَا تُفْصِحَا، وَعَرِّضَا بِمَا رَأَيْتُمَا. النهاية (لحن).

(٤) في الدرر: أكبر من المشاتمة، وفي السيرة وتفسير الطبري: أربى من المشاتمة.

معشرَ المسلمين».

وعَظُمَ عند ذلك البلاء واشتدَّ الخوف، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم، يعني من فوق الوادي من قِبَلِ المَشْرِقِ، ومن أَسْفَلَ منهم؛ من بطنِ الوادي من قِبَلِ المَغْرِبِ، حتى ظَنُّوا بالله الظُّنونا. وأَظْهَرَ المنافقون كثيراً مما كانوا يُسِرُّون، فمنهم مَنْ قال: إِنَّ بيوتنا عورةٌ، فَلَنَنْصَرِفَ إليها، فإننا نخاف عليها. ومَنْ قال ذلك: أَوْسُ بْنُ قَيْظِي. ومنهم مَنْ قال: يَعِدُّنا محمدٌ أن يفتح كنوزَ كسرى وقِصر، وأحدنا اليوم لا يَأْمُنُ على نفسه [أن] ^(١) يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: مُعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ أحدُ بني عمرو بن عوف. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاَ وعشرين ليلةً؛ قريباً من شهر؛ لم يكن بينهم حَرْبٌ إِلَّا الرَّمْيُ بالنَّبْلِ والحصى.

فلَمَّا رأى رسول الله ﷺ أنه اشتدَّ على المسلمين البلاء بعث إلى عُيَيْنَةَ بنِ حصن الفَزَارِيِّ، وإلى الحارث بن عوف المُرِّي، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان، ويخذلا قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالة مُراوِضةً ولم تكن عقداً. فلَمَّا رأى رسول الله ﷺ منهما أنَّهما قد أنابا ورضيَا، أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادَ فذَكَرَ ذلك لهما واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبُّه فنصنعه لك، أو شيءٌ أَمَرَكَ الله به فنسمع له ونطيع، أو أمرٌ تصنعه لنا؟ قال: «بل أمرٌ أصنعه لكم، والله ما أصنعه إِلَّا أَنِّي قد رأيتُ العربَ قد رمتكم عن قَوْسٍ واحدة». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قَطُّ أن ينالوا مِنَّا ثمرةً إِلَّا شِراءً أو قِرَى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنَا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إِلَّا السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم! فسَرَّ رسول الله ﷺ بذلك وقال: «أنتم وذاك». وقال لعَيْنَةُ والحارث: «انصرفا فليس لكما عندنا إِلَّا السيفُ». وتناول سعدُ الصحيفةَ وليس فيها شهادةٌ فمحاها.

الخامسة: فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون على حالهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتالَ بينهم؛ إِلَّا أَنَّ فِوَارِسَ من قريشٍ - منهم عمرو بنُ عبد وُدَّ العامريُّ من بني عامر بن لُؤَيٍّ، وعِكرمةُ بنُ أبي جهل، وهُبَيْرَةُ بنُ أبي وَهَبٍ، وَضِرَارُ بنُ الْخَطَّابِ الْفِهْرِيُّ، وكانوا فرسانَ قريشٍ وشجعانَهم - أَقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلَمَّا رَأَوْه قالوا: إِنَّ هَذِهِ لَمْكِيْدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا! ثُمَّ تَيَمَّمُوا مَكَانًا ضَيْقًا مِنَ الْخَنْدَقِ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ بِهِمْ، وَجَاوَزُوا الْخَنْدَقَ، وَصَارُوا بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَبَيْنَ سَلْعٍ، وَخَرَجَ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمُ الثُّغْرَةَ الَّتِي اقْتَحَمُوا مِنْهَا، وَأَقْبَلَتِ الْفِرْسَانُ نَحْوَهُمْ، وَكَانَ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ قَدْ أَثْبَتَهُ الْجِرَاحُ يَوْمَ بَدْرٍ فَلَمْ يَشْهَدْ أَحَدًا، وَأَرَادَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَنْ يُرَى مَكَانَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ نَادَى: مَنْ يَبَارِزُ؟ فَبَرَزَ لَهُ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُو، إِنَّكَ عَاهَدْتَ اللَّهَ فِيمَا بَلَّغْنَا أَنَّكَ لَا تُدْعَى إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذْتَ إِحْدَاهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ. قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ. قَالَ: فَأَدْعُوكَ إِلَى الْبِرَازِ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ أَقْتَلَكَ لِمَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِيكَ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: أَنَا وَاللَّهِ أَحَبُّ أَنْ أَقْتَلَكَ. فَحَمِيَ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ وَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، فَعَقَرَهُ وَصَارَ^(١) نَحْوَ عَلِيٍّ، فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا وَثَارَ النَّفْعُ بَيْنَهُمَا حَتَّى حَالَ دُونَهُمَا، فَمَا انْجَلَى النَّفْعُ حَتَّى رُئِيَ عَلِيٌّ عَلَى صَدْرِ عَمْرُو يَقْطَعُ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُهُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ عَلِيٌّ اقْتَحَمُوا بِخَيْلِهِمُ الثُّغْرَةَ مُنْهَازِينَ هَارِبِينَ. وَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ فِي ذَلِكَ:

نَصَرَ الْحَجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةٍ رَأَيْهِ وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضِرَابِ
نَازَلَتْهُ فَتَرَكْتُهُ^(٢) مُتَجَدِّلاً كَالْجَذْعِ بَيْنَ دَكَادِكِ^(٣) وَرَوَابِي
وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّنِي كُنْتُ الْمَقْطَرِ بَرَّزْنِي أَثْوَابِي^(٤)

(١) في الدرر: وسار.

(٢) في سيرة ابن هشام ٢/٢٢٥: فصددت حين تركته.

(٣) جمع دكدك، وهو الرمل اللين. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٦/٣.

(٤) لم يرد هذا البيت في الدرر، وهو في سيرة ابن هشام ٢/٢٢٥. والمقطر: الذي أُلقي على أحد =

لَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ
قال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالسَّير^(١) يشكُّ فيها لعلِّي.

قال ابن هشام^(٢): وألقى عكرمة بن أبي جهل رُمحه يومئذٍ وهو منهزمٌ عن عمرو،
فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فَرَّ وَأَلْقَى لَنَا رُمَحَهُ لَعَلَّكَ عِكْرِمَ لَمْ تَفْعَلِ
وَوَلَّيْتَ تَغْدُو كَعْدُو الظَّلِيمِ^(٣) مَا إِنْ تَجَوَّرَ عَنِ الْمَعْدِلِ
وَلَمْ تُلْقِ ظَهْرَكَ مِسْتَأْنَسًا كَأَنَّ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلِ
قال ابن هشام: فُرْعُل: صغير الضَّبَاع.

وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة، وأُمُّ سعد بن معاذٍ معها،
وعلى سعدٍ درْعٌ مُقْلَصَةٌ قد خرجت منها ذراعُهُ، وفي يده حربُته وهو يقول:
لَبِثْتُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيْجَا حَمَلٌ^(٤) لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا كَانَ^(٥) الْأَجَلُ
ورُمي يومئذٍ سعد بنُ معاذٍ بسهمٍ فقطع منه الْأَكْحَلُ^(٦).

واختُلفَ فيمنَ رماه؛ فقيل: رماه حَبَّان بن قيس بن العَرِقة، أحدُ بني عامر بن

= قُطْرِيه، أي: جانيه، يقال: طعنه فَقَطَرَهُ. وبزني: سلبني وجردني. الإملاء المختصر ٦/٣.

(١) في السيرة ٢٢٥/٢: بالشعر.

(٢) في السيرة ٢٢٦/٢.

(٣) الظليم: ذكر النعام، الإملاء المختصر ٦/٣.

(٤) في النسخ ومطبوع الإملاء المختصر: جمل، بالجيم، وهو خطأ؛ قال أبو ذر صاحب الإملاء: حَمَلُ
هنا اسم رجل، وقال السهيلي في الروض الأنف ٣/٢٨٠: عنى به حمل بن سعدانة بن حارثة بن
معقل... وكذا نقل الحافظ في الإصابة ٢/٢٨٨ عن أبي محمد الأسود الغندجاني، وقال الزمخشري
في المستقصى في أمثال العرب ٢/٢٧٨: لا يبعد أن يراد به حَمَلُ بن بدر، صاحب الغبراء.

(٥) كذا في النسخ، وفي المصادر: حان.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٦ - ٢٢٧ وأخرجه مطولاً أحمد (٢٥٠٩٧)، والطبري في التاريخ ٢/٥٧٥-٥٧٦
من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: درع مُقْلَصَةٌ: أي قصيرة ارتفعت وانقبضت. الإملاء المختصر
٦/٣. قال ابن الأثير في النهاية (قلص): يقال: قُلِّصَت الدرع وتقلَّصت.

لؤي، فلمَّا أصابه قال له: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعِرْقَةِ. فقال له سعد: عَرَّقَ الله وجهك في النار^(١). وقيل: إِنَّ الذي رماه خَفَاجَةٌ بن عاصم بن حَبَّان^(٢). وقيل: بل الذي رماه أبو أسامة الجُشَمِيُّ حليفُ بني مخزوم.

ولحسن مع صفية بنت عبد المطلب خبرٌ طريفٌ يومئذ؛ ذكره ابنُ إسحاق وغيره: قالت صفية بنتُ عبد المطلب رضي الله عنها: كُنَّا يَوْمَ الأحزاب في حصن حسان بن ثابت، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبِيُّ ﷺ وأصحابه في نحر العدوِّ لا يستطيعون الانصرافَ إلينا، فإذا يهوديٌّ يدور، فقلتُ لحسان: انزِلْ إليه فاقتله، فقال: ما أنا بصاحبِ هذا يا ابنةَ عبدِ المطلب! فأخذتُ عموداً ونزلتُ من الحصن فقتلته، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: مالي بسلبه حاجةٌ يا ابنةَ عبدِ المطلب! قالت^(٣): فنزلتُ فسلبته^(٤). قال أبو عمر ابنُ عبد البر^(٥): وقد أنكر هذا عن حسان جماعةٌ من أهل السَّير وقالوا: لو كان في حسان من الجُبْنِ ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجهم في الجاهلية والإسلام، وَلَهْجِيْ بِذَلِكَ ابْنُهُ عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيراً ما يهاجي الناسَ من شعراء العرب، مثل النجاشي وغيره.

السادسة: وأتى رسولُ الله ﷺ نعيم بنُ مسعود بن عامر الأشجعي، فقال: يا رسول الله، إنِّي قد أسلمتُ ولم يعلم قومي بإسلامي، فمُرْنِي بما شئتَ، فقال له

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٧، والدرر ص ١٩٧. وأخرجه أحمد (٢٤٢٩٤) مختصراً، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في النسخ: جبارة، والمثبت من سيرة هشام ٢/٢٢٨، والبداية والنهاية ٢/٤٩.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: قال.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٨، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في التاريخ ٢/٥٧٧، وليس فيهما قولها: فنزلتُ فسلبته. وإسناده منقطع كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/٢٨١. وأنكر ذلك عن حسان ﷺ وقال: وإن صحَّ؛ فلعل حسان أن يكون معتلاً في ذلك اليوم بعلّة منعتة من شهود القتال.

(٥) في الدرر ص ١٩٨.

رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ عَظَفَانِ، فَلَوْ خَرَجْتَ فَخَذَلْتَنَا إِنْ اسْتَطَعْتَ؛ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ بَقَائِكَ مَعَنَا»^(١)، فَاخْرُجْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُذْعَةٌ»^(٢).

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان يُناديهم في الجاهلية - فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم وُدِّي إياكم، وخاصَّةً ما بيني وبينكم. قالوا: قُلْ، فلست عندنا بمُتَّهِمٍ. فقال لهم: إِنَّ قريشاً وَعَظَفَانِ ليسوا كَأَنتُمْ، الْبَلَدُ بِلَدِّكُمْ، فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، وَإِنَّ قريشاً وَعَظَفَانِ قد جَاؤُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً^(٣) أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحَقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ، فَلَا تَقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قريشاً فَقَالَ لَهُمْ: قد عرفتم وُدِّي لَكُمْ مَعْشَرَ قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أَمْرٌ أَرَى مِنَ الْحَقِّ أَنْ أُبَلِّغَكُمْوهُ نُصْحاً لَكُمْ، فَاسْكُتُوا عَلَيَّ. قالوا: نَفْعَلُ. قَالَ: تَعْلَمُونَ^(٤) أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودٍ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْ خَذْلَانِهِمْ مُحَمَّدًا، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ: إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَلْ يَرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ قريشٍ وَعَظَفَانِ رَهْنًا رَجَالًا وَنَسْلَمَهُمْ إِلَيْكُمْ تَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ؟ ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ. ثُمَّ أَتَى عَظَفَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةَ السَّبْتِ - وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ - أَرْسَلَ أَبُو سَفْيَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قريشٍ وَعَظَفَانِ يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّا لَسْنَا بِدَارٍ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَاعْدُوا صَبِيحَةَ غَدٍ لِلْقِتَالِ حَتَّى

(١) في (ظ): من أن تقاتل معنا.

(٢) الدرر ص ١٩٨، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/٢٢٩. وقوله: الحرب خُذْعَةٌ، أخرجه أحمد (١٤٣٠٨)، والبخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر ر. وأخرجه أحمد (٨١١٢)، والبخاري (٣٠٢٧)، ومسلم، (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة ر.

(٣) النُّهْزَةُ: الفرصة، وانتهازها: اغتنمها. القاموس (نَهْز).

(٤) في الدرر: أتعلمون. ووقع في السيرة: تعلّموا، وفي تاريخ الطبري ٢/٥٧٨: فاعلموا.

نُناجِرَ مُحَمَّدًا. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا نَالَ مَنْ تَعَدَّى فِي السَّبْتِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا نَقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تَعْطُونَا رُهْنًا. فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ بِذَلِكَ قَالُوا: صَدَقْنَا وَاللَّهِ نُعِيمُ بْنُ مَسْعُودًا! فَرُدُّوا إِلَيْهِمُ الرِّسْلَ وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَعْطِيكُمْ رُهْنًا أَبَدًا، فَاخْرُجُوا مَعَنَا إِنْ شِئْتُمْ، وَإِلَّا فَلَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. فَقَالَ بَنُو قُرَيْظَةَ: صَدَقَ وَاللَّهِ نُعِيمُ بْنُ مَسْعُودًا! وَخَذَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَاخْتَلَفَتْ كَلِمَتُهُمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا عَاصِفًا فِي لَيَالٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ؛ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَقْلِبُ آيَاتِهِمْ وَتَكْفَأُ قُدُورَهُمْ^(١).

السابعة: فلما اتَّصل برسول الله ﷺ اختلافُ أمرِهِمْ، بعث حذيفةَ بنَ اليمانَ ليأتيه بخبرِهِمْ، فَأَتَاهُمْ وَاسْتَتَرَ فِي غِمَارِهِمْ، وَسَمِعَ أَبَا سَفْيَانَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَتَعَرَّفَ كُلُّ امْرِئٍ جَلِيسَهُ. قَالَ حذيفةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ جَلِيسِي وَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا فُلَانٌ. ثُمَّ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَا^(٢) مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، وَلَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ وَأَخْلَفْتُنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، مَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءً، وَلَا تَثْبُتُ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ. وَوَثَبَ عَلَى جَمَلِهِ، فَمَا حَلَّ عِقَالُ يَدِهِ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ^(٣).

قال حذيفةُ: وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِي إِذْ بَعَثَنِي وَقَالَ لِي: «مُرْ إِلَى الْقَوْمِ، فَاعْلَمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَا تُحَدِّثْ شَيْئًا»، لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يَصْلِي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ؛ مَرَّاجِلٌ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْمَرَّاجِلُ ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ الْيَمَنِ - فَأَخْبَرْتُهُ فَحَمِدَ اللَّهُ^(٤).

قلت: وَخَبِرُ حذيفةَ هَذَا مَذْكُورٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَفِيهِ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ، رَوَاهُ جَرِيرٌ

(١) الدرر ١٩٨ - ٢٠٠، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢٢٩/٢ - ٢٣١، وتاريخ الطبري ٥٧٨/٢ - ٥٧٩.

(٢) قبلها في (م): ويلكم.

(٣) أي: لم يحل يد جملة إلا بعد أن قام به. والعقال: الحبل الذي يُعقل به البعير.

(٤) أخرجه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام ٢٣٢/٢ - ٢٣٣، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أحمد

(٢٣٣٣٤)، والطبري في التاريخ ٥٨٠/٢ - ٥٨١ ونقله المصنف من الدرر ص ٢٠٠ - ٢٠١.

عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر. فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه أحد. فقال: «قم يا حذيفة فأنتنا بخبر القوم» فلم أجذبدا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: «اذهب فأنتي بخبر القوم ولا تدعهم عليّ»: قال: فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تدعهم عليّ»، ولو رميته لأصبت. فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمّام، فلما أتيت فأخبرته بخبر القوم وفرغت فُرزت، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «قم يا نومان»^(١).

ولما أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل عليه السلام في صورة دحية بن خليفة الكلبي على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له: يا محمد، إن كنتم قد وضعتُم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وإني متقدّم إليهم فمزّلزل بهم حصونهم^(٢). فأمر رسول الله ﷺ - وهي:

(١) صحيح مسلم (١٧٨٨). قوله: ولا تدعهم علي، أي: لا تُفزعهم فتهبّجهم عليّ، وقوله: يصلي ظهره، أي: يسخنه بالنار، وقوله: كأنما أمشي في حمّام: أي لم يصبه شيء من ذلك البرد بفضل طاعة رسول الله ﷺ، وهي من كراماته، ألا ترى أنه لما فرغ من ذلك العمل أخذه البرد كما كان أول مرة؟ وقوله: فُرزت، أي: أصابني القُر، وهو البرد. المفهم ٣/٦٤٧ - ٦٤٨.

(٢) الدرر ص ٢٠١، ورواه ابن إسحاق عن الزهري كما في سيرة ابن هشام ٢/٢٣٣. وأخرج نحوه أحمد (٢٤٢٩٥) و(٢٥٠٩٧)، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩): (٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثامنة - منادياً فنأدى: لا يُصَلِّينَ أحدُ العصرِ إلَّا في بني قُريظة، فتخوَّف ناسٌ فَوَّتَ الوقتَ فصلَّوْا دون بني قُريظة. وقال آخرون: لا نصلِّي العصرَ إلَّا حيث أَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ وإن فاتنا الوقت. قال: فما عَنَّفَ واحداً من الفريقين^(١). وفي هذا من الفقه تصويبُ المجتهدين، وقد مضى بيانه في «الأنبياء»^(٢).

وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهمُ دعا ربَّه فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ فَأَبْقِنِي لَهَا؛ فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ [إِلَيَّ] أَنْ أَجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ. اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهَا لِي شَهَادَةً، وَلَا تُؤْمِتْنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي فِي بَنِي قُريظة^(٣).

وروى ابن وهب عن مالك قال: بلغني أَنَّ سعد بنَ معاذ مرَّ بعائشة رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطم^(٤) الذي [يقال له: فارغ، وعليه درعٌ مُقْلَصَةٌ مُشَمَّرُ الكُمَيْنِ، وبه أثرُ صُفْرَةٍ وهو يرتجز:

لَبَّثْتُ قَلِيلًا يُذْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلٌ^(٥) لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَسْتُ أَخَافُ أَنْ يَصَابَ سَعْدُ الْيَوْمِ إِلَّا فِي أَطْرَافِهِ، فَأَصِيبُ فِي أَكْحَلِهِ. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَجْمَلَ مِنْ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ - حَاشَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فَأَصِيبُ فِي أَكْحَلِهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ حَرْبُ قُريظةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ لمسلم.

(٢) ٢٣٩/١٤ - ٢٤٠.

(٣) الدرر ص ٢٠١، وما بين حاصرتين منه، والخبر بنحوه عند البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩):

(٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الأُطم: حصن مبني بالحجارة. القاموس (أطم).

(٥) في النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٠٢، والكلام منه: جمل، وسلف الكلام عليه ص ٧٦ من هذا الجزء.

قد بقيت منه بقية فأبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءه، فلما حُكِمَ في بني قُريظة تُوفِّي، وفرح الناس وقالوا: نرجو أن يكون قد استُجيبَ دعوته^(١).

التاسعة: ولما خرج المسلمون إلى بني قُريظة أعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض علي وطائفة معه حتى أتوا بني قريظة ونازلوهم، فسمعوا سب الرسول ﷺ، فانصرف علي إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، لا تبُلُغ إليهم، وعَرَضَ له. فقال له: «أظنك سمعت منهم شتمِي، لو رأوني لكفوا عن ذلك» ونهض إليهم، فلما رأوه أُنسَكوا، فقال لهم: «نقضتم العهد يا إخوة القرد، أخزاكم الله وأنزل بكم نِقْمَتَه» فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا. ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة. وعرض عليهم سيدهم كعب ثلاث خصال ليختاروا أيها شاؤوا: إمّا أن يُسلموا ويتبعوا محمداً على ما جاء به فيسلموا. قال: وتُحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوباً في كتابكم. وإمّا أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم، ثم يتقدمون فيقاتلون حتى يموتوا عن آخرهم^(٢). وإمّا أن يُبَيِّتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً. فقالوا له: أمّا الإسلام فلا نُسلم ولا نخالف حكم التوراة، وأمّا قتلُ آبائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم، ونحن لا نتعدى في السبت.

ثم بعثوا إلى أبي لبابة، وكانوا حلفاء بني عمرو بن عوف وسائر الأوس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح إن فعلتم. ثم ندم أبو لبابة في الحين، وعلم أنه خان الله ورسوله، وأنه أمر لا يستره الله عليه عن نبيه ﷺ^(٣). فانطلق

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٠٢/٣ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ: من آخرهم، والمثبت من الدرر ص ٢٠٣.

(٣) في (ظ): لا يستره الله على نبيه، وفي الدرر ص ٢٠٣ (والكلام منه): لا يستره الله عن نبيه.

إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي ﷺ، فربط نفسه في سارية، وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه. فكانت امرأته تحله لوقت كل صلاة.

قال ابن عيينة وغيره: فيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٧]. وأقسم ألا يدخل أرض بني قريظة أبداً، مكاناً أصاب فيه الذنب. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ من فعل أبي لبابة قال: «أما إنه لو أتاني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل، فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى». فأزل الله تعالى في أمر أبي لبابة: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]. فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه^(١).

فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، فتوائب الأوس إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، قد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد أسعفت^(٢) عبد الله بن أبي ابن سلول في بني النضير حلفاء الخزرج، فلا يكن حطنا أو كس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم موالينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر الأوس، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى. قال: «فذلك إلى سعد ابن معاذ». وكان رسول الله ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق. فحكم فيهم بأن تقتل المقاتلة، وتُسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة»^(٣).

(١) الدرر ص ٢٠٢ - ٢٠٤، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٧. وأخرجه البيهقي في الدلائل ١٢/ ٤ و ١٥ ضمن خبرين، الأول عن موسى بن عقبة، والثاني عن معبد بن كعب بن مالك، وقد سلف بعضه ٩/ ٤٩١.

(٢) في الدرر ص ٢٠٥ (والكلام منه): شفعت.

(٣) الدرر ص ٢٠٥ - ٢٠٦، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠. وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه أحمد (٢٤٢٩٥)، والبخاري (٤١٢٢) ومسلم (١٧٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (١١١٦٨)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقوله: أرقعة، أي: سماوات. المفهم ٣/ ٥٩٥.

وأمر رسول الله ﷺ فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم - زمن ابن إسحاق - فخذق بها خنادق، ثم أمر عليه الصلاة والسلام، فضربت أعناقهم في تلك الخنادق. وقتل يومئذ حبي بن أخطب وكعب بن أسد، وكانا رأس القوم، وكانوا من الست مئة إلى السبع مئة. وكان على حبي حلة فقاحية^(١) قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأئمة^(٢)، أئمة أنملة لئلا يسلبها. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل. ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه^(٣).

وقتل من نسايتهم امرأة، وهي بنانة امرأة الحكم القرظي، التي طرحت الرخي على خلاد بن سويد فقتلته^(٤).

وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم يئبث. وكان عطية القرظي ممن لم يئبث، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة. وهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس ولد الزبير^(٥) بن باطا فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة. وهب أيضاً عليه الصلاة والسلام رفاعه بن سموءل القرظي لأن المنذر سلمى بنت قيس، أخت سليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلت إلى القبليتين، فأسلم رفاعه وله صحبة ورواية^(٦).

(١) أي: على لون الورد حين هم أن يفتح، والفقاحة: واحدة الفقاح، وهو زهر النبات حين يفتح أيًا كان لونه. اللسان (ففتح).

(٢) الأئمة بالفتح: واحدة الأئمة، وهي رؤوس الأصابع. الصحاح (نمل).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٤١.

(٤) الدرر ص ٢٠٦، وأخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/٢٤٢، وأحمد (٢٦٣٦٤)، وأبو داود (٢٦٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، مطولاً دون ذكر اسم المرأة.

(٥) بفتح الزاي وكسر الباء. الروض الأنف ٣/٢٨٤.

(٦) الدرر ص ٢٠٦ - ٢٠٧، وذكر ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/٢٤٤ أن رفاعه كان رجلاً قد =

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أتى ثابت بن قيس بن شماس إلى ابن باطا - وكانت له عنده يد - وقال: قد استوهبتك من رسول الله ﷺ ليدك التي لك عندي. قال: ذلك يفعلُ الكريم بالكريم، ثم قال: وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل؟ قال: فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأعطاه أهله وولده. فأتى فأعلمه فقال: كيف يعيش رجل لا مال له؟ فأتى ثابت النبي ﷺ فطلبه فأعطاه ماله. فرجع إليه فأخبره، قال: ما فعل ابن أبي الحقيق الذي كأن وجهه مرآة صينية؟ قال: قُتل. قال فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة. قال: قُتلوا. قال: فما فعلتِ الفتان؟^(١) قال: قُتلتا. قال: برئت ذمتك، ولن أصبَّ فيها دلوأً أبداً - يعني النخل - فألحقني بهم. فأبى أن يقتله فقتله غيره. واليد التي كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعث، فجزَّ ناصيته وأطلقه.

العاشرة: وقسم ﷺ أموال بني قريظة، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهماً. وقد قيل: للفارس سهمان، وللراجل سهم. وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرساً. ووقع للنبي ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة^(٢) أحد بني عمرو ابن قريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات ﷺ^(٣). وقيل: إن غنيمة قريظة هي أول غنيمة قُسم فيها للفارس والراجل، وأول غنيمة جُعِلَ فيها الخمس. وقد تقدّم أن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش^(٤)، فالله أعلم.

= بلغ، فلاذ بسلمى - وكان يعرفهم قبل ذلك - فطلبته من رسول الله ﷺ، فوهبه لها.

(١) في (د): القينان، وفي أحكام القرآن لابن العربي ١٤٩٩/٣ (والكلام منه): القينتان. ولم ترد هذه العبارة في سيرة ابن هشام ٢٤٢/٢ - ٢٤٣، حيث ذكر الخبر بنحوه عن ابن إسحاق.

(٢) بالخاء المعجمة، وقيل: قنافة بالقاف، عرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك. وقد قيل: أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها، وقيل: خيرها فاختارت أن تبقى في ملكه. ينظر الإصابة ٢٦٧/١٢. وسيذكرها المصنف ص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) وسيأتي ص ١٢٣ أنها ماتت في حياته ﷺ، وهو الذي رجحه الواقدي. ينظر طبقات ابن سعد ١٣٠/٨ - ١٣١.

(٤) الدرر ص ٢٠٧، وسلف الكلام عن الخمس في سرية عبد الله بن جحش ﷺ ٤٢١/٣ و ١٨/١٠.

قال: أبو عمر^(١): وتهذِبُ ذلك أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمسُ بعد نزول قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، وكان عبد الله بن جحش قد خَمَسَ قبل ذلك في بَعْثِهِ، ثم نزل القرآن بمثل ما فَعَلَهُ؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

وكان فَتَحَ قريظة في آخِرِ ذِي الْقَعْدَةِ وأَوَّلِ ذِي الْحِجَّةِ من السنة الخامسة من الهجرة. فلَمَّا تَمَّ أمر بني قريظة أُجِيبَتْ دعوةُ الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه، وانفتح عِرْقُهُ، فجرى دمه ومات ﷺ. وهو الذي أتى الحديث فيه: «اهْتَزَّ لموته عَرْشُ الرَّحْمَنِ» يعني سَكَّانَ العرش من الملائكة فَرِحُوا بقُدوم روحه واهْتَزُّوا له^(٢).

وقال ابن القاسم عن مالك: حَدَّثَنِي يحيى بن سعيد قال: لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألفَ مَلَكٍ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها^(٣).

قال مالك: ولم يُسْتَشْهَدْ يومَ الْخَنْدَقِ من المسلمين إِلَّا أربعةٌ أو خمسة^(٤).

قلت: الذي اسْتَشْهَدَ يومَ الْخَنْدَقِ من المسلمين ستَّةٌ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد بن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل، وأنس بن أوس بن عَتِيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضاً من بني عبد الأشهل. والظَّفِيلُ بْنُ النُّعْمَانِ، وثعلبة ابنُ عَنَمَةَ^(٥)، وكلاهما من بني سلمة، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار، أصابه سَهْمٌ غَرَبَ فقتله، ﷺ^(٦).

(١) في الدرر ص ١٨٢ (طبعة دار المعارف).

(٢) الدرر ص ٢٠٧. والحديث أخرجه أحمد (١٤١٥٣)، والبخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) عن جابر ﷺ.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٣، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٤٣٠، والنسائي في المجتبى ٤/ ١٠٠-١٠١ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٠.

(٥) بفتح العين المهملة والنون، كذا قيده الحافظ في الإصابة ٢/ ٢٤.

(٦) الدرر ص ٢٠٨، وبنحوه في السيرة ٢/ ٢٥٢. قال ابن هشام: سَهْمٌ غَرَبَ، وسَهْمٌ غَرَبَ، بإضافة =

وَقُتِلَ مِنَ الْكُفَّارِ ثَلَاثَةٌ: مِنْهُ بَنُ عَثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، أَصَابَهُ سَهْمٌ مَاتَ مِنْهُ بِمَكَّةَ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّمَا هُوَ عَثْمَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ مَنِبِّهَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ. وَنُوفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ فَتَوَرَّطَ فِيهِ فَقُتِلَ، وَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَسَدِهِ، فَرَوَى عَنِ الزَّهْرِيِّ أَنَّهُمْ أَعْطَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي جَسَدِهِ عَشْرَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فَقَالَ: «لَا حَاجَةَ لَنَا بِجَسَدِهِ وَلَا بِثَمَنِهِ» فَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ. وَعَمْرُو بْنُ [عَبْدِ] وَدٍّ الَّذِي قَتَلَهُ عَلِيٌّ مَبَارِزَةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ^(١).

وَأَسْتُشْهِدُ يَوْمَ قُرَيْظَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلَّادَ بْنَ سُويْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنَ عَمْرٍو مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، طَرَحَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ رَحَى فَقَتَلَتْهُ. وَمَاتَ فِي الْحَصَارِ أَبُو سَنَانٍ بْنُ مِخْصَنَ بْنِ حُرْثَانَ الْأَسَدِيِّ، أَخُو عُكَّاشَةَ بْنِ مِخْصَنَ، فَدَفَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَقْبَرَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ الَّتِي يَتَدَاوَنُ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ السَّكَّانُ بِهَا الْيَوْمَ. وَلَمْ يُصَبَّ غَيْرُ هَذَيْنِ، وَلَمْ يَغْزُ كَفَّارُ قَرِيشٍ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْخَنْدَقِ^(٢).

وَأَسْنَدُ الدَّارِمِيِّ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي «مُسْنَدِهِ»: أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ ابْنِ أَبِي ذُئْبٍ، عَنِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حُيِّنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى ذَهَبَ هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى كُفِينَا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِقَامِ بِلَالٍ فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، فَأَحْسَنَ كَمَا كَانَ يَصَلِّيُهَا فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ فَأَقَامَ الْعَصْرَ فَصَلَّاهَا، ثُمَّ أَمَرَ فَأَقَامَ الْمَغْرِبَ فَصَلَّاهَا، ثُمَّ أَمَرَ فَأَقَامَ الْعِشَاءَ فَصَلَّاهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ:

= وَمِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ: هُوَ الَّذِي لَا يُعْرَفُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَلَا مَنْ رَمَى بِهِ.

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٥٣، والدرر ص ٢٠٨، وما بين حاصرتين منهما، وسلف الكلام في المسألة الخامسة.

(٢) الدرر ص ٢٠٨، وبنحوه في السيرة ٢/٢٥٤. وسلف خبر المرأة التي قتلت خلاد بن سويد ص ٨٦ من هذا الجزء. وأخرج أحمد (١٨٣٠٨)، والبخاري (٤١١٠) عن سليمان بن صُردٍ ؓ قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨]^(١). خَرَّجَهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا^(٢). وقد مضت هذه المسألة في «طه»^(٣). وقد ذكرنا في هذه الغزاة أحكاماً كثيرةً لَمَنْ تَأَمَّلَهَا فِي مَسَائِلَ عَشْرِ. ثم نرجع إلى أول الآي، وهي تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً تَضُمَّنَتْ مَا ذَكَرْنَاهُ^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب ﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قال مجاهد: هي الصَّبا، أُرْسِلَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَلْقَتْ قُدُورَهُمْ وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ، قال: والجنود: الملائكة، ولم تُقَاتِلْ يَوْمَئِذٍ^(٥).

وقال عكرمة: قالت الجنوب للشَّمال ليلة الأحزاب: انْطَلِقِي لِنُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فقالت الشَّمال: إِنَّ مَحْوَةً^(٦) لَا تَسْرِي بَلِيل. فكانت الريح التي أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الصَّبا. وروى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(٧).

وكانت هذه الريحُ معجزةً للنبي ﷺ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَرِيبًا مِنْهَا، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا إِلَّا عَرْضُ الْخَنْدَقِ، وَكَانُوا فِي عَافِيَةٍ مِنْهَا، وَلَا خَبَرَ عِنْدَهُمْ بِهَا.

(١) سنن الدارمي (١٥٢٤)، وهو عند أحمد (١١١٩٨). والهُوَيُّ: الحين الطويل من الزمان، وقيل: هو مختصٌّ بالليل. النهاية (هوا).

(٢) في المجتبى ١٧/٢.

(٣) ٣٠/١٤.

(٤) من الآية (٩) إلى آخر الآية (٢٧).

(٥) أخرجه الطبري ٢٨/١٩.

(٦) محوة: ريح الشمال، سميت بذلك لأنها تمحو السحاب وتذهب بها، وهي معرفة لا تنصرف، ولا تدخلها ألف ولا م. اللسان (محا). ووقع في (ظ): الحرة، وهو موافق لما في تفسير الطبري ٢٥/١٩، وفيه تخريج الخبر.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٥٥) و(٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). وهو عند البخاري من طريق مجاهد عن ابن عباس وعند أحمد ومسلم من الطريقين. والصبا: الريح الشرقية، والدَّبُور: الريح الغربية.

﴿وَحُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وقرئ بالياء^(١)، أي: لم يَرَهَا المشركون. قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيّد كلّ خباء يقول: يا بني فلان هلمّ إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: التَّجَاءَ النَّجَاءَ، لِمَا بعث الله تعالى عليهم من الرعب^(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقرئ: «يعملون» بالياء على الخبر، وهي قراءة أبي عمرو. الباقر بالتاء^(٣)، يعني من حفر الخندق والتحرّز من العدو.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ﴿١٣﴾ «إِذْ» في موضع نصب بمعنى: واذكر. وكذا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ١٣]. «مِنْ فَوْقِكُمْ» يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قِبَلِ المَشْرِقِ، جاء منه عَوْفُ بَنِي مَالِك^(٤) في بني نَضْر، وعيينة ابن حِصْنٍ في أهل نَجْدٍ، وطليحةُ بن حُوَيْلِدِ الأَسَدِيِّ في بني أَسَد. «وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ» يعني من بطن الوادي من قِبَلِ المغرب، جاء منه أبو سفيان بن حَرْبٍ على أهل مكة، ويزيد بن جَحْشٍ على قريش، وجاء أبو الأعور السُّلَمِيُّ ومعه حُبَيِّ بنُ أخطب اليهودي في يهود بني قُرَيْظَةَ مع عامر بن الطُّفَيْلِ من وجه الخندق^(٥).

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: شَخَصَتْ. وقيل: مالت؛ فلم تلتفت إلّا إلى عدوها

(١) القراءات الشاذة ص ١١٨ .

(٢) تفسير البغوي ٥٠٩/٣ . وأخرج نحوه الطبري ٢٨/١٩ عن قتادة.

(٣) السبعة ص ٥١٩ ، والتيسير ص ١٧٧ .

(٤) كذا. ولعله مالك بن عوف. ينظر الإصابة ١٧٩/٧ و ٦٤/٩ .

(٥) النكت والعيون ٣٧٩/٤ .

دَهَشًا مِنْ فَرَطِ هَؤُلَ.

﴿وَيَلْفَ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر، وهي الحلاقيم، واحدُها: حَنْجَرَةٌ^(١). فلولا أَنَّ الحلوَقَ ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة^(٢).

وقيل: هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد؛ قال:
إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضْرِيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا^(٣)
أي: كادت تَقْطُرُ.

ويقال: إِنَّ الرئة تنفخ^(٤) عند الخوف، فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغُ الحَنْجَرَةَ مثلاً؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سَخْرُهُ^(٥).

وقيل: إنه مثلٌ مضروبٌ في شدة الخوف ببلوغ القلوبِ الحناجرَ وإن لم تَزُلْ عن أماكنها مع بقاء الحياة^(٦). قال معناه عكرمة؛ روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: بَلَغَ فَرْعُهَا^(٧). والأَظْهَرُ أنه أراد اضطرابَ القلب وضربانه، أي: كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحَنْجَرَةُ والحُنْجُور - بزيادة النون^(٨) -: حرفُ الحَلْقِ.

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١١٣/٢ .

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٤٩٧/٢ برواية: أو تمطر الدما. وذكره برواية المصنف ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٧٦٠/٢، والبصري في الحماسة ١٧/١. وقد ذكر هذا القول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص ١٣٠ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تنفتح.

(٥) ذكر هذا القول الواحد في الوسيط ٤٦١/٣، والزمخشري في الكشاف ٢٥٣/٣، والبغوي ٥١٦/٣. والسَّخْرُ: الرئة. القاموس (سحر).

(٦) النكت والعيون ٣٧٩/٤ - ٣٨٠ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣٢٩/٥، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٥٧١/١٣، والطبري ٣٥/١٩.

(٨) يعني بزيادة النون على «حجر»، ينظر الصحاح (حجر).

﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ قال الحسن: ظنَّ المنافقون أنَّ المسلمين يُستأصلون، وظنَّ المؤمنون أنَّهم يُنصرون^(١). وقيل: هو خطابٌ للمنافقين، أي: قُلتُم: هلكَ محمدٌ وأصحابه.

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿الظُّنُونًا﴾ و﴿الرَّسُولًا﴾ و﴿السَّيِّئًا﴾ [الآيتان: ٦٦ و٦٧] آخرَ السورة؛ فأثبت ألفتها في الوقف والوصل نافع وابن عامر^(٢)، وروي عن أبي عمرو والكسائي^(٣)؛ تمسكاً بخط المصحف، مصحف عثمان، وجميع المصاحف في جميع البلدان^(٤). واختاره أبو عبيد، إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهنَّ، لكنْ يقف عليهنَّ. قالوا: ولأنَّ العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريعها؛ قال:

نحن جلبنا القُرَحَ القَوافِلَا تَسْتَشْفِرُ^(٥) الأَوَاخِرُ الأَوَائِلَا^(٦)
وقرأ أبو عمرو والجحدريُّ ويعقوبُ وحمزةٌ بحذفها في الوصل والوقف معاً^(٧)؛ قالوا: هي زائدةٌ في الخطِّ كما زيدت الألفُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْضَعُوا لَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]^(٨) فكتبوها كذلك، وغير هذا. وأمَّا الشعرُ فموضعُ ضرورةٍ، بخلاف القرآن فإنه أَفْصَحُ اللغات ولا ضرورةَ فيه. قال ابن الأنباري: ولم يُخالِفِ المصحفَ مَنْ

(١) أخرجه الطبري ١٩/٣٥ - ٣٦.

(٢) وأثبتها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥١٩، والتيسير ص ١٧٨.

(٣) والمشهور عنهما غيره على ما يأتي. وذكرها عن أبي عمرو ابن مجاهد في السبعة ص ٥٢٠.

(٤) ذكره أبو عمرو الداني في المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار ص ٣٩.

(٥) المثبت من (خ)، وفي غيرها: تستنفر.

(٦) الرجز لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٣٥، قال شارحه: القُرَحُ القوافلَا، يعني الخيل المسنَّة الضامرة، يقال: قفل الفرس: إذا ضمّر. وقوله: «تستنفر الأواخر الأوائلا، أي: يتلو أواخر الخيل أوائلها، ويروي: تستنفر، وتستفرم.

(٧) السبعة ص ٥١٩، والتيسير ص ١٧٨، والنشر ٢/٣٤٧ - ٣٤٨.

(٨) يعني أن رسم المصحف «ولا أوضعوا» وكذلك في النمل: «أولا أذبحنه» [الآية: ٢١] بزيادة ألف. ينظر المقنع ص ٤٥.

قرأ: «الظنون» و«السبيل» و«الرسول» بغير ألف في الحروف الثلاثة، وخطهن في المصحف بألف؛ لأنَّ الألف التي في «أطعنا»، أو الدَّاخلَة^(١) في أول «الرسول»، والظنون، والسبيل» كَفَى من الألف المتطرِّفة المتأخِّرة، كما كَفَتْ أَلِفُ أَبِي جَادٍ من أَلِفِ هَوَازٍ^(٢).

وفيه حجة أخرى: أنَّ الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحقُ دِعامَة للحركة التي تسبق، والنية فيه السقوط، فلمَّا عُمِل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقف سقوطها^(٣)، ويُعَمَل على أنَّ صورة الألف في الخط لا توجب موضعاً في اللفظ، وأنها كالألف في «ساحران» وفي «فاطر السماوات والأرض» وفي «واعذنا موسى»، وما يشبههنَّ ممَّا يُحذف من^(٤) الخط وهو موجودٌ في اللفظ، ويثبت في اللفظ وهو مُسَقَط من الخط.

وفيه حجة ثالثة: هي أنه كُتِب على لغة مَن يقول: لقيتُ الرُّجُلَا، وقرئ على لغة مَن يقول: لقيت الرجلَ، بغير ألف. أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنَّهم رَوَوْا عن العرب: قام الرُّجُلُو، بواو، ومررتُ بالرُّجُلِي، بياء، في الوصل والوقف. ولقيتُ الرُّجُلَا، بألف في الحالتين كليهما. قال الشاعر:

أسائلةُ عُميرةَ عن أبيها خلالَ الجيشِ تَعْتَرِفُ الرِّكابا^(٥)

(١) في (م): والداخلَة.

(٢) يعني بها حروف: أبجد هوَز حطِّي كلمن صقفص قريسات، التي هي أصل حروف التهجي، وأصل أبجد: أبو جاد، وأصل هوَز: هوَاز، وقد كفت ألف أبجد من ألف هوَاز، فكلما مُثِّل الحرف مرةً؛ استغني عن إعادته. ينظر المحكم في نَقْط المصاحف للداني ص ٢٩ وما بعدها، والفهرست لابن النديم ص ٧.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سقوطهما.

(٤) في (د) و(ظ): في.

(٥) البيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص ٧٣، والصحاح (عرف)، وأساس البلاغة (عرف). ووقع في الصحاح: الركب، بدل: الجيش. وقوله: تعترف، قال الجوهري: اعترفتُ القوم: إذا سألتهم عن خبر لتعرفه.

فَأُثِّبَتِ الْأَلْفُ فِي «الركاب» بناءً على هذه اللغة. وقال الآخر:
إذا الجوزاء أردفت الثُّريا ظننتُ بآل فاطمة الطُّنونا^(١)
وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره.

وقرأ ابن كثير وابن مُحَيِّصٍ والكسائي بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل^(٢).
قال ابن الأنباري: وَمَنْ وَصَلَ بِغَيْرِ أَلْفٍ وَوَقَّفَ بِالْفِ فَجَائِزٌ أَنْ يَحْتَجَّ بِأَنَّ الْأَلْفَ
احتاج إليها عند السَّكْتِ حرصاً على بقاء الفتحة، وأنَّ الألف تَدْعُمُهَا وتقوِّيها.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

«هنا» للقريب من المكان. و«هنالك» للبعيد. و«هناك» للوسط. ويُشار به إلى
الوقت، أي: عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق. وكان هذا
الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحضر والنزال. ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي:
حرَّكوا تحريكاً. قال الزَّجَّاج: كلُّ مصدرٍ من المضاعفِ على فِعْلَالٍ يجوز فيه الكسر
والفتح، نحو: قلقلته قلقالاً وقلقالاً، وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً وزِلْزَالاً. والكسر أجود؛ لأنَّ غيرَ
المضاعفِ على الكسر، نحو: دحرجته دحرجاً^(٣). وقراءة العامة بكسر الزاي، وقرأ
عاصم والجحدري^(٤): «زُلْزَالاً» بفتح الزاي.

قال ابن سلام: أي: حُرِّكُوا بالخوف تحريكاً شديداً. وقال الضَّحَّاك: هو

(١) البيت لخزيمة بن نهد، كما في الأغاني ٧٨/١٣، وجمهرة الأمثال ١٢٣/١، ومجمع الأمثال ٧٥/١.
وفي كتاب الأمثال لأبي عبيد ص ٣٤٥: حزيمة، بالحاء، وأشار إليه الميداني حيث قال: ويروى:
حزيمة، كذا رواه أبو الندى في أمثاله. وفاطمة هي بنت يَذكر بن عَنَزَة، وكان خزيمة يهواها.

(٢) وهي قراءة عاصم من رواية حفص أيضاً. السبعة ص ٥١٩، والتيسير ص ١٧٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢١٨/٤ - ٢١٩.

(٤) كذا في النسخ، ولعل صواب العبارة: عاصم الجحدري دون واو (وهو ابن العجاج)، أما عاصم بن
أبي النجدود - وهو أحد القراء السبعة - فقراءته كقراءة الجمهور، وقد نسبها لعاصم الجحدري ابنُ خالويه
في القراءات الشاذة ص ١١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣٧٣/٤، وأبو حيان في البحر ٢١٧/٧
وزاد نسبتها لعيسى.

إِذَا حُتُّهُم عَنْ أَمَاكِنِهِمْ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا مَوْضِعُ الْخَنْدَقِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ اضْطَرَّابَهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ اضْطَرَبَ فِي نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اضْطَرَبَ فِي دِينِهِ^(١).

و«هَنَالِكُ» يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِيهِ: «ابْتُلِيَ»، فَلَا يُوقَفُ عَلَى «هَنَالِكِ». وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «وَتُظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا»؛ فَيُوقَفُ عَلَى «هَنَالِكِ»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ وَنِفَاقٌ: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بَاطِلًا مِنَ الْقَوْلِ. وَذَلِكَ أَنَّ طُعْمَةَ بَنِ أَبِي بَرْقٍ وَمُعْتَبَ بْنَ قُشَيْرٍ وَجَمَاعَةً نَحْوُ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا قَالُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: كَيْفَ يَعِدُنَا كَنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَبَرَّزَ؟! وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لَمَّا فَشَا فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدَ ضَرْبِ الصَّخْرَةِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ النَّسَائِيِّ^(٣)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْكُلَ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْكُلَ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ الطَّائِفَةُ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ فَمَا فَوْقَهُ. وَعُنِيَ بِهِ هُنَا أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ وَالذُّعْرَابَةُ بْنُ أَوْسٍ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّمَاخُ:

إِذَا مَا رَايَةً رُفَعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ^(٤)

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٠ - ٣٨١، وابن سلام هو يحيى.

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٣: ومن قال: إن العامل فيه: «وتظنون» فليس بالقوي؛ لأنَّ البِدَاءَ لَيْسَتْ مَتَمَكِّنَةً.

(٣) ص ٧٣ من هذا الجزء.

(٤) الدرر ص ١٩٤، والتعريف والإعلام للسهيلى ص ١٣٧، وسلف البيت ٦/ ٣٨.

و «يُثْرِب» هي المدينة، وَسَمَّاهَا رسول الله ﷺ طَيْبَةً وطابة^(١). وقال أبو عبيدة^(٢):
يثرِب اسم أرض، والمدينة ناحيةٌ منها. السُّهَيْلِيُّ^(٣): وَسُمِّيَتْ يثرب لأنَّ الذي نزلها
من العمالِيق اسمه يثرب بن عميل^(٤) بن مهلائيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم.
وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَةَ، فأجحفت بهم
السيول فيها، وبها سُمِّيَتْ الجُحْفَةُ.

﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم قراءةُ العامة. وقرأ حفصُ والسُّلَمِيُّ والجحدريُّ وأبو
خَيْوَةَ بضمِّ الميم^(٥)، يكون مصدرًا من أقام يُقيم، أي: لا إقامة، أو موضعًا يقيمون
فيه. وَمَنْ فتح فهو اسمُ مكان^(٦)، أي: لا موضعَ لكم تقيمون فيه.

﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى منازلكم؛ أَمَرُوهم بالهروب من عسكر النبي ﷺ. قال ابن
عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذي
يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه؟! فارجعوا إلى المدينة فإنَّا مع
القوم، فأنتم آمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْزِلُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم
بنو حارثة بن الحارث، في قول ابن عباس. وقال يزيد بن رومان: قال ذلك أوس بن
قَيْظِي عن ملا من قومه^(٧). ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: سائبةٌ ضائعةٌ ليست بحصينة،

(١) تسميتها طيبة عند أحمد (٢١٥٩٩)، والبخاري (٤٠٥٠)، ومسلم (١٣٨٤) من حديث زيد بن ثابت.
وتسميتها طابة عند أحمد (٢٣٦٠٤)، والبخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد
الساعدي.

(٢) في مجاز القرآن ١٣٤/٢. ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣٠٦/٣.

(٣) في التعريف والإعلام ص ١٣٧.

(٤) وقع في مطبوع التعريف والإعلام: عيل، في الموضعين.

(٥) السبعة ص ٥٢٠، والتيسير ص ١٧٨ عن حفص.

(٦) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣٠٦/٣.

(٧) أخرج القولين الطبري ٤٤/١٩.

وهي مما يلي العدو. وقيل: مُمَكِّنَةٌ لِلسَّرَاقِ لَخُلُوعِهَا مِنَ الرِّجَالِ. يقال: دَارٌ مُعَوَّرَةٌ وذَاتُ عَوْرَةٍ: إِذَا كَانَ يَسْهُلُ دُخُولُهَا. يقال: عَوَّرَ الْمَكَانَ عَوْرًا فَهُوَ عَوْرٌ. وَبَيُوتٌ عَوْرَةٌ. وَأَعْوَرٌ فَهُوَ مُعَوَّرٌ. وقيل: عَوْرَةٌ: ذَاتُ عَوْرَةٍ. وَكُلُّ مَكَانٍ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ وَلَا مُسْتَوْرٍ فَهُوَ عَوْرَةٌ؛ قَالَ الْهَرَوِيُّ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَمَجَاهِدٌ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ: «عَوْرَةٌ» بِكَسْرِ الْوَاوِ^(١)، يَعْنِي قَصِيرَةَ الْجِدْرَانِ فِيهَا خَلَلٌ؛ تَقُولُ الْعَرَبُ: دَارٌ فَلَانٍ عَوْرَةٌ: إِذَا لَمْ تَكُنْ حَصِينَةً. وَقَدْ أَغْوَرَ الْفَارِسُ: إِذَا بَدَأَ فِيهِ خَلَلٌ لِلضَّرْبِ وَالطَّنَنِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

مَتَى تَلْقَهُمْ لَمْ تَلَقْ فِي الْبَيْتِ مُعَوَّرًا وَلَا الضَّيْفَ مَفْجُوعًا وَلَا الْجَارَ مُزْمِلًا^(٢)

الْجَوْهَرِيُّ^(٣): وَالْعَوْرَةُ: كُلُّ خَلَلٍ يُتَخَوَّفُ مِنْهُ فِي ثَغْرِ أَوْ حَرْبٍ. النُّحَاسُ^(٤):

يُقَالُ: أَغْوَرَ الْمَكَانَ: إِذَا تَبَيَّنَتْ فِيهِ عَوْرَةٌ، وَأَغْوَرَ الْفَارِسُ: إِذَا تَبَيَّنَ مِنْهُ مَوْضِعُ الْخَلَلِ. الْمَهْدَوِيُّ: وَمَنْ كَسَرَ الْوَاوَ فِي «عَوْرَةٍ» فَهُوَ شَاذٌ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ: رَجُلٌ عَوْرٌ، أَيْ: لَا شَيْءَ لَهُ، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُعْلَلَ فَيُقَالُ: عَارٍ، كَيَوْمٍ رَاحٍ، وَرَجُلٍ مَالٍ^(٥)؛ أَصْلُهُمَا: رَوْحٌ وَمَوْلٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ فِيمَا ذَكَرُوهُ. ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا﴾ أَيْ: مَا يَرِيدُونَ إِلَّا الْهَرَبَ. قِيلَ: مِنَ الْقَتْلِ. وَقِيلَ: مِنَ الدِّينِ. وَحَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ: بَنِي حَارِثَةَ وَبَنِي سَلَمَةَ، وَهَمُّوا أَنْ

(١) المحتسب ١٧٦/٢ .

(٢) البيت للناطقة الذيباني، وهو في ديوانه ص ١٢٩ ، وسيرة ابن هشام ٥٢٤/١ برواية:

متى تلقهم لا تلق في البيت عورة ولا الجار محروماً ولا الأمر ضائعاً
وذكره الحصري القيرواني في زهر الآداب ٩٠٦/٢ بنحوه مع بيتين آخرين في مدح آل جفنة.

(٣) في الصحاح (عور).

(٤) في إعراب القرآن ٣٠٦/٣ .

(٥) بنحوه في المحتسب ١٧٦/٢ .

يتركوا مراكزهم يومَ الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَقْشَلَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٢]، فلمَّا نزلت هذه الآية قالوا: واللَّهِ ما ساءنا ما كنَّا هَمَمْنَا به؛ إذ الله وليُّنا^(١).

وقال السُّدِّيُّ: الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة؛ أحدهما: أبو عرابة بن أوس، والآخر: أوس بن قُيَظِيٍّ. قال الضَّحَّاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ وهي البيوت أو المدينة، أي: من نواحيها وجوانبها، الواحد: قُطْر، وهو الجانب والناحية. وكذلك القُتْر لغة في القُطْر^(٣). ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ أي: لجأوا لها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر. وقرأ الباقر بالمد^(٤)، أي: لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقد جاء في الحديث: أنَّ أصحاب النبي ﷺ كانوا يعذبون في الله ويُسألون الشُّركَ، فكلُّ أعطى ما سألوه إلا بلا^(٥). وفيه دليلٌ على قراءة المد، من الإعطاء.

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٣، وفيه: إن كان الله ولينا.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٢، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨. ولعل في رواية السدي وهماً، فقد سلف ص ٩٦ أن أوس بن قُيَظِيٍّ هو أبو عرابة بن أوس.

(٣) الصحاح (قتر) و(قطر).

(٤) السبعة ص ٥٢٠، والتيسير ص ١٧٨. وزاد ابن مجاهد نسبتها لابن عامر، وهي رواية عن ابن ذكوان، كما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٨.

(٥) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وابن ماجه (١٥٠) من حديث ابن مسعود ؓ مطولاً، وفيه: وأتاهم على ما أرادوا، بدل: أعطى ما سألوا، وسلف بنحوه ١٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

ويدل على قراءة القصير قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبِرَ﴾ فهذا يدل على «لأتوها» مقصوراً^(١).

وفي «الفتنة» هنا وجهان: أحدهما: سئلوا القتال في العصبية لأسرعوا إليه؛ قاله الضحّاك. الثاني: ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن^(٢).

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي: بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا؛ قاله السديّ والقُتبيّ والحسن والفراء^(٣). وقال أكثر المفسرين: أي: وما اختبَسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، ولأجابوا بالشرك مسرعين^(٤)، وذلك لضعف نيّاتهم ولفرط نفاقهم؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبِرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة الخندق وبعد بدر. قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن.

وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة؛ هموا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بني سَلَمَة، فلمّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم^(٥). ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولاً عنه.

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٠٧. أي: لو دخل عليهم الكفار لجأوهم. وهذا خلاف ما عاهدوا الله عليه. وقال أيضاً: الحديث في أمر بلال لا يشبه الآية؛ لأن الله عز وجل خبر عن هؤلاء بهذا الخبر، وبلال وأصحابه إنما أكرهوا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/١١٤، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٣٣٣.

(٣) زاد المسير ٦/٣٦٢ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/٥١٧ عن الحسن، ومعاني القرآن للفراء ٢/٣٣٧، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/٥١٧.

(٥) أخرج قول قتادة وقول يزيد بن رومان الطبري ١٩/٤٧.

قال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلاً بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك ولربك ما شئت. فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم» فقالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك يا نبي الله؟ قال: «لكم النضر في الدنيا، والجنة في الآخرة»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: إن الله ليسألهم عنه يوم القيامة^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي: من حضر أجله مات أو قُتل، فلا ينفع الفرار. ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا بعد الفرار إلى أن تنقضي آجالكم، وكل ما هو آتٍ قريب.

وروى الساجي عن يعقوب الحضرمي: «وإذا لا يُمْتَنَعُونَ» بياء^(٢). وفي بعض الروايات: «وإذا لا تُمْتَنَعُونَ» نصب بـ «إذا». والرفع بمعنى: ولا تمتنعون، و«إذا» ملغاة، ويجوز إعمالها. فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو أو الفاء. فإذا كانت مبتدأة نصبت بها فقلت: إذا أكرمك^(٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

(١) تفسير البغوي ٥١٧/٣. قال البغوي: وهذا القول ليس بمَرْضِيٍّ؛ لأن الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفرًا، لم يكن فيهم شاك ولا من يقول هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يقرؤا فنقضوا العهد.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٧٤/٤ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٠٧/٣.

سَوْءًا أَي: هلاكاً. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكَرِّ رَحْمَةٍ﴾ أَي: خيراً ونصراً وعافية. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَي: لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أَي: الْمُعْتَرِضِينَ^(١) منكم لأنَّ يَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وهو مُسْتَقٌّ من: عاقني عن كذا، أَي: صَرَفَنِي عَنْهُ. وَعَوَّقَ، على التَّكْثِيرِ ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ على لغة أهل الحجاز. وغيرهم يقولون: «هَلِّمُوا» للجماعة، وهَلِّمِي للمرأة؛ لأنَّ الأصل: «ها» التي للتنبيه؛ ضُمَّتْ إِلَيْهَا «لَمْ»، ثم حُذِفَت الألف استخفافاً وبُنِيَتْ على الفتح. ولم يَجُزْ فِيهَا الْكَسْرُ وَلَا الضَّمُّ لِأَنَّهَا لَا تَنْصَرَفُ. ومعنى «هَلِّمَ»: أَقْبِلْ^(٢).

وهؤلاء طائفتان، أَي: منكم مَنْ يُثَبِّطُ وَيُعَوِّقُ. وَالْعَوَّقُ: الْمَنْعُ وَالصَّرْفُ؛ يُقَالُ: عَاقَهُ يَعَوِّقُهُ عَوْقًا، وَعَوَّقَهُ وَاعْتَاقَهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(٣). قال مقاتل: هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه المنافقون.

﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ﴾ فِيهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ؛ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: مَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَّا أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَهُوَ هَالِكٌ وَمَنْ مَعَهُ، فَهَلِّمَ إِلَيْنَا^(٤).

الثَّانِي: أَنَّهُمُ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ؛ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: هَلِّمَ إِلَيْنَا، أَي: تَعَالَوْا إِلَيْنَا وَفَارِقُوا مُحَمَّدًا فَإِنَّهُ هَالِكٌ، وَإِنَّ أَبَا سَفْيَانَ إِن ظَفِرَ لَمْ يُبْقَ مِنْكُمْ أَحَدًا.

(١) في إعراب القرآن للنحاس: المتعترضين.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٨، وينظر تفصيل الكلام على «هلم» في مشكل إعراب القرآن ٢/٥٧٥.

(٣) الصحاح (عوق).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/١١٤، والطبري ١٩/٥٠ عن قتادة. قوله: أَكَلَةُ رَأْسٍ، أَي: قَلِيلٌ يَشْبَعُهُمْ رَأْسٌ وَاحِدٌ. اللِّسَانُ (أَكَلَ).

الثالث: ما حكاه ابن زيد: أَنَّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ [انصرف من عنده يوم الأحزاب، فوجد أخاه بين يديه شواءً ورغيفاً، فقال: أنت هكذا ورسول الله ﷺ بين^(١) الرماح والسيوف! فقال أخوه - وكان من أمه وأبيه -: هلم إليّ، قد تبع بك وبصاحبك، أي: قد أحيط بك وبصاحبك. فقال له: كذبت، والله لأخبرنه بأمرك. وذهب إلى رسول الله ﷺ ليُخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾. ذكره الماوردي^(٢)، والشعلبي - أيضاً ولفظه: قال ابن زيد: هذا يوم الأحزاب؛ انطلق رجل من عند النبي ﷺ، فوجد أخاه بين يديه رغيفاً وشواءً ونبذ، فقال له: أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟! فقال: هلم إلى هذا، فقد تبع لك ولأصحابك، والذي تحلف به لا يستقل بها محمد أبداً. فقال: كذبت. فذهب إلى النبي ﷺ يخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت. وقيل: لا يحضرون القتال إلا رياءً وسُمتة.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم، أي: بالحفر في الخندق والنَّفَقَةِ في سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم. وقيل: أشِحَّةٌ بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السُّدِّي^(٣).

(١) في (ظ): كان بين.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٥١، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٨٥، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٩. قال ابن عطية =

وانتصب على الحال؛ قال الزَّجَّاجُ^(١). وَنَضَبُهُ عند الفَرَّاءِ من أربع جهات: إحداها: أن يكون على الذم؛ ويجوز أن يكون عنده نصباً بمعنى: يعوّقون أشحّة. ويجوز أن يكون التقدير: والقائلين أشحّة. ويجوز عنده: «ولا يأتون البأس إلا قليلاً» يأتونه أشحّة، أي: أشحّة على الفقراء بالغنيمة جنباء. النحاس^(٢): ولا يجوز أن يكون العامل فيه «المعوقين» ولا «القائلين»؛ لثلاً يفرّق بين الصلة والموصول^(٣).

ابن الأنباري^(٤): «إلا قليلاً» غير تام؛ لأنَّ «أشحّة» متعلّق بالأول، فهو ينتصب من أربعة أوجه: أحدها: أن تنصبه على القطع من «المعوقين» كأنه قال: قد يعلم الله الذي يعوّقون عن القتال ويَشْحُون عن الإنفاق على فقراء المسلمين. ويجوز أن يكون منصوباً على القطع من «القائلين»، أي: وهم أشحّة. ويجوز أن تنصبه على القطع ممّا في «يأتون»، كأنه قال: ولا يأتون البأس إلا جنباء بخلاء. ويجوز أن تنصب «أشحّة» على الذم. فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله: «إلا قليلاً». ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ وقَفَ حَسَنٌ. ومثله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ حال من المضمر في «سَلَقُواكُمْ» وهو العامل فيه.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظِرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وَصَفَهُم بالجبين، وكذا سبيلُ الجبان ينظرُ يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربّما غشي عليه. وفي

= في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٥ : والصواب تعميم الشح أن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

(١) كذا في النسخ. وفي مطبوع إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨ (والكلام منه): قال أبو إسحاق. (وهو الزجّاج). ولعل الصواب: قاله؛ بدل: قال. فقوله: «انتصب على الحال» عند الزجّاج في معانيه ٤/ ٢٢٠، والكلام بعده ليس فيه، إنما هو عند النحاس في الإعراب.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٨. وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٣٨.

(٣) يعني: لأنه يكون داخلاً في صلة الألف واللام، وقد فرّق بينهما بقوله: «ولا يأتون البأس إلا قليلاً» وهو غير داخل في الصلة. مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٤. قال الألوسي في روح المعاني ٢١/ ١٦٥: وتُعقّب: بأن الفاصل من متعلقات الصلة، وإنما يظهر الرد على كونه حالاً من «المعوقين»؛ لأنه قد عطف على الموصول قبل تمام صلته.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤١ - ٨٤٢.

«الْخَوْفُ» وجهان: أحدهما: من قتال العدو إذا أقبل؛ قاله السدي. الثاني: الخوف من النبي ﷺ إذا غلب؛ قاله ابن شجرة. ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ خوفاً من القتال على القول الأول. ومن النبي ﷺ على الثاني. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة. وقيل: لشدة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة^(١).

﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَخْوُفُ سَلَفِكُمْ يَأْتِينَ بِجَدِيدٍ﴾ وحكى الفراء: «صَلَقُوكُمْ» بالصاد. وخطيب مِسْلَاق ومِضْلَاق: إذا كان بليغاً^(٢). وأصل الصَّلَق: الصوت، ومنه قول النبي ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الصَّالِقَةَ وَالْحَالِقَةَ وَالشَّاقَّةَ»^(٣). قال الأعشى:

فيهم المجدُ والسَّماحةُ والنَّجْدُ لذة فيهم والخاطبُ السَّلَاقُ^(٤)

قال قتادة: ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقتِ قسمة الغنيمة، يقولون: أعطينا أعطينا، فإننا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم^(٥). قال النحاس: هذا قول حسن؛ لأن بعده «أشحَّة على الخَيْر»^(٦). وقيل: المعنى: بالغوا في مُخاصمتكم والاحتجاج عليكم. وقال القتيبي^(٧): المعنى: آذوكم بالكلام الشديد، والسَّلَق: الأذى، ومنه قول الشاعر:

(١) النكت والعيون ٣٨٥/٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣٣٩/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣٠٩/٣، وقال الفراء: ولا يجوز «صلقوكم» في القراءة.

(٣) أخرجه الطرسوسي في مسند عبد الله رضي الله عنهما (٢٠) دون قوله: والشاقة، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقریب، وله شاهد عند البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة. الصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنذب والنياحة. والحالقة: هي التي تحلق رأسها عند المصيبة. والشاقة: التي تشق ثوبها. الترغيب والترهيب ٢٥٤/٤.

(٤) الصحاح (سَلَق)، وهو في مجاز القرآن ١٣٥/٢ برواية: المِسْلَاقُ، وفي الديوان ص ٢٦٥: المِضْلَاقُ.

(٥) أخرجه الطبري ٥٤/١٩.

(٦) في النسخ: أشحة عليكم، والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٣٣٦/٥، وهو الصواب.

(٧) في تفسير غريب القرآن ص ٣٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣٨٦/٤.

ولقد سَلَفْنَا هَٰؤُلَاءِ بَنَوَاهِلٍ حَتَّىٰ اِنْحَنَيْنَا^(١)
﴿أَشْحَثَ عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: على المال أن
ينفقوه في سبيل الله؛ قاله السدي^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمَرُوا﴾ يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان؛ والمنافق كافر على
الحقيقة؛ وَصَفَهُم^(٣) الله عَزَّ وَجَلَّ بالكفر.

﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: لم يُبْنِهِمْ عليها؛ إذ لم يقصدوا وجه الله تعالى بها.
﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وكان نفاقهم على الله
هيناً. الثاني: وكان إحباط عملهم على الله هيناً^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا
فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: لجبنهم يظنون الأحزاب لم
ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا في السير ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي:
وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوا أن
يكونوا مع الأعراب، حَذَرًا مِنَ الْقَتْلِ وَتَرْبُصًا لِلدَّوَائِرِ.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «لو أنهم بُدِّي في الأعراب»؛ يقال: بادٍ وبُدِّي، مثل غازٍ
وُعُزِّي. ويُمَدُّ مثل: صائم وصَوَّام^(٥). بدا فلان يبدو: إذا خرج إلى البادية. وهي

(١) قاله عبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص ١٤٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ١٦٧/٢، ومختارات ابن الشجري ٣٩/٢، وهو عندهم برواية: صَلَفْنَا... حتى ارتوتنا، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٣٨٦/٤.

(٢) النكت والعيون ٣٨٦/٤.

(٣) في النسخ: لوصفهم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣٠٩/٣. والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٣٨٧/٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٠٩/٣، والقراءة عن طلحة بن مصرف في القراءات الشاذة ص ١١٩، وذكرها ابن جني في المحتسب ١٧٧/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

البداوة والبداوة، بالكسر والفتح. وأصل الكلمة من البدو، وهو الظهور.

﴿يَسْأَلُونَ﴾ وقرأ يعقوب في رواية رُويس: ﴿يَسْأَلُونَ^(١)﴾ عن أنبائكم ﴿أي: عن أخبار النبي ﷺ﴾ يتحدثون: أما هَلْكَ محمدٌ وأصحابه! أما غلبَ أبو سفيان وأحزابه! أي: يودُّوا لو أنَّهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جُبْنِهِمْ. وقيل: أي: هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا. وقيل: كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنُّون هزيمة المسلمين. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: رميةً بالتبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك لله لكان قليلاً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ



فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا عتابٌ للمتخلفين عن القتال، أي: كان لكم قدوة في النبي ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق. والأسوة: القدوة. وقرأ عاصم: «أسوة» بضم الهمزة. الباقلون بالكسر^(٢)، وهما لغتان. والجمعُ فيها واحدٌ عند الفراء؛ والعلَّةُ عنده في الضمِّ على لغة من كسرَ في الواحدة: الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون: كِسْوة وكُسا، وليحية وليحي^(٣).

الجوهري^(٤): والأسوة والإسوة؛ بالضم والكسر لغتان. والجمعُ أَسَى وإسَى.

(١) في النسخ: يتساءلون، والمثبت من النشر ٣٤٨/٢. قال ابن الجزري: بتشديد السين وفتحها وألف بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٢٠ - ٥٢١، والتيسير ص ١٧٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٩.

(٤) في الصحاح (أسا).

وروى عقبة بن حسان الهَجْرِيُّ عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع النبي ﷺ. ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأسوة: القدوة. والأسوة ما يُتَأَسَّى به، أي: يُتَعَزَّى به. فيقتدى به في جميع أفعاله، ويُتَعَزَّى به في جميع أحواله. فلقد شَجَّ وجهه، وكُسرت رِبَاعِيَّتُهُ، وقُتِلَ عَمُّهُ حمزة، وجاع بطنه، ولم يُلَفَّ إِلَّا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً. وعن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: شَكَّونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، وَرَفَعْنَا [عن بطوننا] عن حَجَرٍ حَجَرٍ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. خرَّجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث غريب^(٢). وقال ﷺ لَمَّا شَجَّ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يَعْلَمُونَ» وقد تقدَّم^(٣).

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال سعيد بن جبیر: المعنى: لِمَنْ كَانَ يَرْجُو لقاء الله بإيمانه، ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال. وقيل: أي: لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ثواب الله في اليوم الآخر^(٤).

ولا يجوز عند الحُدَّاقِ مِنَ التَّخَوُّينِ أَنْ يُكْتَبَ «يرجو» إِلَّا بغير ألفٍ إذا كان لواحد؛ لأنَّ العِلَّةَ التي في الجمع ليست في الواحد^(٥).

﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ خوفاً من عقابه، ورجاءً لثوابه. وقيل: إِنَّ «لِمَنْ» بدلٌ من قوله:

(١) ذكر الحديث مع قول الخطيب ابن حجر في اللسان ١٨١/٥ وقال: أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك، وذكره أيضاً عن الدارقطني في غرائب مالك وقال: قال الدارقطني بعد تخريجه: هذا حديث باطل وإسناده مجهول. اهـ. وقد أخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٢٨/٤.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٧١)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ٣٩٩/١٠.

(٤) النكت والعيون ٣٨٨/٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٠٩، والكلام أعلاه يعني في اللغة، أما في المصحف؛ فإن رسم «يرجو» بألف بعد الواو. ينظر المقنع لأبي عمرو الداني ص ٢٦-٢٧.

«لَكُمْ»، ولا يُجيزه البصريون؛ لأنَّ الغائب لا يُبدَل من المخاطب، وإنَّما اللام من «لِمَنْ» متعلِّقة بـ «حسنة»، و«أسوة» اسم «كان» و«لكم» الخبر^(١).

واختلفَ فيمن أريدَ بهذا الخطاب على قولين: أحدهما: المنافقون؛ عطفًا على ما تقدَّم من خطابهم. الثاني: المؤمنون؛ لقوله: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٢).

واختلف في هذه الأسوة بالرسول عليه الصلاة والسلام؛ هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب. الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب. ويحتمل أن يُحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ ومن العرب من يقول: «راء» على القلب^(٥). ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ﴾ يريد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، فلمَّا رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ قاله قتادة^(٥).

وقولُ ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، عن أبيه، عن جدِّه قال: خُطِبَ رسول الله ﷺ عامَ ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريلُ عليه السلام أنَّ أمتي ظاهرةٌ عليها - يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر». فاستبشر

(١) بنحوه في الإملاء للمكبري ١٩٢/٤.

(٢) النكت والعيون ٣٨٨/٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٠.

(٥) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/٦٠ - ٦١، ونقله المصنف عن النكت والعيون ٣٨٨/٤.

المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صادق؛ إذ وعدنا بالنصر بعد الحضر. فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ذكره الماوردي^(١).

و«ما وعدنا»؛ إن جعلت «ما» بمعنى الذي؛ فالهاء محذوفة، وإن جعلتها مصدراً لم تحتج إلى عائِد. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ قال الفراء^(٢): وما زادهم النظر إلى الأحزاب. وقال علي بن سليمان: «رأى» يدل على الرؤية، وتأنيت الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتسلماً للقضاء؛ قاله الحسن^(٣). ولو قال: ما زادوهم لجاز.

ولما اشتد الأمر على المسلمين، وطال المَقَامُ في الخندق، قام عليه الصلاة والسلام على التَّلِّ الذي عليه مسجدُ الفتح في بعض الليالي، وتَوَقَّع ما وَعَدَهُ الله من النصر وقال: «مَنْ يَذْهَبْ لِيَأْتِينَا بخبرهم وله الجنة» فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ. فقال ثانياً وثالثاً، فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ، فنظر إلى جانبه وقال: «مَنْ هَذَا؟» فقال: حذيفة. فقال: «أَلَمْ تَسْمَعْ كلامي منذ الليلة؟» قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله، مَنَعَنِي أَنْ أَجِيبَكَ الضَّرَّ والقَرَّ. قال: «انْطَلِقْ حَتَّى تَدْخُلَ فِي الْقَوْمِ، فَتَسْمَعْ كَلَامَهُمْ وتَأْتِينِي بخبرهم. اللهم احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَيَّ، انْطَلِقْ وَلَا تُحَدِّثْ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِينِي». فانْطَلَقَ حذيفةُ بِسَلاحِهِ، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا صَرِيخَ المَكْرُوبِينَ، ويا مُجِيبَ المَضْطَرِّينَ، اكشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فقد ترى حالي وحال أصحابي». فنزل جبريلُ وقال: «إِنَّ اللَّهَ قد سَمِعَ دَعْوَتَكَ وكَفَاكَ هَؤُلَاءِ عَدُوَّكَ». فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكراً شكراً كما رَجَمْتَنِي وَرَجَمْتَ أَصْحَابِي». وأخبره جبريلُ أَنَّ اللَّهَ تعالى مرسلٌ عليهم ريحاً، فبَشَّرَ أصحابه بذلك.

(١) في النكت والعيون ٣٨٩/٤. وكثير قاله عنه الحافظ ابن حجر في التريب: ضعيف.

(٢) في معاني القرآن ٣٤٠/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣١٠، وما قبله منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣٨٩/٤.

قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء، فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها، ولا بناءً إلا طرحته، وجعلوا يترسون من الحصباء. وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس.

وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ، فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة بغسول، فكانت تغسل رأسه، فاتاه جبريل فقال: وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء، ثم قال: انهض إلى بني قريظة. وقال أبو سفيان: ما زلت أسمع ققععة السلاح حتى جاوزت الروحاء^(١).

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ۝١٣ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصلح الابتداء بالنكرة لأن «صَدَقُوا» في موضع النعت. ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾. «مَّنْ» في موضع رفع بالابتداء^(٢). وكذا ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ والخبر في المجرور. والنَّحْبُ: النَّذْرُ والعَهْدُ، تقول منه: نَحَبْتُ أَنَحْبُ بالضم. قال الشاعر:

وَإِذْ نَحَبْتُ كُلُّبٌ عَلَى النَّاسِ أَيُّهُمْ^(٣) أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُتَكَرِّمِ^(٤)

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص ٨١ - ٨٢ من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠.

(٣) في النسخ: إنهم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٢. والأغاني ٢١/ ٢٨٢. وذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٨ برواية: ... أئنا على النحب أعطى للجزيل وأفضل، وقال في شرحه: النحب: الخطار، وهو الرهان.

وقال آخر:

قَدْ نَحَبَ الْمَجْدُ عَلَيْنَا نَحْبًا^(١)

وقال آخر:

أَنْحَبُ فَيُقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ^(٢)

وروى البخاري ومسلم والترمذي^(٣) عن أنس قال: قال عمي أنس بن النضر - سُمِّيَتْ به - ولم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فكَبُرَ عليه فقال: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْبُ عَنْهُ، أَمَا وَاللَّهِ لئن أَرَانِي اللَّهَ مَشْهَدًا مع رسول الله ﷺ فيما بعدُ لَيَرَيْنَ اللَّهَ مَا أَضْنَعُ. قال: فهَابُ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا. فَشَهِدَ مع رسول الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ^(٤)، فقال: يَا أَبَا عَمْرٍو، أَيْنَ؟ قال: وَاهَا^(٥) لَرِيحِ الْجَنَّةِ! أَجِدُهَا دُونَ أُحُدٍ. فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ. فَقَالَتْ عَمَّتِي الرُّبَيْعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الْآيَةُ: مِنْهُمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ؛ ثَبَتَ مع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَصِيبَتْ يَدُهُ،

(١) اللسان (نحب) وفيه: عليك، بدل: علينا، وقبله: يا عمرو يا ابن الأكرمين نَسَبًا، قال ابن منظور: أراد نَسَبًا، فخفض لمكان نَحْبٍ، أي: لا يزالك، فهو لا يقضي ذلك النذر أبدًا، والنَّحْبُ: التُّدْرُ.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص ١٣١، وصدوره: أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يَحَاوِلُ.

(٣) صحيح البخاري (٢٨٠٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣)، وسنن الترمذي (٣٢٠٠)، وهو عند أحمد (١٣٠١٥).

(٤) في النسخ: سعد بن مالك، والمثبت من المصادر.

(٥) كلمة تَحْتَنِي وتَلْهَفُ. شرح النووي لصحيح مسلم ٤٨/١٣. والقائل: يا أبا عمرو، هو أنس بن النضر، وأبو عمرو: كنية سعد بن معاذ، ثم قال أنس: وَاهَا... قال المباركفوري في تحفة الأحوذى ٦١/٩: لم ينتظر جوابه لغلبة اشتياقه إلى إيفاء ميثاقه وعهده لربه.

فقال النبي ﷺ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ الْجَنَّةَ»^(١).

وفي الترمذي عنه: أَنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهلٍ: سَلُهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ مَنْ هُوَ؟ وكانوا لا يجترؤون على مسألته، يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنني أطلعتُ من باب المسجد وعليَّ ثيابٌ خضراءُ، فلَمَّا رآني النبي ﷺ قال: «أين السائلُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ؟» قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قَضَى نَحْبَهُ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير^(٢).

وروى البيهقي عن أبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد، مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتولٌ على طريقه، فوقف عليه ودعا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ إلى ﴿بَدِيلًا﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أَنَّ هؤلاء شهداءُ عند الله يومَ القيامة، فأتوهم وزورهم، والذي نفسي بيده لا يسلمُ عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردُّوا عليه»^(٣).

وقيل: التَّحِبُّ: الموت، أي: مات على ما عاهد عليه؛ عن ابن عباس^(٤).

(١) روي عن عائشة رضي الله عنها حديثان بهذا المعنى، الأول أخرجه الحاكم ٤١٥/٢ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، وهو متروك، والثاني أخرجه أبو يعلى (٤٨٩٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٨/٩ وقال: فيه صالح بن موسى وهو متروك. اهـ. ويغني عنه ما أخرجه أحمد (١٤١٧)، وابن أبي شيبه ٩١/١٢ عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ، يعني يوم أحد: «أوجب طلحة». وأخرجه الترمذي (١٦٩٢) و(٣٧٣٨) بأطول منه. قال ابن الأثير في النهاية (وجب): أي: عمل عملاً أوجب له الجنة.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢). وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٧٨/٤ ثم قال: فهذا أدل دليل على أن التَّحِبُّ ليس من شروطه الموت.

(٣) دلائل النبوة ٢٨٤/٣، وقال البيهقي: كذا وجدته في كتابي عن أبي هريرة. اهـ. وأخرجه الحاكم ٢٤٨/٢ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: أنا أحسبه موضوعاً. اهـ. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٢٨٤/٣، والحاكم ٢٠٠/٣ وصححه من حديث أبي ذر ؓ دون قوله: «أشهد أن هؤلاء ... إلى آخر الحديث.

(٤) أخرجه الطبري ٦٤/١٩.

وَالنَّحْبُ أَيْضاً: الوقتُ والمدة. يقال: قضى فلانُ نَحْبَهُ: إذا مات، وقال ذو الرمة:

عَشِيَّةَ فَرِّ الْحَارِثِيِّونَ بَعْدَ مَا قَضَى نَحْبَهُ فِي مُلْتَقَى الْخَيْلِ هَوْبَرٌ^(١)
وَالنَّحْبُ أَيْضاً: الحاجةُ والهَمَّةُ ؛ يقول قائلهم: ما لي عندهم نَحْبٌ، وليس المراد بالآية.

وَالْمَعْنَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِالنَّحْبِ: التَّنْذُرُ كَمَا قَدَّمْنَا أَوَّلًا، أَي: مِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ جَهْدَهُ عَلَى الْوَفَاءِ بَعْدَهُ حَتَّى قُتِلَ، مِثْلَ حَمْزَةَ وَسَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ وَأَنْسِ بْنِ النَّضْرِ وَغَيْرِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الشَّهَادَةَ، وَمَا بَدَّلُوا عَهْدَهُمْ وَنَذَرَهُمْ.
وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَ: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَلَ تَبْدِيلًا»^(٢).

قال أبو بكر الأنباري: وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع، ولأن فيه طعنًا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرّفهم بالصدق والوفاء، فما يُعرف فيهم مغيرٌ، وما وُجدَ من جماعتهم مبدلٌ.

﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أَي: أَمَرَ اللَّهَ بِالْجِهَادِ لِيَجْزِيََ الصَّادِقِينَ فِي الْآخِرَةِ بِصِدْقِهِمْ. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أَي: إِنْ شَاءَ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ لَمْ يُوفِّقْهُمْ لِلتَّوْبَةِ، وَإِنْ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ تَابَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْمَوْتِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ قال محمد بن عمرو

(١) ديوانه ٦٤٧/٢ ، قال شارحه: يعني يزيد بن هوبر الحارثي ، فقال: هوبر ، للقفية .

(٢) المحرر الوجيز ٣٧٨/٤ .

يرفعه إلى عائشة: قالت: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ها هنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى يهامة، ورجع عُيينة إلى نجد ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم. فكفي أمر قريظة بالرعب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ [أي: لا يُردُّ] أمره ﴿عَزِيزًا﴾ لا يُغلب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسٍ رُكَّ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني الذين عاونوا الأحزاب قريشاً وعظمان، وهم بنو قريظة. وقد مضى خبرهم^(٢). ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم، واحداً: صيصية^(٣)؛ قال الشاعر:

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساءً تميم يبتدرن الصياصيا^(٤)
ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوي السداة واللحمة: صيصية؛ قال دريد
ابن الصمة:

فجئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدد^(٥)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠ - ٣١١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ص ٨٤ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(م): صيصية. والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب. ينظر النهاية (صيص)، والتاج (صيص).

(٤) نسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٩ لسحيم عبد بني الحسحاس. وذكره صاحب اللسان (صيا) والتاج (صيص) شاهداً على أن الصياصي قرون البقر، برواية: فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت ... يلتقطن الصياصيا، أي: يلتقطن القرون لينسجن بها، يريد لكثرة المطر غرق الوحش. ونسبه بهذه الرواية ابن سيده للناطقة الجعدي، كما في اللسان (جذم).

(٥) ديوان دريد بن الصمة ص ٤٨، والصحاح (صيص) والكلام منه.

ومنه: صِبْصِيَّةُ الديك التي في رجله. وصَيَاصِي البقر: قُرُونُهَا ؛ لَأَنَّهَا تَمْتَنِعُ بِهَا، وَرَبَّمَا كَانَتْ تُرْكَبُ فِي الرِّمَاحِ مَكَانَ الْأَسِنَّةِ. وَيُقَالُ: جَذَّ اللَّهُ صِبْصِيَّةَهُ^(١)، أَي: أَضْلَه. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وَهُمْ الرِّجَالُ ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وَهُمْ النِّسَاءُ وَالذَّرِيَّةُ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ.

﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوهَا﴾ بَعْدُ ؛ قَالَ يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ وَابْنُ زَيْدٍ وَمِقَاتِلُ: يَعْنِي حُنَيْنَ^(٢)، وَلَمْ يَكُونُوا نَالِهَا، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهَا مَكَّةُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ فَارَسُ وَالرُّومِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: كُلُّ أَرْضٍ تُفْتَحُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٣).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نَقْمَةٍ أَوْ عَفْوٍ قَدِيرٌ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. الثَّانِي: عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَهُ مِنَ الْحَصُونِ وَالْقَرْىِ قَدِيرٌ ؛ قَالَهُ النِّقَاشُ^(٤).

وَقِيلَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا وَعَدَكُمْوهُ﴾ قَدِيرًا لَا تُرَدُّ قُدْرَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ تَعَالَى. وَيُقَالُ: تَأْسِرُونَ وَتَأْسِرُونَ، بِكَسْرِ السِّينِ وَضَمِّهَا ؛ حَكَاهُ الْفَرَاءُ^(٥).

(١) فِي (ظ): صِبْصِيَّةُ، وَفِي مَعَانِي النَّحَاسِ ٣٤١/٥: صِبْصِيَّةُ. وَالصُّبْصِيَّةُ: الْأَصْلُ، كَالصُّنْطِيَّةِ، يَنْظُرُ اللِّسَانُ (صَاصًا) وَ(ضَاضًا).

(٢) كَذَا فِي النِّسْخِ، وَفِي الْمَصَادِرِ: خَيْرٌ، عَلَى مَا يَأْتِي.

(٣) هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي النَّكَتِ وَالْعَيُونِ ٣٩٣/٤، وَالْكَشَافِ ٢٥٨/٣، وَالْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ ٣٨٠/٤، وَتَفْسِيرُ الْبَغْوِيِّ ٥٢٥/٣، وَزَادَ الْمَسِيرُ ٣٧٥/٦. وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ ٨٢/١٩ - ٨٣ قَوْلَ الْحَسَنِ وَقَوْلَ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ وَابْنِ زَيْدٍ.

(٤) النَّكَتِ وَالْعَيُونِ ٣٩٣/٤. وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ هِشَامٍ ١١٨/٢.

(٥) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٣٤١/٢. وَرَوَى ضَمَّ السِّينِ كَمَا فِي الْقُرَآئَاتِ الشَّاذَّةِ ص ١١٩ عَنْ أَبِي حَيَّةٍ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

فيه ثمانى مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبي ﷺ ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل : سألته شيئا من عَرَض الدنيا. وقيل : زيادة في النفقة. وقيل : آذنته بغيره بعضهن على بعض. وقيل : أمر ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن وتخييرهن بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها. وأمر ﷺ أن يخير نساءه فاخترته.

وجملة^(١) ذلك : أن الله سبحانه خير النبي ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا ، وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبيا مسكينا ، فشاوَرَ جبريلَ ، فأشار عليه بالمسكنة فاخترها^(٢) ، فلما اختارها - وهي أعلى المنزلتين - أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته ، فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيهاً له.

وقيل : إن السبب الذي أوجب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يَصُوغَ لها حلقة من ذهب ، فصاغ لها حلقة من فضة وطلّاهَا بالذهب - وقيل : بالزُّعْفَرَان - فأبَتْ إلا أن تكون من ذهب ، فنزلت آية التخيير فخيرهن ، فقلن : اخترنا الله ورسوله^(٣).

وقيل : إن واحدةً منهن اختارت الفراق^(٤). قاله أعلم.

(١) في (خ) : وعلة ، وفي (ظ) : وحكمة .

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٧١٦٠) من حديث أبي هريرة ؓ ، وتنظر شواهد في حاشية المسند .

(٣) لم نقف عليه .

(٤) المدونة ٢/ ٣٨٢ عن ابن شهاب .

روى البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً. قال: فقال: والله لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنتَ خارجة، سألتني النفقة فممتُ إليها فوجأتُ عنقها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هَنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنِي النِّفْقَةُ». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تَسْأَلُنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ما ليس عنده؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهن شهراً، أو تسعاً وعشرين. ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجٍ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قال: فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة، إني أريد أن أغرض عليك امرأً أحبُّ ألاً تُعْجَلِي فيه حتى تستشير أبيك»، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشيرُ أبوي! بل أختارُ الله ورسوله والدارَ الآخرة، وأسألك ألاً تخبرَ امرأةً من نسائك بالذي قلتُ. قال: «لا تسألني امرأةً منهنَّ إلا أخبرتها، إنَّ الله لم يعثني مُعْتَتًا ولا مُتَعْتَتًا، ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(١).

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «يا عائشة، إني ذاكِرُ لك امرأً فلا عليك ألاً تستعجلي حتى تستأمرني أبيك» قالت: وقد علم أنَّ أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إنَّ الله يقول: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجٍ﴾ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمَمًا وَأَسْرَحْتُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾» فقلتُ: أفي هذا أستمُرُ أبوي! فإني أريد الله ورسوله والدارَ الآخرة، وفعلَ أزواجُ النبي ﷺ مثلَ

(١) صحيح مسلم (١٤٧٨)، وهو عند أحمد (١٤٥١٥)، ولم يخرج البخاري، إنما أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها كما سيأتي.

ما فعلتُ. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(١). قال العلماء: وأمّا أمرُ النبي ﷺ عائشةَ أن تشاورَ أبويها ؛ لأنه كان يحبُّها، وكان يخاف أن يحملها فرطُ الشباب على أن تختار فراقه، ويعلم من أبويها أنهما لا يشران عليها بفراقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ﴾ كان للنبي ﷺ أزواجٌ، منهنَّ مَنْ دَخَلَ بها، ومنهنَّ مَنْ عَقَدَ عليها ولم يدخل بها، ومنهنَّ مَنْ خطبها فلم يتمَّ نكاحه معها.

فأولهنَّ: خديجة بنتُ خُوَيْلِد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيِّ بن كلاب. وكانت قبله عند أبي هالة، واسمُه زُرارة بنُ النَّبَّاش الأَسديُّ، وكانت قبله عند عَتِيق بنِ عابد، وَلَدَت منه غلاماً اسمُه عبدُ مَناف. وولدت من أبي هالة هند بنُ أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون، فمات فيه. ويقال: إنّ الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بنُ هند، وسُمِّعت نادِبَتُه تقول حين مات: واهنْدُ بن هنداه، واريبَ رسول الله. ولم يتزوَّج رسول الله ﷺ على خديجةَ غيرها حتى ماتت^(٢). وكانت يومَ تزوّجها رسول الله ﷺ بنتَ أربعين سنة، وتُوفِّيت بعد أن مضى من النبوة سبعُ سنين، وقيل: عشر. وكان لها حين توفِّيت خمسُ وستون سنة. وهي أولُ امرأةٍ آمَنت به. وجميعُ أولاده منها غير إبراهيم. قال حكيم بن حزام: توفِّيت خديجةُ، فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحجُّون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذٍ سنَّةُ الجنازة الصلاةَ عليها^(٣).

ومنهنَّ: سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ بنِ قيس بن عبد شمس العامرية، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عمِّ لها يقال له: السكران بن عمرو، وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فلَمَّا قَدِمَا مكة مات زوجها. وقيل: مات

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٤)، وهو عند أحمد (٢٦١٠٨)، والبخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).

(٢) التعريف والإعلام ص ١٣٨.

(٣) تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص ١٩، وخبر حكيم بن حزام أخرجه ابن سعد ١٨/٨، وفي إسناده الواقدي.

بالحبشة. فلَمَّا حَلَّتْ خطبها رسول الله ﷺ، فتزَوَّجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة. فلَمَّا كبرت أراد طلاقها، فسألته أَلَا يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة - حَسْبَمَا هو مذكور في الصحيح^(١) - فأَمْسَكَهَا، وتوفيت بالمدينة في سؤال سنة أربع وخمسين^(٢).

ومنهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت مسمَّاة لجُبَيْر بن مطعم، فخطبها رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْنِي أَسْلُهَا من جُبَيْرٍ سَلًّا رَفِيقًا^(٣)؛ فتزَوَّجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين؛ [وهي بنت ست سنين] وبنى بها بالمدينة وهي بنتُ تسع، وبقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنتُ ثمان عشرة، ولم يتزَوَّج بِكَرًّا غَيْرَهَا، وماتت سنة سبع وخمسين^(٤)، وقيل: ثمان وخمسين.

ومنهن: حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشِيَّةُ العَدَوِيَّةُ، تزَوَّجها رسول الله ﷺ ثم طَلَّقَهَا، فأُتَاهُ جبريل فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرَأَى حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ»^(٥)

(١) صحيح البخاري (٢٥٩٣)، وصحيح مسلم (١٤٦٣)، وهو عند أحمد (٢٤٣٩٥).

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وينظر طبقات ابن سعد ٥٢/٨ - ٥٧.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وأخرجه ابن سعد ٥٩/٨ عن عبد الله بن أبي مليكة، وهو مرسل. وأخرجه ٥٨/٨ بنحوه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (ظ): ثلاث وخمسين، وفي باقي النسخ: تسع وخمسين، والمثبت من تلقيح الفهوم ص ٢٠، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) الصحيح أن رسول الله ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ ثم ارتجعها؛ أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي ٢١٣/٦، وابن ماجه (٢٠١٦) من حديث عمر ؓ. أما الخبر بتمامه أعلاه، فقد أخرجه البزار (٢٦٦٨) (زوائد)، والطبراني في الكبير ٢٣/٣٠٦ من حديث عمار بن ياسر ؓ؛ قال الهيثمي في المجمع ٢٤٤/٩: في إسناده الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني أيضاً في الأوسط (١٥١) من حديث أنس ؓ؛ قال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير ١٧/٨٠٤ بنحوه من حديث عقبة بن عامر ؓ؛ قال الهيثمي في المجمع: فيه عمرو بن صالح الحضرمي، ولم أعرفه. غير أن الذهبي قال في السير ٢/٢٢٩: إسناده صالح! وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير ١٨/٩٣٤ من =

فراجعها. قال الواقدي: وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وهي ابنة ستين سنة. وقيل: ماتت في خلافة عثمان بالمدينة^(١).

ومنهن: أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية، واسم أبي أمية سهيل. تزوجها رسول الله ﷺ في ليالٍ بَقِيْنَ من شَوال سنة أربع، زَوجها منه ابْنُها سلمة على الصحيح^(٢)، وكان عُمَرُ ابْنُها صغيراً، وتوفيت في سنة تسع وخمسين. وقيل: سنة ثنتين وستين، والأولُ أصحُّ. وصَلَّى عليها سعيد بنُ زيد. وقيل: أبو هريرة. وقُبرَت بالبقيع، وهي ابنة أربع وثمانين سنة^(٣).

ومنهن: أم حبيبة، واسمها رَمْلَة بنتُ أبي سفيان. بعث رسول الله ﷺ عمرو بنَ أمية الضمريَّ إلى النجاشي ليخطب عليه أم حبيبة، فزَوجَها إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأَصْدَقَ النجاشي عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار، وبعث بها مع شُرْحبيل بن حَسَنَة، وتوفيت سنة أربع وأربعين^(٤). وقال الدارقطني: كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة على النُصرانية، فزَوجَها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف^(٥)، وبعث بها إليه مع شُرْحبيل بن حَسَنَة^(٦).

ومنهن: زينب بنتُ جَحش بن رِثاب الأَسَدِيَّة ؛ وكان اسمُها بَرَّةً، فَسَمَّاهَا

= حديث قيس بن زيد؛ قال أبو نعيم فيما نقله عنه الحافظ في لسان الميزان ٤/٤٧٨: هو مجهول؛ لا تصح له صحة ولا رؤية، وقال الحافظ في الإصابة ١٢/١٩٨: مرسل.

(١) تلقيح الفهوم ص ٢١، وقول الواقدي ذكره أيضاً ابن سعد ٨/٨٦.

(٢) المغازي لابن إسحاق ص ٢٦١. وذكره الحافظ في الإصابة ٤/٢٣١، وقال: قال البلاذري: ويقال إن الذي زوجه إياها ابنها عمر، والأول أثبت.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢١.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢١ - ٢٢.

(٥) بعدها في (ظ): درهم.

(٦) سنن الدارقطني (٣٦٠٩)، وهو عند أحمد (٢٧٤٠٨)، وأبي داود (٢١٠٧)، والنسائي في المجتبى

رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرّة، فقالت: يا رسول الله، بدّل اسم أبي؛ فإنّ البرّة حقيرة، فقال لها النبي ﷺ: «لو كان أبوك مؤمناً سَمَّيناه باسم رجلٍ منّا أهل البيت، ولكنّي قد سَمَّيته جحشاً، والجحش أكبر من البرّة». ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنِي^(١). تزوّجها رسول الله ﷺ بالمدينة في سنة خمسٍ من الهجرة، وتوفيت سنة عشرين، وهي بنتُ ثلاثٍ وخمسين^(٢).

ومنهنّ: زينب بنتُ خزيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مَنَاف بن هلال بن عامر بن صَعْصَعَة الهَلَالِيَّةُ، كانت تسمّى في الجاهلية أمّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة، ودُفنت بالبقيع^(٣).

ومنهنّ: جُوَيْرِيَة بنتُ الحارث بن أبي ضرار الخُزَاعِيَّةُ الْمُصْطَلِقِيَّةُ، أصابها في غزوة بني الْمُصْطَلِقِ، فوقعَت في سهم ثابت بن قيس بن شَمَّاس، فكاتَبَها فقضى رسولُ الله ﷺ كتابتها وتزوّجها، وذلك في شعبان سنة ستّ، وكان اسمها بُرّة، فسمّاها رسول الله ﷺ جُوَيْرِيَة، وتوفيت في ربيع الأول سنة ستّ وخمسين. وقيل: سنة خمسين، وهي ابنة خمس وستين^(٤).

ومنهنّ: صفية بنتُ حُيَيِّ بن أخطب الهارونية، سبّاها النبي ﷺ يومَ خَيْبَر

(١) في المؤلف والمختلف كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/٢١٦، والحافظ في الفتح ١٠/٥٧٦ وضعفه. ولم نقف عليه في المطبوع منه. والكلام من التعريف والإعلام ص ١٣٩. وأول الحديث في صحيح مسلم (٢١٤٢) عن زينب بنت أم سلمة قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها بُرّة، فسمّاها زينب، و (٢١٤١) من حديث أبي هريرة.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٢.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وما سلف بين حاصرتين منه ومن طبقات ابن سعد ٨/١١٥.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/١١٦ - ١٢٠، وحديث تغيير اسمها أخرجه مسلم (٢١٤٠).

واصطفاهَا لنفسه، فأسلمت وأعتقها، وجعل عِتْقَهَا صَدَاقَهَا. وفي الصحيح: أَنَّهَا وقعت في سهم دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أَرْؤُس^(١)، وماتت في سنة خمسين. وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودُفِنَتْ بالبقيع^(٢).

ومنهنَّ: رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خُنَافَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، سَبَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وأعتقها، وتزوَّجها في سنة ستٍّ، وماتت مَرْجَعَهُ مِنْ حَاجَةِ الْوَدَاعِ، فدفنها بالبقيع. قال الواقدي: ماتت سنة ستٍّ عشرة، وصَلَّى عَلَيْهَا عُمَرُ^(٣). قال أَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ^(٤): وقد سمعتُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ يَطْوُهَا بِمَلِكِ الْيَمِينِ وَلَمْ يُعْتَقْهَا.

قلت: ولهذا - والله أعلم - لم يذكرها أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّهْلِيُّ فِي عِدَادِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ^(٥).

ومنهنَّ: مَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةِ؛ تزوَّجها رسول الله ﷺ بِسَرِفٍ عَلَى عَشْرَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي عُمُرَةِ الْقَضِيَّةِ، وَهِيَ آخِرُ امْرَأَةٍ تزوَّجها رسول الله ﷺ، وَقَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهَا مَاتَتْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي بَنَى بِهَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَدُفِنَتْ هُنَاكَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ. وقيل: ثلاث وستين. وقيل: ثمان وثلاثين^(٦).

(١) صحيح مسلم ص ١٠٤٥ حديث (١٣٦٥): (٨٧)، وهو عند أحمد (١٣٥٧٥)، وأخرجه بنحوه البخاري (٣٧١)، وهو من حديث أنس ؓ.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٣.

(٣) كذا نقل المصنف كلام الواقدي عن ابن الجوزي في تلقيح الفهوم ص ٢٣، والذي أخرجه ابن سعد عن الواقدي في الطبقات ١٢٩/٨ - ١٣١ أنها ماتت عند رسول الله ﷺ، أما الكلام المذكور أعلاه فهو في حق مارية القبطية، كما ذكر ابن سعد عن الواقدي أيضاً ٢١٦/٨. وينظر الإصابة ١٢/٢٦٧ - ٢٦٨ و ١٣/١٢٥ - ١٢٦.

(٤) كذا ذكر المصنف، والصواب أن القائل الواقدي. ينظر تلقيح الفهوم ص ٢٣، وطبقات ابن سعد ١٣١/٨.

(٥) ينظر التعريف والإعلام ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٦) في (م): ثمان وستين، والمثبت من النسخ الخطية، وتلقيح الفهوم ص ٢٤، والكلام منه. وذكر الذهبي في السير ٢/٢٤٥ أنها ماتت قبل عائشة رضي الله عنها.

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي ﷺ، وهن اللاتي دخل بهن رضي الله عنهن^(١).

فأما من تزوجهن ولم يدخل بهن ؛ فمنهن : الكلابية. واختلفوا في اسمها ؛ فقيل : فاطمة. وقيل : عمرة. وقيل : العالية. قال الزهري : تزوج فاطمة بنت الضحاك الكلابية ، فاستعادت منه فطلقها ، وكانت تقول : أنا الشقية. تزوجها في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفيت سنة ستين^(٢).

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن أبي الجون بن الحارث الكندية ، وهي الجونية. قال قتادة : لما دخل عليها دعاها ، فقالت : تعال أنت ، فطلقها. وقال غيره : هي التي استعادت منه^(٣). وفي البخاري قال : تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين^(٤). وفي لفظ آخر : قال أبو أسيد : أتني رسول الله ﷺ بالجونية ، فلما دخل عليها قال : «هبي لي نفسك» فقالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : «قد عذت بمعاذ» ثم خرج علينا فقال : «يا أبا أسيد ، اكسها رازقين وألحقها بأهلها»^(٥).

ومنهن : قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس ، زوجها إياه الأشعث ، ثم

(١) وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٨٨ - ٩٠ عدا ريحانة بنت زيد وقال : فهؤلاء أزواجه اللاتي لم يختلف فيهن ، وهن إحدى عشرة امرأة ، وأما اللواتي اختلف فيهن ، ممن ابنتي بها وفارقها ، أو عقد عليها ولم يدخل بها ، أو خطبها ولم يتم له العقد منها ، فقد اختلف فيهن وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً يوجب التوقف عن القطع بالصحة في واحدة منهن .

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٤ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٥ .

(٤) صحيح البخاري (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) من حديث سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما .

(٥) صحيح البخاري (٥٢٥٥) ، وهو عند أحمد (١٦٠٦١) . قوله : رازقين ، وفي رواية رازقتين ، الرازية : ثياب كتان بيض . النهاية (رزق) .

انصرف إلى حَضْرَمَوْت، فحملها إليه فبلغه وفاة النبي ﷺ، فردّها إلى بلاده، فارتدّ وارتنّت معه. ثم تزوّجها عكرمة بنُ أبي جهل، فوجدَ من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديدًا. فقال له عمر: إنّها والله ما هي من أزواجه، ما خيرها ولا حَجَبها. ولقد برّأها الله منه بالارتداد. وكان عروّة ينكر أن يكون تزوّجها^(١).

ومنهنّ: أُمُ شَرِيكِ الْأَزْدِيَّةِ، واسمُها غُزَيَّة بنتُ جابر بن حَكيم، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى^(٢)، فطلّقها النبي ﷺ ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إنّ التي وهبت نفسها للنبي ﷺ حَوَلة بنتُ حَكيم^(٣).

ومنهنّ: حَوَلة بنتُ الهذيل بن هُبيرة، تزوّجها رسول الله ﷺ، فهَلَكْتَ قبل أن تصل إليه.

ومنهنّ: شَرَافُ بنتُ خليفة، أختُ دُخية، تزوّجها ولم يدخل بها.

ومنهنّ: ليلي بنتُ الحَظِيم، أختُ قيس، تزوّجها وكانت غَيُورًا، فاستقالته فأقالها.

ومنهنّ: عَمْرَةُ بنتُ معاوية الكِنْدِيَّة، تزوّجها النبي ﷺ. قال الشعبي: تزوّج امرأةً من كِنْدَةَ، فجاء بها بعد ما مات.

ومنهنّ: ابنةُ جُنْدُب بن ضَمْرَةَ الجُنْدُوعِيَّة. قال بعضهم: تزوّجها رسول الله ﷺ. وأنكر بعضهم وجود ذلك.

ومنهنّ: الغِفَارِيَّة. قال بعضهم: تزوّج امرأةً من غِفَار، فأمرها فنزعت ثيابها،

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٥ ، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/١٤٧ - ١٤٨ . وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/١٣٦ : وفيها اختلاف كثير جدًا .

(٢) كذا في النسخ ، وفي تلقيح الفهوم ص ٢٦ : أبي بكر بن سلمى ، والذي في طبقات ابن خياط ص ١١٦ : أبو العَكر بن أبي سُمَيّ ، وفي الاستيعاب ١٣/٢٤٣ ، والإصابة ٤/٢١٨ : أبو العَكر بن سُمَيّ ؛ قال الحافظ : أبو العَكر بفتح المهملة والكاف .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٦ ، وينظر طبقات ابن سعد ٨/١٥٤ - ١٥٨ .

فرأى بياضاً فقال: «إلْحَقِي بأهلك». ويقال: إِنَّمَا رَأَى الْبَيَاضَ بِالْكَلاِبِيَّةِ^(١).

فهؤلاء اللاتي عقد عليهنَّ ولم يدخل بهنَّ، ﷺ.

فَأَمَّا مَنْ خُطِبْنَ فَلَمْ يَتَمَّ نِكَاحُهُنَّ مَعَهُنَّ ؛ وَمَنْ وَهَبَتْ لِهِنَّ نَفْسَهَا :

فمنهنَّ: أُمُّ هَانِئِ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، واسمُها فاختة؛ خطبها النبي ﷺ فقالت: إِنِّي امْرَأَةٌ مُصِيبَةٌ، واعتذرت إليه فَعَذَّرَهَا^(٢).

ومنهنَّ: ضُبَاعَةُ بِنْتُ عامر.

ومنهنَّ: صَفِيَّةُ بِنْتُ بَشَامَةَ بْنِ نَضْلَةَ، خطبها النبي ﷺ وكان أصابها سبَاءٌ، فخيرها النبي ﷺ، فقال: «إِنْ شِئْتُ أَنَا وَإِنْ شِئْتَ زَوْجُكَ» ؟ قالت: زوجي. فأرسلها، فلعتها بنو تميم؛ قاله ابن عباس^(٣).

ومنهنَّ: أُمُّ شَرِيكٍ، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: لَيْلَى بِنْتُ الْحَخِطِيمِ، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمِيَّةٍ، وهبت نفسها للنبي ﷺ فأزجأها، فتزوجها عثمان بن مظعون.

ومنهنَّ: جَمْرَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفِ الْمَزْنِيِّ؛ خطبها النبي ﷺ فقال أبوها: إِنَّ بِهَا سُوءًا. ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برّصت، وهي أُمُّ شَبِيبِ بْنِ الْبَرَصَاءِ الشَّاعِرِ^(٤).

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٦. وحديث الغفارية أخرجه ابن إسحاق في المغازي ص ٢٦٨ عن سعد بن زيد الأنصاري. وأخرجه الحاكم ٣٤/٤ عن زيد بن كعب عجرة عن أبيه. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٢٩) عن زيد بن كعب بن عجرة، ولم يقل عن أبيه. ومداره على جميل بن زيد الطائفي، وقد قال عنه ابن معين: ليس بثقة، وقال البخاري: لم يصح حديثه. الميزان ٤٢٣/١.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٦، وأخرج نحوه أحمد (٧٦٥٠)، ومسلم (٢٥٢٧): (٢٠١) من حديث أبي هريرة ؓ ومصيبة، أي: ذات صبيان. النهاية (صبا).

(٣) أخرجه ابن سعد ٥٤/٨ بإسناد فيه الكلي. والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٧، وشبيب شاعر إسلامي فصيح من شعراء الدولة الأموية. الأغاني ٢٧١/١٢.

ومنهنَّ: سودَةُ القرشيَّةُ ؛ خطبها رسول الله ﷺ وكانت مُضِيَّةً. فقالت: أخاف أن يَضْغَوْ صَبِيَّتِي عند رأسك. فحمِدها وَدَّعَا لها^(١).

ومنهنَّ: امرأةٌ لم يُذكر اسمها. قال مجاهد: خطب رسول الله ﷺ امرأةً فقالت: أستاذُ امرأبي. فلقِيتُ أباهَا فأذن لها، فلقِيت رسول الله ﷺ فقال: «قد التَّحَفْنَا لحافاً غيرَكَ»^(٢).

فهؤلاء جميعُ أزواج النبي ﷺ.

وكان له من السَّراري سُرَّيتان: ماريَةُ القبطيَّةُ وَرَيْحانة ؛ في قول قتادة. وقال غيره: كان له أربع: مارية، وَرَيْحانة، وأخرى جميلةٌ أصابها في السَّبي، وجاريةٌ وهبتها له زَيْنَبُ بنتُ جحش^(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ «إِنْ» شرط، وجوابه: «فَتَعَالَيْنَ» ؛ فعلق التخيير على شرط. وهذا يدلُّ على أنَّ التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان، فينفذان ويمضيان، خلافاً للجَهَّالِ المبتدعة الذين يزعمون أنَّ الرجل إذا قال لزوجته: أنت طالقُ إن دخلتِ الدارَ، أنه لا يقع الطلاقُ إن دخلتِ الدارَ ؛ لأنَّ الطلاق الشرعيُّ هو المنجَزُ في الحال لا غير^(٤).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هو جوابُ الشرط، وهو فعلُ جماعةِ النساء، من قولك: تعال^(٥)، وهو دعاءٌ إلى الإقبال إليه ؛ يقال: تعالَ، بمعنى: أقبل، وُضع لمن له جلالَةٌ ورفعةٌ، ثم صار في الاستعمال لكلِّ داعٍ^(٦) إلى الإقبال، وأمَّا في هذا

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٧ ، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٩٢٣) . ويضغو ، أي: يصيحوا ويضجوا . النهاية (ضفا) .

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٦١ بإسناد فيه الواقدي ، والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٣ .

(٥) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ (والكلام منه): تعالى ، والمثبت من النسخ الخطية .

(٦) في (ظ): مدعو .

الموضع فهو على أصله ؛ فإنَّ الداعي هو رسولُ الله ﷺ. ﴿أَمْتَعَكُنَّ﴾ قد تقدَّم الكلام في المُتعة في «البقرة»^(١). وقرئ: «أَمْتَعَكُنَّ» بضمِّ العين، وكذا: «وَأَسْرَحُكُنَّ» بضمِّ الحاء، على الاستئناف^(٢). والسراحُ الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضِرارٍ ولا منْعٍ واجبٍ لها.

الخامسة: اختلف العلماء في كيفية تخييرِ النبي ﷺ أزواجه على قولين:

الأول: أنَّه خيَّرهنَّ - بإذن الله تعالى - في البقاء على الزوجية، أو الطَّلاق، فاخترنَ البقاء ؛ قالته عائشةٌ ومجاهدٌ وعكرمةٌ والشعبيُّ وابن شهاب وربيعة .
ومنهم مَنْ قال: إنَّما خيَّرهنَّ بين الدنيا فيفارقهنَّ، وبين الآخرة فيمسكهنَّ ؛ لتكونَ لهنَّ المنزلةُ العليا كما كانت لزوجهنَّ، ولم يخيَّرهنَّ في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة، ومن الصحابة عليٌّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخيَّر رسول الله ﷺ نساءه إلَّا بين الدنيا والآخرة^(٣).

قلت: القولُ الأولُ أصحُّ ؛ لقول عائشة رضي الله عنها لمَّا سُئلت عن الرجل يخيِّر امرأته فقالت: قد خيَّرنا رسولُ الله ﷺ، أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يَعُدَّ طلاقاً^(٤). ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلَّا التخييرُ المأمورُ به بين البقاء والطلاق، ولذلك قال: «يا عائشةُ إنِّي ذاكِرُكِ أُمراً، فلا عليكِ أَلَّا تَعْجَلِي فيه حتى تستأمري أبويكِ». ومعلومٌ أنه لم يُرد الاستثمار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أنَّ

(١) ١٦٢/٤ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١١٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ و ١٥١٥ . وحديث علي أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٥٨٨) و (٥٨٩) من طريق محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن عمر بن علي بن الحسين ، عن أبيه، عن علي بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال فيه الحافظ في التريب: ضعيف . ١ هـ . وعلي بن الحسين أبو عمر بن علي بن الحسين لم يدرك جدَّه .

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٥٣) و (٢٥٣٧٦) والبخاري (٥٢٦٣) و (٥٢٦٤) ومسلم (١٤٧٧): (٢٥) و (٢٧) .

الاستثمار إنَّما وقع في الفرقة أو النكاح^(١). والله أعلم.

السادسة: اختلف العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى: إنه لا يلزمه طلاق، لا واحدة ولا أكثر؛ هذا قول عمر بن الخطاب وعليّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة. ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وابن شهاب^(٢).

وروي عن عليّ وزيد أيضاً: إن اختارت زوجها فواحدة بائنة. وهو قول الحسن البصريّ والليث، وحكاه الخطّابي والنّقاش عن مالك^(٣). وتعلّقوا بأنّ قوله: اختاري، كناية في^(٤) إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلبة، كقوله: أنتِ بائن. والصحيح الأوّل؛ لقول عائشة: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدّه علينا طلاقاً. أخرجه الصحيحان^(٥).

قال ابن المنذر: وحديث عائشة يدلّ على أنّ المخيرة إذا اختارت زوجها لم يكن طلاقاً. ويدلّ على أنّ اختيارها نفسها يوجب الطلاق. ويدلّ على معنّى ثالث، وهو أنّ المخيرة إذا اختارت نفسها أنّها تطليقة يملك زوجها رجعتها؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله ﷺ بخلاف ما أمره الله. وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس. وبه قال ابن أبي ليلى والثوريّ والشافعيّ.

وروي عن عليّ: أنها إذا اختارت نفسها أنّها واحدة بائنة. وهو قول أبي حنيفة

(١) أحكام القرآن للكبّي الطبري ٣/ ٣٤٥، وبنحوه في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٧. والحديث سلف ص ١١٨ من هذا الجزء.

(٢) بنحوه في الإشراف ٤/ ١٧٨، والاستذكار ١٧/ ١٦٤ - ١٦٦، والمفهم ٤/ ٢٥٧.

(٣) المفهم ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨، وكلام الخطّابي في معالم السنن ٣/ ٢٤٧، وذكره عن عليّ وزيد والحسن ابن المنذر في الإشراف ٤/ ١٧٨.

(٤) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٨، والكلام منه.

(٥) سلف في المسألة السابقة.

وأصحابه. ورواه ابن خُوَيزِمَنَدَاد عن مالك.

وروي عن زيد بن ثابت: أَنَّهَا إِذَا اخْتَارَتْ نَفْسَهَا أَنَّهَا ثَلَاثٌ. وهو قول الحسن البصري، وبه قال مالك والليث^(١)؛ لِأَنَّ زَوَالَ الْمَلِكِ إِنَّمَا يَكُونُ بِذَلِكَ^(٢).
وروي عن عليٍّ ؓ: أَنَّهَا إِذَا اخْتَارَتْ زَوْجَهَا^(٣) فَلَيْسَ بِشَيْءٍ. وروي عنه: أَنَّهَا إِذَا اخْتَارَتْ زَوْجَهَا فَوَاحِدَةٌ رَجْعِيَّةٌ^(٤).

السابعة: ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أَنَّ التَّمْلِيكَ والتَّخْيِيرَ سَوَاءٌ، والقَضَاءُ مَا قُضِيَ فِيهِمَا جَمِيعاً؛ وهو قولُ عبد العزيز بن أبي سلمة. قال ابن شعبان: وقد اختاره كثير من أصحابنا، وهو قولُ جماعة من أهل المدينة. قال أبو عمر^(٥): وعلى هذا القول أكثر الفقهاء. والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما، وذلك أَنَّ التَّمْلِيكَ عند مالك هو قول الرجل لامرأته: قَدْ مَلَّكَتُكِ، أي: قَدْ مَلَّكَتُكِ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِي مِنَ الطَّلَاقِ، وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَلَمَّا جَازَ أَنْ يَمْلُكَهَا بَعْضُ ذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ وَادَّعَى ذَلِكَ، كَانَ الْقَوْلُ قَوْلَهُ مَعَ يَمِينِهِ إِذَا نَاكَرَهَا. وقالت طائفة من أهل المدينة: له المناكرة في التملك وفي التخيير؛ سواء في المدخول بها [وغير المدخول بها]. والأوّل قول مالك في المشهور.

وروي ابن خُوَيزِمَنَدَاد عن مالك: أَنَّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَنَاكِرَ الْمُخَيَّرَةَ فِي الثَّلَاثِ، وَتَكُونَ طَلَقًا بَائِنَةً كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ. وبه قال ابن الجهم. قال سُخْنُون: وعليه أكثر أصحابنا^(٦).

(١) بنحوه في الأشراف ١٧٨/٤، ١٧٩.

(٢) في النسخ عدا (ظ): لِأَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِذَلِكَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ظ). وذكر الباجي في المنتقى ٥٨/٤ أن قولها: اخترت نفسي، إنما يقتضي ملكها لنفسها، وإزالة ملك الزوج عنها.

(٣) في النسخ: نفسها، والمثبت من الكشف ٢٥٨/٣، وسلف هذا القول عن علي ؓ في بداية المسألة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة ٥٩/٥، والبيهقي ٣٤٥/٧ - ٣٤٦.

(٥) في الكافي ٥٨٨/٢ - ٥٩٠، وما قبله وما سird بين حاصرتين منه.

(٦) عقد الجواهر الثمينة ١٧١/٢.

وتحصيلُ مذهبِ مالك: أنَّ المخيرة إذا اختارت نفسها وهي مدخولٌ بها فهو الطَّلَاقُ كُلُّهُ، وإن أنكر زوجها فلا نكرةَ له، وإن اختارت واحدةً فليس بشيءٍ، وإنَّما الخيارُ البَتَّاءُ، إمَّا أَخَذْتَهُ وإمَّا تَرَكْتَهُ^(١)؛ لأنَّ معنى التخيير: التسريحُ؛ قال الله تعالى في آية التخيير: ﴿فَنَعَايَنْتَ أَمِيتَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ مَرَلَمًا جِيالًا﴾ فمعنى التسريح: البتَّاءُ؛ قال الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والتسريحُ بإحسانٍ هو الطَّلَاقُ الثالثُ؛ رُوي ذلك عن النبي ﷺ كما تقدَّم^(٢).

ومن جهة المعنى: إنَّ قوله: اختاريني، أو اختاري نفسك، يقتضي ألا يكون له عليها سبيلٌ إذا اختارت نفسها، ولا يملك منها شيئاً؛ إذ قد جعل إليها أن تُخرجَ ما يملكه منها، أو تُقيم معه إذا اختارته، فإذا اختارت البعض من الطَّلَاق لم يُعْمَل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزلة مَنْ خَيْرَ بين شيئين فاختر غيرهما. وأمَّا التي لم يدخل بها فله مُناكرُتها في التخيير والتملك إذا زادت على واحدة؛ لأنَّها تَبَيَّنُ في الحال.

الثامنة: اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار؟ فقال مرةً: لها الخيارُ ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدُلُّ على الإعراض. فإن لم تُخْتَرْ ولم تُقْضَ شيئاً حتى افترقا من مجلسهما بَطَلَ ما كان من ذلك إليها، وعلى هذا أكثرُ الفقهاء.

وقال مرةً: لها الخيارُ أبداً ما لم يعلم أنها تركت، وذلك يُعلم بأنَّ تمكُّنه من نفسها بوطءٍ أو مباشرة، فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختَر شيئاً؛ كان له رَفْعُها إلى الحاكم لثَوَقٍ أو تُسْقِطَ، فإنَّ أبْتَّ أسقط الحاكم تملكها.

وعلى القول الأول: إذا أخذت في غير ذلك من حديثٍ أو عملٍ أو مشيٍّ، أو ما ليس من التخيير في شيء^(٣) كما ذكرنا، سقط تخييرها. واحتجَّ بعض أصحابنا لهذا

(١) الاستذكار ١٦٧/١٣.

(٢) ٥٧/٤.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بشيء، بدل: في شيء، والمثبت من (ظ). وفي الكافي ٥٨٩/٢ (والكلام منه): أو ما ليس من التملك في شيء.

القول بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].

وأيضاً؛ فإنَّ الزوج أَطْلَقَ لها القولَ ليعرف الخيار منها^(١)، فصار كالعقد بينهما، فإن قَبِلَتْه؛ وإلَّا سقط، كالذي يقول: قد وهبْتُ لك أو بَايَعْتُكَ، فإن قَبِلَ؛ وإلَّا كان الملك باقياً بحاله. هذا قولُ الثوريِّ والكوفيِّين والأوزاعيِّ والليث والشافعيِّ وأبي ثور، وهو اختيارُ ابنِ القاسم^(٢).

ووجهُ الرواية الثانية: أنَّ ذلك قد صار في يدها وملَكته على زوجها بتمليكه إياها، فلَمَّا مَلَكَتْ ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها.

قلت: وهذا هو الصحيح؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة: «إِنِّي ذَاكِرٌ لك أمراً، فلا عليك أَلَّا تستعجلي حتى تستأمرني أبويك» رواه الصحيح، وخرَّجه البخاريُّ، وصَحَّحه الترمذيُّ. وقد تقدَّم في أول الباب^(٣). وهو حجةٌ لمن قال: إنه إذا خيَّر الرجل امرأته أو مَلَكَها، أنَّ لها أن تقضي في ذلك وإن اُفترقا من مجلسهما؛ روي هذا عن الحسن والزُّهري^(٤)، وقاله مالك في إحدى روايته. قال أبو عبيد: والذي عندنا في هذا الباب اتِّبَاعُ السَّتَةِ في عائشة في هذا الحديث، حين جعل لها التأخير^(٥) إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر. قال المروزيُّ: هذا أصحُّ الأقاويلِ عندي، وقاله ابنُ المنذر والطَّحاوي^(٦).

(١) في (ظ): لها.

(٢) وكلهم يقول: الخيار لها ما لم يقوموا من المجلس. ينظر الإشراف ١٧٨/٤، والاستذكار ١٧/٧٤ و ١٦٨.

(٣) ص ١١٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عنهما عبد الرزاق (١١٩٤٣) و(١١٩٤٤)، وذكره ابن عبد البر في الاستذكار ٧٨/١٧.

(٥) في (م): التخيير.

(٦) ينظر اختلاف العلماء للمروزي ص ٢٠٠، والإشراف ١٧٨/٤، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤٢٣/٢، والاستذكار ١٧/١٦٨.

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ (٣١)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: لما اختار نساء النبي ﷺ رسول الله ﷺ شكرهن الله على ذلك، فقال تَكْرَمَةً لهنَّ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وَبَيَّنَّ حُكْمَهُنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعل ثواب طاعتهم وعقاب معصيتهم أكثر مما لغيرهن، فقال: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فأخبر تعالى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِفَاحِشَةٍ - والله عاصمٌ رسولُه عليه الصلاة والسلام من ذلك كما مرَّ في حديث الإفك^(١) - يضاعف لها العذاب ضعفين؛ لشرف منزلتهم، وفضل درجاتهم، وتقديمهم على سائر النساء أجمع. وكذلك بيَّنت الشريعة^(٢) في غير ما موضع - حسبما تقدَّم بيانه غير مرة^(٣) - أنه كلما تضاعفت الحرُّماتُ فهتكت، تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضوعف حدُّ الحرِّ على العبد، والثَّيبِ على البكر.

وقيل: لما كان أزواج النبي ﷺ في مَهْبِطِ الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قَوِيَ الأمرُ عليهنَّ، ولزمهنَّ بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهنَّ الأجر والعذاب^(٤).

(١) ينظر ١٦١/١٥ وما بعدها.

(٢) في (ظ): ثبتت الشريعة، وفي أحكام القرآن لابن العربي ١٥٢٢/٣ (والكلام منه): ثبت في الشريعة.

(٣) ١٩٨/١٠ - ١٩٩، و ١٣٥/١٣، و ٣٥٦/١٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣٨٢/٤.

وقيل: إنما ذلك لِعَظَمِ الضَّرَرِ فِي جَرَاتِهِنَّ^(١) بِإِذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ عِظَمِ الْجَرِيْمَةِ فِي إِذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. واختار هذا القول الكيّا الطبري^(٢).

الثانية: قال قوم: لو قُدِّرَ الزنى من واحدةٍ منهم - وقد أعاذهنَّ الله من ذلك - لكانت تُحَدُّ حَدَّيْنِ لِعَظَمِ قَدْرِهَا، كما يَزَادُ حَدُّ الْحَرَّةِ عَلَى الْأَمَةِ. والعذابُ بمعنى الحدِّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَشْهَدَنَّ عَذَابَهُمَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. وعلى هذا فمعنى الضَّعْفَيْنِ معنى المِثْلَيْنِ أو المَرَّتَيْنِ. وقال أبو عبيدة^(٣): ضِعْفُ الشَّيْءِ شَيْئَانِ حَتَّى يَكُونَ ثَلَاثَةً. وقاله أبو عمرو فيما حكى الطبريُّ عنه^(٤)، فَيُضَافُ إِلَيْهِ عَذَابَانِ مِثْلُهُ، فَيَكُونُ ثَلَاثَةً أَغْذِبَةً. وَضَعْفُهُ الطَّبْرِيُّ. وكذلك هو غيرُ صحيح وإن كان له باللفظ تعلُّقُ الاحتمال. وَكَوْنُ الْأَجْرِ مَرَّتَيْنِ مِمَّا يُفْسِدُ هَذَا الْقَوْلَ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ فِي الْفَاحِشَةِ بِإِزَاءِ الْأَجْرِ فِي الطَّاعَةِ؛ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ^(٥).

وقال النحاس^(٦): فَرَّقَ أَبُو عَمْرٍو بَيْنَ «يُضَاعَفُ» وَ«يُضَعَّفُ»؛ قَالَ: «يُضَاعَفُ» لِلْمَرَارِ الْكَثِيرَةِ، وَ«يُضَعَّفُ» مَرَّتَيْنِ. وَقَرَأَ: «يُضَعَّفُ» لِهَذَا^(٧). وَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ: «يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ» يَجْعَلُ ثَلَاثَةً أَغْذِبَةً.

قال النحاس^(٨): التَفْرِيقُ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَبُو عَمْرٍو وَأَبُو عَبِيدَةَ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ

(١) فِي النسخ: جَرَاتِهِنَّ، وَالمثبت من أحكام القرآن للكيّا الطبري ٣/ ٣٤٦، والكلام منه.

(٢) فِي أحكام القرآن ٣/ ٣٤٦.

(٣) فِي مجاز القرآن ٢/ ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) فِي التفسير ١٩/ ٩١. وَأبو عمرو: هُوَ ابْنُ الْعَلَاءِ الْبَصْرِيُّ، أَحَدُ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ.

(٥) فِي المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

(٦) فِي معاني القرآن ٥/ ٣٤٣.

(٧) السبعة ص ٥٢١، والتيسير ص ١٧٩، وسيرد ما ورد فيها من قراءات فِي المسألة التالية.

(٨) فِي معاني القرآن ٥/ ٣٤٤.

اللغة عَلِمْتُهُ، والمعنى في «يُضَاعَف» و«يُضَعَّف» واحد، أي: يُجعل ضعفين، كما تقول: إن دفعت إليَّ درهماً دفعتُ إليك ضِعْفَيْهِ، أي: مثليه، يعني درهمين. ويدلُّ على هذا: ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ ولا يكون العذابُ أكثر من الأجر. وقال في موضع آخر: ﴿ءَاتَيْنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨] أي: مثلين. وروى معمر عن قتادة: ﴿يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة.

قال القشيريُّ أبو نصر: الظاهرُ أنه أراد بالضعفينِ المثلين؛ لأنه قال: ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾. فأما في الوصايا؛ لو أوصى لإنسانٍ بضعفَيْنِ نصيبٍ ولديه فهو وصيةٌ بأن يُعطى مثلُ نصيبه ثلاث مراتٍ؛ فإنَّ الوصايا تجري على العُرفِ فيما بين الناس، وكلامُ الله يُردُّ تفسيره إلى كلام العرب، والضَّعْفُ في كلام العرب: المثلُ إلى ما زاد، وليس بمقصودٍ على مثلين. يقال: هذا ضِعْفُ هذا، أي: مثله. وهذا ضِعْفَاهُ، أي: مثلاه، فالضَّعْفُ في الأصل زيادةٌ غيرُ محصورة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْيَقِيفِ﴾ لم يُردِّ مثلاً ولا مثلين. كلُّ هذا قولُ الأزهري^(١). وقد تقدَّم في «النور» الاختلافُ في حدِّ مَنْ قَذَفَ واحدةً منهنَّ^(٢)، والحمد لله.

الثالثة: قال أبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ: ﴿يَنْسَاءَ اللَّيْتِي﴾ رفع بها صوته، ف قيل له في ذلك، فقال: «أذكرهنَّ العهد»^(٣).

قرأ الجمهور: ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ بالياء، وكذلك: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ﴾ حملاً على لفظِ «مَنْ». والقنوتُ: الطاعة، وقد تقدَّم^(٤). وقرأ يعقوب: «مَنْ تَأْتِ»، و«تَقْنُتُ» بالتاء من فوق، حملاً على المعنى^(٥).

(١) في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٠ - ٤٨١.

(٢) ١٢٩/١٥.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١.

(٤) ١٨٣/٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١، وذكر قراءة: «تأت» عن يعقوب ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٩، وذكر =

وقال قوم: الفاحشة إذا وردت مُعرَّفةً فهي الزَّنى واللواط. وإذا وردت منكراً فهي سائر المعاصي. وإذا وردت منعوتة [بالبیان] فهي عقوق الزوج وفساد عِشرته^(١).

وقالت فرقة: بل قوله: «فاحشة مُبَيَّنَّة» تعم جميع المعاصي. وكذلك الفاحشة كيف وردت^(٢). وقرأ ابن كثير: ﴿مُبَيَّنَّة﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها^(٣). وقرأت فرقة: «يُضَاعَفُ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى^(٤).

وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة: «نضاعف» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيِّصِن. وهذه مفاعلة من واحد، كطَارَقْتُ النعلَ وعاقبتُ اللَّصَّ^(٥). وقرأ نافع وحمة والكسائي: ﴿يُضَاعَفُ﴾ بالياء وفتح العين، «العذاب» رفعاً^(٦).

[وقرأ أبو عمرو: ﴿يُضَعَّفُ﴾ على بناء المبالغة بالياء، «العذاب» رفعاً] وهي قراءة الحسن وابن كثير وعيسى^(٧).

وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿نُضَعَّفُ﴾ بالنون وكسر العين المشددة، «العذاب» نصباً^(٨).

= قراءة: «تقنت» ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ ، والمشهور عن يعقوب كقراءة الجمهور .

(١) المحرر الوجيز ٣٨١/٤ ، وما بين حاصرتين منه. وقال ابن عطية: ولذلك يصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنا وغيره هو مما يتستر به ولا يكون مُبَيَّنًا.

(٢) المحرر الوجيز ٣٨٢/٤ .

(٣) القراءة بفتح الياء هي قراءة ابن كثير وعاصم من رواية أبي بكر، وقرأ الباقر بكسرها. التيسير ص ٩٥، وينظر السبعة ص ٢٣٠ .

(٤) قراءة شاذة؛ ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢٥٩/٣ ، وأبو حيان في البحر ٢٢٨/٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣٨٢/٤ ، والمشهور عن أبي عمرو: «يُضَعَّفُ»، كما سلف، وسيرد.

(٦) وهي قراءة عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ . والكلام من المحرر الوجيز ٣٢٨/٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣٢٨/٤ ، وما بين حاصرتين منه. وسلفت قراءة أبي عمرو في المسألة السابقة. ولم نقف على من نسب هذه القراءة لابن كثير، والقراءة المتواترة عنه هي الآتي ذكرها.

(٨) السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ . قال أبو حيان في البحر ٢٢٨/٧ : مَنْ فَتَحَ الْعَيْنَ رَفَعَ «العذاب»، وَمَنْ كَسَرَهَا نَصَبَهُ.

قال مقاتل: هذا التَّضْعِيفُ في العذاب إنَّما هو في الآخرة؛ لأنَّ إيتاء الأجر مرَّتين أيضاً في الآخرة. وهذا حسنٌ؛ لأنَّ نساء النبي ﷺ لا يأتينَ بفاحشةٍ توجب حدًّا. وقد قال ابن عباس: ما بَعَثَ امرأةً نبيًّا قَطُّ، وإنَّما خانت في الإيمان والطاعة^(١).

وقال بعض المفسِّرين: العذابُ الذي تُوعَدُنَ به ضعفين هو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة، فكذلك الأجر. قال ابن عطية^(٢): وهذا ضعيفٌ، اللهمَّ إلَّا أن يكون أزواجُ النبي ﷺ لا تَرْفَعُ عَنْهُنَّ حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هي حالُ الناس عليه بحكمِ حديثِ عُبادةِ بنِ الصَّامت^(٣)، وهذا أمرٌ لم يُرَوْ في أزواجِ النبي ﷺ، ولا حُفِظَ تقرُّره. وأهلُ التفسير على أنَّ الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النَّحَّاس^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ﴾ يعني في الفضل والشرف. وقال: «كأحدٍ» ولم يقل: كواحدة؛ لأنَّ أحداً نفياً من المذكر والمؤنث^(٥)، والواحد والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدمي؛ يقال: ليس فيها أحدٌ، لا شاةٌ ولا بغير.

وإنما خَصَّصَ النساء بالذكر لأنَّ فيمن تقدَّم آسيةٌ ومريم. وقد أشار إلى هذا

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٣١٠/١، وسلف ١٣٥/١١.

(٢) في المحرر الوجيز ٣٨٢/٤.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٧٨)، والبخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، ولفظه عند البخاري: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم... فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ...».

(٤) في إعراب القرآن ٣١٢/٣.

(٥) في (د) و(خ): لأنَّ أحداً يعني من المذكر والمؤنث، وفي معاني القرآن للزجاج ٣٢٤/٤ (والكلام منه): لأنَّ أحداً نفياً عام للمذكر والمؤنث...

قتادة^(١)، وقد تقدّم في «آل عمران» الاختلاف في التفضيل بينهما، فتأمله هناك^(٢). ثم قال: ﴿إِنْ أَتَقَيْنَ﴾ أي: خِفْتَنَ الله. فبيّن أنّ الفضيلة إنّما تتمّ لهنّ بشرط التقوى؛ لِمَا منحنه الله من صحبة الرسول، وعظيم المحلّ منه، ونزول القرآن في حقّهنّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ في موضع جزمٍ بالنهي، إلّا أنه مبنيّ كما بُني الماضي، هذا مذهب سيبويه^(٣)، أي: لا تُلنّ القول، أمرهنّ الله أن يكون قولهنّ جَزْلاً وكلامهنّ فضلاً، ولا يكون على وجه يُظهِر^(٤) في القلب علاقةً بما يُظْهَر عليه من اللّين، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكاملة الرجال بترخيم الصوت ولينه، مثل كلام المربيات والمؤمنات. فتهاهّن عن مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على جواب النهي ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: شكٌ ونفاق؛ عن قتادة والسدّي. وقيل: تشوّف لفجور، وهو الفسق والغزل؛ قاله عكرمة. وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية^(٥).

وحكى أبو حاتم أنّ الأعرج قرأ: «فَيَطْمَعَ» بفتح الياء وكسر الميم. النحاس^(٦): أحسب هذا غلطاً، وأنّ يكون قرأ: «فَيَطْمَعَ» بفتح الميم وكسر العين^(٧) بعطفه على «تَخْضَعْنَ» فهذا وجهٌ جيّدٌ حسن. ويجوز: «فَيَطْمَعَ» بمعنى: فيطّمع الخضوع أو القول.

(١) المحرر الوجيز ٣٨٢/٤. وأخرج عبد الرزاق ١١٦/٢، والطبري ٩٤/١٩ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَالْحَمِيرِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال: كأحد من نساء هذه الأمة.

(٢) ١٢٦/٥ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٢، وينظر الكتاب ٢٠/١.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٢٣ (والكلام منه): يُخَوِّث.

(٥) المحرر الوجيز ٣٨٣/٤، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ١١٦/٢، والطبري ٩٥/١٩. وأخرجنا عن عكرمة قال: شهوة الزنا.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣١٣، وما قبله منه.

(٧) في النسخ: بفتح الياء، وكسر العين، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وذكر ابن جني في المحتسب ١٨١/٢ عن الأعرج أنه قرأ بها، يعني بكسر العين.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: أَمَرَهُنَّ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ^(١). والمرأة تُنذَبُ إذا خاطبت الأجانب - وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة - إلى الغِلْظَةِ في القول من غير رفع صوت؛ فَإِنَّ المرأةَ مأمورةٌ بِخَفْضِ الكلام. وعلى الجملة فالقولُ المعروفُ: هو الصوابُ الذي لا تُنْكَرُهُ الشريعةُ ولا النفوس.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فيه أربع مسائل:
الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾؛ قرأ الجمهور: ﴿وَقَرْنَ﴾ بكسر القاف. وقرأ عاصمٌ ونافعٌ بفتحها^(٢). فأما القراءةُ الأولى فتَحْتَمِلُ وجهين:
أحدهما: أن يكون من الوقار؛ تقول: وقَرَّ يَقَرُّ وقاراً، أي: سَكَنَ، والأمرُ: قِرْ، وللنساء: قِرْنَ، مثل: عِدْنَ وَزِنَنَّ.

والوجهُ الثاني - وهو قولُ المبرد - أن يكون من القرار؛ تقول: قَرَرْتُ بِالْمَكَانِ - بفتح الراء - أَقِرُّ، والأصلُ: أَقِرِرُنَّ، بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً، كما قالوا في ظَلَلْتُ: ظَلَلْتُ، وَمَسِسْتُ: مَسِسْتُ^(٣)، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن ألف الوصل لتحركِ القاف.

قال أبو علي: بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف، كما أبدلت في قيراط

(١) لم نقف عليه.

(٢) السبعة ص ٥٢١ - ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٣) وذلك بأن تُحذف السين الأولى وتحوّل كسرتها إلى الميم، ومنهم من لا يحوّل ويترك الميم على حالها مفتوحة، وكذلك: ظلت، يجوز كسر الظاء وفتحها، وهو من شواذ التخفيف. ينظر الصحاح (مسس).

ودينار، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه، فالتقدير: اقِرْزَن، ثم تُلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرُّك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحرُّك ما بَعْدَهَا، فيصير: «قِرْزَن».

وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قَرِزْتُ في المكان: إذا أقمت فيه - بكسر الراء - أقرُّ بفتح القاف، من باب حَمِدَ يَحْمَدُ، وهي لغة أهل الحجاز، ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف» عن الكسائي، وهو من أجل مشايخه، وذكرها الزَّجاج وغيره، والأصل: «اقرِزَن»، حُذفت الراء الأولى لِثَقَلِ التضعيف، وأُلقيت حركتها على القاف فتقول: قَرِزَن. قال الفراء: هو كما تقول: [هل] ^(١) أَحَسْتُ صَاحِبَكَ؟ أي: هل أَحَسَسْتُ.

وقال أبو عثمان المازني: قَرِزْتُ به عيناً، بالكسر لا غير، من قُرَّة العين. ولا يجوز: قَرِرت في المكان - بالكسر - وإنما هو: قَرَرْتُ، بفتح الراء ^(٢). وما أنكره من هذا لا يقدح في القراءة إذا ثبتت عن النبي ﷺ، فيُستدل بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة.

وزعم ^(٣) أبو حاتم أيضاً: أنَّ «قَرِزَن» لا مذهب له في كلام العرب؛ قال النحاس ^(٤): وأما قول أبي حاتم: إنه لا مذهب له، فقد خولف فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكسائي، والآخر: ما سمعتُ علي بن سليمان يقول؛ قال: وهو من قَرِزْتُ به عَيْنًا أقرُّ، والمعنى: واقِرِزَن به عَيْنًا في بيوتكنَّ. وهو وجه حسن، إلا أنَّ

(١) ما بين حاصرتين من معاني القرآن للفراء ٣٤٢/٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٣٤٢/٢، والغريب المصنف لأبي عبيد ٤٨٩/٢، ومعاني القرآن للزجاج ٢٢٥/٤، والحجة لأبي علي الفارسي ٤٧٥/٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣١٣/٣ - ٣١٤، وتهذيب اللغة ٢٧٧/٨ و ٢٨٠/٩، والكشف عن وجوه القراءات ١٩٧/٢، والمحرم الوجيز ٣٨٣/٤.

(٣) في (د) و(م): وذهب، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣١٣/٣، والكلام منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣١٤/٣.

الحديث يدلُّ على أنه من الأول، كما روي: أنَّ عماراً قال لعائشة رضي الله عنها: إِنَّ الله قد أمرك أن تَقْرِي في منزلِك، فقالت: يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قَوَّالاً بالحقِّ! فقال: الحمدُ لله الذي جعلني كذلك على لسانك^(١).

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «واقرِرنَ» بِالْفِ وَضِلٍ ورائِئِ الأولى مكسورة^(٢).

الثانية: معنى هذه الآية: الأمرُ بلزوم البيت، وإن كان الخطابُ لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى. هذا لو لم يَرِدْ دليلٌ يخصُّ جميع النساء، كيف والشرعة طافحةٌ بلزوم النساء بيوتهنَّ، والانكفافِ عن الخروج منها إلَّا لضرورة، على ما تقدَّم في غير موضع^(٣).

فأمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بملازمة بيوتهنَّ، وخاطبهنَّ بذلك تشريفاً لهنَّ، ونهاهنَّ عن التبرُّج، وأعلَمَ أنه فعلُ الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وقد تقدَّم معنى التبرُّج في «النور»^(٤). وحقيقته: إظهارُ ما ستره أحسنُّ، وهو مأخوذٌ من السَّعة؛ يقال: في أسنانه بَرَج: إذا كانت متفرقة؛ قاله المبرِّد^(٥).

واختلف الناس في «الجاهلية الأولى»؛ ف قيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدُّرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تعرِّضُ نفسها على الرجال^(٦).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٤، وأخرجه بنحوه الطبري في التاريخ ٤/٥٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٨٣.

(٣) ينظر ١/٢٩٢ و ٦/١٤٨ و ١٥/٢٩٣.

(٤) ١٥/٣٤٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/٥٢٨ عن الكلبي، وذكره بنحوه الفراء في معاني القرآن ٢/٣٤٢، والماوردي في النكت والعيون ٤/٤٠٠.

وقال الحَكَم بن عُتَيْبَة: ما بين آدم ونوح، وهي ثمان مئة سنة، وحُكِيتَ لهم سَيْرُ ذميمة.

وقال ابن عباس: ما بين نوح وإدريس. الكلبي: ما بين نوح وإبراهيم. قيل: إنَّ المرأة كانت تلبسُ الدَّرْع من اللؤلؤ غيرَ مَخِيْطِ الجانبين، وتلبسُ الثيابَ الرقاقَ ولا توارِي بَدَنَهَا.

وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبي: ما بين عيسى ومحمد ﷺ. أبو العالية: هي زمانُ داودَ وسليمانَ؛ كان فيه للمرأة قميصٌ من الدرِّ غير مَخِيْطِ الجانبين^(١).

وقال أبو العباس المبرِّد: والجاهلية الأولى كما تقول: الجاهليةُ الجَهْلَاءُ، قال: وكان النساء في الجاهلية الجَهْلَاءِ يُظْهَرْنَ ما يَقْبُحُ إظهارُهُ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وِخْلِمَهَا^(٢)، فينفرد خِلْمُهَا بما فوقَ الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربَّما سأل أحدهما صاحبه البَدَل.

وقال مجاهد: كان النساء يتمشَّينَ بين الرجال، فذلك التبرُّج^(٣).

قال ابن عطية^(٤): والذي يَظْهَرُ عندي أنه أشار للجاهلية التي لَحِقَتْهَا، فَأَمِرْنَ بالنُّقْلَةِ عن سيرتهنَّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكَفَرَةِ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرَةَ عندهم، فكان أمرُ النساء دون حِجْبَةٍ، وجَعَلَهَا أُولَى بالنسبة إلى ما كُنَّ عليه^(٥)،

(١) المحرر الوجيز ٣٨٣/٤، دون قوله: إن المرأة كانت تلبس... الخ. وأخرج الطبري أقوال الحكم وابن عباس والشعبي ٩٨/٩ - ٩٩.

(٢) في (د) و(م): وِخْلِمَهَا، وفي (ظ): وِخْدِنَهَا، وكذا في الموضع الثاني، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٤، والكلام منه، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤٠٠/٤ وقال: والِخْلَمُ: الصاحب.

(٣) النكت والعيون ٣٩٩/٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٣٨٤/٤.

(٥) في المحرر الوجيز: وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام.

وليس المعنى أنَّمْ جاهليةً أخرى. وقد أُوقِعَ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليُّ في الشعراء. وقال ابن عباس في البخاري^(١): سمعتُ أبي في الجاهلية يقول، إلى غير هذا.

قلت: وهذا قولٌ حسن. ويُعْتَرَضُ بأنَّ العرب كانت أهلَ قَشْفٍ وَضْنِكٍ في الغالب، وأنَّ التَّنْعُمَ وإظهارَ الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة، وهي المراد بالجاهلية الأولى، وأنَّ المقصود من الآية مخالفةٌ مَنْ قَبْلَهُنَّ من المِشْيَةِ على تَغْنِيحٍ وتكسيرٍ وإظهارِ المحاسن للرجال، إلى غير ذلك ممَّا لا يجوز شرعاً. وذلك يشملُ الأقوالَ كُلَّهَا وَيَعْمُهَا، فَيَلْزَمَنَّ البيوت، فَإِنْ مَسَّتِ الحاجةُ إلى الخروجِ فَلْيَكُنْ على تَبَدُّلٍ^(٢) وَتَسْتَرٍ تامٍّ. والله الموفق.

الثالثة: ذكر الثعلبي وغيره: أنَّ عائشة - رضي الله عنها - كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تَبُلَّ خِمَارُهَا. وذكر أنَّ سَوْدَةَ قيل لها: لم لا تُحَجِّجِي ولا تَعْتَمِرِي كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعْتَمَرْتُ، وأمرني الله أن أقرَّ في بيتي. قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها^(٣).

قال ابن العربي^(٤): لقد دخلتُ نَيْفًا على ألف قرية، فما رأيتُ^(٥) أَصَوْنَ عِيالاً ولا أَعَفَّ نِسَاءً من نساء نابلس، التي رُمي بها الخليل ﷺ بالنار؛ فَإِنِّي أَقَمْتُ فيها فما رأيتُ امرأةً في طريقي نهاراً، إِلَّا يَوْمَ الجمعة؛ فَإِنَّهُنَّ يَخْرُجْنَ إليها حتى يَمْتَلِئَ المسجدُ

(١) برقم (٣٨٤٠).

(٢) التَبَدُّلُ: تَرَكُّ التَّزْيِينِ. اللسان (بذل).

(٣) المحرر الوحيز ٣٨٣/٤، وخبر عائشة أخرجه ابن سعد ٨١/٨، وأحمد في الزهد ص ٢٠٥. وخبر سودة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ١٩٦/٥.

(٤) في أحكام القرآن ٣/١٥٢٣.

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): نساء، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي.

منهنَّ، فإذا قُضِيَت الصلاةُ وانْقَلَبْنَ إلى منازلهنَّ لم تقع عيني على واحدةٍ منهنَّ إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيتُ بالمسجد الأقصى عفافَ ما خَرَجْنَ من مُعْتَكِفِهِنَّ حتى اسْتَشْهَدْنَ فيه.

الرابعة: قال ابن عطية: بكاء عائشة رضي الله عنها إنَّما كان بسبب سَفَرِها أيامَ الجمل، وحينئذٍ قال لها عَمَّار: إِنَّ الله قد أمرك أن تَقْرِي في بيتك^(١).

قال ابن العربي^(٢): تعلَّق الرافضةُ بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ إذ قالوا: إنَّها خالفت أمرَ رسول الله ﷺ حين خرجت تقودُ الجيوش، وتُباشِرُ الحروب، وتفتحُم مَازِقَ الطَّغْنِ والضَّرْبِ فيما لم يُفَرَضْ عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصِرَ عثمان، فلمَّا رأت ذلك أمرت برواجِلِها فُقِّرَت لتخرج إلى مكة، فقال لها مَرْوان: أقيمي هنا يا أم المؤمنين، ورُدِّي هؤلاء الرِّعَاع؛ فإنَّ الإصلاح بين الناس خيرٌ من حَجِّكَ. قال ابن العربي: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: إنَّ عائشة رضي الله عنها [كانت] نَذَرَت الحجَّ قبل الفتنة، فلم تَرَ التخلُّفَ عن نَذْرِها، ولو خرجت في^(٣) تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لها.

وأما خروجُها إلى حربِ الجمل فما خَرَجَتْ لحربٍ، ولكن تعلَّق الناسُ بها، وشكَّوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهاوُّجِ الناس، ورجَّوا بركتها، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق، وظنَّت هي ذلك، [فخرجت] مقتديةً بالله في قوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. والأمرُ بالإصلاح مُخاطَبٌ به جميعُ الناس من ذكر أو أنثى، حرٌّ أو عبد. فلم يُرِدِ الله تعالى بسابقِ قضائه ونافِذِ حُكْمِهِ أن يقع إصلاح، ولكن جرت

(١) المحرر الوجيز ٣٨٣/٤، وقول عمار رضي الله عنه سلف في المسألة الأولى.

(٢) في أحكام القرآن ١٥٢٣/٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن: عن.

مطاعناتٌ وجراحاتٌ حتى كاد يَفْنَى الفريقان، فعمدَ بعضهم إلى الجمل فعزَّقه، فلمَّا سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضي الله تعالى عنها، فاحتَمَلَهَا إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة، فَرَنَّهُنَّ عَلَيَّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة بَرَّةً تقيَّةً، مجتهدةٌ مصيبةٌ، مثابةٌ فيما تأوَّلتُ، مأجورةٌ فيما فعلتُ؛ إذ كلُّ مجتهدٍ في الأحكام مصيبٌ. وقد تقدَّم في «النحل» اسمُ هذا الجمل^(١)، وبه يُعرَفُ ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر ونهى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال الرَّجَّاج^(٢): قيل: يراد به نساء النبي ﷺ. وقيل: يراد به نساؤه وأهلُ الذين هم أهلُ بيته؛ على ما يأتي بيانه بعد. و«أهلُ البيتِ» نصبٌ على المدح. قال: وإن شئتَ على النداء^(٣). قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس^(٤): إنْ خُفِضَ على أنه بدلٌ من الكاف والميم لم يَجُزْ عند أبي العباس محمد بن يزيد؛ قال: لا يُبدَلُ من المخاطبة^(٥) ولا من المخاطب؛ لأنَّهما لا يحتاجان إلى تبين. ﴿وَيُطَهِّرُكَ تَطْهِيرًا﴾ مصدرٌ فيه معنى التوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

(١) لم نقف عليه عند المصنف، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام ص ٩٤ عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَلَّيْنَا﴾ وَالْقَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرَبِّنَا﴾ [النحل: ٨]، فذكر أن اسمه: عسكر.

(٢) في معاني القرآن ٢٢٦/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣١٤/٣.

(٣) في النسخ: على البدل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٢٢٦/٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣١٥/٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣١٥/٣، وما قبله منه.

(٥) في إعراب القرآن: المخاطب.

هذه الألفاظ تعطي أنَّ أهل البيت نساؤه. وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت؛ مَنْ هم؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس: هم زوجاته خاصّة، لا رجلَ معهنّ. وذهبوا إلى أنَّ البيت أريدَ به مساكنُ النبي ﷺ^(١)؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

وقالت فرقةٌ منهم الكلبيُّ: هم عليّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ خاصةً، وفي هذا أحاديثٌ عن النبي عليه الصلاة والسلام^(٢)، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهَّرَكُمْ﴾ بالميم، ولو كان للنساء خاصةً لكان: عنكنَّ ويطهركنَّ. إلّا أنه يحتملُ أن يكون خَرَجَ على لفظِ الأهل، كما يقولُ الرجلُ لصاحبه: كيف أهلك؟ أي: امرأتك ونساؤك، فيقول: هم بخير، قال الله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

والذي يظْهَرُ من الآية أنها عامّة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنّما قال: ﴿وَيُطَهَّرَكُمْ﴾ لأنَّ رسول الله ﷺ وعليًا وحسنًا وحسينًا كان فيهم، وإذا اجتمع المذكّر والمؤنثُ غلبَ المذكّر، فاقتضت الآية أنَّ الزوجات من أهل البيت؛ لأنَّ الآية فيهنّ، والمخاطبة لهنّ، يدلُّ عليه سياقُ الكلام. والله أعلم. أما إنَّ أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فدخل

(١) المحرر الوجيز ٣٨٤/٤، إلّا أن فيه: مقال، بدل: عطاء. وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص ٣٧٤، وابن عساكر في تاريخه ١٥٠/٦٩، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١٩٨/٥ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وأخرجه عن عكرمة الطبري ١٠٧/١٩ - ١٠٨.

(٢) منها حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم (٢٤٢٤) والطبري ١٠٢/١٩، قالت: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مَرْحَلٌ من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. ومنها حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عند أحمد (١٦٠٨)، ومسلم (٢٤٠٤)، والطبري ١٠٦/١٩. وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند الطبري ١٠١/١٩ - ١٠٢. وحديث أنس ﷺ عند أحمد (١٣٧٢٨)، والطبري ١٠٢/١٩. وحديث وائلة بن الأسقع ﷺ عند أحمد (١٦٩٨٨)، والطبري ١٠٣/١٩ - ١٠٤. وحديث أم سلمة رضي الله عنها وسياقي. وقد ذكرها جميعاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

معهم تحت كساءٍ خَيْرِيَّ وقال: «هؤلاء أهل بيتي» وقرأ الآية وقال: «اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «أنتِ على مكانك وأنتِ على خير» أخرجه الترمذي وغيره وقال: هذا حديث غريب^(١).
وقال القشيري: وقالت أم سلمة: أَدْخَلْتُ رأسي في الكساء وقلت: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «نعم»^(٢).

وقال الثعلبي: [قيل: هم بنو هاشم، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم. وروي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أجمعين^(٣)].

وعلى قول الكلبي يكون قوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ﴾ ابتداءً مخاطبة^(٤) أمر الله عز وجل أزواج النبي ﷺ، على جهة الموعظة وتعدد النعمة بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة. قال أهل العلم بالتأويل: «آيات الله»: القرآن. «والحكمة»: السنة.

والصحيح أن قوله: «وَأَذْكُرَنَّ» منسوق على ما قبله، وقال: «عنكم»؛ لقوله: «أهل»، فالأهل مذكور، فسماهن - وإن كنَّ إناثاً - باسم التذكير، فلذلك صار: «عنكم». ولا اعتبار بقول الكلبي وأشباهه، فإنه توجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان^(٥) في زمن السلف الصالح لَمَنَعُوهُ من ذلك وَحَجَرُوا عليه. فالآيات كلها من

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٥) بنحوه، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ عدا آخره، وهو قوله: «أنت على مكانك...» فهو من سنن الترمذي. ووقع في المحرر بدلاً منه: «أنت من أزواج النبي، وأنت إلى خير» وأخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٠٨)، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٢) أخرج نحو هذه الرواية أحمد (٢٦٥٤٠) و(٢٦٥٥٠)، والبغوي في التفسير ٣/ ٥٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤، وما سلف بين حاضرتين منه. وحديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٤) في (د) و(م): ابتداء مخاطبة الله تعالى أي مخاطبة، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) في (ظ): كانت.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ منسوق بعضها على بعض، فكيف صار في الوسط كلاماً مُنفصلاً لغيرهن! وإنما^(١) هذا شيء جرى في الأخبار أن النبي عليه الصلاة والسلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين، فعمد النبي ﷺ إلى كساء فلقها عليهم، ثم ألقى بيده إلى السماء فقال: «اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، اللَّهُمَّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فهذه دعوة من النبي ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحب أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة، وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل.

الثانية: لفظ الذكر يحتمل ثلاثة معانٍ:

أحدها: أي: اذكُرْ موضع النعمة؛ إذ صيرَكُنَّ الله في بيوتٍ تُتلى فيها آيات الله والحكمة.

الثاني: اذكُرْ آيات الله، وافدِرْ قَدْرَهَا، وفكِّرْ فيها حتى تكون منكراً على بالٍ لتعظن بمواعظ الله تعالى، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله.

الثالث: «اذكُرْ» بمعنى: احفظن وافرأن وألزمته الألسنة، فكأنه يقول: احفظن أوامر الله تعالى ونواهيه، وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله^(٢). فأمر الله سبحانه وتعالى أن يُخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام ويسمعن من أقواله، حتى يبلغن ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين.

الثالثة: قال ابن العربي^(٣): في هذه الآية مسألة بدعية، وهي أن الله تعالى أمر

(١) في (ظ): فكيف صار في الوسط كلام منفصل وإنما...

(٢) المحرر الوجيز ٣٨٥/٤.

(٣) في أحكام القرآن ١٥٢٦/٣، وما قبله منه.

نبيّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليم ما علمه من الدين، فكان إذا قرأ على واحد - أو ما اتَّفَق - سقط عنه الفرض، وكان على مَنْ سمعه أن يبلغه إلى غيره، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم: نزل كذا، ولا: كان كذا. ولهذا قلنا: يجوز العملُ بخبرِ بُسْرَةٍ في إيجابِ الوضوءِ مِنْ مَسِّ الذَّكْرِ^(١)؛ لأنها رَوَتْ ما سمعتُ، وبلغت ما وَعَت. ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة، على أنه قد نُقل عن سعد بن أبي وقاص وابنِ عمر^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: روى الترمذي^(٣) عن أمِّ عُمَارَةَ الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلَّا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيءٍ! فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية. هذا حديثٌ حسنٌ غريب. و«المسلمين» اسمٌ «إنَّ». و«المسلمات» عطفٌ عليه. ويجوز رفعهنَّ عند البصريين، فأما الفراء فلا يجوز عنده إلَّا فيما لا يتبيّن فيه الإعراب^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٩٣)، وأبو داود (١٨١)، والترمذي (٨٢)، والنسائي في المجتبى ١/١٠٠، وابن ماجه (٤٧٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وبُسرَةُ هي بنت صفوان بن نوفل القرشية الأسدية، بنت أخي ورقة بن نوفل، لها سابقة قديمة وهجرة. الإصابة ١٢/١٥٨.

(٢) أخرجه عنهما مالك في الموطأ ١/٤٢، وابن المنذر في الأوسط ١/١٩٤.

(٣) في سننه (٣٢١١).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٥.

الثانية: بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعُمُّ الإيمانَ وعَمَلَ الجوارح، ثم ذكر الإيمانَ تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عَظُمُ الإسلام ودِعَامَتُهُ. والقانت: العابد المطيع. والصادق معناه: فيما عوَّدهَ عليه أن يفي به. والصابر: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْره والمنسَط. والخاشعُ: الخائفُ لله. والمتصدِّق: بالفرض والنَّقل. وقيل: بالفرض خاصَّةً، والأوَّل أمدَحُ. والصائم كذلك^(١).

﴿وَالْحَنِيفِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفَظِينَ﴾ أي: عمَّا لا يَحِلُّ من الزَّنى وغيره. وفي قوله: «والحافظات» حذفٌ يدلُّ عليه المتقدِّم، تقديرُه: والحافظاتِها، فاكتفى بما تقدَّم. وفي «الذَّاكرات» أيضاً مثله^(٢)، ونظيره قولُ الشاعر:

وَكُنتَ مُدْمَاءً كَأَنَّ مُتَوْنَهَا جَرَى فَوْقَهَا وَاسْتَشَعَرْتُ لَوْنَ مُذْهَبٍ^(٣)
وروى سيبويه: «لَوْنٌ مُذْهَبٍ» بالنصب. وإنَّما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال: واستشعرته، فيَمَن رَفَعَ لَوْنًا^(٤).

والذاكر قيل: في أدبار الصلوات، وغُدُوًا وَعَشِيًّا، وفي المضاجع، وعند الانبثاء من النوم. وقد تقدَّم هذا كُلُّهُ مفضَّلاً في مواضعه، وما يترتَّب عليه من الفوائد

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧.

(٣) قائله طفيل الغنوي كما في الكتاب ١/ ٧٦، والإنصاف لأبي البركات الأنباري ١/ ٨٨، والحلل للبطلوسي ص ١٤٦، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧ دون نسبة، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (شعر) برواية: وراداً مُدْمَاءً وكُمتاً كأنما...

والكُمت جمع كُمت، وهو لونٌ بين الحمرة والسواد. والمُذْهَب هنا اسمٌ للذهب، وَصَفَ خَيْلاً كُمتاً مُشْرِبَةً حُمْرَةً وهي المدمئة، وشبهه ما أُشربت كُمتُها من الحمرة بالذهب. ينظر شرح الشواهد للشتمري ص ١٠٠. وقال البطلوسي: معنى استشعرت: لبسته شعاراً، والشعار: ما ولي الجسد، والدثار فوقه. والمتون: الظهور. قال الزجاج: المعنى: جرى فوقها لونٌ مُذهَّب واستشعرته.

(٤) يعني إذا أعمل فيها الفعل الثاني وهو «استشعرت» نُصبت، وهو ما استشهد به سيبويه. وإذا أعمل فيها الفعل الأول وهو «جرى» رُفعت. ينظر شرح الشواهد للشتمري ص ١٠٠. والكلام من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٠.

والأحكام، فأغنى عن الإعادة. والحمد لله رب العالمين.

قال مجاهد: لا يكون ذاكراً لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً^(١).

وقال أبو سعيد الخدري[ؓ]: مَنْ أَيْقَظَ أَهْلَهُ بِاللَّيْلِ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظننت أن الخطبة لنفسه، فلما تبين أنه يريد لها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت، فنزلت الآية. فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته^(٣).

في رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيدا كان بالأمس عبداً، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: مُرْنِي بِمَا شِئْتَ فَزَوِّجْهَا مِنْ زَيْدٍ^(٤).

وقيل: إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت وهبت نفسها

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١١٧/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٩) . وأخرجه أيضاً أبو داود (١٣٠٩) و(١٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١٣١٢) و(١١٣٤٢)، وابن ماجه (١٣٣٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٣) المحرر الوجيز ٣٦٨/٤ ، وأخرج قولهم الطبري ١١٢/١٩ - ١١٣ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ١١٧/٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٢٧/٣ - ١٥٢٨ ، وذكر هذه الرواية أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤٠٤/٤ ، والواحي في الوسيط ٤٧١/٣ ، والزمخشري في الكشاف ٢٦١/٣ .

للنبي ﷺ، فزوّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالوا: إِنَّمَا أَرَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فزوّجنا غيره^(١)؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد؛ قاله ابن زيد^(٢).

وقال الحسن: ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ بأمرٍ أن يعصياه^(٣).

الثانية: لفظة: «ما كان» و«ما ينبغي» ونحوهما، معناها: الحظر والمنع. فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، كما في هذه الآية، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْكِحُوا شَجَرَهُمَا﴾ [النمل: ٦٠]. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلشِّرْ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلشِّرْ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وربما كان في المندوبات، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا^(٤).

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ بل نصٌّ في أنّ الكفاءة لا تُعتبر في الأحساب، وإنّما تُعتبر في الأديان، خلافاً لمالكٍ والشافعيّ والمغيرة وسُخُنون. وذلك أنّ الموالى تزوّجت في^(٥) قريش؛ تزوّج زيد زينب بنت جحش. وتزوّج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وزوّج أبو حذيفة سالماً من هند بنت الوليد بن عُتبة^(٦). وتزوّج بلالٌ أخت

(١) في (د): فزوّجها، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في المحرر الوجيز والكلام منه. وفي تفسير الطبري: فزوّجنا عبده.

(٢) المحرر الوجيز ٣٨٦/٤. وأخرجه بنحوه الطبري ١١٤/١٩. وأمّ كلثوم رضي الله عنها كانت ممن أسلم قديماً، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة، تزوّجها زيد بن حارثة، ثم الزبير، ثم عبد الرحمن بن عوف، ثم عمرو بن العاص فماتت عنده. الإصابة ٢٧٨/١٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣١٦/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٨٥/٤.

(٥) في (د): من.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٢٨/٣، وخبر تزويج أبي حذيفة لسالم مولاه من هند بنت الوليد بن عتبة، وهي بنت أخي أبي حذيفة، أخرجه البخاري (٤٠٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عبد الرحمن بن عوف^(١). وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون: ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ بالياء. وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث، فتأنيتُ فعله حسن. والتذكير على أَنَّ الْخَيْرَةَ بمعنى التخيير^(٣)، فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السّمِيع: «الخيرة» بإسكان الياء^(٤). وهذه الآية في ضَمَنِ قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

ثم توعدّ تعالى وأخبر أَنَّ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ. وهذا أدلُّ دليلٍ على ما ذهب إليه الجمهور من فقهاءنا وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين؛ من أَنَّ صيغة «أَفْعَلْ» للوجوب في أَضَلِّ وَضَعِهَا؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَفَى خَيْرَةَ المكلّف عند سماع أمره وأمر رسولهِ ﷺ، ثم أَطْلَقَ على مَنْ بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسمَ المعصية، ثم علّق على المعصية بذلك الضلال، فلزِم حمل الأمر على الوجوب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

فيه تسع مسائل:

(١) أخرجه الدارقطني (٣٧٩٧) من طريق حنظلة بن أبي سفيان عن أمه. وذكر ليحيى بن معين فأنكره وقال: هذا باطل، ما كانت أخت عبد الرحمن بن عوف قط تحت بلال. تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٩٣/١.

(٢) ينظر ٤٥٨/٣ وعند المسألة التاسعة عشرة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٣) في (د) و(م): التخيير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٦، والكلام منه. وقرأ: «تكون» بالتاء نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن عيسى بن سليمان.

الأولى: روى الترمذي^(١) قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَانَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هَنْدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعِثْقِ فَأَعْتَقْتَهُ: ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَهَا قَالُوا: تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبَنَاهُ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَلَبِثَ حَتَّى صَارَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فَلَانُ مَوْلَى فَلَانٍ، وَفَلَانُ أَخُو فَلَانٍ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ [يعني أعدل]. قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ [غَرِيبٌ] قَدْ رَوَى عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هَنْدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾. هَذَا الْحَرْفُ لَمْ يُرَوْ بِطَوْلِهِ.

قلت: هَذَا الْقَدْرُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»^(٢) وَهُوَ الَّذِي صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»^(٣). وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ^(٤). وَقَالَ عُمَرُ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةُ وَالحَسَنُ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ آيَةً أَشَدَّ عَلَيْهِ

(١) فِي سَنَنِهِ (٣٢٠٧)، وَمَا سِيرِدَ بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ.

(٢) بِرَقْم (١٧٧): (٢٨٨)، وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ (٢٦٠٤١). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٢٠) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ.

(٣) بِرَقْم (٣٢٠٨).

(٤) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤٧٨٧).

من هذه الآية^(١). وقال الحسن وعائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه^(٢).

وروي في الخبر: أنه أمسى زيداً فأوى إلى فراشه، قالت زينب: ولم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر عليّ^(٣). هذه رواية أبي عظمة نوح ابن أبي مريم، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك^(٤). وفي بعض الروايات: أن زيدا تورم ذلك منه حين أراد أن يقربها^(٥)، فهذا قريب من ذلك.

وجاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال: إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإنني أريد أن أطلقها، فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية^(٦). فطلقها زيداً، فنزلت: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية؛ فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين - منهم الطبري وغيره - إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزینب بنت جحش وهي في عظمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيداً فيتزوجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، يشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان،

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٠٦ عن عمر رضي الله عنه، وذكره البخاري ٣/٥٣٢ عن ابن عمر وابن مسعود وعائشة، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/١١٧، والطبري ١٩/١١٥.

(٢) أخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/١١٧، والطبري ١٩/١١٥، وسلف عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) نوارد الأصول ص ١٨٩. وذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٢/٥، مختصراً بلفظ: ما كنت أمتنع منه غير أن الله عز وجل منعني منه.

(٤) ونوح ابن أبي مريم قال فيه الحافظ ابن حجر في التقریب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٥) نوارد الأصول ص ١٨٩.

(٦) أخرج نحوه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ».

وتعظماً بالشرف، قال له: «أتق الله - أي: فيما تقول عنها - وأمسك عليك زوجك» وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف^(١).

وقال مقاتل: زوّج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد، فمكثت عنده حيناً، ثم إنّه عليه الصلاة والسلام أتى زيدا يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمةً، وكانت بيضاء جميلةً جسيمةً من أتم نساء قريش، فهويها وقال: «سبحان الله مقلب القلوب»! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإنّ فيها كبراً، تعظم عليّ وتؤذي بلسانها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك زوجك وأتق الله».

وقيل: إنّ الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلَةً في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنّها وقعت في نفس النبي ﷺ، وذلك لما جاء يطلب زيدا، فجاء زيد فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها. وقال ابن عباس: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ الحب لها^(٢).

﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ أي: تستحييهم. وقيل: تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قُلت:

(١) المحرر الوجيز ٣٨١/٤، وقول الطبري في تفسيره ١١٥/١٩، وأخرج الطبري خبر قتادة وابن زيد ١١٥/١٩ - ١١٦.

(٢) ذكر خبر ابن عباس الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٩، وقد ردّ العلماء هذه الأخبار ونزّوها النبي ﷺ عما نسب إليه فيها، فقد قال ابن العربي في أحكام القرآن ١٥٣١/٣: وهذه الروايات كلّها ساقطة الأسانيد، وقولهم: إنّ النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه. باطل. اهـ. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ما هنا آثاراً عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. اهـ. وردّها أيضاً القاضي عياض في الشفا ٤٢٥/٢، وذكر عن القشيري قوله: وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي ابنة عمته، ولم يزل يراها منذ وُلدت، ولا كان النساء يحتجن منه ﷺ، وهو زوجها لزيد. اهـ. وقال أبو العباس في المفهم ٤٠٦/١: قد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، ويستحيل عليه؛ إذ قد عصمه الله منه، ونزّهه عن مثله. وينظر فتح الباري ٥٢٣/٨.

طَلَّقَهَا، ويقولون: أَمَرَ رَجُلًا بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ نَكَحَهَا حِينَ طَلَّقَهَا. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ. وَقِيلَ: وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَحْيَ مِنْهُ، وَلَا تَأْمُرُ زَيْدًا بِإِمْسَاكِ زَوْجَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَكَ اللَّهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ زَوْجَتَكَ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ هَذَا.

وروي عن علي بن الحسين: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنَّ زَيْدًا يَطْلُقُ زَيْنَبَ، وَأَنَّهُ يَتَزَوَّجُهَا بِتَزْوِيجِ اللَّهِ إِيَّاهَا [لَهُ]، فَلَمَّا تَشَكَّى زَيْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُلِقَ زَيْنَبَ، وَأَنَّهَا لَا تُطِيعُهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ يَرِيدُ طَلَاقَهَا، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جِهَةِ الْأَدَبِ وَالْوَصِيَّةِ: ﴿أَتَقِيَ اللَّهَ﴾ [أَي: فِي قَوْلِكَ: ﴿وَأَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفَارِقُهَا وَيَتَزَوَّجُهَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَى فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالطَّلَاقِ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَخَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَلْحَقَهُ قَوْلٌ مِنَ النَّاسِ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بَعْدَ زَيْدٍ، وَهُوَ مَوْلَاهُ، وَقَدْ أَمَرَهُ بِطَلَاقِهَا، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَنْ خَشِيَ النَّاسَ فِي شَيْءٍ قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ، بِأَنْ قَالَ: «أَمْسِكَ»، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ يَطْلُقُ. وَأَعْلَمَهُ أَنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْخَشْيَةِ، أَي: فِي كُلِّ حَالٍ^(١).

قال علماؤنا رحممة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزُّهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري^(٢)، والقاضي أبي بكر بن العربي^(٣) وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ إِنَّمَا هُوَ: إِرْجَافُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُ نَهَى عَنْ تَزْوِيجِ نِسَاءِ الْأَبْنَاءِ وَتَزَوُّجِ بَزَوْجَةِ ابْنِهِ. فَأَمَّا مَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَوِيَ زَيْنَبَ امْرَأَةَ زَيْدٍ - وَرَبَّمَا أَطْلَقَ بَعْضُ الْمُجَانِّ لَفْظَ عَشَقَ - فَهَذَا إِنَّمَا يَصُدُّرُ عَنْ جَاهِلٍ بِعَصْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ مِثْلِ هَذَا، أَوْ

(١) المحرر الوجيز ٣٨٦/٤، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرج خبر علي بن الحسين الطبري ١١٦/١٩ - ١١٧، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والبيهقي في الدلائل ٤٦٦/٣. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن السدي، كما ذكر ابن كثير، وذكره أيضاً الحافظ في الفتح ٥٢٣/٥.

(٢) المفهم ٤٠٦/١، وبكر بن العلاء القشيري هو بكر بن محمد بن العلاء، أبو الفضل البصري المالكي، صنف التصانيف في المذهب، وسكن مصر، وتوفي فيها سنة (٣٤٤هـ). السير ٣٧/١٥.

(٣) في أحكام القرآن ١٥٣١/٣.

مُسْتَخَفٌ بِحُرْمَتِهِ^(١).

قال الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»^(٢) - وأسند إلى علي بن الحسين قوله -: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جَوْهَرًا من الجواهر، ودُرًّا من الدُرر، أنه إنما عَتَبَ الله عليه في أنه قد أَعْلَمَهُ أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» وَأَخَذَتْهُ^(٣) خَشْيَةُ النَّاسِ أن يقولوا: تَزَوَّجَ امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه.

وقال النحاس^(٤): قال بعض العلماء: ليس هذا من النبي ﷺ خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشيئة أن يُفْتَنَ الناس.

الثانية: قال ابن العربي^(٥): فإن قيل: لأي معنى قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقد أخبره الله أنها زوجته؟ قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يُعَلِّمَهُ الله به؛ من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من الثفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن عَلِمَهُ منه في أمرها. فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد عَلِمَ أنَّ الفراق لا بدَّ منه؟ وهذا تَنَاقُضٌ. قلنا: بل هو صحيح؛ للمقاصد الصحيحة، كإقامة^(٦) الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة مُتَعَلِّقِ الأمرِ لِمَتَعَلِّقِ^(٧) العلم ما يَمْنَعُ من الأمر به عقلاً وحُكْمًا. وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه.

(١) المفهم ٤٠٦/١.

(٢) ص ١٨٩.

(٣) في النسخ عدا (ظ): وأخذتك، والمثبت من (ظ).

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣١٦.

(٥) في أحكام القرآن ٣/١٥٣٢.

(٦) في (م) وأحكام القرآن: لإقامة.

(٧) في النسخ الخطية: بمتعلق، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

وقوله: «وَأَتَى اللَّهَ» أي: في طلاقها، فلا تطلقها. وأراد نهى تنزيه لا نهى تحريم؛ لأنَّ الأولى أَلَّا يَطْلُقَ. وقيل: «أَتَى اللَّهَ» فلا تَذُمَّهَا بالنسبة إلى الكبير وأذى الزوج. «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ» قيل: تعلق قلبه. وقيل: مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأنَّ زيدا سيطلقها؛ لأنَّ الله قد أعلمه بذلك.

الثالثة: رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال لزيد: «ما أجدُ في نفسي أوثق منك، فاخطبُ زينبَ عَلَيَّ» قال: فذهبتُ وولَّيتها ظهري توقيراً للنبي ﷺ، وخطبتها، وفرحتُ وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدِها ونزل القرآن، فتزوجها النبي ﷺ ودخل بها^(١).

قلت: معنى هذا الحديث ثابتٌ في الصحيح. وترجم له النسائي: صلاة المرأة إذا خُطِبَتْ واستخارَتْها ربُّها^(٢). روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن أنس قال: لما انقضتُ عدَّةُ زينبَ قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذكُرْها عَلَيَّ» قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها وهي تُحَمِّرُ عجينها. قال: فلما رأيتها عظمْتُ في صدري حتى ما أستطيع أن أنظرَ إليها أن رسول الله ﷺ ذكَّرها، فولَّيتها ظهري ونكضتُ على عَقْبِي، فقلتُ: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكُرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدِها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: فقال: ولقد رأيتُنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبزَ واللحمَ حين امتدَّ النهار، الحديث^(٣). في رواية «حتى تركوه»^(٤). وفي رواية عن أنس أيضاً قال: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أولَمَ على

(١) المحرر الوجيز ٣٨٧/٤، وأخرجه مطولاً ابن سعد ١٠٤/٨ عن أنس رضي الله عنه، وهو في الصحيح - على ما يأتي - دون قوله: ما أجد في نفسي... الخ.

(٢) المجتبى ٧٩/٦.

(٣) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٨٩)، وهو عند أحمد (١٣٠٢٥). قوله: فلما رأيتها عظمت...، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٣٢٨/٩: معناه أنه هابها واستجلها من أجل إرادة النبي ﷺ تزويجها، فعاملها معاملة من تزويجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة.

(٤) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩١) بلفظ: أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه. قال النووي: يعني حتى شبعوا وتركوه لشبعهم.

امراً [من نسائه] ما أُولِمَ على زينب، فإنه ذَبَحَ شاة^(١).

قال علماؤنا: فقولُه عليه الصلاة والسلام لزيد: «فادْكُرْها عَلَيَّ» أي: اخطبها، كما بيَّنه الحديث الأول. وهذا امتحانٌ لزيد واختبارٌ له، حتى يَظْهَرَ صَبْرُهُ وانقياده وطوعه^(٢).

قلت: وقد يُسْتَنْبَطُ من هذا: أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب عليّ فلانة، لزوجه المطلقة منه، ولا حَرَجَ في ذلك. والله أعلم.

الرابعة: لَمَّا وَكَلْتُ أمرها إلى الله وصَحَّ تفويضها إليه؛ تَوَلَّى الله إنكاحها؛ ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾. وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ: «وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا»^(٣). وَلَمَّا أَغْلَمَهُ اللهُ بِذَلِكَ دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد، ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يُشاركه فيها أحدٌ بإجماع من المسلمين^(٤).

ولهذا كانت زينب تُفاخرُ نساء النبي ﷺ وتقول: زَوَّجَنِي أَبَاؤُكُنَّ وزَوَّجَنِي اللهُ تعالى. أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تُفَخِّرُ على نساء النبي ﷺ تقول: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْكَحَنِي مِنَ السَّمَاءِ. وفيها نزلت آية الحجاب^(٥). وسيأتي^(٦).

الخامسة: المُنْعَمُ عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة، كما بيَّناه؛ وقد تقدَّم خبره في أول السورة^(٧). وَرَوِيَ أَنَّ عَمَّهُ لَقِيَهُ يوماً وكان قد ورد مكة في شغلٍ له، فقال: ما

(١) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٣٣٧٨)، والبخاري (٥١٦٨).

(٢) المفهم ١٤٦/٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢٨٧/٤، والكشاف ٢٦٣/٣، والقراءة شاذة.

(٤) المفهم ١٤٧/٤.

(٥) سنن النسائي (المجتبى) ٨٠/٦، وهو عند أحمد (١٣٣٦١)، والبخاري (٧٤٢١).

(٦) ص ٢٠٢ من هذا الجزء.

(٧) ص ٥٥ من هذا الجزء.

اسمك يا غلام؟ قال: زيد، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ حارثة. قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ شراحيل الكلبي. قال: فما اسمُ أمِّك؟ قال: سَعْدَى، وكنت في أخوالي طَيِّئ. فضمَّه إلى صدره، وأرسل إلى أخيه وقومه، فحضرُوا وأرادوا منه أن يُقيم معهم، فقالوا: لمن أنت؟ قال: لمحمد بن عبد الله. فَأَتَوْهُ وقالوا: هذا ابْنُنا فَرَدَّه علينا. فقال: «أَعْرِضْ عليه، فإن اختارَكُم فخذوا بيده». فبعث إلى زيد وقال: «هل تَعْرِفُ هؤلاء؟» قال: نعم! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمِّي. فقال له النبي ﷺ: «فأيُّ صاحبٍ كنتُ لك؟» فبكى وقال: لِمَ سألتني عن ذلك؟ قال: «أخبرك، فإن أحببت أن تُلحقَ بهم فالحقُّ، وإن أردت أن تُقيمَ فأنَا مَنْ قد عَرَفْتُ»، فقال: ما أختارُ عليك أحداً. فجدَّبه عمُّه وقال: يا زيد، اخترتَ العبوديَّةَ على أبيك وعمِّك! فقال: إيَّيَّيَّ واللَّهِ، العبوديَّةُ عند محمدٍ أحبُّ إليَّ من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا أنِّي وارثٌ ومُوروثٌ». فلم يزل يقال: زيد بن محمد، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ ونزل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾^(١).

السادسة: قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ ﷺ^(٢): كان يقال: زيدُ بنُ محمدٍ حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ فقال: أنا زيدُ بنُ حارثة. وحرُم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلمَّا نُزِع عنه هذا الشرفُ وهذا الفخرُ^(٣)، وَعَلِمَ اللّهُ وحشَتَهُ من ذلك، شَرَّفَهُ بِخَصِيصَةٍ لم^(٤) يَخْصَّ بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سَمَّاهُ في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني: من زينب. وَمَنْ ذَكَرَهُ اللّهُ تعالى باسمه في الذِّكْر الحَكِيم حتى صار اسمُهُ قرآناً يُتْلَى في المحارِب، [فقد] نَوَّه به

(١) أخرجه بنحوه ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كما في الدر المنثور ١٨١/٥. وأخرجه بنحوه مختصراً الترمذي (٣٨١٥) عن جبلة بن حارثة أخي زيد، وقال: حديث حسن غريب. وسلف الخبر بنحوه ١١٨/١٤.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٣٩ - ١٤٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من التعريف والإعلام.

(٤) في النسخ: لم يكن، والمثبت من التعريف والإعلام.

غاية التَّنويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعَوْضٌ من الفخر بأبوة محمد ﷺ له. ألا ترى إلى قول أبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ سُورَةَ كَذَا» فبكى وقال: أَوْذُكِرْتُ هُنَالِكَ^(١)؟ وكان بكاءه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآنًا يُتلى، مخلدًا لا يَبِيدُ^(٢)، يَتْلُوهُ أَهْلُ الدُّنْيَا إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ كَذَلِكَ أَبَدًا، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يَزَلْ مذكورًا على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآنُ كلامُ الله القديم، وهو باقٍ لا يَبِيدُ، فاسمُ زَيْدٍ هذا في الصُّحُفِ المَكْرَمَةِ المرفوعةِ المطهَّرةِ، تَذْكُرُهُ فِي التَّلَاوَةِ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ. وليس ذلك لاسمٍ من أسماء المؤمنين إِلَّا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له ممَّا نُزِعَ عنه. وزاد في الآية أن قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإيمان؛ فدلَّ على أنه من أهل الجنة، عَلِمَ ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلةٌ أخرى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَطَرًا﴾ الْوَطَرُ: كُلُّ حَاجَةٍ لِلْمَرْءِ لَه فِيهَا هِمَّةٌ، وَالْجَمْعُ: الْأَوْطَارُ. قال ابن عباس: أي: بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع^(٣). وفيه إضمارٌ، أي: لَمَّا قَضَى وَطَرَهُ مِنْهَا وَطَلَّقَهَا، زَوَّجْنَاهَا. وقراءةُ أَهْلِ الْبَيْتِ: «زَوَّجْتُهَا»^(٤). وقيل: الْوَطَرُ عبارةٌ عن الطلاق؛ قاله قتادة^(٥).

الثامنة: ذهب بعضُ الناس من هذه الآية، ومن قولِ شعيب: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ﴾ إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهورِ ينبغي أن يكون: «أَنْكِحُهُ إِيَّاهَا» فيقدم

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٢٠)، والبخاري (٤٩٦٠)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه، وعندهم: الله سمَّاني لك، بدل: أودكرت هنالك.

(٢) في (ظ): لا يلبى.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٨٧/٤ دون نسبة.

(٤) الكشف ٢٦٣/٣، وسلفت هذه القراءة في المسألة الرابعة، وهي قراءة شاذة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ١١٧/٢، والطبري ١١٨/١٩.

ضمير الزوج كما في الآيتين^(١). وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام لصاحب الرداء: «اذهب فقد أنكحْتُكِها بما معك من القرآن»^(٢). قال ابنُ عطية^(٣): وهذا [عندي] غير لازم؛ لأنَّ الزوجَ في الآية مخاطبٌ؛ فحسُنَ تقديمه، وفي المهور يستوي الزوجان، فقدم^(٤) مَنْ شئتَ، ولم يبقَ ترجيحٌ إلَّا بدرجة الرجال، وأنَّهم القوامون.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ دليلٌ على ثبوت الولي في النكاح، وقد تقدَّم الخلاف في ذلك^(٥). روي أنَّ عائشةَ وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة: أنا التي جاء بي المَلِكُ إلى النبي ﷺ في سرقةٍ من حرير فيقول: «هذه امرأتك» خرَّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التي زَوَّجني الله من فوق سبع سماوات^(٦).

وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إِنِّي لَأَدِلُّ عَلَيْكَ بثلاث؛ ما مِن نسائك امرأةٌ تدُلُّ بهنَّ: أَنَّ جَدِّي وجدَّك واحدٌ، وَأَنَّ الله أنكحك إِيَّاي من السماء، وَأَنَّ السَّفير في ذلك جبريل^(٧).

وروي عن زينب أنها قالت: لَمَّا وقعتُ في قلب رسول الله ﷺ لم يَسْتَطِعْني زيد،

(١) المحرر الوجيز ٣٨٧/٤، وفيه: لِمَا في الآيتين.

(٢) قطعة من حديث سهل بن سعد ؓ أخرجه أحمد (٢٢٨٥٠)، والبخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥)، وسلف بنحوه ٢٢٣/٦.

(٣) في المحرر الوجيز ٣٨٧/٤، وما سيرد بين حاضرتين منه.


(٤) قوله: يستوي، من (ظ)، واللفظ عند ابن عطية: وفي المهور الزوجان غائبان فقدم...

(٥) ٤٦٢/٣.


(٦) كذا ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٨٧/٤، وأخرجه الطبري ١٧/ ١٩٤-١٩٥، والطبراني ٢٤/ ١٢٢) عن محمد بن عبد الله بن جحش، وفيه قول عائشة: «أنا التي نزل عذري من السماء» بدلاً من قولها أعلاه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٠: وفيه المعلّى بن زياد، وهو متروك. اهـ. غير أن قول عائشة وقول زينب أعلاه كلاهما في الصحيح ولكن في خبرين منفصلين، وقد سلف حديث زينب رضي الله عنها في المسألة الرابعة، أما حديث عائشة رضي الله عنها فهو في صحيح البخاري (٥١٢٥)، وصحيح مسلم (٢٤٣٨)، وأخرجه أحمد (٢٤١٤٢). قولها: سرقة من حرير، أي: في قطعة من جيد الحرير، وجمعها: سَرَق. النهاية (سرق).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ١١٨.

وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى مني فلا يقدر عليّ^(١).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾  الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة؛ أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء، أن ينالوا ما أحله لهم^(٢)، أي: سنَّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان. فكان لداود مئة امرأة وثلاث مئة سُريّة، وسليمان ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُريّة^(٣). وذكر الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فتن بها^(٤). و«سُنَّة» نصب على المصدر، أي: سنَّ الله له سنة واسعة. و«الذين خَلَوْا» هم الأنبياء، بدليل وصفهم بعد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾  فيه ثلاث مسائل:

(١) سلف في المسألة الأولى.

(٢) المحرر الوجيز ٣٨٧/٤.

(٣) الكشف ٢٦٤/٣، وسلف ٤١٨/٦. وما ذكره عن عدد النساء لداود وسليمان عليهما السلام ليس فيه نص صحيح، ويرجع ذلك إلى الإسرائيليات. والأليق في تفسير الآية ما نقله المصنف عن ابن عطية قبل هذا الكلام. وقال ابن كثير في معنى الآية: أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليامرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاة الذي كان قد تبّاه.

(٤) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٨٧/٤، وهو كلام باطل، لا يليق بمقام الأنبياء. قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/٢٢: هذا مما لا يلتفت إليه، والقصة عند المحققين لا أصل لها. اهـ. وسلف الرد على من زعم أن النبي ﷺ رأى زينب، فوقع في نفسه، وسيرد الكلام على بطلان قصة افتتان داود عليه السلام بالمرأة عند تفسير الآية (٢٤) من سورة ص.

الأولى: لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ قَالَ النَّاسُ: تَزَوَّجَ امْرَأَةً ابْنَهُ؛ فنزلت الآية، أي: ليس هو بأبيه حتى تَحْرُمَ عليه حَلِيلَتُهُ، وَلَكِنَّهُ أَبُو أُمِّتِهِ فِي التَّبَجِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَنَّ نِسَاءَهُ عَلَيْهِمْ حَرَامٌ. فَأَذْهَبَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَا وَقَعَ فِي نَفُوسِ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَأَعْلَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ أَبَا أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ الْمَعَاصِرِينَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ. وَلَمْ يَقْصِدْ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، فَقَدْ وُلِدَ لَهُ ذَكُورٌ: إِبْرَاهِيمُ، وَالْقَاسِمُ، وَالطَّيِّبُ، وَالْمُطَهَّرُ^(١)؛ وَلَكِنْ لَمْ يَعِشْ لَهُ ابْنٌ حَتَّى يَصِيرَ رَجُلًا. وَأَمَّا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فَكَانَا طِفْلَيْنِ، وَلَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ مُعَاصِرَيْنِ لَهُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قَالَ الْأَخْفَشُ وَالْفَرَاءُ^(٢): أَي: وَلَكِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ. وَأَجَازَ^(٣): «وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمٌ» بِالرَّفْعِ. وَكَذَلِكَ قَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ وَبَعْضُ النَّاسِ: «وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ» بِالرَّفْعِ، عَلَى مَعْنَى: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ^(٤). وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ: «وَلَكِنْ» بِتَشْدِيدِ النُّونِ وَنَصَبِ «رَسُولُ اللَّهِ» عَلَى أَنَّهُ اسْمُ «لَكِنْ»، وَالْخَبَرُ مُحذُوفٌ^(٥).

﴿وَخَاتَمٌ﴾ قَرَأَ عَاصِمٌ وَحْدَهُ بِفَتْحِ التَّاءِ^(٦)، بِمَعْنَى: أَنَّهُمْ بِهِ خُتِمُوا، فَهُوَ كَالْخَاتَمِ وَالطَّابَعِ لَهُمْ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ التَّاءِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ خَتَمَهُمْ، أَي: جَاءَ آخِرُهُمْ^(٧).

(١) أخرجه الطبري ١٢٢/١٩ عن قتادة، وسيرد الكلام عن أولاده ﷺ ٢٤١/١٤.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٦٦٠/٢، ومعاني القرآن للفراء ٣٤٤/٢، ونقله المصنف عنهما بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣١٧/٣.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): وأجازا، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس، والكلام عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٣٤٤/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٨٨/٤، والقراءة في معاني القرآن للفراء ٣٤٤/٢، والقراءات الشاذة ص ١٢٠ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ١٨١/٢، والمحرر الوجيز ٣٨٨/٤، والكلام منه.

(٦) السبعة ص ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٧) المحرر الوجيز ٣٨٨/٤.

وقيل: الخاتم والخاتم لغتان، مثل طابع وطابع، ودائق ودائق، وطابق من اللحم وطابق^(١).

الثالثة: قال ابن عطية^(٢): هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خَلَفًا وسَلَفًا متلقاة على العموم التام، مقتضية نصًا أنه لا نبي بعده ﷺ. وما ذكره القاضي ابن الطيب في كتابه المسمى بـ «الهداية»^(٣) من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية، ضعيف. وما ذكره الخزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بـ «الاقتصاد»^(٤) إلحاذ عندي، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد ﷺ النبوة، فالحذر الحذر منه! والله الهادي برحمته.

قلت: وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا نبوة بعدي إلا ما شاء الله»^(٥). قال أبو عمر: يعني الرؤيا - والله أعلم - التي هي جزء منها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(٦).

وقرأ ابن مسعود: «من رجالكم ولكن نبياً ختم النبيين». قال الرّماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فَمَنْ لم يَصْلُحْ به فميتوس من صلاحه^(٧).

(١) في اللسان (طبق): الطابق والطابق: ظرف يطبخ فيه، فارسي معرب.

(٢) في المحرر الوجيز ٣٨٨/٤.

(٣) واسمه: هداية المسترشدين في الكلام، والقاضي ابن الطيب هو أبو بكر الباقلاني. ينظر كشف الظنون ٢٠٤٢/٢.

(٤) واسمه: الاقتصاد في الاعتقاد، وذكر فيه ص ٢٢٦ أن منكر قوله ﷺ: «لا نبي بعدي» إنما هو مُيَكَّر لإجماع الأمة على أنه لا نبي ولا رسول بعده ﷺ. وفي الكلام تفصيل؛ ينظر ثمة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٣١٥) عن أنس ؓ، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٥٥/٥ عن المغيرة بن شعبة ؓ، وقد سلف ١٢٣/١. قال ابن الجوزي: هذا الاستثناء موضوع. اهـ وقد سلف دون الاستثناء ٣٩٨/١ و ٣٢٣/٩ و ٣٤١/٣.

(٦) التمهيد ٣١٤/١ و ٥٥/٥. والحديث أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ٩٥٦/٢، وبنحوه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة ؓ، وسلف ٢٥٦/١١.

(٧) المحرر الوجيز ٣٨٨/٤، وقرء ابن مسعود في القراءات الشاذة ص ١٢٠.

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). وفي «صحيح» مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَاراً فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ! قال رسول الله ﷺ: «فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ؛ جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ»^(٢). ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: «فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثرُوا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ؛ لسهولة على العبد، ولعظم الأجر فيه؛ قال ابن عباس: لم يُغْذَرِ أَحَدٌ فِي تَرْكِ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ غُلِبَ عَلَى عَقْلِهِ. وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ»^(٤).

وقيل: الذكرُ الكثير: ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل: ما يقع على حُكْمِ النفاق كالذكر باللسان.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَحُوُّ بِكُورُهُ وَأَصِيلًا﴾

أي: اشغلوا ألسنتكم في مُعْظَمِ أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. قال مجاهد: وهذه كلمات يقولهنَّ الطاهرُ والمحدثُ والجُنُبُ^(٥).

(١) سلف ٩/ ٤٢٠.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٨٧)، وهو عند أحمد (١٤٨٨٨)، والبخاري (٣٥٣٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٨٦): (٢٢)، وهو عند أحمد (٩١٦٧)، والبخاري (٣٥٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٤. وخبر أبي سعيد ﷺ أخرجه أحمد (١١٦٥٣)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٨٠، وفي إسناده درّاج أبو السمح؛ ضعفه أحمد والنسائي وأبو حاتم، وساق له ابن عدي ٣/ ٩٧٩-٩٨٠ أحاديث؛ منها هذا الحديث، وقال: عامتها لا يتابع عليها، وينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤-٢٥.

(٥) الكشف ٣/ ٢٦٥.

وقيل: ادعوه؛ قال جرير:

فلا تَنْسَ تسبيحَ الضُّحَى إِنَّ يوسُفَا دَعَا رَبَّهُ فاختاره حين سَبَّحَا^(١)
وقيل: المراد: صَلُّوا لله بكرةً وأصيلًا، والصلاة تسمى تسبيحًا. وخصَّ الفجر
والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحقُّ بالتحريض عليها؛ لانتصالها بأطراف الليل. وقال
قتادة والطبري: الإشارةُ إلى صلاة الغداة وصلاة العصر^(٢).

والأصيل: العشِي، وجمعه: أصائل. والأصلُ بمعنى الأصيل، وجمعه: آصال؛
قاله المبرِّد. وقال غيره: أصلُ جمعُ أصيل، كـرغيف ورُغف. وقد تقدَّم^(٣).

مسألة: هذه الآيةُ مدنيَّة، فلا تعلَّقَ بها لِمَن زعم أنَّ الصلاة إنما فرضت أولاً
صلاتين في طرفي النهار. والروايةُ بذلك ضعيفة^(٤)، فلا التفاتَ إليها ولا معولَ عليها.
وقد مضى الكلامُ في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في «سبحان»^(٥)،
والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: لمَّا نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصَّة،
وليس لنا فيه شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٦).

(١) النكت والعيون ٤/٤١٠، وفيه: ... إن يونساً... فانتاشه حين سبحا، ولم تقف عليه في ديوان
جرير. قوله: انتاشه، أي: أنقذه.

(٢) تفسير الطبري ١٩/١٢٣، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/١١٩، والطبري ١٩/١٢٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣١٨، وتقدم ٩/٤٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٨٨. وأخرج البيهقي في السنن الكبرى ١/٣٥٩ عن قتادة قال: كان بدء الصلاة
ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي.

(٥) ١٣/١٢ - ١٣.

(٦) أخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٥/٢٠٦، وذكره بنحوه أيضاً
البغوي ٣/٥٣٤ عن أنس، ولم تقف عليه عن ابن عباس.

قلت: وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليل على فضلها على سائر الأمم؛ وقد قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه. وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم، كما قال: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧] وسيأتي.
وفي الحديث: أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أَيْصَلِّي رَبُّكَ جُلَّ وَعَزَّ؟ فأعظم ذلك، فأوحى الله جلَّ وعزَّ إليه: إِنَّ صَلَاتِي بَأَنِّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي. ذكره النحاس^(١).

وقال ابن عطية: وَرَوَتْ فِرْقَةٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قَالَ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي». واختلف في تأويل هذا القول، ف قيل: إنه كله^(٢) من كلام الله تعالى، وهي صلاته على عباده. وقيل: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ من كلام محمد ﷺ، وقدمه بين يدي نُظِّقَهُ باللفظ الذي هو صلاة الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فهم من السائل أنه تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عزَّ وجلَّ؛ فقدم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره^(٣).

قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الضلالة إلى الهدى، ومعنى هذا: التشبيث على الهداية؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْيِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾^(٤)
اختلف في الضمير الذي في «يَلْقَوْنَهُ» على من يعود؛ ف قيل: على الله تعالى،

(١) في إعراب القرآن ٣/٣١٨، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١١٩/٢ عن الحسن قوله.

(٢) في (د): كلام، وفي (م): كلمة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٨٩. والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٤٣) عن أبي هريرة ؓ.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٨٩٨) ضمن خبر طويل عن عطاء، وذكره الدارقطني في العلل ٨/٢٨٧ عن أبي هريرة ؓ، وعن جابر ؓ، وعن عطاء عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قال الدارقطني: وهذا أصح. اهـ.
وفي جميع هذه الروايات أن النبي ﷺ هو السائل، وأن المسؤول هو جبريل عليه السلام.

أي: كان بالمؤمنين رحيمًا، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يلقونهم. ﴿وَنَحْيِيَهُمْ﴾ أي: تحية بعضهم لبعض. ﴿سَلَامٌ﴾ أي: سلامة لنا ولكم من عذاب الله.

وقيل: هذه التحية من الله تعالى، المعنى: فيسلمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يوم القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجاج^(١)؛ واستشهد بقوله جلّ وعزّ: ﴿وَنَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقيل: «يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ» أي: يوم يلقون ملك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سَلَمَ عليه؛ روي عن البراء بن عازب قال: ﴿نَحْيِيَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥ وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴿٤٦﴾

هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريمٌ لجميعهم. وهذه الآية تضمّت من أسمائه ﷺ ستة أسماء، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسماّت جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة. وقد سمّاه الله في كتابه محمدًا وأحمد. وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العُدول: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشِرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»^(٣). وفي «صحيح» مسلم من حديث جُبَيْر بن مُطْعِم: وقد سمّاه الله رؤوفًا رحيمًا^(٤).

(١) في معاني القرآن ٢٣١/٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣١٩/٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٧/١٣.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جُبَيْر بن مُطْعِم، وسلف ٤٥١/١٠. قوله: على قدمي، قيل: على سابقتي، وقيل: على سستي، وقيل: بعدي، أي يتبعوني إلى

يوم القيامة. المفهم ١٤٦/٦.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٥٤): (١٢٥).

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمُقَفِّي، والحاشِرُ، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة»^(١).

وقد تتبَّع القاضي أبو الفضل عياض في كتابه المسمَّى بـ «الشِّفا»^(٢) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ، وممَّا نُقِلَ في الكتب القديمة^(٣) وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة، قد صدقت عليه ﷺ مُسمَّياتها، ووُجِدَتْ فيه معانيها.

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في «أحكامه»^(٤) في هذه الآية من أسماء النبي ﷺ سبعة وستين اسماً. وذكر صاحب «وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيِّد المرسلين»^(٥) عن ابن عباس: أنَّ لمحمد ﷺ مئة وثمانين اسماً، مَنْ أرادها وجدها هناك.

وقال ابن عباس: لَمَّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا، فبشِّرا ولا تُنْفِرا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، فإنَّه قد أنزل عليّ...» وقرأ الآية^(٦).

(١) صحيح مسلم (٢٣٥٥)، وهو عند أحمد (١٩٥٢٥).

(٢) ٤٤٤/١ وما بعدها.

(٣) في (م): المقدمة.

(٤) ١٥٣٤/٣.

(٥) صاحبه عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي الصوفي، نزيل دمشق، المتوفى سنة (٥٧٠هـ).

ينظر كشف الظنون ٢/٢١٠، وإيضاح المكنون ٢/٧٠٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٣٨٩، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/٣٥٨، والطبراني في الكبير (١١٨٤١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٩٢: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، وهو ضعيف. اهـ. وسيذكره المصنف بأطول مما هنا. والذي أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري ؓ، أن رسول الله ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوَّعا ولا تختلفا». وليس فيه ذكر الآية. وخبر إرسال علي ؓ إلى اليمن ثابت في الصحيح أيضاً.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَا﴾ قال سعيد عن قتادة: «شاهدًا» على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك. ﴿وَمُبَشِّرَا﴾ معناه: للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ﴿وَنَذِيرَا﴾ معناه: للعصاة والمكذِّبين من النار وعذاب الخُلْد. ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكُفْرَة. ﴿وَيَاذِنِي﴾ معناه هنا: بأمره إياك وتقديره ذلك في وقته وأوانه. ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرَا﴾ استعارة للنور الذي يتضمَّنه شُرْعُهُ^(١).

وقيل: «وَسِرَاجًا» أي: هاديًا من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضيء. وَوَصَفَهُ بِالْإِنَارَةِ لِأَنَّ مِنَ الشَّرْجِ مَا لَا يُضِيءُ، إِذَا قَلَّ سَلِيْطُهُ^(٢) وَدَقَّتْ فَتِيلَتُهُ. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تُضْئِي: رسولٌ بطيء، وسراجٌ لا يُضِيءُ، ومائدةٌ يُنتَظَرُ لها مَنْ يَجِيءُ. وسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْمُوَحِّشِينَ فَقَالَ: ظِلَامٌ سَايَر، وَسِرَاجٌ فَاتِر^(٣).

وَأَسْنَدَ النَّحَّاسُ^(٤) قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الرَّازِي، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَالِحٍ الْأَزْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُحَارِبِيُّ^(٥)، عَنْ شَيْبَانَ النَّحْوِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدَا وَمُبَشِّرَا وَنَذِيرَا. وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ يَاذِنِي. وَسِرَاجًا مُنِيرَا﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَمُعَاذًا فَقَالَ: «انْطَلِقَا، فَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةٌ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدَا وَمُبَشِّرَا وَنَذِيرَا﴾ مِنَ النَّارِ ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿يَاذِنِي﴾ بِأَمْرِهِ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرَا﴾ قَالَ: بِالْقُرْآنِ. وَقَالَ

(١) المحرر الوجيز ٣٨٩/٤، وأخرج خبر قتادة بنحوه الطبري ١٩/١٢٦.

(٢) أي: زيته. القاموس (سلط).

(٣) الكشاف ٣/٢٦٦.

(٤) في معاني القرآن ٥/٣٥٨.

(٥) سلف الخبر مختصراً قريباً، وسلف تخريجه.

وجاء عند الطبراني وابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بدل: عبد الرحمن ابن محمد المحاربي، وعبد الرحمن العرزمي ضعيف، كما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/٥٨٥.

الرَّجَاجُ^(١): «وسراجاً» أي: وذا سراج منير، أي: كتاب نير^(٢). وأجاز أيضاً أن يكون بمعنى: وتالياً كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله. أمره تعالى أن يبشّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى.

وعلى قول الرَّجَاج: ذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً، يكون معطوفاً على الكاف في «أَرْسَلْنَاكَ»^(٣).

قال ابن عطية^(٤): قال لنا أبي: هذه من أَرْجَى آية عندي في كتاب الله تعالى؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً؛ وقد بين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حَمْدَ عَسَقٍ﴾ تفسير لها.

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداينة في الدين ولا ثمالتهم. والكافرون: أبو سفيان، وعكرمة، وأبو الأغر السلمي؛ قالوا: يا محمد، لا تذكر آلهتنا بسوء نبيك. والمنافقون: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد، وطعمة بن أبيرق، حثوا النبي ﷺ على إجابتهم بتعلة المصلحة^(٥).

(١) في معاني القرآن ٢٣١/٤.

(٢) في معاني القرآن: بين.

(٣) الكشف ٢٦٦/٣. قال السمين في الدر المصون ١٣٠/٩: وفيه نظر؛ لأن السراج هو القرآن، ولا يوصف بالإرسال، بل الإنزال، إلا أن يقال: إنه حُمِلَ على المعنى كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً...

(٤) في المحرر الوجيز ٣٨٩/٤.

(٥) سلف خبرهم ص ٥٠ من هذا الجزء.

﴿وَدَعْ أَذْنَهُمْ﴾ أي: دَعْ أَنْ تُؤْذِيَهُمْ مجازاةً على أَذِيَتِهِمْ إِيَّاكَ. فأمره تبارك وتعالى بِتَرْكِ معاقبتهم، والصَّفْحِ عَنْ زَلْلِهِمْ، فالمصدرُ على هذا مضافٌ إلى المفعول. ونُسَخَ من الآية على هذا التأويل ما يَخُصُّ الكافرين، وناسخُه آيةُ السيف. وفيه معنى ثانٍ: أي: أَعْرِضْ عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تَشْتَغِلْ به، فالمصدرُ على هذا التأويل مضافٌ إلى الفاعل. وهذا تأويلُ مجاهد^(١)، والآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيف.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمره بالتوكل عليه وآتسه بقوله: ﴿وَكُنْ لِلَّهِ وَكِيلًا﴾. وفي قوة الكلام وعدٌ بِنَصْرِ. والوكيلُ: الحافظُ القائمُ على الأمر^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِيعَتُهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿٤٩﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ لَمَّا جرت قصةُ زيدٍ وتطليقه زينب، وكانت مدخولاً بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عِدَّتِهَا - كما بيَّناه - خاطَبَ الله المؤمنين بحُكْمِ الزوجة تُطَلَّقُ قبل البناء، وبيَّن ذلك الحُكْمَ للأمة، فالمطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عِدَّةَ عليها بنصِّ الكتاب وإجماعِ الأمة على ذلك. فإن دخل بها فعليها العِدَّةُ إجماعاً^(٣).

الثانية: النكاح: الوطء^(٤)، وتسمية العقد نكاحاً لمُلاَبَسَتِهِ له من حيث إنه طريقٌ

(١) المحرر الوجيز ٣٩٠/٤، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٢٧/١٩ بلفظ: ﴿وَدَعْ أَذْنَهُمْ﴾ قال: أعرض عنهم.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٠/٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٣٩/٣ - ١٥٤٠.

(٤) في (ظ) و(م): النكاح حقيقة في الوطء، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٢٦٧/٣، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا؛ لأنه سبب في اقتراف الإثم. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء [من باب التصريح به]، ومن^(١) آداب القرآن الكناية عنه بلفظ: الملامسة والمماسّة والقربان والتغشي والإتيان.

الثالثة: استدلل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة «ثم» على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها - وإن عيّنهما - فإن ذلك لا يلزمه. وقال هذا نيّف على ثلاثين من صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ، سمى البخاريّ منهم اثنين وعشرين^(٢). وقد روي عن النبي ﷺ: «لا طلاق قبل نكاح»^(٣) ومعناه: أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح. قال حبيب بن أبي ثابت: سئل عليّ بن الحسين رضي الله عنهما عن رجلٍ قال لامرأة: إن تزوّجتك فأنّ طالق؟ فقال: ليس بشيء؛ ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق^(٤).

وقالت طائفة من أهل العلم: إنّ طلاق المعيّنة الشّخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح^(٥)؛ منهم مالكٌ وجميعُ أصحابه، وجمّع عظيم من علماء الأمة. وقد مضى في «براءة» الكلام فيها ودليلُ الفريقين. والحمد لله^(٦). فإذا قال: كلُّ امرأةٍ أتزوّجها

(١) في النسخ: وهو من، والمثبت من الكشاف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠، والذين سماهم البخاري في كتاب الطلاق، باب: لا طلاق قبل النكاح، هم خمس وعشرون. قال البخاري: وقال ابن عباس: جعل الله الطلاق بعد النكاح، ويروى في ذلك عن علي وسعيد بن المسيب... الخ، وذكرهم. قال الحافظ في الفتح ٣٨٦/٩: وقد تجوز البخاري في نسبة جميع من ذكر عنهم إلى القول بعدم الوقوع مطلقاً، مع أن بعضهم يفصل، وبعضهم يختلف عليه، ولعل ذلك هو النكتة في تصديره النقل عنهم بصيغة التمريض.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٨) من حديث المسور بن مخرمة ر. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/٥ - ١٦، والبيهقي ٣١٨/٧، وابن عبد البر في الاستذكار ١٨/١٢٤ من حديث عبد الله بن عمرو ر. وأخرجه الترمذي (١١٨١)، وأبو داود (٢١٩٠)، وابن ماجه (٢٠٤٧) بلفظ: «لا طلاق فيما لا يملك» وقد سلف بهذا اللفظ ٣١١/١٠.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١٠٣٣) بنحوه. ونقله المصنف من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٥) ينظر المتقى للباقي ٤/ ١١٥.

(٦) ٣١١ - ٣١٠/١٠، وينظر قول مالك وغيره من الأئمة في الإشراف ٤/ ١٨٥، والاستذكار ١٨/ ١١٤.

[طالق^(١)]، وكلُّ عبدٍ أشتريه حرًّا، لم يَلْزَمْهُ شيءٌ. وإن قال: كلُّ امرأةٍ أتزوَّجها إلى عشرين سنةً، أو: إن تزوّجتُ من بلدٍ فلان، أو من بني فلان، فهي طالقٌ، لَزِمَها الطلاقُ ما لم يَخَفِ العَنَتَ على نفسه في طول السنين، أو يكون عمره في الغالب لا يَبْلُغُ ذلك، فله أن يتزوَّج. وإنما لم يَلْزَمْهُ الطلاقُ إذا عَمَّ لأنه ضيقٌ على نفسه المَنَاحِج، فلو منعناه ألا يتزوَّج لَحَرَجٌ وخيفَ عليه العَنَتُ. وقد قال بعض أصحابنا: إنَّه إن وُجد ما يتسرَّر به لم ينكح، وليس بشيء، وذلك أنَّ الضَّروراتِ والأعذارَ ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كَمَن لم يحلف؛ قاله ابن خُوَيزِمَةَ.

الرابعة: استدَلَّ داودُ ومَن قال بقوله: أنَّ المطلَّقة الرجعية إذا راجعها زوَّجها قبل أن تنقضي عِدَّتُها، ثم فارَّقها قبل أن يَمَسَّها، أنه ليس عليها أن تُتِمَّ عِدَّتُها ولا عِدَّةٌ مستقبلَةٌ؛ لأنَّها مطلَّقة قبل الدخول بها.

وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة: تَمضي في عِدَّتِها من طلاقها الأوَّل - وهو أحدُ قولَي الشافعي - لأنَّ طلاقه لها إذا لم يَمَسَّها في حكم مَن طَلَّقها في عِدَّتِها قبل أن يُراجِعها. ومَن طَلَّق امرأته في كلِّ طَهرٍ مرَّةً بَنَتْ ولم تستأنف.

وقال مالك إذا فارَّقها قبل أن يَمَسَّها: إنَّها لا تبني على ما مضى من عِدَّتِها، وإنَّها تُنشئُ من يوم طَلَّقها عِدَّةً مستقبلَةً. وقد ظَلَمَ زوَّجها نفسه وأخطأ إن كان ارتَجَعها ولا حاجةَ له بها. وعلى هذا أكثرُ أهل العلم؛ لأنها في حكم الزَّوجات المدخول بهنَّ في النفقة والسكنى وغير ذلك؛ ولذلك تستأنفُ العِدَّة من يوم طَلَّقَتْ، وهو قولُ جمهورِ فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام. وقال الثوري: أَجْمَعَ الفقهاء عندنا على ذلك.

الخامسة: فلو كانت بائنةً غيرَ مَبتوتَةٍ فتزوَّجها في العِدَّة، ثم طَلَّقها قبل الدخول؛ فقد اختلفوا في ذلك أيضاً، فقال مالك والشافعي وزُفَر وعثمان البتِّي: لها نصفُ

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وينظر عقد الجواهر الثمينة ١٧٧/٢.

الصَّدَاقِ وَتُتَمُّ بَقِيَّةُ الْعِدَّةِ الْأُولَى. وهو قول الحسن وعكرمة وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي: لها مهرٌ كاملٌ للنكاح الثاني وعِدَّةٌ مستقبلية. جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه. وقال داود: لها نصفُ الصَّدَاقِ، وليس عليها بقيةُ العِدَّةِ الأولى ولا عِدَّةٌ مستقبلية^(١). والأولى ما قاله مالك والشافعي، والله أعلم.

السادسة: هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولقوله: ﴿وَالَّتِي يَلَسَنَّ مِنَ الْمَجْزِيِّ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، وقد مضى في «البقرة»، ومضى فيها الكلامُ في المتعة^(٢)، فأغنى عن الإعادة هنا.

﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه دَفْعُ المتعة بِحَسَبِ المِيسَرَةِ والعُسرة؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنه طلاقُها طاهراً من غيرِ جِمَاعٍ؛ قاله قتادة^(٣). وقيل: فسَّرَحوهُنَّ بعد الطلاق إلى أهلهنَّ، فلا يجتمع الرجلُ والمطلقةُ في موضعٍ واحد.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَتَوَهَّنَ﴾ قال سعيد: هي منسوخةُ بالآية التي في «البقرة»، وهي قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية: ٢٣٧] أي: فلم يذكر المتعة^(٤). وقد مضى الكلامُ في هذا في «البقرة» مستوفى^(٥).

وقوله: ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ﴾: طَلَّقُوهُنَّ. والتسريحُ كنايةٌ عن الطَّلَاقِ عند أبي حنيفة؛ لأنه

(١) ذكر المصنف هذه المسألة والتي قبلها عن الاستذكار ١٨/١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ينظر ٤/٣٥ و١٦٢ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٤/٤١٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٩/١٢٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/٣٦٠، وأخرجه الطبري ٤/٢٩٦ - ٢٩٧ و١٩/١٢٩.

(٥) ٤/١٦٧.

يُستعمل في غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعي صريح. وقد مضى في «البقرة» القول فيه^(١)، فلا معنى للإعادة. ﴿جَمِيلًا﴾ سُنَّةٌ، غير بدعة.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

فيه تسع عشرة مسألة:

الأولى: روى السُّدِّيُّ عن أبي صالح، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاغْتَدَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَّرَنِي، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحِلُّ له؛ لأنِّي لم أهاجر، كنتُ من الطُّلُقَاء. خرَّجه أبو عيسى وقال: هذا حديثٌ حسنٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٢). قال ابن العربي^(٣): وهو ضعيفٌ جدًّا، ولم يأتِ هذا الحديثُ من طريقٍ صحيحٍ يُحتجُّ بها.

الثانية: لَمَّا خَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ فَاخْتَرَنَهُ، حَرُمَ عَلَيْهِ التَّزَوُّجُ بغيرهنَّ والاستبدالُ بهنَّ، مكافأةً لهنَّ على فعلهنَّ، والدليلُ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وهل كان يحلُّ له أن يطلق واحدةً منهنَّ بعد

(١) ٦٧/٤.

(٢) سنن الترمذي (٣٢١٤)، وقع في المطبوع: حسن صحيح... وما ذكره المصنف موافق لما في تحفة الأشراف ٤٥٠/١٢.

(٣) في أحكام القرآن ٣/١٥٤١.

ذلك؟ فقل: لا يَحِلُّ له ذلك جزاءً لهنَّ على اختيارهنَّ له. وقيل: كان يَحِلُّ له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزَوَّج بَدَلَهَا.

ثم نسخَ هذا التحريم فأباح^(١) له أن يتزَوَّج بمن شاء عليهنَّ من النساء، والدليلُ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ والإحلالُ يقتضي تَقَدُّمَ حَظَرٍ، وزوجاته اللَّاتي في حياته لم يكنَّ محرَّماتٍ عليه، وإنَّما كان حرم عليه التزويجُ بالأجنبيَّات، فانصرف الإحلالُ إليهنَّ. ولأنَّه قال في سياق الآية: ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ الآية، ومعلومٌ أنه لم يكن تحتَه أحدٌ من بنات عمِّه ولا من بناتِ عَمَّاته، ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداءً. وهذه الآية وإن كانت متقدِّمةً في التلاوة فهي متأخِّرةُ النزولِ عن الآية المنسوخة بها، كآتي الوفاة في «البقرة»^(٢).

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقل: المرادُ بها أن الله تعالى أحلَّ له أن يتزَوَّج كلَّ امرأةٍ يؤتيها مَهْرَها؛ قاله ابن زيد والضحاك^(٣). فعلى هذا تكونُ الآيةُ مبيحةً جميعَ النساء حاشا ذوات المحارم.

وقيل: المراد: أحلَّلنا لك أزواجك الكائنات^(٤) عندك؛ لأنهنَّ قد اخترنك على الدنيا والآخرة؛ قاله الجمهور من العلماء. وهو الظاهر؛ لأنَّ قوله: «آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ» ماضٍ، ولا يكون الفعلُ الماضي بمعنى الاستقبال إلاَّ بشروط.

ويجيءُ الأمر على هذا التأويل ضيقاً على النبي ﷺ. ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزَوَّج في أيِّ الناس شاء، وكان يَشُقُّ ذلك على نسائه، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ وحرم عليه بها النساءُ إلاَّ من سُمِّي، سُرَّ نساؤه بذلك^(٥).

(١) في (ظ): فأبيح.

(٢) يعني الآية (٢٣٤) والآية (٢٤٠).

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٩/١٣٠.

(٤) قبلها في (خ) و(د) و(م): أي، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ١٥٤١/٣، والكلام منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/١٣٤.

قلت: والقول الأول أصح لما ذكرناه. ويدلُّ أيضًا على صحَّته ما خرَّجه الترمذي عن عطاء قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله تعالى له النساء. قال: هذا حديث حسن صحيح^(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أحلَّ الله تعالى السراري لنبِيِّه ﷺ ولأُمَّته مطلقاً، وأحلَّ الأزواج لنبِيِّه عليه الصلاة والسلام مُطلقاً، وأحلَّه للخَلْقِ بعدد^(٢). وقوله: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: ردَّه عليك من الكفار. والغنيمة قد تسمى فيثاً، أي: ممَّا أفاء الله عليك من النساء المأخوذ على وجه القهر والغلبة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ أي: أحلَّنا لك ذلك زائداً [إلى ما عندك] من الأزواج اللَّاتِي آتَيْتَ أجورهنَّ وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد: أحلَّنا لك كلَّ امرأة تزوّجت وآتيت أجرها، لما قال بعد ذلك: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ لأنَّ ذلك داخلٌ فيما تقدَّم^(٣).

قلت: وهذا لا يلزم، وإنَّما خصَّ هؤلاء بالذكر تشريفاً، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا نِكَهْتُ وَفَلَّ وَرَمَانُ﴾ [الرحمن: ٦٨]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ فيه قولان: الأول: لا يحلُّ لك من قرابتك - كبنات عمِّك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب، وبنات أولاد بنات عبد المطلب، وبنات الخال من وَلَد بنات عبد مناف بن زُهرة - إلَّا من أسلم؛ لقوله ﷺ: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى الله تعالى عنه»^(٤).

(١) سنن الترمذي (٣٢١٦)، وهو عند أحمد (٢٤١٣٧)، وضعَّه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه أحمد (٦٥١٥)، والبخاري (١٠)، وسلف ٦/ ٥٠٦، وذكر هذا القول ابن العربي في أحكام

القرآن ٣/ ١٥٤٣.

الثاني: لا يَحِلُّ لك مِنْهُنَّ إِلَّا مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] وَمَنْ لَمْ يُهَاجِرْ لَمْ يَكْمُلْ، وَمَنْ لَمْ يَكْمُلْ لَمْ يَصْلُحْ لِلنَّبِيِّ ﷺ الذي كَمُلَ وَشُرِفَ وَعَظُمَ ﷺ^(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾ المَعِيَّةُ هنا: الاشتراك في الهجرة؛ لا في الصُّحْبَةِ فيها، فَمَنْ هَاجَرَ حَلَّ لَهُ^(٢)، كان في صُحْبَتِهِ إِذْ هَاجَرَ أَوْ لَمْ يَكُنْ. يقال: دخل فلانٌ معي وخرج معي، أي: كان عمله كعملي، وإن لَمْ يَقْتَرِنْ فِيهِ عَمَلُكُمَا. ولو قلت: خرجنا معاً لاقتضى ذلك المعنيين جميعاً: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه].

السابعة: ذكر الله تبارك وتعالى العمَّ قَرْدًا والعمَّات جَمْعًا. وكذلك قال: «خَالِكَ»، و«خَالَاتِكَ»، والحكمة في ذلك: أَنَّ العمَّ والخَالَ في الإطلاق اسمُ جنسٍ كالشاعر والرائجِز؛ وليس كذلك العمَّة والخَالَة. وهذا عُرِفَ لغويًّا، فجاء الكلامُ عليه بغاية البيان لرفع الإشكال، وهذا دقيقٌ فتأملوه؛ قاله ابن العربي^(٣).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً﴾ عطف على «أَخْلَلْنَا». المعنى: وأَخْلَلْنَا لك امرأةً تَهَبُ نَفْسَهَا مِنْ غَيْرِ صَدَاقٍ. وقد اختلف في هذا المعنى؛ فروي عن ابن عباس أنه قال: لَمْ تَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امرأةٌ إِلَّا بِعَقْدِ نِكَاحٍ، أَوْ مِلْكٍ يَمِينٍ. فأما بالهبة فلم يكن عنده مِنْهُنَّ أَحَدٌ^(٤).

وقال قومٌ: كانت عنده موهوبةً.

قلت: والذي في الصحيحين يقوِّي هذا القولَ وَيَعْضُدُهُ؛ روى مسلم عن عائشة

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤.

(٢) في (ظ): فمن هاجرت حلت له، والمثبت من باقي النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٤ - ١٥٤٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢، وأخرجه مختصراً الطبري ١٩/ ١٣٤، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٦٦).

رضي الله عنها أنها قالت: كنتُ أغار على اللَّاتي وهَبْنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ وأقول: أَمَا تستحي امرأةً تَهَبُ نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَيُؤْتَىٰ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾ فقلتُ: والله ما أرى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ في هواك^(١). وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنتُ حكيم من اللاتي وهبن أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ^(٢). فدلَّ هذا على أنهنَّ كنَّ غيرَ واحدةٍ. والله تعالى أعلم.

الزَّمَخْشَرِيُّ^(٣): وقيل: الموهوباتُ أربع: ميمونة بنتُ الحارث، وزينب بنت خزيمة أمُّ المساكين الأنصارية، وأمُّ شريك بنتُ جابر، وخولة بنتُ حكيم. قلت: وفي بعض هذا اختلافٌ. قال قتادة: هي ميمونة بنتُ الحارث^(٤). وقال الشعبي: هي زينب بنتُ خزيمة أمُّ المساكين، امرأةً من الأنصار^(٥). وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أمُّ شريك بنتُ جابر الأسدية^(٦). وقال عروة بن الزبير: أمُّ حكيم بنتُ الأوقص السُّلمية^(٧).

التاسعة: وقد اختلف في اسم الواهبة نَفْسَهَا؛ ف قيل: هي أمُّ شريك الأنصارية،

(١) صحيح مسلم (١٤٦٤)، وأخرجه أحمد (٢٥٠٢٦)، والبخاري (٤٧٨٨).

(٢) رواه البخاري بإثر الحديث (٥١١٣) عن عائشة تعليقاً، وأخرجه (بالرقم السابق) عن عروة قوله. ثم قال عروة: فقالت عائشة: أَمَا تستحي المرأة... الخ بمثل ما سلف. والكلام في التعريف والإعلام للسهيلى ص ١٤١.

(٣) في الكشف ٢٦٨/٣.

(٤) ذكره عن قتادة البغوي ٥٣٧/٣.

(٥) النكت والعيون ٤/٤١٥. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٢٢٣: وأما حكاية الماوردي عن الشعبي أن زينب بنت خزيمة أمُّ المساكين أنصارية فليس بجيد؛ فإنها هلالية بلا خلاف. اهـ. وقد ذكره البغوي ٥٣٧/٣ عن الشعبي فقال: الهلالية. وينظر ما سلف ص ١٢٢ من هذا الجزء.

(٦) تفسير البغوي ٣/٥٣٧، وأخرجه عن علي بن الحسين الطبري ١٩/١٣٥ - ١٣٦. ويقال: الأسدية والأزدية، وقد سلف ذكرها ص ١٢٥ من هذا الجزء، وينظر ما سيأتي في المسألة التي بعدها.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٢٦٨)، والطبري ١٩/١٣٦ وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٩٢، وسَمَّوها: خولة بنت حكيم بن الأوقص. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٣/١٩٦ أن أم حكيم هذه هي خولة بنت حكيم.

اسمها غُزَيَّة. وقيل: غُزَيْلَة. وقيل: ليلى بنت حكيم. وقيل: هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبي ﷺ، فجاءها الخاطب وهي على بغيرها فقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: هي أم شريك العامرية، وكانت عند أبي العكر الأزدي، وقيل: عند الطفيل بن الحارث، فولدت له شريكاً. وقيل: إن رسول الله ﷺ تزوجها؛ ولم يثبت ذلك. والله تعالى أعلم؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر^(١). وقال الشعبي وعروة: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين^(٢). والله تعالى أعلم.

العاشرة: قرأ جمهور الناس: ﴿إِنْ وَهَبْتَ﴾ بكسر الألف، وهذا يقتضي استئناف الأمر، أي: إن وقع فهو حلال له. وقد روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالاً: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة. وقد دللنا على خلافه. وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في الصحاح: أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: جئتُ أهبُّ لك نفسي، فسكت حتى قام رجل فقال: زَوَّجْنِيهَا إن لم يكن لك بها حاجة^(٣). فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكَّت رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يُقرُّ على الباطل إذا سمعه، غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظراً بياناً، فنزلت الآية بالتحليل والتخير. فاختار تركها، وزوجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لها طالباً^(٤).

وقرأ الحسن البصري وأبي بن كعب والشعبي: «أن» بفتح الألف^(٥). وقرأ الأعمش: «وامرأة مؤمنة وهبت». قال النحاس^(٦): «كسر» «إن» أجمع للمعاني؛ لأنه

(١) في الاستيعاب ٢٤٣/١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤١، والكلام من بداية المسألة منه. قال الحافظ في الإصابة ٢٣٨/١٣: والذي يظهر أن أم شريك واحدة، اختلف في نسبتها: أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٢/٤.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٨)، والبخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٤٦/٣.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ١٨٢/٢، والمحرر الوجيز ٣٩٢/٤، والكلام منه.

(٦) في معاني القرآن ٣٦٢/٥، وما قبله منه، وذكر ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن ابن مسعود.

قيل: إنهن نساء. وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها؛ لأنَّ الفتح على البدل من امرأة، أو بمعنى: لأنَّ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنَةٌ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافرة لا تحلُّ له. قال إمام الحرمين: وقد اختلف في تحريم الحرَّة الكافرة عليه. قال ابن العربي^(١): والصحيح عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميِّز علينا؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظُّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبُه عنها أظهر^(٢)؛ فجوِّزَ لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقُصِرَ هو ﷺ لجلالته على المؤمنات. وإذا كان لا يحلُّ له من لم تُهاجِرْ لنقصانِ فضلِ الهجرة؛ فأخرى ألاَّ تحلَّ له الكتابية الكافرة^(٣) لنقصانِ الكفر.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا﴾ دليلٌ على أنَّ النكاح عقدٌ معاوضةٌ على صفاتٍ مخصوصة، قد تقدَّمت في «النساء» وغيرها^(٤). وقال الزجاج: معنى «إنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ»: حَلَّتْ. وقرأ الحسن: «أَنْ وَهَبْتَ» بفتح الهمزة. و«أَنْ» في موضع نصب؛ قال الزجاج: أي: لأنَّ. وقال غيره: «أَنْ وَهَبْتَ» بدلٌ اشتمالٍ من «امرأة»^(٥).

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: إذا وهبت المرأة نفسها وقبَّلها النبي ﷺ؛ حَلَّتْ له، وإن لم يقبلها لم يلزَم ذلك. كما إذا وهبت لرجل شيئاً فلا يجبُ عليه القبول. يَبْدُ أنَّ من مكارِمِ أخلاقِ نبيِّنا أن يقبل من الواهب هبته، ويرى الأكارم أنَّ رَدَّها هُجْنَةٌ في العادة، ووصمةٌ على الواهب وإذايةٌ لقلبه؛ فبيَّن الله ذلك في حقِّ رسوله ﷺ، وجعله قرآناً يُتلى؛ ليرفع عنه الحرج، ويُبطلُ بطلَ الناس^(٦)

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٦، وما قبله منه.

(٢) في (ظ): عنه أظهر.

(٣) في أحكام القرآن: الحرة.

(٤) ينظر ٣٩٤/٤، و٢١٤/٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٠، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣، وسلف هذا الكلام في المسألة العاشرة.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤١ (والكلام منه): وليبطل ظن الناس.

في عاداتهم وقولهم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لِّكَ﴾ أي: هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية^(١)، فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل. ووجه الخاصية: أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك. فأما فيما بيننا فللمفوضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول.

الخامسة عشرة: أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح، إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر؛ فذلك جائز. قال ابن عطية^(٢): فليس في قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، وقد تقدمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاة. والحمد لله^(٣).

السادسة عشرة: خصّ الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد - في باب الفرض والتحريم والتحليل - مزية على الأمة وهبة^(٤) له، ومزينة خص بها؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم، منها متفق عليه، ومنها [مختلف فيه].

فأما ما فرض عليه فتسعة: الأول: التهجد بالليل؛ يقال: إن قيام الليل كان واجباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرُؤِلُ . قُرْ أَيْلُ﴾ الآية [المزمل: ١-٢]. والمنصوص أنه كان واجباً عليه ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلُ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً

(١) بعدها في (خ) و(د) و(م): لا تجوز، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٣٩٢/٤، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٣٩٢/٤، وما قبله منه.

(٣) عند المسألة التاسعة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٤) في (ظ): وهبة، وفي (خ) و(د) و(م): وهبت، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ١٥٤٩/٣ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه).

لَكَ ﴿[الإسراء: ٧٩] وسيأتي. الثاني: الضُّحَى. الثالث: الأَضْحَى^(١). الرابع: الوتر، وهو يدخل في قِسْم التَّهَجُّد. الخامس: السُّوَاك. السادس: قضاء دَيْنٍ مَنْ مات مُعْسِراً. السابع: مُشاورة ذوي الأحلام في غير الشَّرَائِع. الثامن: تخييرُ النساء. التاسع: إذا عَمِلَ عملاً أثَبَّتَهُ^(٢). زاد غيره: وكان يجبُ عليه إذا رأى منكراً أنكره وأظهره؛ لأنَّ إقراره لغيره على ذلك يدلُّ على جوازه؛ ذكره صاحب «البيان»^(٣).

وأما ما حرم عليه فجملته عشرة: الأول: تحريمُ الزكاة عليه وعلى آله. الثاني: صدقةُ التطوُّع عليه، وفي آله تفصيلٌ باختلاف. الثالث: خائنةُ الأَعْيُن، وهو أن يُظْهَرَ خلافَ ما يُضْمِر، أو ينخدع عمّا يجب. وقد ذمَّ بعضُ الكفار عند إذنه، ثم ألانَ له القول عند دخوله^(٤). الرابع: حرَّم عليه إذا لبس لأمتَه أن يخلعها عنه، أو يحكمَ الله بينه وبين مُحارِبِهِ. الخامس: الأَكْلُ مَتَكْنَأً. السادس: أكلُ الأطعمةِ الكريهةِ الرائحةِ. السابع: التبدُّل بأزواجه، وسيأتي^(٥). الثامن: نكاحُ امرأةٍ تكرهُ صُحبته. التاسع: نكاحُ الحرَّةِ الكتابية. العاشر: نكاحُ الأَمَةِ^(٦).

وحرَّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيهاً له وتطهيراً. فحرَّم عليه الكتابةُ وقولُ الشعر وتعليمه؛ تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِمِمِّنِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وذكر النقَّاش أنَّ النبي ﷺ ما

(١) يعني الأضحى، وأخرج أحمد (٢٠٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أُمرْتُ بالأضحى والوتر، ولم تُكتب» وفي رواية عند أحمد (٢٠٥٠): «ثلاث هن عليّ فرائض، وهن لكم تطوُّع: الوتر، والنحر، وصلاة الضحى». وذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ١١٨/٣ أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٤٩/٣ - ١٥٥٠.

(٣) ١٤٢/٩، وصاحبه هو أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليميني.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) ص ١٩٧ من هذا الجزء.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٥٠/٣.

مات حتى كَتَبَ، والأول هو المشهور^(١). وحرم عليه أن يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّع به الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وأما ما أُحِلَّ له ﷺ فجملته ستة عَشَرَ: الأول: صَفِيُّ الْمَغْنَمِ. الثاني: الاستبداؤُ بِخُمْسِ الْخُمْسِ أو الخُمسِ. الثالث: الوصال. الرابع: الزيادةُ على أربعِ نِسْوةٍ. الخامس: النكاحُ بلفظ الهبة. السادس: النكاح بغير وليٍّ. السابع: النكاح بغير صَدَاق. الثامن: نكاحه في حالة الإحرام. التاسع: سقوطُ الْقَسَمِ بين الأزواج عنه، وسيأتي^(٢). العاشر: إذا وقع بصره على امرأةٍ وجب على زوجها طلاقُها؛ وحلُّ له نكاحُها؛ قال ابن العربي^(٣): هكذا قال إمامُ الحرمين، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيدٍ من هذا المعنى. الحادي عشر: أنه أعتق صَفِيَّةً وجعل عِتْقَها صَدَاقَها. الثاني عشر: دخوله مكةَ بغير إحرام، وفي حَقِّنا فيه اختلافٌ. الثالث عشر: القتالُ بمكة. الرابع عشر: أنه لا يُورَث. وإنما ذُكر هذا في قسم التحليل لأنَّ الرجل إذا قاربَ الموتَ بالمرض زال عنه أكثرُ ملكه، ولم يبق له إلَّا الثلثُ خالصاً، وبقي ملكُ رسول الله ﷺ [بعد موته]، على ما تقرَّر بيانهُ في آيةِ المَوارِث، وفي سورة مريم بيانهُ أيضاً^(٤). الخامس عشر: بقاءُ زوجيَّته من بعد الموت. السادس عشر: إذا طَلَّق امرأةً تَبَقَّى حرمتُه عليها فلا تُنكح. وهذه الأقسامُ الثلاثةُ تقدَّم مُعْظَمُها مفصَّلاً في مواضعه. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وأبيح له عليه الصلاة والسلامُ أَخْذُ الطَّعامِ والشرابِ من الجائعِ والعطشانِ، وإن كان مَنْ هو معه يخاف على نفسه الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ

(١) وقد ذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ١٢٦/٣ - ١٢٨ عددًا من العلماء الذين قالوا بهذا القول والآثار التي استدلُّوا بها.

(٢) ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٣) في أحكام القرآن ١٥٥١/٣، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) ينظر ١٠٠/٦ و ٤١٥/١٣.

أَنْفُسِهِمْ ﴿[الأحزاب: ٦٦] وعلى كلِّ أحدٍ من المسلمين أن يَتَّقِيَ النَّبِيَّ ﷺ بنفسه. وأُبيح له أن يَحْمِيَ لِنَفْسِهِ^(١).

وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجُعِلَت الأرضُ له ولأُمَّتِه مسجداً وطهوراً. وكان من^(٢) الأنبياء لا تصحُّ صلاتهم إلَّا في المساجد. ونُصِرَ بالرُّغب، فكان يخافه العدوُّ من مَسِيرَةِ شهرٍ. وُبُعِثَ إلى كافَةِ الْخَلْقِ، وقد كان مَن قَبْلَه من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض^(٣).

وجُعِلَت معجزاته كمعجزاتِ الأنبياء قَبْلَه وزيادة. وكانت معجزةُ موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماءِ من الصخرة، وقد انشقَّ القمرُ للنبيِّ ﷺ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ. وكانت معجزةُ عيسى ﷺ إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وقد سَبَّحَ الحصى في يد النبيِّ ﷺ، وحنَّ الجذعُ إليه، وهذا أبلغ. وفَضَّلَه الله عليهم بأن جَعَلَ الْقُرْآنَ معجزةً له، وجعل معجزته فيه باقيةً إلى يوم القيامة، ولهذا جُعِلَت نبوُّهُ مؤبَّدةً لا تُنسخ إلى يوم القيامة^(٤).

السابعة عشر: قوله تعالى: ﴿أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: يَنْكِحَهَا، يقال: نَكَحَ واستَنْكَحَ، مثل عَجِبَ واستَعْجَبَ، وعَجَلَ واستَعْجَلَ. ويجوز أن يَرِدَ الاستنكاحُ بمعنى طَلَبِ النكاح، أو طَلَبِ الْوِطْءِ. و«خَالِصَةً» نصبٌ على الحال؛ قاله الزَّجَّاجُ^(٥).

(١) لقوله ﷺ: «لَا حِمَى إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ» أخرجه أحمد (١٦٤٢٢)، والبخاري (٢٣٧٠) من حديث الصَّعْبِ ابنِ جُثَامَةَ ؓ. ومعنى الحمى: أن يحمي أرضاً من الموت، يمنع الناس رَغِي ما فيها من الكلاء؛ ليختصُّ بها دونهم، ولكنه ﷺ لم يحم لنفسه شيئاً، وإنما حَمَى للمسلمين. ينظر المغني لابن قدامة ١٦٥/٨ - ١٦٦.

(٢) كذا في النسخ، وحق الكلام أن يكون دون كلمة من.

(٣) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «أُعْطِيتَ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» وقد سلف ٢٥٨/٤، وسيأتي عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأحقاف.

(٤) من قوله: وأُبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ولعله ليس من أصل الكتاب، إنما وقع في حواشيه ثم أقحم فيه.

(٥) في معاني القرآن ٢٣٣/٤.

وقيل: حال من ضمير متّصل بفعلٍ مُضمرٍ دلّ عليه المضمر، تقديره: أخللنا لك أزواجك، وأخللنا لك امرأة مؤمنة، أخللناها خالصةً بلفظ الهبة وبغير صدّاقٍ وبغير وليّ.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخول؛ لأنّ تصرّف الأحكام إنّما يكون فيهم على تقدير الإسلام^(١).

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا على المؤمنين، وهو ألا يتزوجوا إلّا أربع نسوة بمهرٍ وبينةٍ ووليّ. قال معناه أبي بن كعب وقتادة وغيرهما^(٢).

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: ضيقٌ في أمرٍ أنت فيه محتاجٌ إلى السّعة، أي: بيّنًا هذا البيان وشرّحنا هذا الشّرح «لكيلا يكون عليك حرج». ف «لكيلا» متعلّق بقوله: ﴿إِنَّا أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أي: فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنّك قد أثمت عند ربك في شيء. ثم آتس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقَوَّيْ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمَن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَيَنَّكِ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ﴾ قرئ مهموزاً وغير مهموز^(٣)، وهما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٣.

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ١١٩ - ١٢٠، والطبري ١٩/ ١٣٧. وأخرجه عن أبي الطبري ١٩/ ١٣٤، دون ذكر المهر والبينة والولي.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «ترجي» مهموزاً، والباقون من السبعة بغير همز. السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١١٩.

لغتان، يقال: أَرْجَيْتُ الأمرَ وأَرْجَأْتَهُ: إذا أَخَّرْتَهُ. ﴿وَتَقْوَى﴾ تَضُمُّ، يقال: آوَى إليه - ممدودة الألف - : ضَمَّ إليه. وآوَى - مقصورة الألف - : انضمَّ إليه.

الثانية: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصحُّ ما قيل فيها: التوسعة على النبي ﷺ في تَرْكِ الْقَسَمِ، فكان لا يجبُ عليه الْقَسَمُ بين زوجاته. وهذا القول هو الذي يُناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كنتُ أغار على اللَّائِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وأقول: أوتَهَبُ المرأةُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ؟ فلمَّا أنزل الله عز وجل: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَأُ مِنْهُنَّ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَأُ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ قالت: قلتُ: واللَّهِ ما أرى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ في هَوَاكَ^(١). قال ابن العربي^(٢): هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه. والمعنى المراد: هو أنَّ النبي ﷺ كان مخيراً في أزواجه، إن شاء أن يَقْسِمَ قَسَمَ، وإن شاء أن يترك الْقَسَمَ تَرَكَ. فحُصَّ النبي ﷺ بأنْ جُعِلَ الأمرُ إليه فيه، لكنه كان يَقْسِمُ من قَبْلِ نفسه دون قَرْضٍ ذلك عليه؛ تطييباً لنفوسهنَّ، وصوناً لهنَّ عن أقوال الغيرة التي ترقى^(٣) إلى ما لا ينبغي.

وقيل: كان الْقَسَمُ واجباً على النبي ﷺ، ثم نُسِخَ الوجوبُ عنه بهذه الآية. قال أبو رزين: كان رسول الله ﷺ قد همَّ بطلاق بعض نسائه فَقُلْنَ له: اقْسِمْ لنا ما شئتَ. فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأُم سلمة وزينب، فكان قَسَمْتُهُنَّ^(٤) من نفسه وماله سواءً بينهنَّ. وكان ممن أَرْجَى سودة وجُوَيْرِيَّةُ وأُم حبيبة وميمونة وصفية؛ فكان يَقْسِمُ لهنَّ ما شاء^(٥).

(١) سلف ص ١٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في أحكام القرآن ٣/١٥٥٦.

(٣) في (م): التي تؤذي، وفي أحكام القرآن: التي ربما ترقى.

(٤) في (ظ): فكانت قسمته لهن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٢٠، والطبري ١٩/١٣٩ و١٤٠ و١٤١.

وقيل: المراد الواهبات؛ روى هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة في قوله: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ قالت: هذا في الواهبات أنفسهن^(١). قال الشعبي: هنّ الواهبات أنفسهنّ؛ تزوّج رسول الله ﷺ منهنّ وترك منهنّ^(٢).

وقال الزُّهري: ما علمنا أنّ رسول الله ﷺ أزجاً أحداً من أزواجه، بل آواهنّ كلّهن^(٣).

وقال ابن عباس وغيره: المعنى في طلاق مَنْ شاء ممن حَصَلَ في عصمته، وإمساك مَنْ شاء^(٤). وقيل غيرُ هذا. وعلى كلّ معنًى؛ فالآية معناها التَّوَسُّعُ على رسول الله ﷺ والإباحة. وما اخترناه أصحّ، والله أعلم.

الثالثة: ذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ إلى أنّ قوله: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾ الآية، ناسخ لقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ الآية. وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يُضَعَّفُ من جهات^(٥). وفي «البقرة» عِدَّةُ المتوفّى عنها أربعة أشهرٍ وعَشْرٌ، وهو ناسخ للحَوْل وقد تقدّم عليه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ابْتَعَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ «ابْتَعَيْتَ»: طَلَبْتَ، والابتغاء: الطَّلَب، و«عَزَلْتَ»: أزلت، والعزلة: الإزالة، أي: إن أردت أن تُؤوِّيَ إليك امرأةً ممن عزلتهنّ من القسمة وتضمّنها إليك؛ فلا بأسَ عليك في ذلك. وكذلك حكمُ الإرجاء، فدلّ أحدُ الطرفين على الثاني.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: لا ميل، يقال: جَنَحَتِ السفينةُ، أي: مالت إلى الأرض. أي: لا ميلَ عليك باللّوم والتوبيخ.

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وسلف بنحوه مطولاً ص ١٨٢ من هذا الجزء، وفي بداية هذه المسألة.

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/١٥٤ - ١٥٥، وأحمد في العلل ومعرفة الرجال ١/١٤٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢١١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٩٣، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/١٤٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٣٩٣. وهبة الله هو ابن سلامة البغدادي أبو القاسم الضرير المفسّر.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ قال قتادة وغيره: أي: ذلك التخيير الذي خيّرناك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهنّ إذ كان من عندنا؛ لأنهنّ إذا عَلِمْنَ أَنَّ الفعل^(١) من الله قَرَّتْ أَعْيُنُهُنَّ بذلك وَرَضِينَ^(٢)؛ لأنّ المرء إذا علم أنه لا حقّ له في شيء، كان راضياً بما أُوتِيَ منه وإن قلّ. وإن عَلِمَ أَنَّ له حقاً، لم يُقْنِعْهُ ما أُوتِيَ منه، واشتدَّتْ غَيْرُتُهُ عليه وَعَظُمَ حِرْصُهُ فيه. فكان ما فَعَلَ الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهنّ معه، وإلى استقرار أَعْيُنُهُنَّ بما يسمح به لهنّ، دون أن تتعلّق قلوبهنّ بأكثر منه^(٣).

وقرئ: «تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ» بضمّ التاء ونصبِ الأعين. «وَتُقَرَّرَ أَعْيُنُهُنَّ» على البناء للمفعول^(٤).

وكان عليه الصلاة والسلام مع هذا يشدّد على نفسه في رعاية التَّسْوِيَةِ بينهنّ، تطبيعاً لقلوبهنّ^(٥) - كما قدّمناه - ويقول: «اللهمّ هذه قُدْرَتِي فيما أُمْلِكُ، فلا تُلْمَنِي فيما تَمْلِكُ ولا أُمْلِكُ»^(٦) يعني قلبه؛ لإيثاره عائشة رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي تُوفِّي فيه يُطافُ به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهنّ أن يقيم في بيت عائشة؛ قالت عائشة: أوّل ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يُمرَضَ في بيتها - يعني بيت عائشة - فأذنّ له... الحديث، خرجه الصحيح^(٧). وفي الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله

(١) في (د) و(ز) و(ظ): العدل.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/١٤٥ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٥٧.

(٤) قراءتان شاذتان، وقد ذكرهما الزمخشري في الكشاف ٣/٢٦٩، وذكر الأولى ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن ابن محيصن.

(٥) في (خ): تطميناً لنفوسهن، وفي (ظ): تطبيعاً لنفوسهن.

(٦) أخرجه أحمد (٢٥١١١)، والترمذي (١١٤٠)، وأبو داود (٢١٣٤)، والنسائي في المجتبى ٧/٦٣-٦٤، وابن ماجه (١٩٧١)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وسلف ٧/١٦٧ - ١٦٨.

(٧) صحيح البخاري (١٩٨)، وصحيح مسلم (٤١٨) واللفظ له، وهو عند أحمد (٢٥٩١٤).

عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: «أين أنا اليوم، أين أنا غداً» استبطاءً ليوم عائشة رضي الله عنها. قالت: فلمّا كان يومي قَبَضَهُ الله تعالى بين سَخْرِي ونَخْرِي، ﷺ^(١).

السابعة: على الرجل أن يعدل بين نسائه، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ يومٌ^(٢) وليلةٌ؛ هذا قولُ عامّةِ العلماء. وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار. ولا يُسَقِطُ حقَّ الزوجة مرضّها ولا حيضُها، ويلزمه المُقامُ عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهنَّ في مرضه كما يفعل في صحته، إلّا أن يَعْجزَ عن الحركة، فيقيم حيث غَلَبَ عليه المرض، فإذا صحَّ استأنف القَسَمَ. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء. قال عبد الملك: للحرّة ليلتان وللأمّة ليلة. وأمّا السّراري فلا قَسَمَ بينهنَّ وبين الحرائر، ولا حظٌّ لهنَّ فيه.

الثامنة: ولا يجمع بينهنَّ في منزلٍ واحدٍ إلّا برِضاهُنَّ، ولا يدخل لإحداهُنَّ في يومٍ الأخرى وليلتها لغير حاجة. واختلّف في دخوله لحاجةٍ وضرورة، فالأكثرُون على جوازه؛ مالكٌ وغيره. وفي كتاب ابن حبيب منعه^(٣). وروى ابن بُكير عن مالك عن يحيى بن سعيد: أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان، فإذا كان يومٌ هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء^(٤). قال ابن بُكير: وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد: أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون. فأشبه بينهما أيهما تُدلى أول^(٥).

التاسعة: قال مالك: ويعدلُ بينهنَّ في النفقة والكسوة إذا كنَّ معتدلاتِ الحال،

(١) صحيح البخاري (١٣٨٩) وصحيح مسلم (٢٤٤٣) واللفظ له. قولها: سَخْرِي ونَخْرِي، السُّخْر: الرثة، والنخر: أعلى الصدر. المفهم ٣٢٨/٦.

(٢) في النسخ: يوماً، والمثبت من الكافي ٥٦١/٢، والكلام منه.

(٣) المفهم ٢٠٥/٤.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص ٢٢٨، وأبو نعيم في الحلية ٢٣٤/١.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٣٤/١ من طريق الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد به.

ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الحبُّ والبغضُ فخارجان عن الكسب، فلا يتأتى العدلُ فيهما، وهو المعنى بقوله ﷺ في قَسَمِهِ: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تُلْمَنِي فيما تَمْلِك ولا أملك». أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وفي كتاب أبي داود: يعني القلب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْنِسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا؛ تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض من عندنا من النساء دون بعض، وهو العالم بكل شيء ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَخَفَى﴾ [طه: ٧] لكنه سَمَح في ذلك؛ إذ لا يستطيع العبد أن يضرب قلبه عن ذلك الميل، وإلى ذلك يعود قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقد قيل في قوله: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وهي:

العاشرة: أي: ذلك أقرب ألا يحزن إذا لم تجتمع إحداهن مع الأخرى وتعاين الأثرة والميل^(٢). وروى أبو داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل»^(٣).

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ توكيد للضمير، أي: ويرضين كلهن. وأجاز أبو حاتم والزجاج: «ويرضين بما آتيتهن كلهن» على التوكيد للمضمر الذي في «آتيتهن». والفراء لا يجيزه؛ لأنَّ المعنى ليس عليه؛ إذ كان المعنى: وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى: بما أعطيتهن كلهن. النحاس: والذي قاله حسن^(٤).

(١) المفهم ٢٠٥/٤ - ٢٠٦، وسلف الحديث في المسألة السادسة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢١.

(٣) سنن أبي داود (٢١٣٣)، وسلف ٧/١٦٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢١ - ٣٢٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/٢٣٣، وقول الفراء =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص. وكذلك يَدْخُلُ في المعنى أيضاً المؤمنون^(١). وفي البخاري عن عمرو بن العاص: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ فقال: «عائشة» فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب...» فعَدَّ رجالاً^(٢). وقد تقدّم القول في القلب بما فيه كفاية في أوّل «البقرة»^(٣)، وفي أول هذه السورة^(٤). يروى أَنَّ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ كان عبداً نجاراً قال له سيِّده: اذْبَحْ شاةً وائْتِنِي بِأَطْيَبِهَا بَضْعَتَيْنِ، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاةٍ أخرى فقال له: أَلْقِ أَخْبَثَهَا بَضْعَتَيْنِ، فألقى اللسان والقلب، فقال: أَمَرْتُكَ أَنْ تَأْتِنِي بِأَطْيَبِهَا بَضْعَتَيْنِ، فأتيتني باللسان والقلب، وَأَمَرْتُكَ أَنْ تُلْقِيَ بِأَخْبَثَهَا بَضْعَتَيْنِ، فَأَلْقَيْتَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ! فقال: ليس شيءٌ أَطْيَبَ منهما إذا طابا، ولا أَخْبَثَ منهما إذا خُبَا^(٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥١﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ على أقوال

سبعة:

= في معاني القرآن له ٣٤٦/٢. وقرأ: «كلهن» بالنصب أبو إياس جُوزِيَة بن عائد، كما في القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ١٨٢/٢.

(١) المحرر الوجيز ٣٩٣/٤.

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٢)، وهو عند أحمد (١٧٨١١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) ٢٨٦/١.

(٤) ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٢١٤/١٣، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ٥٤٨/١٨، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٢٩ عن خالد الرُّبَيعي قوله. ووقع في جميع المصادر: مضغتين، بدل: بضعتين.

الأول: أنها منسوخة بالسنة، والناسخ لها حديث عائشة؛ قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ له النساء. وقد تقدَّم^(١).

الثاني: أنها منسوخة بآية أخرى؛ روى الطحاوي عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء من شاء^(٢)، إلا ذات مَحْرَم، وذلك قوله عز وجل: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّىٰ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾^(٣). قال النحاس^(٤): وهذا - والله أعلم - أولى ما قيل في الآية، وهو قول عائشة واحد في النسخ. وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت: أحلَّ له ذلك بالقرآن. وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك. وقد عارض بعض الفقهاء الكوفيين فقال: مُحَالٌ أَنْ تَنْسَخَ هَذِهِ الْآيَةُ - يعني ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ - ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾، وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون، ورجَّح قول من قال: نُسِخَتْ بِالسُّنَّةِ.

قال النحاس^(٥): وهذه المعارضة لا تلزم، وقائلها غلط؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة، كما صحَّ عن ابن عباس: أنزل الله القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا في شهر رمضان^(٦). ويبين لك أن اعتراض هذا لا يلزم قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(١) ص ١٨٠ من هذا الجزء.

(٢) في (ظ): ما شاء.

(٣) شرح مشكل الآثار (٥٢٤)، وأخرجه أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٨٧/٢، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. وفي إسناده عمر بن أبي بكر الموصلي، قال فيه أبو حاتم كما في العلل لابنه ١٠٠/٦: ذاهب الحديث، متروك الحديث. اهـ وأخرجه ابن سعد ١٩٤/٨ بإسناد آخر فيه الواقدي.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٥٨٧/٢ - ٥٨٨.

(٥) في الناسخ والمنسوخ ٥٨٨/٢.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢، وابن أبي شيبة ٥٣٣/١٠.

[البقرة: ٢٤٠] منسوخة على قول أهل التأويل - لا نَعْلَم بينهم خلافاً - بالآية التي قبلها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: أنه ﷺ حُظِرَ عليه أن يتزوَّج على نسائه؛ لأنهنَّ اخْتَرَنَ الله ورسوله والدار الآخرة؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال النحاس^(١): وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نُسخ.

الرابع: أنه لما حَرَّمَ عليهنَّ أن يتزوَّجن بعده حَرَّمَ عليه أن يتزوَّج غيرهنَّ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حنيف^(٢).

الخامس: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد الأصناف التي سُمِّيت؛ قاله أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين، وهو اختيار محمد بن جرير^(٣).

ومن قال: إن الإباحة كانت له مُطْلَقَةً، قال هنا: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ» معناه: لا تَحِلُّ لَكَ الْيَهُودِيَّاتُ وَلَا النَّصْرَانِيَّاتُ. وهذا تأويل فيه بُعْدٌ^(٤)، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة أيضاً. وهو القول السادس؛ قال مجاهد: لئلا تكون كافرةً أمًّا للمؤمنين. وهذا القول يَبْعُدُ؛ لأنه يَقْدَرُ: مِنْ بَعْدِ الْمُسْلِمَاتِ، ولم يَجْرِ لِلْمُسْلِمَاتِ ذِكْرٌ^(٥). وكذلك قَدَّرَ: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ﴾ أي: ولا أن تَطْلُقَ مُسْلِمَةً لتستبدل بها كِتَابِيَّةً^(٦).

(١) في الناسخ والمنسوخ ٥٩٠/٢، وما قبله منه.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٥٩٠/٢.

(٣) في التفسير ١٥٠/١٩، والكلام من الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٩٠/٢ - ٥٩١. وأخرجه عن أبي ابن كعب ﷺ ابن سعد ١٩٦/٨، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٨)، والطبري ١٤٧/١٩ - ١٤٨. وأخرجه عن أبي رزين ابن سعد ١٩٦/٨. وعن عكرمة الطبري ١٤٩/١٩.

(٤) المحرر الوجيز ٣٩٤/٤.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٩١/٢.

(٦) أخرجه بنحوه عن مجاهد ابن سعد ١٩٥/٨ - ١٩٦، والطبري ١٥١/١٩، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ١٥٥٩/٣.

السابع: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَهُ حَلَالٌ أَنْ يَتَزَوَّجَ مَنْ شَاءَ ثُمَّ نُسخَ ذَلِكَ. قال: وكذلك كانت الأنبياء قبله ﷺ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيُّ^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ بَدَّلَ مِنْ أَنْفُسِهِ﴾ قال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله؛ يقول أحدهم: خُذْ زوجتي وأعطني زوجتك^(٢)، روى الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبي هريرة قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: تَنْزِلُ لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا أَنْ بَدَّلَ مِنْ أَنْفُسِهِ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا﴾ قال: فدخل عُيَيْنَةُ بنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ على رسول الله ﷺ وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عُيَيْنَةُ، فأين الاستئذان؟» فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ على رجلٍ من مُضَرٍ منذ أدركت. قال: مَنْ هذه الحُميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ» قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال: «يا عُيَيْنَةُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ». قال: فلمَّا خرج قالت عائشة: يا رسول الله، مَنْ هذا؟ قال: «أَحْمَقُ مَطَاعٌ، وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرَيْنَ لَسِيذُ قَوْمِهِ»^(٣).

وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تُبَادِلُ بأزواجها^(٤). قال الطبري^(٥): وما فعلت العرب قط هذا، وما روي من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة... الحديث، فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية، فقال هذا القول.

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٩٢/٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٢/١٩، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٥٩١/٢ - ٥٩٢.

(٣) سنن الدارقطني (٣٥١٣)، وأخرجه أيضاً البزار (٢٢٥١ - كشف). وهو من طريق إسحاق بن عبد الله ابن أبي فروة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبي هريرة ؓ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٢/٧: فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك. اهـ. وكذا قال فيه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وتظهر أقوال الأئمة في تكذيبه وتركه في تهذيب التهذيب ١٢٣/١.

(٤) تفسير الطبري ١٥٣/١٩، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٩٢/٢.

(٥) هذا قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٩٤/٤، وليس قول الطبري.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، من أَنَّ الْبَدَلَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَدُلُّ عَلَى خِلَافٍ مَا أَنْكَرَا مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

قال المبرّد: وقرئ: «لَا يَحِلُّ» بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ؛ فَعَلَى مَعْنَى جَمَاعَةِ النِّسَاءِ، وَبِالْيَاءِ مِنْ تَحْتِ عَلَى مَعْنَى جَمِيعِ النِّسَاءِ. وَزَعَمَ الْفَرَّاءُ قَالَ: اجْتَمَعَتِ الْقُرَاءُ عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالْيَاءِ. وَهَذَا غَلَطٌ، وَكَيْفَ يُقَالُ: اجْتَمَعَتِ الْقُرَاءُ، وَقَدْ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِالتَّاءِ بِلَا اخْتِلَافٍ عَنْهُ؟^(٢)

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماء بنت عميس؛ أعجب رسول الله ﷺ - حين مات عنها جعفر بن أبي طالب - حُسْنُهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ. وَهَذَا حَدِيثٌ ضَعِيفٌ؛ قَالَه ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٣).

الرابعة: في هذه الآية دليلٌ على جواز أن ينظر الرجل إلى مَنْ يريد زواجها. وقد أَرَادَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ زَوَاجَ امْرَأَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا»^(٤). وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَخْرَجَ: «انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا» أَخْرَجَهُ الصَّحِيحُ^(٥). قَالَ الْحَمِيدِيُّ وَأَبُو الْفَرَجِ الْجَوْزِيُّ: يَعْنِي صِغَرًا أَوْ زَرَقًا. وَقِيلَ: رَمَصًا^(٦).

الخامسة: الأمرُ بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛

(١) لا حجة للمصنف في قوله هذا، فإن راوي الحديث عن زيد هو إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك كما سلف ذكره.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٤٦. وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١١٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/١٥٥٨، وقد ذكر ابن العربي الخبر دون نسبة، وأورده عن ابن عباس البغوي ٣/٥٣٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٨١٣٧)، والترمذي (١٠٨٧)، والنسائي في المجتبى ٦/٦٩ - ٧٠، وابن ماجه (١٨٦٦) من حديث أنس رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن. قوله: أن يؤدم بينكما، أي: يوفق ويؤلف. شرح سنن ابن ماجه للسندي ١/٥٧٥.

(٥) صحيح مسلم (١٤٢٤)، وهو عند أحمد (٧٨٤٢)، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) المفهم ٤/١٢٧، دون ذكر الحميدي، وقول الحميدي في مسنده إثر الحديث (١١٧٢). والرَّمَصُ: وسخ أبيض يجتمع في الموق. القاموس (رمص).

فإنه إذا نظر إليها فلعلّه يرى منها ما يرغبه في نكاحها. ومما يدلّ على أنّ الأمر على جهة الإرشاد، ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ مِنْهَا إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ»^(١). فقوله: «فَإِنْ اسْتَطَاعَ فَلْيَفْعَلْ» لا يقال مثله في الواجب. وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعي والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر. وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهَا﴾. قال سهل بن أبي حنمة: رأيت محمد بن مسلمة يطارد بُيْتَةَ^(٣) بنت الضحاك على إجارٍ من أجاجير المدينة، فقلت له: أتفعل هذا؟ فقال: نعم، قال النبي ﷺ: «إِذَا أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِ أَحَدِكُمْ خُطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا»^(٤). الإجار: السطح بلغة أهل الشام والحجاز. قال أبو عبيد^(٥): وجمع الإجار: أجاجير وأجاجرة.

السادسة: اختُلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك: ينظر إلى وجهها وكفّيتها، ولا ينظر إلّا بإذنها. وقال الشافعي وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترّة^(٦). وقال الأوزاعي: ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. وقال داود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكاً بظاهر اللفظ. وأصول الشريعة تردّ عليه في تحريم الاطلاع على العورة^(٧). والله أعلم.

(١) سنن أبي داود (٢٠٨٢)، وهو عند أحمد (١٤٥٨٦)، والكلام من المفهم ١٢٥/٤.

(٢) المفهم ١٢٥/٤ - ١٢٦.

(٣) في (د) بئينة، وفي (ظ): ببئينة. قال الحافظ في الإصابة ١٢/١٩٩: المشهور أنها بالمثلثة. قاله أبو موسى.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٩٤، وأخرجه بهذا اللفظ المزي في تهذيب الكمال ٢٥/٣٠٢ (في ترجمة محمد ابن سليمان بن أبي حنمة)، وبنحوه أحمد (١٦٠٢٨) وابن حبان (٤٠٤٢)، وإسناده ضعيف، غير أن مرفوعه يصحّ بشواهده.

(٥) في غريب الحديث ١/٢٧٦.

(٦) في (ظ): مستترّة.

(٧) المفهم ١٢٦/٤.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأمة الكافرة للنبي ﷺ على قولين:

أحدهما: تَحِلُّ؛ لعموم قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾. قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم؛ قالوا: قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي: لا تَحِلُّ لك النساء من غير المسلمين، فأما اليهوديات والنصرانيات والمشركات فحرام عليك، أي: لا يَحِلُّ لك أن تتزوج كافرة فتكون أمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حُسْنُهَا، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يَتَسَرَّى بِهَا^(١).

القول الثاني: لا تَحِلُّ؛ تنزيهاً لَقَدْرِهِ عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، فكيف به ﷺ؟!

و «ما» في قوله: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» في موضع رفع بدلٍ من «النساء». ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الاستثناء، وفيه ضَعْفٌ. ويجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: إِلَّا مَلَكَ يَمِينُكَ، ومَلَكَ بمعنى مملوك، وهو في موضع نصبٍ لأنه استثناء من غير الجنس الأول^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِجَدِيدِ إِنَّ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِىءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِىءُ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَمَا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

فيه ستُّ عشرة مسألة:

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٦٩/٥ - ٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٤/٤. وتُعَبِّبُ بأنه إذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء، فلا يكون منقطعاً، ويكون الرفع أرجح. ينظر البحر ٢٤٥/٧، والدر المصون ١٣٨/٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ «أن» في موضع نصبٍ على معنى: إِلَّا بَأْنِ يُؤْذَنَ لَكُمْ، ويكون الاستثناء ليس من الأول. ﴿إِلَّا إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ نصبٌ على الحال، أي: لا تدخلوا في هذه الحال. ولا يجوز في «غير» الخفض على النعت للطعام؛ لأنه لو كان نعتاً لم يكن بد من إظهار الفاعلين، وكان يقول: غير ناظرين إناه أنتم. ونظيرُ هذا من النحو: هذا رجلٌ مع رجلٍ مُلازمٍ له، وإن شئت قلت: هذا رجلٌ مع رجلٍ مُلازمٍ له هو^(١).

وهذه الآية تضمّنت قصّتين^(٢): إحداهما: الأدبُ في أمر الطعام والجلوس. والثانية: أمرُ الحجاب. وقال حماد بن زيد: هذه الآية نزلت في الثّقلاء^(٣).

فأمّا القصة الأولى فالجمهور من المفسرين على أنّ سببها: أنّ رسول الله ﷺ لما تزوّج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ. قال أنس: فما أدري أنا أخبرْتُ النبي ﷺ أنّ القوم قد خرجوا، أو أخبرني. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبتُ أدخلُ معه، فألقى السّترَ بيني وبينه ونزل الحجاب. قال: ووُعِظَ القومُ بما وُعظوا به، وأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أخرجه الصحيح^(٤).

وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبي: إنّ هذا السبب جرى في بيت أم سلمة^(٥). والأوّل الصحيح، كما رواه الصحيح.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٣.

(٢) في (ظ): قضيتين.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٤ عن سليمان بن أرقم.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وهو عند أحمد (١٢٠٢٣).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ١٦٦.

وقال ابن عباس: نزلت في ناسٍ من المؤمنين كانوا يتحَيَّنُونَ طعامَ النبي ﷺ، فيدخلون قبل أن يُدْرِكَ الطعامُ، فيقعُدون إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون^(١).

وقال إسماعيل بن أبي حكيم^(٢): وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثُّقَلَاءَ. وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حَسْبُكَ من الثُّقَلَاءِ أَنَّ الشَّرَعَ لم يَحْتَمِلْهُمْ^(٣).

وأما قصة الحجابِ فقال أنس بن مالك وجماعة: سبَّها أمرُ القعودِ في بيتِ زينب، القصةُ المذكورةُ آنفاً. وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة: سبَّها أنَّ عمر قال: قلتُ: يا رسول الله، إنَّ نساءك يَدْخُلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ، فلو أمرتهنَّ أن يَحْتَجِبْنَ، فنزلت الآية^(٤). وروى الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر: وافقتُ ربِّي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر^(٥).

هذا أصحُّ ما قيل في أمر الحجاب، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهيةٌ، لا يقوم شيءٌ منها على ساق، وأضعفها ما روي عن ابن مسعود: أنَّ عمر أمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب، إنَّكَ تَغَارُ علينا والوحي ينزل في بيوتنا! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَّعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٦) وهذا باطل؛ لأنَّ الحجاب نزل يومَ البناءِ بزينب، كما

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٩٥/٤.

(٢) الفرشيُّ مولاهم، المدني، كان عاملاً لعمر بن عبد العزيز، توفِّي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ١٤٦/١. وقوله في المحرر الوجيز ٣٩٥/٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣٩٥/٤، وابن أبي عائشة هو موسى.

(٤) هو قطعة من حديث أنس ؓ عند أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢)، وسيأتي في المسألة الثامنة. وأخرجه عن عائشة بمعناه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠)، وسيأتي حديث عائشة رضي الله عنها في المسألة السادسة عشرة.

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩).

(٦) أخرجه أحمد (٤٣٦٢) مطولاً، والطبري ١٦٥/١٩ و١٦٩. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ١٥٦٣/٣.

بَيْنَاهُ. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم^(١).

وقيل: إِنَّ رسول الله ﷺ كان يَطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابته يد رجلٍ منهم يد عائشة، فكره النبي ﷺ، فنزلت آيةُ الحجاب^(٢).

قال ابن عطية^(٣): وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعامٌ وليمةٌ أو نحوه أن يَبْكَرُ مَنْ شاء إلى الدعوة ينتظرون طَبَخَ الطعام ونُضِجَه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فَنهَى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائرُ المؤمنين، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك، فَمَنَعَهُم من الدخول إلَّا بإذنٍ عند الأكل، لا قَبْلَه لانتظارِ نُضِجِ الطعام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يُؤْتِ الْنَّبِيَّ﴾ دليلٌ على أَنَّ البيت للرجل، ويُحْكَم له به، فَإِنَّ الله تعالى أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي يُؤْتِيكَنَّ مِنْ أَيْدِي اللَّهِ وَالْحِكْمَةُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤] قلنا: إضافة البيوت إلى النبي ﷺ إضافةٌ مِلْكٍ، وإضافةُ البيوت إلى الأزواج إضافةٌ مَحَلٍّ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي ﷺ، والإذن إنما يكون للمالك^(٤).

الثالثة: واختلف العلماء في بيوت النبي ﷺ إذ كان يَسْكُنُ فيها أهله بعد موته؛ هل هي مِلْكٌ لَهُنَّ أم لا؟ على قولين: فقالت طائفة: كانت مِلْكاً لَهُنَّ، بدليل أنهنَّ سَكَنَ فيها بعد موت النبي ﷺ إلى وفاتهنَّ، وذلك أَنَّ النبي ﷺ وهب ذلك لَهُنَّ في حياته.

الثاني: أَنَّ ذلك كان إسكاناً كما يُسْكِنُ الرجلُ أهله، ولم يكن هبةً، وتَمَادَى

(١) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وسنن الترمذي (٣٢١٨)، وهو من حديث أنس رضي الله عنه، وسلف قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ١٦٧/١٩، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٧٩ عن مجاهد. وأخرج نحوه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٣) من طريق مجاهد عن عائشة.

(٣) في المحرر الوجيز ٣٩٥/٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٦٣/٣.

سُكُنَاهُنَّ بِهَا إِلَى الْمَوْتِ^(١). وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهم^(٢)، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مَّوَدَّتِهِنَّ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتِثْنَاهَا لَهُنَّ، كَمَا اسْتَشْنَى لَهُنَّ نَفَقَاتِهِنَّ حِينَ قَالَ: «لَا تَقْتَسِمَ وَرَثَتِي دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ أَهْلِي وَمَوْدَّةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(٣). هكذا قال أهل العلم، قالوا: ويدلُّ على ذلك أَنَّ مَسَاكِنَهُنَّ لَمْ يَرِثْهَا عَنْهُنَّ وَرَثَتُهُنَّ. قالوا: ولو كان ذلك مِلْكَاً لَهُنَّ كَانَ لَا شَكَّ قَدْ وَرِثَهُ عَنْهُنَّ وَرَثَتُهُنَّ. قالوا: وفي تَرْكِ وَرَثَتِهِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لَهُنَّ مِلْكَاً، وَإِنَّمَا كَانَ لَهُنَّ سُكْنَى حَيَاتِهِنَّ، فَلَمَّا تُوفِّيْنَ جُعِلَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يَعْمُ الْمُسْلِمِينَ نَفْعُهُ، كَمَا جُعِلَ ذَلِكَ [فِي] الَّذِي كَانَ لَهُنَّ مِنَ النِّفَقَاتِ فِي تَرْكِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا مَضَيْنَ لِسَبِيلِهِنَّ، فزِيدَ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ، فَصُرِفَ فِي مَنَافِعِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا يَعْمُ جَمِيعَهُمْ نَفْعُهُ^(٤). والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ أَي: غَيْرَ مُنْتَظَرِينَ وَقْتَ نَضْجِهِ. و«إِنَاءَهُ» مَقْصُورٌ، وفيه لغات: «إِنِّي» بكسر الهمزة؛ قال الشيباني^(٥):

وَكُسِرَى إِذْ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ بِأَسْيَافٍ كَمَا افْتُسِمَ اللَّحَامُ
تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَّى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ^(٦)

(١) المصدر السابق.

(٢) التمهيد ١٧٣/٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٦٤.

(٣) أخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ووقع عندهم: نسائي، بدل: أهلي، وينظر ما سيأتي ص ٢٢٩ من هذا الجزء. قال الحافظ في الفتح ٤٠٦/٥: المراد بالعامل هنا: القِيمُ على الأرض والأجير وغيرهما، أو الخليفة بعده.

(٤) التمهيد ١٧٣/٨ - ١٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) هو خالد بن حِقِّ الشيباني، كما في سيرة ابن هشام ٦٩/١.

(٦) سيرة ابن هشام ٦٩/١، وتُسبب البيتان أيضاً لعمر بن حسان أحد بني الحارث بن همام، كما في اللسان (حمل) و(مخض). وذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ١٩٩/١ البيت الثاني ضمن قصيدة للناطقة الذبياني. قوله: أنى، أي: حان، ومصدره: إِنَّى. واللَّحَامُ جمع اللحم. الصحاح (لحم) و(أنا).

وقرأ ابن أبي عبلة: «غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ» مجروراً صفة لـ «طعام». الزمخشري: وليس بالوجه؛ لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللَّفْظِ، فيقال: غير ناظرين إناه أنتم، كقولك: هندٌ زيدٌ ضاربته هي^(١).

وَأَنى - بفتحها - وَأَناءٌ بفتح الهمزة والمد؛ قال الحطيئة:

وَأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ أَوِ الشُّعْرَى فَطَالَ بِيَ الْأَنَاءُ^(٢)

يعني: إلى طلوع سهيل. وإناه مصدر أنى الشيء يأتي: إذا فرغ وحن وأدرك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فأكد المنع، وحصر^(٣) وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباشطة المكروهة. قال ابن العربي^(٤): وتقدير الكلام: ولكن إذا دُعِيتُمْ وأذن لكم في الدخول فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول. والفاء في جواب «إذا» لازمة لما فيها من معنى المجازاة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أمر تعالى بعد الطعام بأن يتفرق جمعهم ويتنشر^(٥). والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل. والدليل على ذلك أن الدخول حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح، وعاد التحريم إلى أصله^(٦).

السادسة: في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف، لا على

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١، وسلف نحو هذا الكلام في المسألة الأولى.

(٢) الصحاح وأساس البلاغة (أنى) وفيه: وآنيت، بدل: وأخرت. وهو في الديوان ص ٥٤ برواية: وآنيت العشاء... فطال بي العشاء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): وخص.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٦٥، وما قبله منه.

(٥) في (د) و(م): بأن يتفرق جميعهم ويتنشروا.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٦.

ملك نفسه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليهم^(١) سواء، وبقي الملك على أصله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَغْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله: «غير ناظرين» و«غير» منصوبة على الحال من الكاف والميم في «لكم»، أي: غير ناظرين ولا مستأنسين^(٢). والمعنى المقصود: لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ في وليمة زينب. ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يمتنع من بيانه وإظهاره. ولما كان ذلك يقع من البشر لعل الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر. وفي الصحيح عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأت الماء»^(٣).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ الآية. روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع... الحديث. وفيه: قلت يا رسول الله: لو ضربت على نسائك الحجاب؛ فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٤).

واختلف في المتاع؛ فقيل: ما يمتنع به من العواري^(٥). وقيل: فتوى. وقيل: صُحف القرآن. والصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يُطلب من المَواعين وسائر

(١) في (م): إليه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٥، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦، وسلف الكلام على «غير» أيضاً في المسألة الأولى والثالثة.

(٣) صحيح البخاري (١٣٠)، وصحيح مسلم (٣١٣)، وهو عند أحمد (٢٦٥٠٣).

(٤) مسند الطيالسي ص ٩-١٠، وأخرجه أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢) عن أنس بلفظ: وافقت ربي في ثلاث، فذكر ثلاثاً مما في حديث الطيالسي، منها ما ذكره المصنف في سبب نزول آيات الحجاب، وقد سلف نحوه في المسألة الأولى من حديث عمر رضي الله عنه.

(٥) العواري: مشددة ومخففة جمع العارية مشددة وقد تخفف: ما تداولوه بينهم. القاموس (عور).

المرافق للدين والدنيا.

التاسعة: في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهم من وراء حجاب في حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، بدنّها وصوتها، كما تقدّم^(١)، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة، كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها^(٢).

العاشرة: استدلل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبي ﷺ من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها، وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء، ولم يجرها أبو حنيفة والشافعي وغيرهما؛ قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب^(٣). وقال الشافعي: لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد: من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال^(٤)، أي: ذلك أنقى للريبة وأبعد للثمة وأقوى في الحماية. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبته ذلك أحسن لحاله، وأخصن لنفسه، وأتم لبعضته^(٥).

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية، هذا تكرار للعلّة وتأكيد لحكمها، وتأكيّد العلل أقوى في الأحكام.

(١) ١٨٣/٧، و ٢٣٧/١٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٦٧/٣، وفيه: ويعن، بدل: وتعين.

(٣) قال ابن حزم في المحلى ٤٣٣/٩: ولا يعرف أصحابه هذه الرواية. وذكر أن هذا هو قول زفر، ثم ذكر عن أبي حنيفة أنه قال في شهادة الأعمى: لا تقبل في شيء أصلاً. وهذا القول هو الذي ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٤٩٨/١ عن أبي حنيفة ومحمد.

(٤) المحرر الوجيز ٣٩٦/٤.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٦٧/٣.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال: حدثنا محمد بن عبيد قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، أن رجلاً قال: لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] (١).

وقال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: قال ابن عباس: قال رجل من سادات قريش - من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على جراء - في نفسه: لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، وهي بنت عمي (٢). قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله (٣). قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً، فكفر الله عنه (٤).

وقال ابن عطية (٥): روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتأذى به، هكذا كنى عنه ابن عباس ببعض الصحابة. وحكى مكّي عن معمر أنه قال: هو طلحة بن عبيد الله.

قلت: وكذا حكى النحاس (٦) عن معمر أنه طلحة. ولا يصح؛ قال ابن عطية (٧): لله در ابن عباس! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله.

قال شيخنا الإمام أبو العباس (٨): وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء

(١) أخرجه عبد الرزاق ١٢٢/٢ عن معمر به، دون قوله: ونزلت ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٧٩ مختصراً وبنحوه أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤٨٠/٣.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٤ - ٢١٥ بنحوه مطولاً وعزاه للطبري، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/٣٩٦.

(٦) في معاني القرآن ٥/٣٧٣.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/٣٩٦.

(٨) في المفهم ٤/١٤٩.

الصحابه، وحاشاهم عن مثله! وإنما الكذب^(١) في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال.

يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا! والله لو قد مات لأجلنا^(٢) السهام على نسائه، فنزلت الآية في هذا، فحرّم الله نكاح أزواجه من بعده، وجعلَ لهنَّ حُكْمَ الأمّهات^(٣). وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ. قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهنَّ لا يحلُّ لأحدٍ نكاحهنَّ، ومن استحلَّ ذلك كان كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

وقد قيل: إنما منع من التزوج بزوجاته؛ لأنهنَّ أزواجه في الجنة، وأن المرأة في الجنة لا خيرٍ أزواجه؛ قال حذيفة لامرأته: إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدي؛ فإن المرأة لا خيرٍ أزواجه^(٤). وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في «كتاب التذكرة» من أبواب الجنة^(٥).

الرابعة عشرة: اختلف العلماء في أزواج النبي ﷺ بعد موته؛ هل بقين أزواجاً أم زال النكاح بالموت، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهنَّ عِدَّةٌ أم لا؟ فقيل: عليهنَّ العِدَّة؛ لأنه تُؤفّي عنهنَّ، والعِدَّةُ عبادةٌ. وقيل: لا عِدَّةُ عليهنَّ؛ لأنها مدَّةُ تربصٍ لا يُنتظر بها الإباحة. وهو الصحيح؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ بعد نفقة

(١) في (ظ): وإنما الوهم والكذب.

(٢) الإجاله: الإدارة، يقال في الميسر: أجل السهام، وأجال السهام بين القوم: حرّكها وأفضى بها في القسمة. اللسان. (جول).

(٣) المحرر الوجيز ٣٩٦/٤.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦٩/٧.

(٥) ص ٤٨١ - ٤٨٢.

عيالي» وروي: «أهلي»^(١)، وهذا اسمٌ خاصٌّ بالزوجيّة، فأبقيَ عليهنَّ النفقةَ والسُّكنى مدةَ حياتهنَّ لكونهنَّ نساءً، وحرمنَ على غيره، وهذا هو معنى بقاءِ النكاح. وإنما جعل الموتُ في حقِّه عليه الصلاة والسلامَ لهنَّ بمنزلةِ المغيّبِ في حقِّ غيره؛ لكونهنَّ أزواجاً له في الآخرة قطعاً بخلافِ سائرِ الناس؛ لأنَّ الرجل لا يُعلمُ كونه مع أهله في الدار الآخرة^(٢) في دارٍ واحدة، فربّما كان أحدهما في الجنة والآخرُ في النار، فبهذا انقطع السببُ في حقِّ الخلقِ وبقي في حقِّ النبي ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «زوجاتي في الدنيا هنَّ زوجاتي في الآخرة»^(٣). وقال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ سببٍ ونَسبٍ ينقطع إلّا سببي ونسبي، فإنّه باقٍ إلى يوم القيامة»^(٤).

فرع: فأما زوجاته عليه الصلاة والسلام اللاتي فارّقهنَّ في حياته مثلَ الكلبيّة وغيرها؛ فهل كان يحلُّ لغيره نكاحهنَّ؟ فيه خلاف. والصحيح جوازُ ذلك؛ لما روي أنّ الكلبيّة التي فارّقها رسول الله ﷺ تزوّجها عكرمة بنُ أبي جهل على ما تقدّم^(٥). وقيل: إنّ الذي تزوّجها الأشعث بن قيس الكِنديّ. قال القاضي أبو الطيّب: الذي تزوّجها مهاجر بنُ أبي أميّة^(٦)، ولم ينكر ذلك أحدٌ، فدلَّ على إجماع.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَمَنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني أذية رسول الله ﷺ، أو نكاحَ أزواجه، فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنبَ أعظمُ منه.

السادسة عشرة: قد بيّنا سببَ نزولِ الحجاب من حديث أنس وقولِ عمر، وكان

(١) أخرجه بالرواية الأولى ابن حبان (٦٦٠٩)، وبالثانية الشافعي في المسند ١٩٠/٢. وأخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) بلفظ: نفقة نسائي، وسلف ص ٢٠٥ من هذا الجزء. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ١٥٦٧/٣.

(٢) قوله: في الدار الآخرة، من (ظ).

(٣) سلف ص ٦٦ من هذا الجزء.

(٤) سلف ١٥٩/٥.

(٥) ص ١٢٥ من هذا الجزء.

(٦) القرشيّ المخزوميّ، أخو أمّ سلمة زوج النبي ﷺ، ولأه النبي ﷺ على صدقات صنعاء، ثم ولّاه أبو بكر ﷺ، وقاتل أهل الردّة. الإصابة ٢٩٤/٩.

يقول لسودة إذا خرجت - وكانت امرأة طويلة -: قد رأيناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب^(١). ولا بُعْدَ في نزول الآية عند هذه الأسباب كلها، والله أعلم. يَبْدُ أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال: لا يشهد جنازتها إلا ذو مَحَرَمٍ منها؛ مُراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها. فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النَّعْشِ في القُبَّة، وأَعْلَمَتْهُ أَنَّهَا رَأَتْ ذلك في بلاد الحبشة، فصنعه عمر^(٢). وروي أن ذلك صُنِعَ في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٣﴾

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماضٍ تَقَضَّى، ولا مستقبل يأتي. وهذا على العموم تمدح به، وهو أهل المَدْح والحمد. والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدّم التعريض به في الآية قبلها، ممّن أُشِيرَ إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ كَمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وَمَنْ أُشِيرَ إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ فقليل لهم في هذه الآية: إِنَّ الله تعالى يَعْلَمُ ما تُخَفُّونه من هذه المعتقدات والخواطر المَكْرُوْهَةِ ويُجازيكم عليها^(٤). فصارت هذه الآية مُنْعِطَةً على ما قبلها مبيّنة لها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْنَ فِيْ ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر ما سلف في المسألة الأولى في سبب نزول الحجاب.

(٢) بنحوه في السنن الكبرى للبيهقي ٧/٧٢، وتهذيب الأسماء للنووي. ٣٤٥/٢ - ٣٤٦.

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٢٩٦ - ٢٩٧.

الأولى: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ قَالَ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ وَالْأَقَارِبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَنَحْنُ أَيْضاً نَكْلِمُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(١).

الثانية: ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ الْبُرُوزُ لَهُ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْعَمَّ وَالْخَالَ لَأَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ مَجْرَى الْوَالِدَيْنِ. وَقَدْ يَسْمَى الْعَمُّ أَباً؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وَإِسْمَاعِيلُ كَانَ الْعَمُّ^(٢).

قال الزَّجَّاج: الْعَمُّ وَالْخَالَ رَبَّمَا يَصِفَانِ الْمَرْأَةَ لَوْلَيْهِمَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَحِلُّ لِابْنِ الْعَمِّ وَابْنِ الْخَالَ، فَكُرِهَ لَهُمَا الرُّوْيَةُ^(٣)؛ وَقَدْ كُرِهَ الشَّعْبِيُّ وَعُكْرَمَةُ أَنْ تَضَعَ الْمَرْأَةُ خِمَارَهَا عِنْدَ عَمِّهَا أَوْ خَالَهَا^(٤). وَقَدْ ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ الْمُحَارِمِ وَذُكِرَ الْجَمِيعُ فِي سُورَةِ النُّورِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ بَعْضُ تِلْكَ، وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ هُنَاكَ مُسْتَوْفَى^(٥)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الثالثة: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الرِّخْصَةَ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ وَانْجَزَمَتِ الْإِبَاحَةُ، عَطَفَ بِأَمْرِهِنَّ بِالتَّقْوَى عَطْفَ جُمْلَةٍ. وَهَذَا فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِيجَازِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اقْتَصِرْنَ عَلَى هَذَا وَاتَّقِينَ اللَّهَ فِيهِ أَنْ تَتَعَدَّيْنَهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَخَصَّ النِّسَاءَ بِالذِّكْرِ وَعَيَّنَهُنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ لِقَلَّةِ تَحْفُظِهِنَّ وَكَثْرَةِ اسْتِرْسَالِهِنَّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٥٦

هَذِهِ الْآيَةُ شَرَّفَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيَاتَهُ وَمَوْتَهُ، وَذَكَرَ مَنْزِلَتَهُ مِنْهُ، وَطَهَّرَ بِهَا سُوءَ فِعْلٍ مَنْ اسْتَضْحَبَ فِي جِهَتِهِ فِكْرَةً سُوءًا، أَوْ فِي أَمْرِ زَوْجَاتِهِ وَنَحْوِ

(١) الوسيط ٣/ ٤٨٠ ، والكشاف ٣/ ٢٧٢ ، وذكر نحوه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٤٩ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٢ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣٦ .

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ١٧٣ ، وقوله: تضع المرأة خِمَارَهَا، أي: تخلعه.

(٥) ٢٠٨/ ١٥ .

ذلك^(١). والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأئمة الدعاء والتعظيم لأمره.

مسألة: واختلف العلماء في الضمير في قوله: «يُصَلُّونَ» فقالت فرقة: الضمير فيه لله والملائكة، وهذا قول من الله تعالى شَرَّفَ به ملائكته، فلا يَضَحُّهُ الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعَصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى. فقال له رسول الله ﷺ: «بَشَسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أخرجه الصحيح^(٢). قالوا: لأنه ليس لأحد أن يجمع ذِكْرَ اللَّهِ تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء.

وقالت فرقة: في الكلام حَذَفَ، تقديره: إِنَّ اللَّهَ يَصَلِّي وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ، وليس في الآية اجتماع في ضمير.

[وقالت فرقة: بل جَمَعَ الله تعالى الملائكة مع نَفْسِهِ في ضمير] وذلك جائز للبشر فَعَلَهُ. ولم يَقُلْ رسول الله ﷺ: «بَشَسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ» لهذا المعنى، وإنما قاله لأنَّ الخطيب وقف على: وَمَنْ يَعَصِيهِمَا، وَسَكَتَ سَكْتَةً^(٣). واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدي بن حاتم: أَنَّ خَطِيباً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فقال: مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يَعَصِيهِمَا. فقال: «قُمْ - أَوْ اذْهَبْ - بِشَسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ»^(٤). إِلَّا أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لَمَّا خَطَّاهُ فِي وَفْقِهِ وَقَالَ لَهُ: «بَشَسَ الْخَطِيبُ». أَصْلَحَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَمِيعَ كَلَامِهِ، فَقَالَ: «قُلْ: وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» كما في كتاب مسلم. وهو يُؤَيِّدُ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ بِأَنَّهُ لَمْ

(١) المحرر الوجيز ٣٩٧/٤.

(٢) صحيح مسلم (٨٧٠)، وهو عند أحمد (١٨٢٤٧)، وهو من حديث عدي بن حاتم ؓ. والكلام من المحرر الوجيز ٣٩٧/٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣٩٧/٤ - ٣٩٨، وما سلف بين حاضرتين منه.

(٤) سنن أبي داود (١٠٩٩) و(٤٩٨١)، وهو عند أحمد (١٩٣٨٣). وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٩٨/٤، وأبو العباس في المفهم ٥١٠/٢ دليلاً آخر، وهو حديث ابن مسعود ؓ عند أبي داود (١٠٩٧) و(٢١١٩): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فَقَالَ: «مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعَصِيهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ...» فجمع ذكر الله تعالى مع رسوله في ضمير واحد.

يقف على «وَمَنْ يَعْصِهِمَا».

وقرأ ابن عباس: «وملائكته» بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول «إِنَّ» والجمهور بالنصب عطفًا على المكتوبة^(١).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا صَلَواتُ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا صَلَواتُ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا﴾ أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفًا له، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه. الرَّمْخَشْرِيُّ^(٢): فَإِنْ قُلْتُ: الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة، أم مندوب إليها؟ قلت: بل واجبة. وقد اختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث: «مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ فدخل النار، فأبعده الله»^(٣).

ويروى أنه قيل له: يا رسول الله، أرايت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَكُلَّ بِي مَلَكِينَ فَلَا أُذَكِّرُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا قَالَ ذَانِكَ الْمَلَكَانِ: غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكته جواباً لَذَيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمين. وَلَا أُذَكِّرُ عِنْدَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا قَالَ ذَانِكَ الْمَلَكَانِ: لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، وقال الله تعالى وملائكته لَذَيْنِكَ الْمَلَكَيْنِ: آمين»^(٤).

ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، كما قيل^(٥) في آية

(١) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤، وقراءة الرفع في القراءات الشاذة ص ١٢٠.

(٢) في الكشف ٢٧٢/٣ - ٢٧٣.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة ؓ أخرجه ابن حبان (٩٠٧)، وفيه: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك ...

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٥٣) من حديث الحسن بن علي ؓ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٣/٧: فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو كذاب.

(٥) في (خ) و(د) و(م): قال، وليست في باقي النسخ، والمثبت من الكشف.

السجدة وتشميت العاطس. وكذلك في كلِّ دعاءٍ في أوَّلِهِ وآخِرِهِ.

ومنهم مَنْ أَوْجَبَهَا في العمر. وكذلك قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط: الصلاة عند كلِّ ذِكْرٍ، لِمَا ورد من الأخبار في ذلك.

الثانية: واختلفت الآثارُ في صفة الصلاة عليه ﷺ، فروى مالكٌ عن أبي مسعود الأنصاريّ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد، أَمَرَنَا الله أَنْ نَصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، فكيف نَصَلِّيَ عَلَيْكَ؟ قال: فَسَكَتَ رسول الله ﷺ حتى تمنَّينا أنه لم يَسْأَلْهُ، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيم، وباركْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم في العالمين، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، والسلامُ كما قد عَلِمْتُمْ»^(١). ورواه النسائيُّ عن طلحة مثله، بإسقاط قوله: «في العالمين» وقوله: «والسلامُ كما قد علمتم»^(٢). وفي الباب عن كعب بن عُجرة، وأبي حميد الساعديّ، وأبي سعيد الخُدريّ، وعليّ بن أبي طالب، وأبي هريرة، وبُرَيْدة الخُزاعيّ، وزيد بن خارجة، ويقال: ابن جارية^(٣). أخرجها أئمةُ أهلِ الحديث في كتبهم^(٤). وصَحَّح الترمذيُّ حديثَ كعب بن عُجرة. خرَّجه مسلم في «صحيحه» مع

(١) الموطأ ١/١٦٥ - ١٦٦، ومن طريق مالك أخرجه أحمد (٢٢٣٥٢)، ومسلم (٤٠٥)، ووقع في جميع هذه المصادر: «... وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين...». قوله: «والسلام كما قد عَلِمْتُمْ» أي: كما علمتم في التشهد، وهو قولهم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وروي: عَلِمْتُمْ، وكلاهما صحيح. شرح النووي لصحيح مسلم ٤/١٢٥.

(٢) المجتبى ٣/٤٨، وهو عند أحمد (١٣٩٦). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٧١.

(٣) في النسخ: ابن حارثة، والمثبت من سنن الترمذي إثر الحديث (٤٨٣).

(٤) حديث كعب بن عجرة أخرجه أحمد (١٨١٠٤)، والبخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

وحديث أبي حميد الساعدي أخرجه أحمد (٢٣٦٠٠)، والبخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).

وحديث أبي سعيد الخدري أخرجه أحمد (١١٤٣٣)، والبخاري (٦٣٥٨).

وحديث أبي هريرة أخرجه النسائي في الكبرى (٩٧٩٢). وحديث زيد بن خارجة أخرجه أحمد (١٧١٤)، والنسائي في المجتبى ٣/٤٨ - ٤٩. وحديث بريدة أخرجه أحمد (٢٢٩٨٨)، وفيه أبو داود الأعمى نفع بن الحارث، وهو متروك كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وحديث علي أخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وسيأتي.

حديث أبي حميد الساعدي^(١).

قال أبو عمر^(٢): روى شعبة والثوري عن الحكم، عن^(٣) عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» وهذا لفظ حديث الثوري لا حديث شعبة، وهو يدخل في التفسير المستند^(٤) لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فبين كيف الصلاة عليه، وعلمهم في التحيات كيف السلام عليه، وهو قوله: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

وروى المسعودي عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود، عن عبد الله أنه قال: إذا صليت على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرن لعل ذلك يُعرض عليه. قالوا: فعلمنا! قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ونبيك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد^(٥).

(١) صحيح مسلم (٤٠٦)، (٤٠٧)، وحديث كعب بن عجرة عند الترمذي (٤٨٣) وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) في التمهيد ١٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: ابن، وهو تصحيف.

(٤) بعدها في (د) و(م): إليه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٠٦).

وروينا بالإسناد المتّصل في كتاب «الشفاء» للقاضي عياض عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «عَدَّهَنْ فِي يَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «عَدَّهَنْ فِي يَدِي جَبْرِيلُ وَقَالَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَرْزَةِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. اللَّهُمَّ وَتَرَحَّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. اللَّهُمَّ وَتَحَنَّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا تَحَنَّنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ»^(١).

قال ابن العربي^(٢): من هذه الروايات صحيحٌ ومنها سقيم، وأصحُّها ما رواه مالكٌ فاعْتَمَدُوهُ. وروايةٌ غيرُ مالكٍ من زيادةِ الرحمةِ مع الصلاةِ وغيرها لا يَقْوَى. وإنَّما على الناس أن ينظروا في أديانهم نَظَرَهُمْ في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً مَعِيَباً، وإنَّما يختارون السالمَ الطيبَ، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي ﷺ إِلَّا ما صَحَّ سَنَدُهُ، لئلا يدخل في حيزِ الكذبِ على رسولِ الله ﷺ، فبينما هو يَظْلُبُ الفضلَ إذا به قد أصاب النَّقْصَ، بل ربَّما أصابَ الخسرانَ المبين.

الثالثة: في فضل الصلاةِ على النبي ﷺ، ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٣). وقال سهلُ بن عبد الله: الصلاةُ على محمدٍ ﷺ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّاهَا هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، وَسَائِرُ الْعِبَادَاتِ لَيْسَ كَذَلِكَ.

قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ حَاجَةً؛ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى

(١) الشفاء ٢/١٦١ - ١٦٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وقال: وهو إسناد ضعيف.

(٢) في أحكام القرآن ٣/١٥٧٢.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٥٤)، ومسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٦٥٦٨)، ومسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.

وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: الدعاء يُحجَّب دون السماء حتى يصلَّى على النبي ﷺ، فإذا جاءت الصلاة على النبي ﷺ رُفِع الدعاء^(١).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ»^(٢).

الرابعة: واختلف العلماء في الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة؛ فالذي عليه الجُم الغفير والجمهورُ الكثير: أن ذلك من سُنن الصلاة ومُسْتَحَبَّاتِهَا. قال ابن المنذر: يُسْتَحَبُّ أَلَّا يَصَلِّي أَحَدٌ صَلَاةً إِلَّا صَلَّى فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَارِكٌ فَصَلَاتُهُ مُجْزِيَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَسَفِيَانِ الثَّوْرِيِّ وَأَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ أَصْحَابِ الرَّأْيِ وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ قَوْلُ جُمْلٍ^(٣) أَهْلِ الْعِلْمِ. وَحُكِيَ عَنْ مَالِكٍ وَسَفِيَانٍ أَنَّهَا فِي التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَأَنَّ تَارِكَهَا فِي التَّشَهُّدِ مُسِيءٌ. وَشَدَّ الشَّافِعِيُّ فَأَوْجَبَ عَلَى تَارِكِهَا فِي الصَّلَاةِ الْإِعَادَةَ. وَأَوْجَبَ إِسْحَاقُ الْإِعَادَةَ مَعَ تَعَمُّدِ تَرْكِهَا دُونَ النِّسْيَانِ^(٤).

وقال أبو عمر^(٥): قال الشافعي: إذا لم يصلِّ على النبي ﷺ في التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ وَقَبْلَ التَّسْلِيمِ أَعَادَ الصَّلَاةَ. قَالَ: وَإِنْ صَلَّى عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَجْزِهِ. وَهَذَا قَوْلٌ حَكَاهُ عَنْهُ حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، لَا يَكَادُ يُوجَدُ هَكَذَا عَنِ الشَّافِعِيِّ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ حَرْمَلَةَ

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٤٨٦). قال ابن العربي في عارضة الأحوذى ٢/٢٧٣: مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقفاً؛ لأنه لا يُدْرَكُ بنظر.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٥٦) من حديث أبي هريرة ؓ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٧/١: فيه بشر بن عبد الله الدارسي، كذَّبه الأزدي وغيره. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١٤٤/١: وروي من كلام جعفر بن محمد موقوفاً عليه، وهو أشبه.

(٣) في (م): جل، والمثبت من النسخ الخطية وهو موافق لما في الشفا ٢/١٤٣، والكلام منه.

(٤) الشفا ٢/١٤٢ - ١٤٣

(٥) في التمهيد ١٦/١٩١.

عنه، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كُتُبَه. وقد تقلَّده أصحابُ الشافعيِّ ومالوا إليه وناظروا عليه، وهو عندهم تحصيلُ مذهبه.

وزعم الطَّحاويُّ^(١) أنه لم يَقُلْ به أحدٌ من أهلِ العلمِ غيره. وقال الخطَّابيُّ^(٢) وهو من أصحاب الشافعيِّ: وليست بواجبة في الصلاة، وهو قولُ جماعة الفقهاء إلا الشافعيِّ، ولا أعلمُ له فيها قدوة.

والدليلُ على أنها ليست من فروض الصلاة عمَلُ السلفِ الصَّالح قبل الشافعيِّ وإجماعهم عليه، وقد سُنَّع عليه في هذه المسألة جدًّا. وهذا تَشَهُدُ ابنِ مسعودٍ الذي اختاره الشافعيُّ - وهو الذي علَّمه [له] النبيُّ ﷺ - ليس فيه الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، وكذلك كلُّ مَنْ رَوَى التَّشَهُدَ عنه ﷺ^(٣).

وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التَّشَهُدَ على المنبر كما تعلَّمون الصبيان في الكتاب. وعلمه أيضاً على المنبر عمرُ، وليس فيه ذِكْرُ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ^(٤).

قلت: قد قال بوجوب الصلاة على النبيِّ ﷺ في الصلاة محمد بنُ المَوَّاز من أصحابنا فيما ذَكَرَ ابْنُ الْقَضَّارِ وعبدُ الوَهَّاب^(٥)، واختاره ابن العربيُّ للحديث الصحيح: إِنَّ الله أمرنا أن نصلِّيَ عليك، فكيف نصلِّيَ عليك؟ فعَلِمَ الصلاةَ ووقَّتَهَا فتَعَيَّنَتْ كيفيةً ووقْتًا^(٦).

(١) قوله في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢١٩/١.

(٢) في معالم السنن ٢٢٧/١، ونقله المصنف عنه بواسطة القاضي عياض في الشفا ١٤٥/٢.

(٣) الشفا ١٤٥/٢، وما سلف بين حاصرتين منه. وتَشَهُدُ ابنِ مسعود الذي علمه له النبي ﷺ: «التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإذا قالها أصابت كلَّ عبدٍ لله صالح في السماء والأرض - أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله...» أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٤) الشفا ١٤٦/٢، وخبراً عمر وابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢٦١/١ و٢٦٤.

(٥) الشفا ١٤٤/٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٧٢/٣، والحديث سلف في المسألة الثانية عن أبي مسعود الأنصاري.

وذكر الدارقطني عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أنه قال: لو صَلَّيْتُ صلاةً لم أَصِلْ فيها على النبي ﷺ ولا على أهل بيته لرأيتُ أنها لا تَتِمُّ. وروي مرفوعاً عنه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. والصوابُ أنه قولُ أبي جعفر؛ قاله الدارقطني^(١).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قال القاضي أبو بكر بن بُكَيْر: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه. وكذلك مَنْ بعدهم أمروا أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره^(٢). وروى النسائي^(٣) عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى^(٤) في وجهه، فقلت: إِنَّا لَنَرَى الْبُشْرَى فِي وَجْهِكَ! فقال: «إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَّا يُرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يَصَلِّيُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يَسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا».

وعن محمد بن عبد الرحمن: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِذَا مِتُّ إِلَّا جَاءَنِي سَلَامُهُ مَعَ جَبْرِيلَ؛ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، فَأَقُولُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(٥).

وروى النسائي^(٦) عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ

(١) كذا ذكر القاضي عياض في الشفا ١٤٧/٢ عن الدارقطني، ونقله عنه المصنف رحمه الله، وفي هذا الكلام وهمان: الأول: في قوله: ابن مسعود، والصواب: أبو مسعود الأنصاري، كما أخرجه عنه الدارقطني في السنن (١٣٤٣) مرفوعاً. والوهم الثاني: في قوله: الصواب أنه من قول أبي جعفر، والذي ذكره الدارقطني في العلل ١٩٨/٦ أن الصواب أنه من قول أبي مسعود، وكذا أخرجه عنه موقوفاً في السنن (١٣٤٤) (١٣٤٥). والموقوف والمرفوع كلاهما مداره على جابر الجعفي، وهو ضعيف كما ذكر الدارقطني إثر الحديث (١٣٤٣).

(٢) الشفا ١٣٨/٢.

(٣) في المجتبى ٤٤/٣ و ٥٠، وهو عند أحمد (١٦٣٦١).

(٤) في (م): والبشر يرى، وهي رواية.

(٥) لم نقف عليه، ويغني عنه الحديث الصحيح بعده.

(٦) في المجتبى ٤٣/٣، وهو عند أحمد (٣٦٦٦).

في الأرض يبلغوني من أمّتي السلام». قال القشيري: والتسليم قولك: سلام عليك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿٥٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في إذاية الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به^(١)، كقول اليهود لعنهم الله: يذ الله مغلولاً. والنصارى: المسيح ابن الله. والمشركون: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه.

وفي «صحيح» البخاري قال الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك..» الحديث. وقد تقدّم في سورة مريم^(٢).

وفي «صحيح» مسلم^(٣) عن أبي هريرة قال: قال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإنني أنا الدهر؛ أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما». هكذا جاء هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة في هذه الرواية^(٤). وقد جاء مرفوعاً عنه: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر»؛

(١) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٨٢)، وتقدم ٥٢٥/١٣.

(٣) برقم (٢٢٤٦): (٣).

(٤) المفهم ٥٤٧/٥، وكذا ذكر المزي في التحفة ٥٥/١٠ أنه موقوف من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة. وقد جاء في النسخ التي بين أيدينا مرفوعاً من رواية عبد الرزاق وغيره. ولم يشر القاضي عياض في إكمال المعلم، ولا النووي في شرح صحيح مسلم إلى وقف رواية عبد الرزاق هذه، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف النسخ. قال أبو العباس: غير أنه ممّا يُعلم أنه من قول رسول الله ﷺ قطعاً؛ لأن مضمونه حكاية عن الله تعالى، ولا يعرفها أبو هريرة إلا من جهة رسول الله ﷺ وقد روي معناه مسنداً مرفوعاً من طريق آخر. اهـ. وأخرجه أحمد (٧٥١٨) والبخاري (٦١٨٢) بنحوه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. قوله: «يؤذيني ابن آدم» أي: يخاطبني من القول بما يتأذى به من يصح في حقه التأذي. وقوله: «فإنني أنا الدهر» أي: أنا الذي أفعل ما ينسبونه للدهر. ينظر المفهم ٥٤٧/٥ - ٥٤٩.

أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أَخْرَجَهُ أَيْضاً مُسْلِمٌ^(١).

وقال عكرمة: معناه: بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها^(٢)، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرِينَ»^(٣).

قلتُ: وهذا ممَّا يَقْوِي قولَ مجاهدٍ في المنع من تصوير الشجر وغيرها؛ إذ كلُّ ذلك صفةٌ اختراعٍ وتشبُّهٌ بفعلِ الله الذي انفرد به سبحانه وتعالى. وقد تقدَّم هذا في سورة النمل^(٤) والحمد لله.

وقالت فرقةٌ: ذلك على حذفٍ مضافٍ، تقديره: يؤذون أولياء الله. وأمَّا إذايَةُ رسوله ﷺ فهي كلُّ ما يؤذيه من الأقوال في غير معنَى واحد، ومن الأفعال أيضاً^(٥)؛ أمَّا قولُهم: فساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وأمَّا فَعْلُهم: فَكَسَرُ رَبَائِعِيته وشَجُّ وجهه يومَ أحدٍ، وبِمَكَّةَ إلقاءُ السَّلَى على ظهره وهو ساجد^(٦)، إلى غير ذلك.

وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ^(٧).

وأطلق إِيذاء الله ورسوله وقيدَ إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ إيذاء الله ورسوله لا يكون إلَّا بغير حقٍّ أبداً. وأمَّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمَنه، ومنه^(٨).

الثانية: قال علماؤنا: والطعنُ في تأمير أسامة بن زيد أذِيَّةٌ له عليه الصلاة والسلام^(٩). روى الصحيح عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمر عليهم

(١) في صحيحه (٢٢٤٦): (٢)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥)، والبخاري (٤٨٢٦).

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٤٨٥/٨، والطبري ١٧٨/١٩.

(٣) قطعة من حديث أبي جحيفة ؓ أخرجه البخاري (٥٣٤٧).

(٤) عند تفسير الآية (٦٠) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤.

(٦) حديث إلقاء السَّلَى على ظهره ؓ أخرجه مطولاً أحمد (٣٧٢٢)، والبخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) عن ابن مسعود ؓ.

(٧) أخرجه الطبري ١٧٩/١٩.

(٨) الكشاف ٢٧٣/٣.

(٩) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤.

أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمرته^(١)، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ تَطْعُنُوا فِي إِمْرَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمْرَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ لَخَلِيفًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٢). وهذا البعث - والله أعلم - هو الذي جهَّزه رسول الله ﷺ مع أسامة وأمَّره عليهم، وأمره أن يغزوا «أُبْنَى»، وهي القرية التي عند مُؤَتَّة، الموضع الذي قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رَوَاحَة. فأمره أن يأخذ بشار أبيه، فطعن مَنْ في قلبه رَيْبٌ فِي إِمْرَتِهِ، مَنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَوَالِي، وَمَنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ صَغِيرَ السِّنِّ؛ لَأَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَاكَ ابْنُ ثَمَانٍ عَشْرَةَ سَنَةً، فَمَاتَ النَّبِيُّ ﷺ. وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها، فنَفَّذَهُ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣).

الثالثة: في هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى. وقد قدَّم رسول الله ﷺ سالماً مولى أبي حذيفة على الصلاة بقبَاء، فكان يؤمُّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبار قريش^(٤). وروى الصحيح عن عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى هَذَا الْوَادِي؟ قال: ابن أبزى. قال: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قال: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا. قال: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى! قال: إِنَّهُ لِقَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ لِعَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قال: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(٥).

الرابعة: كان أسامة ؓ الحَبِّ ابْنُ الحَبِّ، وبذلك كان يُدْعَى، وكان أسود شديد

(١) في (ظ): إمارته. وهو موافق لرواية البخاري للحديث على ما يأتي.

(٢) صحيح البخاري (٦٦٢٧)، وصحيح مسلم (٢٤٢٦)، وهو عند أحمد (٥٨٨٨).

(٣) المفهم ٣٠٨/٦.

(٤) سلف ٤١/٢.

(٥) صحيح مسلم (٨١٧)، وهو عند أحمد (٢٣٢). وابن أبزى هو عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي مولاهم، وله صحبة. الإصابة ٢٥٨/٦.

السواد، وكان زيدُ أبوه أبيضَ من القُطن. هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح^(١). وقال غير أحمد: كان زيدُ أزهرَ اللون وكان أسامةُ شديدَ الأذمة^(٢). ويروى أنَّ النبي ﷺ كان يُحسنُ أسامةَ وهو صغيرٌ ويمسحُ مُخاطَه، وينقّي أنفه ويقول: «لو كان أسامةُ جاريةً لزيّناه وجَهَّزناه وحَبَّناهُ إلى الأزواج»^(٣).

وقد ذُكر أنَّ سببَ ارتدادِ العرب بعد النبي ﷺ: أنه لما كان عليه الصلاة والسلامُ في حَجَّةِ الوداعِ بجبلِ عرفةَ عَشِيَّةَ عرفةَ عند النَّفَرِ، احتَبَسَ النبي ﷺ قليلاً بسببِ أسامةَ إلى أن أتاه، فقالوا: ما احتَبَسَ إلَّا لأجلِ هذا! تحقيراً له. فكان قولُهم هذا سببَ ارتدادِهِم. ذكره البخاريُّ في التاريخ بمعناه^(٤). والله أعلم.

الخامسة: كان عمرُ ﷺ يفرضُ لأسامةَ في العطاء خمسةَ آلافٍ، ولابنه عبدِ الله أُلْفَيْن؛ فقال له عبد الله: فَضَّلْتَ عليَّ أسامةَ وقد شَهِدْتُ ما لم يَشْهَدْ! فقال: إِنَّ أسامةَ كان أَحَبَّ إلى رسولِ الله ﷺ منك، وأباه كان أَحَبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من أبيك، ففَضَّلَ ﷺ محبوبَ رسولِ الله ﷺ على محبوبه. وهكذا يجب أن يُحَبَّ ما أَحَبَّ رسولُ الله ﷺ وَيُبْغَضَ ما^(٥) أَبْغَضَ.

وقد قَابَلَ مَرْوان هذا الحَبَّ بنقيضه، وذلك أنه مرَّ بأسامةَ بنِ زيدٍ وهو يصلي عند بابِ بَيْتِ النبي ﷺ فقال له مَرْوان: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُرَى مَكَانُكَ، فقد رأينا مكانك، فَعَلَ

(١) سنن أبي داود، إثر الحديث (٢٢٦٨).

(٢) إكمال المعلم ٦٥٦/٤، والمفهم ١٩٩/٤. وقال نحوه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني: إثر الحديث (٢٥٥).

(٣) أخرجه بنحوه ابن سعد ٦٢/٤، أحمد (٢٥٠٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. وذكره السهيلي في الروض الأنف ٢٤٨/٤.

(٤) التاريخ الكبير ٢٠/٢ عن عروة بن الزبير، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٦٣/٤.

(٥) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمفهم ٣٠٩/٦، والكلام منه. وخبر عمر ﷺ ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/١٤٥، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٨١٣) من حديث عمر ﷺ، وقال: حسن غريب. وأخرجه بنحوه أيضاً أبو يعلى (١٦٢)، وابن حبان (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الله بك وفعل! قولاً قبيحاً. فقال له أسامة: إِنَّكَ أَذَيْتَنِي، وَإِنَّكَ فَاحِشٌ مُتَفَحِّشٌ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الله تعالى يُغَضُّ الفاحشَ المتفحِّشَ». فانظر ما بين الفعلين، وقس ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أمية النبي ﷺ في أحبابه، وناقضوه في محابته^(١).

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ معناه: أبعدوا من كل خير. واللَّعْنُ في اللغة: الإبعاد، ومنه اللَّعَان. ﴿وَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تقدّم معناه في غير موضع. والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٨﴾

إذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق. وهذه الآية نظير الآية التي في النساء: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُّبِينًا﴾ [الآية: ١١٢] كما قال هنا. وقد قيل: إن من الإذاية تعبيره بحسب مذموم، أو جرقة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه؛ لأن أذاه في الجملة حرام. وقد ميز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين، فجعل الأول كفراً والثاني كبيرة، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُّبِينًا﴾ وقد بيّناه.

وروي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بن كعب: قرأت البارحة هذه الآية ففزعتُ منها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾ الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم. فقال له أبي: يا أمير المؤمنين، لست منهم، إنما أنت معلّم ومقوم^(٢).

(١) المفهم ٣٠٩/٦ - ٣١٠، وخبر مروان (وهو ابن الحكم) مع أسامة ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١٤٧/١، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٧٦٤)، وابن حبان (٥٦٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٠٥)، والضياء في المختارة (١٣١٦) و(١٣١٧). وليس الأمر على إطلاقه في بني أمية، ففيهم الصحابة الكبار، والأئمة الثقات والخلفاء العدول.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٨/٤، وينظر الدر المنثور ٢٢٠/٥.

وقد قيل: إِنَّ سَبَبَ نزولِ هذه الآية أَنَّ عمر رأى جاريةً من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زيتها، فخرج أهلها فأدوا عمرَ باللسان، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وقيل: نزلت في عليٍّ، فَإِنَّ المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه ﷺ^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿٥٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ قد مضى الكلام في تفصيل أزواجه واحدة واحدة^(٣). قال قتادة: مات رسول الله ﷺ عن تسع. خمس من قریش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحش، وجویریة. وواحدة من بني هارون: صفية^(٤).

وأما أولاده؛ فكان للنبي ﷺ أولادٌ ذكورٌ وإناث.

فالذكور من أولاده: القاسم، أمه خديجة، وبه كان يُكنى ﷺ، وهو أول من مات من أولاده، وعاش ستين. وقال عروة: وَلَدَتْ خديجة للنبي ﷺ القاسم والطاهر وعبد الله والطيب^(٥). وقال أبو بكر البرقي: ويقال: إِنَّ الطاهر هو الطيب، وهو عبد الله^(٦).

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٣٨٢ عن ابن عباس.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣٨٢ عن مقاتل.

(٣) ص ١١٩ من هذا الجزء وما بعدها.

(٤) تلقیح الفهم لابن الجوزي ص ٣٠، وأخرجه بنحوه مطولاً البيهقي في الدلائل ٢٨٩/٧.

(٥) تلقیح الفهم ص ٣١، وصفة الصفوة ١/١٤٧ - ١٤٨، وفيهما: المطيب، بدل: الطيب. وفيهما أيضاً: ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن.

(٦) وهذا هو الصحيح، كما قال ابن القيم في زاد المعاد ١/١٠٠، وكذا سيرد آخر هذه المسألة. وينظر جمهرة الأنساب للكلي ص ٣٠، وإمتاع الأسماع ٥/٣٣٤. والكلام من تلقیح الفهم ص ٣١.

وإبراهيم أمه مارية القبطية، وُلد في ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة، وتوفي ابنٌ سنةَ عَشْرَ شهرًا وقيل: ثمانية عشر؛ ذكره الدارقطني. ودُفِنَ بالبقيع^(١). وقال ﷺ: «إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا تُتِمُّ رِضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ». وجميعُ أولادِ النبي ﷺ من خديجةَ سوى إبراهيم. وكلُّ أولادِهِ ماتوا في حياته غيرَ فاطمة^(٢).

وأما الإناثُ من أولاده؛ فَمِنْهُنَّ: فاطمةُ الزهراء بنتُ خديجةَ، وَلَدَتْهَا وقريشُ تبني البيتَ قبلَ النبوةِ بخمسِ سنينَ، وهي أصغرُ بناته، وتزوَّجها عليُّ رضي الله عنهما في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وبَنَى بها في ذي الحجة. وقيل: تزوَّجها في رجب، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسيرٍ^(٣)، وهي أولُ مَنْ لَحِقَهُ من أهل بيته رضي الله عنها.

ومِنْهُنَّ: زينب؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها ابنُ خالتها أبو العاصي بنُ الربيع، وكانت أمُّ [أبي] العاصي هالة بنت خُوَيْلِدٍ أختَ خديجة^(٤). واسمُ أبي العاصي لقيط. وقيل: هاشم. وقيل: هُشيم. وقيل: مِهْشَمٌ^(٥). وكانت أكبرُ بناتِ رسولِ الله ﷺ، وتوفيت سنةَ ثمانٍ من الهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها^(٦).

ومِنْهُنَّ: رُقِيَّةٌ؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها عُتْبَةُ بن أبي لهب قبل النبوة، فلَمَّا بُعِثَ رسول الله ﷺ وأُنزل عليه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ قال أبو لهبٍ لابنه: رأسي من رأسِكَ حرامٌ إن لم تطلقِ ابنته، ففارقَها ولم يكن بَنَى بها. وأسلمت حين أسلمت أمُّها

(١) تلقيح الفهوم ص ٣١، دون قوله: ذكره الدارقطني، ولم نقف عليه عند الدارقطني، وأخرجه ابن سعد ٧/٣ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٣١، وحديث: «إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا...» أخرجه أحمد (١٨٥٠٠)، والبخاري (١٣٨٢).

(٣) تلقيح الفهوم ص ٣١ - ٣٢.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٣٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ عدا (ظ): مقسم، والمثبت من (ظ)، والاستيعاب ٢٤/١٢، والإصابة ٢٣١/١١، قال ابن عبد البر: والأكثر لقيط.

(٦) تلقيح الفهوم ص ٣٢ - ٣٣.

خديجة، وبايعت رسول الله ﷺ هي وأخواتها حين بايعه النساء، وتزوجها عثمان بن عفان^(١)، وكانت نساء قريش يَقْلَنَ حين تزوجها عثمان:

أَحْسَنُ شَخْصِينَ رَأَى إِنْسَانٌ رَقِيَّةً وَبَعْلَهَا عَثْمَانَ^(٢)،
وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين، وكانت قد أَسْقَطَتْ من عثمان سقطاً،
ثم وَلَدَتْ بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به في الإسلام، وبلغ ست سنين،
فنقره ديك في وجهه فمات، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة،
ومَرَضَتْ ورسول الله ﷺ يتجهَّزُ إلى بدرٍ، فخَلَفَ عثمانَ عليها، فتوفيت ورسول الله ﷺ
ببدر، على رأس سبعة عَشَرَ شهراً من الهجرة. وقَدِمَ زيد بن حارثة بشيراً من بدر،
فدخل المدينة حين سَوَّى التراب على رُقِيَّة. ولم يشهد دَفْنَهَا رسول الله ﷺ.

ومنهنَّ: أُمُّ كلثوم؛ أُمُّها خديجة، تزوجها عُتْبَةُ بن أبي لهب - أخو عتبة - قبل
النبوة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور في أمر رقية، [ففارقها] ولم يكن
دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ، وأسلمت حين أسلمت أُمُّها، وبايعت
رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر
رسول الله ﷺ. فلَمَّا توفيت رقية تزوجها عثمان، وبذلك سَمِيَ ذا النُورَيْنِ. وتوفيت في
حياة النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة. وجلس رسول الله ﷺ على قبرها، ونزل
في حفرتها عليٌّ والفضلُ وأسامة.

وذكر الزبير بن بَكَار أَنَّ أكبر ولدِ النبي ﷺ: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله،
وكان يقال له: الطيّب، والظاهر، وُولد بعد النبوة ومات صغيراً. ثم أُمُّ كلثوم، ثم
فاطمة، ثم رقية. فمات القاسم بمكة، ثم مات عبد الله^(٣).

الثانية: لَمَّا كانت عادةُ العربيات التبذُلَ، وَكُنَّ يَكْشِفْنَ وجوههنَّ كما يفعل

(١) طبقات ابن سعد ٣٦/٨. وتلقيح الفهوم ص ٣٣، والكلام منه.

(٢) ذكره السهيلي في الروض الأنف ٧٩/٢.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٣٣ - ٣٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر طبقات ابن سعد ٧/٣ و ٣٧/٨.

الإماء، وكان ذلك داعيةً إلى نظر الرجال إليهنَّ، وتَشَعُّبِ الفكرة فِيهنَّ، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهنَّ بإرخاء الجلابيب عليهنَّ إذا أَرَدْنَ الخروجَ إلى حَوَائِجهنَّ - وَكُنَّ يَتَبَرَّزْنَ في الصحراء قبل أن تُتَّخَذَ الكُنْفُ - فيقع الفرقُ بينهنَّ وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهنَّ، فيُكْفُ عن معارضتهنَّ مَنْ كان عَزْباً أو شَاباً^(١). وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرَّز للحاجة، فيتعرَّضُ لها بعض الفُجَّار يظُنُّ أنها أمة، فتصيحُ به فيذهب، فشكَّوا ذلك إلى النبي ﷺ. ونزلت الآية بسبب ذلك. قال معناه الحسن وغيره^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ الجلابيبُ جمعُ جلباب، وهو ثوبٌ أكبرُ من الخِمار. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء^(٣). وقد قيل: إنه القِناع. والصحيحُ أنه الثوبُ الذي يستر جميعَ البدن. وفي «صحيح» مسلم عن أمِّ عطيةَ: قلتُ: يا رسولَ الله، إحدانا لا يكون لها جلبابٌ؟ قال: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»^(٤).

الرابعة: واختلف الناس في صورة إرخائه؛ فقال ابن عباس وعبيدةُ السُّلمانيُّ: ذلك أن تَلْوِيَه المرأة حتى لا يظهر منها إلَّا عَيْنٌ واحدةٌ تُبْصِرُ بها. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تَلْوِيَه فوقَ الجبين وتَشُدُّه، ثم تَغْطِيه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يَسْتُرُ الصدرَ ومُعْظَمَ الوجه^(٥). وقال الحسن: تَغْطِي نصفَ وَجْهِهَا^(٦).

الخامسة: أمر الله سبحانه جميعَ النساء بالسَّتر، وأنَّ ذلك لا يكون إلَّا بما لا

(١) المحرر الوجيز ٣٩٩/٤، ووقع في مطبوعه: غزلاً، بدل: عزباً.

(٢) طبقات ابن سعد ١٧٦/٨، وتفسير عبد الرزاق ١٢٣/٢، وتفسير الطبري ١٨٢/١٩ - ١٨٣، وأسباب النزول للواحدي ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٥، والمحرر الوجيز ٣٩٩/٤.

(٤) صحيح مسلم (٨٩٠)، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٠٧٨٩)، والبخاري (١٦٥٢).

(٥) المحرر الوجيز ٣٩٩/٤، والأخبار المذكورة أخرجهما بنحوها الطبري ١٨٢/١٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣٧٨/٥.

يَصِفُ جِلْدَهَا، إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا؛ فَلَهَا أَنْ تَلْبَسَ مَا شَاءَتْ؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَمَعَ بِهَا كَيْفَ شَاءَ.

ثَبِتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقِظَ لَيْلَةً فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجَرِ؟ رَبُّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ»^(١).

وَرَوَى أَنَّ دُخِيَّةَ الْكَلْبِيِّ لَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ هِرْقُلَ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قُبْطِيَّةً؛ فَقَالَ: «اجْعَلْ صَدِيقاً لَكَ قَمِيصاً، وَأَعْطِ صَاحِبَتَكَ»^(٢) صَدِيقاً تَخْتَمِرُ بِهِ - وَالصَّدِيقُ: النِّصْفُ - ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مُرَّهَا تَجْعَلَ تَحْتَهُ شَيْئاً لَثَلًا يَصِفُ»^(٣).

وَذَكَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَقَّةَ الثِّيَابِ لِلنِّسَاءِ فَقَالَ: الْكَاسِيَاتُ الْعَارِيَاتُ، النَّاعِمَاتُ الشَّقِيَّاتُ^(٤).

وَدَخَلَ نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَيْهِنَّ ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ كُنْتُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَيْسَ هَذَا بِلِبَاسِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَإِنْ كُنْتُنَّ غَيْرَ مُؤْمِنَاتٍ فَتَمَتَّعْنَهُ^(٥). وَأَدْخَلَتْ امْرَأَةً عُرُوسٌ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَلَيْهَا خِمَارٌ قُبْطِيٌّ مُعْصَفَرٌ، فَلَمَّا رَأَتْهَا قَالَتْ: لَمْ تَوْمَنِي بِسُورَةِ النُّورِ امْرَأَةٌ تَلْبَسُ هَذَا^(٦).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٥) وَ(١١٢٦) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. قَوْلُهُ: الْحُجَرُ. بَضْمُ الْحَاءِ وَفَتْحُ الْجِيمِ، جَمْعُ حَجْرَةٍ، وَهِيَ مَنَازِلُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّمَا خُصَّصْنَ لِأَنَّهُنَّ الْحَاضِرَاتُ حِينَئِذٍ، وَفِي قَوْلِهِ: «كَاسِيَةٌ» وَ«عَارِيَةٌ» أَقْوَالٌ مِنْهَا: كَاسِيَةٌ فِي الدُّنْيَا بِالثِّيَابِ لَوْجُودِ الْغِنَى، عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ لِعَدَمِ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا. وَمِنْهَا: كَاسِيَةٌ بِالثِّيَابِ لَكِنَّهَا لَا تَسْتُرُ عَوْرَتَهَا، فَتُعَاقَبُ فِي الْآخِرَةِ بِالْعَرِيِّ جَزَاءً عَلَى ذَلِكَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. يَنْظُرُ الْفَتْحُ ٢١٠/١ وَ٢٣/١٣.

(٢) فِي (ظ): زَوْجَتِكَ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤١١٦) مِنْ حَدِيثِ دُحْيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَفِي الْبَابِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ أَحْمَدَ (٢١٧٨٦). قَوْلُهُ: قُبْطِيَّةٌ، هِيَ الثَّوْبُ مِنْ ثِيَابِ مِصْرَ رَقِيقَةٌ بَيَاضُ. النِّهَايَةُ (قَبْطُ).

(٤) فِي (د): الْمُتَمَتِّعَاتُ. وَالْخَبَرُ أَخْرَجَهُ بِنَحْوِهِ مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ ٩١٣/٢، وَسَيَأْتِي عَنْهُ مَرْفُوعاً.

(٥) فِي (د) وَ(م): فَتَمَتَّعْتِنَهُ.

(٦) لَمْ تَقِفْ عَلَى هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات، رؤوسهنَّ مثلُ أسنمة البُخْتِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ ريحَهَا»^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها^(٢) أو أطمار جارتها مُستَخْفِيَةً، لا يعلم بها أحدٌ حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يُعْرِقَ﴾ أي: الحرائر، حتى لا يختلطن بالإماء، فإذا عُْرِقْنَ لم يقابلن بأذى^(٣) من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية، فتقطع الأطماع عنهن. وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى يُعلم من هي. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة، محافظة على زي الحرائر^(٤).

وقد قيل: إنه يجب السُّتْرُ والتقنُّعُ الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أن أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٥) حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لَمَنَعَهُنَّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل^(٦).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

(١) أخرجه أحمد (٨٦٦٥)، ومسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسلف ٣٤١/١٥ قوله: كاسيات عاريات، أي: كاسيات بالثياب التي لا تستر منهن حجم عورة، أو تبدي من محاسنها ما لا يحل لها أن تبديه. والأسنمة جمع سنام، والبُخْت جمع بُخْتِيَّة، وهي ضرب من الإبل عظامُ الأسنمة؛ شبه رؤوسهن بها لِمَا رَفَعْنَ من صفات شعورهن على أوساط رؤوسهن. ينظر المفهم ٤٥٠/٥ - ٤٥١.

(٢) جمع طُمْر، وهو الثوب الخَلَق، أو الكساء البالي من غير الصوف. القاموس (طمر).

(٣) في (خ) و(د) و(م): بأذى، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٣٩٩/٤، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣٩٩/٤، وخبر عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢٣٠/٢ - ٢٣١، وبنحوه عبد الرزاق (٥٠٦٤).

(٥) أخرجه أحمد (٤٦٥٥)، والبخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢): (٣٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وسلف ٣٢٢/٢.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٦٠٢)، والبخاري (٨٦٩)، ومسلم (٤٤٥) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ۖ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ ﴿٦٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآية. أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، كما روى سفيان بن سعيد عن منصور، عن أبي رزين قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال: هم شيء واحد، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء^(١). والواو مُقَحَّمَةٌ، كما قال:

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْزَدَحَمِ
أراد: إلى الملك القَرْمِ ابنِ الهُمَامِ لَيْثِ الْكَتِيبَةِ، وقد مضى في «البقرة»^(٢).

وقيل: كان منهم قومٌ يُرْجِفُونَ، وقومٌ يتبعون النساء للريبة، وقومٌ يشككون المسلمين.

قال عكرمة وشهر بن حوشب: «الذين في قلوبهم مرضٌ» يعني الذين في قلوبهم الزنى. وقال طاوس: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كهيل: نزلت في أصحاب الفواحش^(٣)، والمعنى متقارب.

وقيل: المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ شيء واحد، عبّر عنهم بلفظين، دليله آية المنافقين في أوّل «البقرة». والمرجفون في المدينة قوم كانوا يُخْبِرُونَ المؤمنين بما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٦.

(٢) ٨٥/٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/٣٧٩. وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق ٢/١٢٤، والطبري ١٩/١٨٤.

وأخرج قول طاوس عبد الرزاق ٢/١٢٣.

يَسُوؤُهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَيَقُولُونَ إِذَا خَرَجْتُ سِرَايَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُمْ قَدْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا، وَإِنَّ الْعَدُوَّ قَدْ أَتَاكُمْ، قَالَه قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(١). وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ: أَصْحَابُ الصُّفَّةِ قَوْمٌ عَزَّابٌ، فَهَمُ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ.

وَقِيلَ: هُمُ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْطِقُونَ بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ حُبًّا لِلْفِتْنَةِ. وَقَدْ كَانَ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، وَلَكِنَّهُمْ خَاضُوا حُبًّا لِلْفِتْنَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِرْجَافُ: التِّمَاسُ الْفِتْنَةُ^(٢). وَالْإِرْجَافُ: إِشَاعَةُ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ لِلَاغْتِمَامِ بِهِ. وَقِيلَ: تَحْرِيكُ الْقُلُوبِ، يُقَالُ: رَجَفَتِ الْأَرْضُ - أَيِ: تَحَرَّكَتْ وَتَزَلْزَلَتْ - تَرَجُّفٌ رَجْفًا. وَالرَّجْفَانُ: الْاضْطِرَابُ الشَّدِيدُ. وَالرَّجَافُ: الْبَحْرُ، سُمِّيَ بِهِ لِاضْطِرَابِهِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

الْمُطْعِمُونَ اللَّحْمَ كُلَّ عَشِيَّةٍ حَتَّى تَغِيْبَ الشَّمْسُ فِي الرَّجَافِ^(٣)
وَالْإِرْجَافُ: وَاحِدُ أَرَاكِيفِ الْأَخْبَارِ. وَقَدْ أَرَجَفُوا فِي الشَّيْءِ، أَيِ: خَاضُوا فِيهِ.
قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ وَأَرْجَفَ بِالْإِسْلَامِ بَاغٍ وَحَاسِدٌ^(٤)
وَقَالَ آخَرُ:

أَبَا أَرَاكِيفِ يَا ابْنَ اللَّؤْمِ تُوعِدُنِي وَفِي الْأَرَاكِيفِ خِلْتُ اللَّؤْمَ وَالْخَوْرَ^(٥)

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٢٤ .

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٣ ، والصحيح (رجف) والكلام منه، وأساس البلاغة (رجف)، ووقع في هذه المصادر: الشحم، بدل: اللحم. وذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٧٨ عن مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبد المطلب، وصدده فيه: والمطعمين إذا الرياح تناوحت... ، وينظر اللسان (رجف).

(٤) قائله عبد الله بن جحش ، سلف ٣/ ٤٢٧ .

(٥) نسب للأمين المُنْقَرِي كما في الكتاب ١/ ١١٩ - ١٢٠ ، والحيوان ٤/ ٢٦٧ ، والخزانة ١/ ٢٥٧ . ونسبه صاحب اللسان (خيل) لجرير. ووقع في جميع هذه المصادر: أبالأراجيز، بدل: أبالأراجيف. وذكر =

فالإرجاف حرامٌ لأنَّ فيه إذايةً، فدلَّت الآيةُ على تحريم الإيذاء بالإرجاف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسَلِّطَنَّكَ عليهم^(١) فتستأصلهم بالقتل.

قال ابن عباس: لم يَنْتَهَوْا عن إيذاء النساءِ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أغراه بهم، ثم إنه^(٢) قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَضِلَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، وإنَّه أمره بلَغْنِهِمْ، وهذا هو الإغراء. وقال محمد بن يزيد: قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتِّصالِ الكلامِ بها، وهو قوله عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تُفْجَرُوا أُنْزِلُوا وَقَاتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى الأمرِ بِقَتْلِهِمْ وأخذهم، أي: هذا حُكْمُهُمْ إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «خمسٌ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ»^(٣) فهذا فيه معنى الأمرِ كالأيةِ سواء. النحاس^(٤): وهذا مِن أَحْسَنِ ما قيل في الآية.

وقيل: إنَّهم قد انتَهَوْا عن الإرجاف فلم يُغَرِّبَهُمْ. ولأَمْ «لَنُغْرِبَنَّكَ» لَمْ الْقَسَمِ، واليمينُ واقعةٌ عليها، وأدخلت اللامُ في «إِنْ» تَوْطِئَةً لها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الحال من الضمير في «يُجَاوِرُونَكَ»، فكان الأمرُ كما قال تبارك وتعالى؛ لأنَّهم لم يكونوا إلَّا أَقِلَّاءَ. فهذا أحدُ جَوَابِي الفراء^(٥)، وهو الأوَّلَى عنده، أي: لا يجاورونك إلَّا في حالِ قِلَّتِهِمْ. والجوابُ الآخَرُ أن يكون المعنى: إلَّا وقتاً قليلاً، أي: لا يَبْقَوْنَ معك إلَّا مدَّةَ سيرةٍ، أي: لا يجاورونك فيها إلَّا جِوَاراً قليلاً حتى

= البغدادى أن القصيدة لامية، وأن الصواب: والفشل، بدل: والخور. ووقع في الحيوان: جَلَبُ اللُّومِ والكسل.

(١) هذا قول ابن عباس في تفسير هذه الآية، كما أخرجه الطبري ١٩/١٨٥، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٧٩٧).

(٢) في إعراب القرآن ٣/٣٢٦ (والكلام منه): لأنه، بدل: ثم إنه. وقد ذكر النحاس هذا الكلام دون نسبة. (٣) سلف ١/٣٦٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٢٦، وما قبله منه.

(٥) في معاني القرآن ٢/٣٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٢٦.

يَهْلِكُوا، فيكون نعتاً لمصدرٍ أو ظرفٍ محذوف. ودلَّ على أنَّ مَنْ كان معك ساكناً بالمدينة فهو جارٌّ، وقد مضى في «النساء»^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ هذا تمامُ الكلام عند محمد بن يزيد، وهو منصوبٌ على الحال^(٢). وقال ابن الأنباري^(٣): «قليلاً ملعونين» وقفٌ حسن. النحاس^(٤): ويجوز أن يكون التَّمَامُ «إِلَّا قليلاً»، وتنصب «مَلْعُونِينَ» على الشَّم، كما قرأ عيسى بن عمر: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]^(٥). وقد حُكي عن بعض النُّحويين أنه قال: يكون المعنى: أينما تُقِفُوا أُخِذُوا ملعونين. وهذا خطأ، لا يَعْمَلُ ما [كان] مع المجازاة فيما قَبْلَهُ.

وقيل: معنى الآية: إنَّ أَصْرُوا على النفاق لم يكن لهم مُقَامٌ بالمدينة إلَّا وهم مَطْرُودُونَ ملعونون. وقد فُعِلَ بهم هذا؛ فَإِنَّهُ لَمَّا نزلت سورة «براءة» جُمِعُوا، فقال النبي ﷺ: «يا فلان، قُمْ فَاخْرُجْ فَإِنَّكَ منافق، ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين وتَوَلَّوْا إخراجهم من المسجد^(٦).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: سَنَّ الله جُلَّ وعزَّ فِيمَنْ أَرْجَفَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَأَظْهَرَ نِفَاقَهُ أَنْ يُوْخَذَ وَيُقْتَلَ. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تحويلاً وتغييراً؛ حكاها النَّقَّاش. وقال السُّدِّي: يعني أنَّ مَنْ قُتِلَ بِحَقِّ فُلَانٍ دِيَّةٌ عَلَى قَاتِلِهِ^(٧).

(١) ٣٠٦/٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٧.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٤٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٢٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقر بن برفع التاء. السبعة ص ٧٠٠، والتيسير ص ٢٢٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٩٦) مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله: فقام إخوانهم...، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤/٧: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٧) النكت والعيون ٤/٤٢٥.

المهدوي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم، وقد مضى هذا في «آل عمران»^(١) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ هؤلاء المؤذون لرسول الله ﷺ لما توعّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكديباً، مُوهمين أنها لا تكون. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أجبهم عن سؤالهم، وقُلْ: عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يبطل نبوتي. وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جلّ وعزّ. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: ما يُعْلِمُكَ ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمان قريب. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى، خرّجه أهل الصحيح^(٢).

وقيل: أي: ليست الساعة تكون قريباً. فحذف هاء التانيث ذهاباً بالساعة إلى اليوم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولم يقل: قريبة، ذهاباً بالرحمة إلى العفو؛ إذ ليس تانيثها أصلياً. وقد مضى هذا مستوفى^(٣).

وقيل: إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها في كل وقت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: طردهم وأبعدهم. واللعن: الطرد

(١) ٤٧٨/٥

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٣)، وصحيح مسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد ؓ، وسلف ٢٦٨/١٢.

(٣) ٢٥٠/٩

والإبعاد عن الرحمة. وقد مضى في «البقرة» بيانه^(١). ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فأنث السعير لأنها بمعنى النار ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يُنجيهم من عذاب الله والخلود فيه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول. وقرأ عيسى الهمداني وابن أبي إسحاق^(٢): «تُقَلَّبُ» بنون وكسر اللام^(٣) «وجوهم» نصباً. وقرأ عيسى أيضاً: «تُقَلَّبُ» بضم التاء وكسر اللام^(٤)، على معنى: تُقَلَّبُ السعير وجوهمهم. وقرأ أبو حيوة باختلاف عنه، وأبو جعفر وشيبة: تُقَلَّبُ؛ بفتح التاء واللام؛ على معنى تَقَلَّبُ^(٥).

وهذا التقلب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسود مرة وتخضر أخرى. وإذا بذلت جلودهم بجلود آخر فحيثئذ يتمنون أنهم ما كفروا، ويقولون: يا ليتنا. ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تُقَلَّبُ وجوهمهم في النار: ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: لم نكفر فتنجوا من هذا العذاب كما نجا المؤمنون. وهذه الألف تقع في الفواصل، فيوقف عليها ولا يوصل بها. وكذا «السبيل» وقد مضى في أول السورة^(٦).

(١) ٢٤٧/٢.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وابن إسحاق، والمثبت من (ظ) وفتح القدير ٣٠٦/٤.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن أبي حيوة.

(٤) المحتسب ١٨٤/٢، والمححر الوجيز ٤٠٠/٤، والكلام منه. وقد ذكر أبو حيان في البحر ٢٥٢/٧ أن الذي قرأ «تُقَلَّبُ» بالنون هو عيسى البصري (وهو ابن عمر الثقفي النحوي)، أما الذي قرأ: «تُقَلَّبُ» بالتاء فهو عيسى الكوفي (وهو ابن عمر الهمداني). وينظر معرفة القراء الكبار ٢٦٩/١ - ٢٧٠.

(٥) من قوله: وقرأ أبو حيوة... إلى هذا الموضع، ليس في (م). وقد ذكرها ابن عطية في المححر الوجيز ٤٠٠/٤ عن أبي حيوة، وذكرها أبو حيان في البحر ٢٥٢/٧ عن أبي جعفر، لكن القراءة المشهورة عن أبي جعفر - وهو من العشرة - كقراءة الجماعة.

(٦) ص ٩٣ من هذا الجزء.

وقرأ الحسن: «إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا» بكسر التاء^(١)، جمع سادة، وكان في هذا زجرٌ عن التقليد. والسادة جمعُ السيد، وهو فَعْلَة، مثل كَتَبَة، وَفَجَرَة، وساداتنا جمع الجمع. والسادة والكبراء بمعنى. وقال مقاتل^(٢): هم الْمُطْعَمُونَ في غزوة بدر. والأَظْهَرُ العمومُ في القادة والرؤساء في الشُّرْكِ والضَّلالة، أي: أَطَعْنَاهُمْ في معصيتك وما دَعَوْنَا إِلَيْهِ ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ أي: عن السَّبِيل وهو التوحيد، فلما حُذِفَ الجارُ وَصِلَ الفعلُ فنصب. والإِضْلالُ لا يتعدَّى إلى مفعولين من غير توسُّطِ حرفِ الجرِّ، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ [الفرقان: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة^(٣).

وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإِضْلال، أي: عَذَّبْنَاهُمْ مِثْلِي مَا تُعَذِّبُنَا، فَإِنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا. ﴿وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء^(٤)، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس^(٥)؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وهذا المعنى كثير. وقال محمد بن أبي السري: رأيتُ في المنام كأنِّي في مسجدٍ عَسْقَلَان، وكانَ رجلاً يُنَاطِرُنِي فِيمَنْ يَبْغِضُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقال: وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَثِيرًا، ثُمَّ كَرَّرَهَا حَتَّى غَابَ عَنِّي، لَا يَقُولُهَا إِلَّا بِالثَّاءِ^(٦). وقراءة

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٨، وهي قراءة ابن عامر كما في السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٢) في (د) و(م): قتادة، وذكره عن مقاتل الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٣.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٤٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٤) السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٨.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٥/ ٢٣٢ بنحوه مطولاً، ثم روى عن ابن عدي قوله: ابن أبي السري العسقلاني كثير الغلط.

الباء تَرْجُعُ في المعنى إلى الثاء؛ لأنَّ ما كبر كان كثيراً عَظِيمَ المِقْدَارِ.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿٦٩﴾

لَمَّا ذكر الله تعالى المنافقين والكفَّار الذين آذَوْا رسولَ الله ﷺ والمؤمنين، حَذَّرَ المؤمنين من التعرُّضِ للإيذاء، ونهاهم عن التَّشْبِهِ ببني إسرائيلَ في إذايتهم^(١) نبيهم موسى.

واختلف الناس فيما أُوذِيَ به محمد ﷺ وموسى، فحكى النقَّاشُ أنَّ إذايتهم محمداً عليه الصلاة والسلام قولهم: زيد بنُ محمد. وقال أبو وائل: إذايته أنه ﷺ قَسَمَ قَسْماً، فقال رجلٌ من الأنصار: إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةُ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فغضب وقال: «رَجِمَ الله موسى، لقد أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ»^(٢).

وأما إذاية موسى ﷺ فقال ابن عباس وجماعة: هي ما تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عن النبي ﷺ، وذلك أنه قال: «كان بنو إسرائيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءً، وكان موسى عليه السلام يتستَّرُ كثيراً وَيُخْفِي بَدَنَهُ، فقال قومٌ: هو آدُرٌ»^(٣) وأبرصُ، أو به آفةٌ، فانطلق ذاتَ يومٍ يَغْتَسِلُ في عَيْنِ بَارِضِ الشَّامِ وَجَعَلَ ثِيَابَهُ عَلَى صَخْرَةٍ، ففَرَ الْحَجَرُ بِثِيَابِهِ وَاتَّبَعَهُ موسى عرياناً يقول: ثُوبِي حَجَرٌ ثُوبِي حَجَرٌ، حتى انتهى إلى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فنظروا إليه، فإذا هو مِنْ أَحْسَنِهِمْ خَلْقاً وَأَعْدَلِهِمْ صُورَةً، وليس به الذي قالوا، فهو قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾^(٤). أخرجه البخاريُّ ومسلم

(١) كذا في النسخ الخطية في هذا الموضع، وفي المواضع التالية. وكذا ورد في سياق كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٠١، ووقع في (م) أذيتهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠٨)، والبخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من طريق أبي وائل (وهو شقيق بن سلمة) عن ابن مسعود ؓ، والكلام من النكت والعيون ٤/٤٢٦.

(٣) الآدُر هو ذو الأذرة: وهي عِظَمُ الخصيتين وانتفاخهما. المفهم ٦/١٩٠.

(٤) تفسير الطبري ١٩/١٩٠ - ١٩٤. وسياقي شرح قوله: ثوبي حجر.

بمعناه^(١). ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراةً ينظر بعضهم إلى سَوْءَةٍ بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسلُ وَحْدَهُ، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسلَ معنا إِلَّا أنه أَدْرُ! قال: فذهب يوماً^(٢) يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، قال: فجمَعَ موسى عليه السلام بإثره يقول: ثُوبِي حَجَرُ ثُوبِي حَجَرُ، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوْءَةِ موسى وقالوا: والله ما بموسى من بأسٍ، فقام الحجر حتى نُظر إليه، قال: فأخذ ثوبه فطَفِقَ بالحجر ضرباً». قال أبو هريرة: والله إِنَّه بالحجر نَدَبٌ سِتَّةٌ أو سبعةٌ؛ ضَرَبُ موسى بالحجر. فهذا قول.

وروي عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: آذُوا موسى بأن قالوا: قَتَلَ هَارُونَ؛ وذلك أَنَّ موسى وهارون خرجا من فَحْصِ الثِّيِّ^(٣) إلى جبلٍ، فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قَتَلْتَهُ، وكان أَلَيْنَ لَنَا مِنْكَ وَأَشَدَّ حُبًّا. فَأَذَوْهُ بِذَلِكَ، فأمر الله تعالى الملائكةَ، فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورَأَوْا آيَةً عَظِيمَةً دَلَّتْهُمْ عَلَى صِدْقِ موسى، ولم يكن فيه أثرُ القتل. وقد قيل: إِنَّ الملائكةَ تَكَلَّمَت بِمَوْتِهِ ولم يَعْرِفْ مَوْضِعَ قَبْرِهِ إِلَّا الرَّحْمُ، وإنه تعالى جعله أَصَمَّ أَبْكُمْ^(٤).

ومات هارون قبل موسى في الثِّيِّ، ومات موسى قبل انقضاء مَدَّةِ الثِّيِّ بشهرين^(٥). وحكى الْقُشَيْرِيُّ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أَنَّ الله تعالى أَخْيَا

(١) صحيح البخاري (٢٧٨) و(٣٤٠٤)، وصحيح مسلم (٣٣٩)، وهو عند أحمد (١٠٦٧٨).

(٢) في صحيح مسلم: مرة.

(٣) الْفَحْصُ: ما استوى من الأرض، والثِّيِّ: المفازة يُتَاهُ فيها، وهي هنا الموضع الذي تاه فيه بنو إسرائيل. اللسان (فحص) (تبه).

(٤) تفسير الطبري ١٩/١٩٤، والنكت والعيون ٤/٢٢٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٧٥، والمحرم الوجيز ٤/٤٠١. والرخم: طائر غزير الريش أبيض اللون مَبْقَعٌ بسواد. المعجم الرسيط (رخم).

(٥) النكت والعيون ٤/٢٢٧.

هارون فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات.

وقد قيل: إن إذاية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون. والصحيح الأول. ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا فَعَلُوا كُلَّ ذَلِكَ، فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ.

مسألة: في وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله في الماء غريباناً دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور. وَمَنْعَهُ ابْنُ أَبِي لَيْلَى، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثٍ لَمْ يَصَحَّ، وهو قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الْمَاءَ إِلَّا بِمَنْزَرٍ، فَإِنَّ لِلْمَاءِ عَمِيراً». قال القاضي عِيَّاض: وهو ضعيف عند أهل العلم^(١).

قلت: أما إِنَّهُ يُسْتَحَبُّ التَّسْتَرُّ لِمَا رَوَاهُ إِسْرَائِيلُ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى: أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ دَخَلَ غَدِيرًا وَعَلَيْهِ بُرْدٌ لَهُ مُتَوَشِّحًا بِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا تَسْتَرْتُ مِمَّنْ يِرَانِي وَلَا أَرَاهُ. يعني: من ربي والملائكة^(٢).

فإن قيل: كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداءً مَنْ يَعْقِلُ؟ قيل: لأنه صَدَرَ عَنِ الْحَجَرِ فِعْلٌ مَنْ يَعْقِلُ. و«حَجَرٌ» مَنَادَى مُفْرَدٌ مَحْذُوفٌ حَرْفُ النِّدَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩]. و«ثوبي» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، التَّقْدِيرُ: أَعْطَنِي ثُوبِي، أَوْ أَتْرَكَ ثُوبِي، فَحُذِفَ الْفِعْلُ لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي: عظيمًا. والوجه عند العرب: العظيم القدر الرفيع المنزلة. ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه. وقرأ ابن مسعود:

(١) المفهم ١٩٠/٦ - ١٩١ وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٣٥٠/٧، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٦٥٢/٧، عن جابر رضي الله عنه. وفي إسناده يحيى بن سعيد التميمي المدني، قال فيه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن عدي وغيره: يروي عن الثقات البواطيل. الميزان ٣٧٨/٤.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج عبد الرزاق (١١١٤) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي، أو عن أبي جعفر محمد بن علي أن الحسن والحسين دخلا الفرات وعلى كل واحد منهما إزاره ثم قالوا: إن في الماء - أو إن للماء - ساكنًا. وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقریب.

(٣) المفهم ١٩٠/٦.

«وكان عبداً لله»^(١). وقيل: معنى «وَجِيهًا» أي: كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا^(٢).

قال أبو بكر الأنباري في «كتاب الرد»: زَعَمَ مَنْ طَعَنَ فِي الْقُرْآنِ، أَنَّ الْمُسْلِمِينَ صَحَّحُوا: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ وَأَنَّ الصَّوَابَ عِنْدَهُ: «وكان عبداً لله وَجِيهًا». وذلك يدلُّ على ضَعْفِ مَقْصِدِهِ وَنَقْصَانِ فَهْمِهِ وَقِلَّةِ عِلْمِهِ. وذلك أَنَّ الْآيَةَ لَوْ حُمِلَتْ عَلَى قَوْلِهِ، وَقُرِئَتْ: «وكان عبداً»، نَقَصَ الثَّنَاءُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ أَنَّ «وَجِيهًا» يَكُونُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وَعِنْدَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَعِنْدَ أَهْلِ الْآخِرَةِ، فَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ الْمَدْحِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ وَجِيهًا عِنْدَ بَنِي الدُّنْيَا كَانَ ذَلِكَ إِنْعَامًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا يَبِينُ مَعَهُ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ. فَلَمَّا أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْضِعَ الْمَدْحِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ اسْتَحَقَّ الشَّرْفَ وَأَعْظَمَ الرَّفْعَةَ بِأَنَّ الْوَجَاهَةَ عِنْدَ اللَّهِ، فَمَنْ غَيَّرَ اللَّفْظَةَ صَرَفَ عَنِ نَبِيِّ اللَّهِ أَفْخَرَ الثَّنَاءِ وَأَعْظَمَ الْمَدْحِ^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: قَصْدًا وَحَقًّا. وقال ابن عباس: أي: صَوَابًا^(٥). وقال قتادة ومقاتل: يعني قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد، ولا تَسُبُّوا النَّبِيَّ ﷺ إِلَى مَا لَا يَجِلُّ.

وقال عكرمة وابن عباس أيضاً: القول السديد: لا إله إلا الله^(٥).

وقيل: هو الذي يُوَافِقُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ. وقيل: هو ما أُرِيدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ دُونَ غَيْرِهِ.

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ١٨٥/٢، والبحر ٢٥٣/٧.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣٨٢/٥.

(٣) سلف الكلام بنحوه مفصلاً ١٢٨/١.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤٨٤/٣، والبيهقي ٥٤٦/٣.

(٥) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وعن عكرمة الطبري

وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين. وهو مأخوذ من تسديد السهم ليُصاب به الغرض^(١).

والقول السديد يعُم الخيرات، فهو عامٌ في جميع ما ذكر وغير ذلك، وظاهر الآية يعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين. ثم وعدَّ جلَّ وعزَّ بأنه يجازي على القول السديد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب^(٢)، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما أمر به ونهى عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ٧٣ ﴿لِعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ٧٤

لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين، أمر بالتزام أوامره. والأمانة تعم جميع وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور. روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ نَصْرِ، عَنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ^(٣) بْنِ جَوْهَرٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قال الله تعالى لآدم: يا آدم، إِنِّي عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَمْ تُطِقْهَا، فَهَلْ أَنْتَ حَامِلُهَا بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: وَمَا فِيهَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: إِنَّ حَمَلَتَهَا أُجِرْتَ، وَإِنْ ضَيَّعَتْهَا عُذِّبْتَ. فَاحْتَمَلَهَا بِمَا فِيهَا، فَلَمْ يَلْبَثْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْأُولَى إِلَى الْعَصْرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا»^(٤).

(١) النكت والعيون ٤/٤٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠١.

(٣) في (ظ): زيد.

(٤) لم نقف عليه عند الحكيم الترمذي، وأخرجه الطبري ١٩/١٩٧، وأبو بكر الأنباري في الأضداد ص ٣٨٨-٣٨٩. وأخرجه الطبري ١٩/١٩٨ عن الضحاك قوله.

فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد. وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال^(١).

وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها^(٢).

وقال أبو الدرداء: غُسلُ الجنابة أمانة، وإنَّ الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها^(٣). وفي حديث مرفوع: «الأمانة الصلاة» إن شئت قلت: قد صليتُ، وإن شئت قلت: لم أصَلْ. وكذلك الصيامُ وغُسلُ الجنابة^(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلَقَ الله تعالى من الإنسان فرجُه، وقال: هذه أمانة استودعْتُكها، فلا تلبسها إلا بحق. فإن حَفِظْتَها حَفِظْتُكَ، فالفرجُ أمانة، والأذنُ أمانة، والعينُ أمانة، واللسانُ أمانة، والبطنُ أمانة، واليدُ أمانة، والرجلُ أمانة، ولا إيمانَ لمن لا أمانة له^(٥).

وقال السُّديُّ: هي ائتمانُ آدمَ ابنه قابيلَ على ولده وأهله، وخيانتُه إياه في قتل أخيه. وذلك أنَّ الله تعالى قال له: يا آدمُ، هل تعلمُ أنَّ لي بيتاً في الأرض. قال: اللهمَّ لا! قال: فإنَّ لي بيتاً بمكةَ فأتيه، فقال للسماء: احفَظِي ولدي بالأمانة، فأبَتْ. وقال للأرض: احفَظِي ولدي بالأمانة، فأبَتْ، وقال للجبال كذلك فأبَتْ. فقال

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٠٢، وسلف ٦/٤٢٤.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/١٢٥، والطبري ١٩/٢٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود إثر الحديث (٤٢٩)، والطبري ١٩/٢٠٠ واللفظ له.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/١٢٥ من طريق زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلًا بلفظ: «الأمانة ثلاث: الصلاة، والصيام، والغسل من الجنابة».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٧٥)، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٩٦. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٢٨ - ٤٢٩ مختصراً دون نسبة. قوله: فلا تلبسها، أي: فلا تخلطها. ينظر اللسان (ليس). ووقع في مكارم الأخلاق: فلا تضعها إلا في حقها. ولفظ المصنف موافق لما في النكت والعيون.

لقابيل: اخْفَظْ ولدي بالأمانة، فقال: نعم، تذهبُ وترجع فتجد ولدك كما يسرُّك. فرجع فوجده قد قُتِلَ أخاه، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية^(١).

وروى معمر عن الحسن: أَنَّ الْأَمَانَةَ عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، قَالَتْ^(٢): وَمَا فِيهَا؟ قِيلَ لَهَا: إِنَّ أَحْسَنَتِ جُوزِيَّتٍ، وَإِنْ أَسْأَتْ عُوقِبَتْ. فَقَالَتْ: لَا^(٣). قَالَ مُجَاهِدٌ: فَلَمَّا^(٤) خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: إِنَّ أَحْسَنَتِ أَجْرَتُكَ، وَإِنْ أَسْأَتْ عَذِّبْتُكَ. قَالَ: فَقَدْ تَحَمَّلْتُهَا يَا رَبِّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: فَمَا كَانَ بَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا إِلَى أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدَرًا مَا بَيْنَ الظَّهْرِ وَالْعَصْرِ^(٥).

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قَالَ: الْأَمَانَةُ الْفَرَائِضُ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، إِنَّ أَدْوَاهَا أَثَابَهُمْ، وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ. فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِلدِّينِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يَقُومُوا بِهِ. ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ، فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا. قَالَ النُّحَاسُ^(٦): وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ.

وقيل: لَمَّا حَضَرَتْ آدَمَ ﷺ الْوَفَاةُ أُمِرَ أَنْ يَغْرِضَ الْأَمَانَةَ عَلَى الْخَلْقِ، فَعَرَضَهَا فَلَمْ

(١) أخرجه الطبري ٢٠٣/١٩ - ٢٠٤ ضمن خبر طويل من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) في (ظ): بما فيها فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/٤٣٠. وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق أبي معمر عون بن معمر عن الحسن البصري.

(٤) في (ظ): لما.

(٥) النكت والعيون ٤/٤٣٠، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٢٥، والواحي في الوسيط ٣/٤٨٥، وسلف نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما أول تفسير هذه الآية.

(٦) في معاني القرآن ٥/٣٨٣، وما قبله منه، وأخرج خبر ابن عباس أيضاً الطبري ١٩/١٩٨، وابن الأنباري في الأضداد ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

يقبلها إلا بنوه^(١).

وقيل: هذه الأمانة هي ما أودَّعه الله تعالى في السماوات والأرض والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يُظهِروها، فأظهِروها، إلا الإنسان، فإنه كتمها وجحدها؛ قاله بعض المتكلمين^(٢).

ومعنى «عَرَضْنَا»: أظهِرْنَا، كما تقول: عَرَضْتُ الجارية على البيع. والمعنى: إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فَأَيُّكُمْ أَنْ يَحْمِلَهَا﴾ أي: أن يَحْمِلْنَ وِزْرَهَا، كما قال عز وجل: ﴿وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ قال الحسن: المراد: الكافر والمنافق ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بربه. فيكون - على هذا - الجواب مجازاً، مثل: ﴿وَسَّالِيَ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]^(٣).

وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة: أنه عَرَضَ على السماوات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها، وهي الثواب والعقاب، أي: أظهِرَ لَهُنَّ ذلك، فلم يحملن وِزْرَهَا^(٤)، وأشفقن وقُلْنَ: لا نبتغي^(٥) ثواباً ولا عقاباً، وكلُّ يقول: هذا أمرٌ لا نُطِيقُهُ، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أَمَرْتَنَا به وسَخَرْتَنَا له^(٦)؛ قاله الحسن وغيره^(٧). قال العلماء: معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يُجيب، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير. وهذا العرض عَرَضٌ تخيير لا إلزام، والعرض على الإنسان إلزام.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٨٣/٥.

(٢) النكت والعيون ٤٢٩/٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٢٩/٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) في النسخ عدا (ظ): وأشفقت وقالت لا أبتغي... والمثبت من (ظ).

(٦) في النسخ عدا (ظ): فيما أمرن به وسخرن له والمثبت من (ظ).

(٧) سلف نحوه عن الحسن، وأخرجه بنحوه أيضاً عبد الرزاق ١٢٥/٢ عن الحسن وقتادة.

وقال القفال وغيره: العرضُ في هذه الآية ضربٌ مثل، أي إنَّ السماوات والأرض - على كِبَرِ أجرامها - لو كانت بحيث يجوز تكليفُها، لثقلَ عليها تقلُّدُ الشرائع؛ لِمَا فيها من الثواب والعقاب، أي: إنَّ التكليفَ أمرٌ حَقُّه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كُلفَ الإنسان وهو ظُلومٌ جهولٌ لو عَقَلَ. وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَاكُ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُكَ لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]. قال القفال: فإذا تَقَرَّرَ^(١) أنه تعالى يضربُ الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرجُ إلَّا على ضرب المثل، وَجَبَ حَمْلُهُ عليه.

وقال قوم: إنَّ الآيةَ من المجاز، أي: إِنَّا إِذَا قَايَسْنَا ثِقَلَ الْأَمَانَةِ بِقُوَّةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، رَأَيْنَا أَنَّهَا لَا تُطِيقُهَا، وَأَنَّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ لِأَبْتٍ وَأَشْفَقَتْ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ الآية. وهذا كما تقول: عرضتُ الحِمْلَ على البعير فأباه، وأنت تريد: قَايَسْتُ قُوَّتَهُ بِثِقَلِ الْحِمْلِ، فَرَأَيْتُ أَنَّهَا تَقْصُرُ عَنْهُ^(٢).

وقيل: «عَرَضْنَا» بمعنى: عارضنا الأمانةَ بالسماوات والأرض والجبال، فضعُفَتْ هذه الأشياءُ عن الأمانة، وَرَجَحَتْ الأمانةُ بثقلها عليها.

وقيل: إنَّ عَرَضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال إِنَّمَا كَانَ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا اسْتَخْلَفَهُ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّطَهُ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالطَّيْرِ وَالْوَحْشِ، وَعَهْدَ إِلَيْهِ عَهْدًا أَمْرَهُ فِيهِ وَنَهَاهُ وَحَرَّمَ وَأَحَلَّ، فَقَبْلَهُ وَلَمْ يَزَلْ عَامِلًا بِهِ. فَلَمَّا أَنَّ حَضَرَتَهُ الْوَفَاةَ سَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعْلِمَهُ مَنْ يَسْتَخْلَفُ بَعْدَهُ، وَيَقْلُدُهُ مِنَ الْأَمَانَةِ مَا تَقَلَّدَهُ، فَأَمْرَهُ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى السَّمَاوَاتِ بِالْشَّرْطِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِ، مِنَ الثَّوَابِ إِنْ أَطَاعَ، وَمِنَ الْعِقَابِ إِنْ عَصَى، فَأَبَيْنَ أَنْ يَقْبَلْتَهُ شَفَقًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ثُمَّ أَمْرَهُ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا، فَأَبَيْتَهُ^(٣). ثُمَّ أَمْرَهُ أَنْ يَعْرِضَ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): «في».

(٢) المحرر الوجيز ٤٠٢/٤ - ٤٠٣.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: فأباه.

ذلك على ولده، فعرضه عليه، فقبله بالشرط، ولم يَهَبْ منه ما تَهَيَّبت السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّمَا كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبة ما تَقَلَّدَ لربه^(١).

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي: عجبت من هذا^(٢) القائل من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً ممّا قال! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة، إلّا أنه يُؤمى في مَقَالَتِهِ إلى أنه سلّطه^(٣) على جميع ما في الأرض، وعَهَدَ الله إليه عَهْداً فيه أمره ونهيّه وحلّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السماوات والأرض والجبال! فما تصنع السماوات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟! وما التسليط على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عَرَضَ على ولده فَقَبِلَهُ يكون^(٤) في أعناق ذريته من بعده! وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عَرَضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حَمَلَهَا، أي: من قَبِلَ نفسه، لا أنه حُمِّلَ ذلك، فسمّاه «ظُلُومًا» أي: لنفسه، «جَهُولًا» بما فيها.

وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر، فحدثني أبي رَحِمَهُ الله قال: حدثنا الفيض ابن الفضل الكوفي، حدثنا السري بن إسماعيل، عن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: لما خَلَقَ الله الأمانة مَثَلَهَا صخرة، ثم وَضَعَهَا حيث شاء، ثم دعا لها السماوات والأرض والجبال لِيَحْمِلْنَهَا، وقال لهنّ: إنّ هذه «الأمانة»، ولها ثوابٌ وعليها عقابٌ. قالوا: يا رب، لا طاقة لنا بها. وأقبل الإنسان من قَبْلِ أن يُدعى، فقال للسماوات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربُّنا أنْ نَحْمِلَ

(١) ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص ٣٩٠ - ٣٩١ عن بعض المفسرين.

(٢) في (ط): عجبت لهذا.

(٣) في (ط): سلط.

(٤) قوله: يكون، من (ط)، وليس في باقي النسخ.

هذه، فَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَلَمْ نُطْفِئْهَا، قَالَ: فَحَرَّكَهَا بِيَدِهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَحْمِلَهَا لَحَمَلْتُهَا، فَحَمَلَهَا حَتَّى بَلَغَ بِهَا إِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ وَضَعَهَا وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَزْدَادَ لَا زِدْتُ، قَالُوا: دُونَكَ! فَحَمَلَهَا حَتَّى بَلَغَ بِهَا حَقْوَيْهِ^(١)، ثُمَّ وَضَعَهَا وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَزْدَادَ لَا زِدْتُ، قَالُوا: دُونَكَ، فَحَمَلَهَا حَتَّى وَضَعَهَا عَلَى عَاتِقِهِ، فَلَمَّا أَهْوَى لِيَضَعَهَا^(٢)، قَالُوا: مَكَانَكَ! إِنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةُ، وَلَهَا ثَوَابٌ وَعَلَيْهَا عِقَابٌ، وَأَمَرْنَا رَبَّنَا أَنْ نَحْمِلَهَا فَأَشْفَقْنَا مِنْهَا، وَحَمَلَتْهَا أَنْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُدْعَى لَهَا، فَهِيَ فِي عُنُقِكَ وَفِي أَعْنَاقِ ذُرِّيَّتِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ كُنْتَ ظَلُومًا جَهُولًا^(٣). وَذَكَرَ أَخْبَاراً عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَقَدَّمَ أَكْثَرُهَا.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ أَي: التَزَمَ الْقِيَامَ بِحَقِّهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ ظُلُومٌ لِنَفْسِهِ - وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْأَمَانَةِ - جَهُولٌ بِقَدْرِ مَا دَخَلَ فِيهِ. وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جَبْرِ^(٤). وَقَالَ الْحَسَنُ: جَهُولٌ بِرَبِّهِ. قَالَ: وَمَعْنَى «حَمَلَهَا»: خَانَ فِيهَا، وَقَالَ^(٥) الزَّجَّاجُ. وَالْآيَةُ فِي الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ. وَالْعَصَاةُ عَلَى قَدْرِهِمْ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ^(٦).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابُهُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: «الْإِنْسَانُ»: آدَمُ، تَحَمَّلَ الْأَمَانَةَ فَمَا تَمَّ لَهُ يَوْمٌ حَتَّى عَصَى الْمَعْصِيَةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ مِنَ الْجَنَّةِ^(٧).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُ: أَتَحْمِلُ هَذِهِ الْأَمَانَةَ بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إِنْ أَحْسَنْتَ جُزِيتَ، وَإِنْ أَسَأْتَ عُوقِبْتَ. قَالَ: أَنَا أَحْمِلُهَا بِمَا فِيهَا بَيْنَ

(١) الحقو: الخصر.

(٢) فِي (ظ): فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَضَعَهَا.

(٣) لَمْ نَقِفْ عَلَى كَلَامِ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ وَخَبَرِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ الْبَغَوِيُّ ٥٤٧/٣. وَالسَّرِيُّ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ فِيهِ الْحَافِظُ فِي التَّقْرِيبِ: مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ.

(٤) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٤/٤٠٢، دُونَ قَوْلِ قَتَادَةَ، وَأَخْرَجَ قَوْلَ قَتَادَةَ الطَّبْرِيُّ ١٩/٢٠٥.

(٥) فِي النُّسخِ عَدَا (ظ): وَقَالَ، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (ظ).

(٦) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٤/٤٠٢، دُونَ قَوْلِهِ: وَقَالَ الزَّجَّاجُ، وَقَوْلُ الزَّجَّاجِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ لَهُ ٤/٢٣٨.

(٧) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٤/٤٠٢، وَسَلَفَ نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ص ٢٤٤ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

أُذْنِي وَعَاتِقِي. فقال الله تعالى له: إِنِّي سَأُعِينُكَ؛ قد جعلتُ لبصرِكَ حجاباً فَأَغْلِقْهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، وَلِفَرْجِكَ لباساً فلا تَكْشِفْهُ إِلَّا على ما أُحِلَّتْ لَكَ^(١).

وقال قوم: «الإنسان»: النوعُ كله. وهذا حَسَنٌ مع عمومِ الأمانة^(٢)، كما ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا. وقال السُّدِّي: الإنسانُ قاييل^(٣). فالله أعلم.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ اللَّامُ في «لِيُعَذِّبَ» متعلِّقةٌ بـ «حَمَلَ» أي: حملها ليعذب العاصي ويشيب المطيع، فهي لامُ التعليل؛ لأنَّ العذابَ نتيجةُ حَمَلِ الأمانة^(٤). وقيل بـ «عرضنا»، أي: عَرَضْنَا الأمانةَ على الجميع ثم قَلَدْنَاهَا الإنسانَ لِيُظْهَرَ شِرْكُ الْمُشْرِكِ ونفاقُ المنافقِ ليعذبهم الله، وإيمانُ المؤمنِ لِيُثْبِتَهُ الله.

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ قراءةُ الحسَنِ بالرفع، يَقْطَعُهُ مِنَ الْأَوَّلِ؛ أي: يتوبُ الله عليهم بكلِّ حال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ لـ «كان». ويجوز أن يكون نعتاً لغفور، ويجوز أن يكون حالاً من الْمُضْمَرِ^(٥). والله أعلم بالصواب.

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٠٢، والبلغوي ٣/٥٤٦ دون نسبة. وأخرجه الطبري ١٩/٢٠١ عن ابن زيد. وأخرجه ابن أبي حاتم - كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية - عن زيد بن أسلم وعن أبي حازم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٢٠٥، وقد سلف مطولاً ص ٢٤٥ من هذا الجزء.

(٤) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٠٣: اللام لام العاقبة؛ لأن الإنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل، فصار الأمر وآل إلى أن يعذب مَنْ نَافَقَ وَمَنْ أَشْرَكَ، وأن يتوب على مَنْ آمَنَ. وينظر الدر المصون ٩/١٤٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٢٩، وذكر قراءة الحسن أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ عن الأعمش.

سورة سبأ

مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ ، إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً اخْتَلَفَ فِيهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ ﴾ [الآية ٦] ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : هِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَالْمَرَادُ الْمُؤْمِنُونَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : هِيَ مَدَنِيَّةٌ ، وَالْمَرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ [مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ] كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ^(١) ؛ قَالَه مِقَاتِلٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ ؛ كَانَتْ أُمَّةً مَدَنِيَّةً^(٢) . وَهِيَ أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ «الذي» فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَلَى النَّعْتِ أَوْ الْبَدَلِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأً ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِمَعْنَى : أَعْنِي . وَحَكَى سَيَبَوِيهِ : «الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلُ الْحَمْدِ» بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْخَفْضِ^(٣) . وَالْحَمْدُ الْكَامِلُ وَالثَنَاءُ الشَّامِلُ كُلُّهُ لِلَّهِ ؛ إِذِ النَّعْمُ كُلُّهَا مِنْهُ . وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِيهِ فِي أَوَّلِ «الْفَاتِحَةِ»^(٤) .

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٠٤ دون قوله : قاله ابن عباس ، وما سلف بين حاصرتين منه . وقول ابن عباس إن سورة سبأ مكية أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٥٩٤ .

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٠٦ . وهو في تفسير الطبري ١٩/٢١٤ ، والنكت والعيون ٤/٤٣٣ ، والوسيط ٣/٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/٥٤٩ بلفظ : هم أصحاب محمد ﷺ ، وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم . وسيذكره المصنف عند تفسير الآية عن ابن عباس .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣١ . وقول سيبيويه في الكتاب ٢/٦٢ - ٦٣ .

(٤) ٢٠٢/١

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هو قوله: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فهو المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى^(١). ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأمر خلقه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قَطْرِ وغيره، كما قال: ﴿مَسَلَكُهُ يَنْبِيعُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ومن الكنوز والدفائن والأموال وما هي له كِفَاتٌ^(٢). ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق، والأرزاق والمقادير والبركات. وقرأ علي بن أبي طالب: «وما نُنْزَلُ» بالنون والتشديد^(٣). ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد؛ قاله الحسن وغيره^(٤). ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قيل: المراد أهل مكة؛ قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللآلئ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا تُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وروى هارون عن طلح المعلم

(١) في (ظ): للدنيا.

(٢) مصدر كفت، ومعنى كَفَتَ الشيء، أي: ضَمَّهُ إليه وقبضه. القاموس (كفت).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢١، والكشاف ٢٧٩/٣.

(٤) ذكره البغوي ٥٤٨/٣، والزمخشري في الكشاف ٢٧٩/٣ دون نسبة.

قال: سمعتُ أشياءنا يقرؤون: «قل بلى وربِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ» بياء^(١)، حَمَلوه على المعنى، كأنه قال: لَيَأْتِيَنَّكُمْ البعث، أو أمره، كما قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

فهؤلاء الكفار مُقَرَّوْنَ بالابتداء مُنْكَرُونَ الإعادة، وهو نقضٌ لِمَا اعترفوا به من القدرة^(٢) على البعث، وقالوا: وإنْ قَدَرَ لا يفعل. فهذا تحكُّمٌ بعد أن أخبر على السنة الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيء هو^(٣) ممكنٌ في الفعل مقدورٌ، فتكذيبٌ من وجَبَ صدقه مُحال.

﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن عامر^(٤) على الابتداء، وخبره: «لا يَعْرِبُ عنه». وقرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ بالخفض^(٥)، أي: الحمد لله عالمٍ، فعلى هذه القراءة لا يَحْسُنُ الْوَقْفُ على قوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ». وقرأ حمزة والكسائي: «عَلَامُ الغيب» على المبالغة والنعت^(٦).

﴿لَا يَعْرِبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيبُ عنه، «وَيَعْرِبُ» أيضاً. قال الفراء^(٧): والكسرُ أحبُّ إليَّ. النحاس: وهي قراءة يحيى بن وثاب، وهي لغةٌ معروفة. يقال: عَرَبَ يَعْرِبُ وَيَعْرِبُ. إذا بَعُدَ وغاب^(٨).

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١، والمحتسب ١٨٦/٢، والبحر ٢٥٧/٧، ووقع في المحتسب: طليق، بدل: طلق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة، والمثبت من (ظ).

(٣) في (د) و(م): وهو.

(٤) في النسخ: ابن كثير، وهو خطأ.

(٥) وهي قراءة ابن كثير أيضاً.

(٦) السبعة ص ٥٢٦، والتيسير ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٧) في معاني القرآن ٣٥١/٢.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣٩٣/٥، وقرأ: «يَعْرِبُ» بكسر الزاي الكسائي، والباقون بضمها. السبعة ص ٥٢٦، والتيسير ص ١٢٢.

﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: قَدْرُ نَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ وفي قراءة الأعمش: «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر» بالفتح فيهما^(١) عطفًا على «ذَرَّةٍ». وقراءة العامة بالرفع عطفًا على «مِثْقَالٍ».

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فهو العالمُ بما خَلَقَ، ولا يَخْفَى عليه شيء. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ منصوبٌ بلام كي، والتقدير: لَتَأْتِيَنَّكُمْ لِيَجْزِيَ^(٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالشواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي: في إبطالِ أَدِلَّتِنَا والتكذيبِ بآياتنا. ﴿مُعْجِزِينَ﴾: مُسَابِقِينَ يحسبون أنهم يَفُوتُونَنَا، وأنَّ الله لا يَقْدِرُ على بعثهم في الآخرة، وظنوا أَنَا نُهْمَلُهُمْ، فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ يقال: عاجزه وأعجزه: إذا غلبه وسبَّقه.

و«أليم» قراءة نافع بالكسر^(٣) نعتاً للرَّجْزِ؛ فَإِنَّ الرَّجْزَ هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩]. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم: ﴿عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ﴾ برفع «الميم» هنا وفي «الجاثية»^(٤) نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحِصِّنٍ وَحُمَيْدُ بْنُ قَيْسٍ ومجاهد وأبو عمرو: «مُعْجِزِينَ»^(٥) أي: مُبْطِلِينَ، أي: ثَبَطُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَآيَاتِ الْقُرْآنِ.

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ .

(٣) وقرأ بها أيضاً من السبعة أبو عمرو وابن عامر وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. السبعة ص ٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) في الآية (١١) منها . السبعة ص ٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٥) السبعة ص ٤٣٩ ، والتيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير وأبي عمرو .

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي إِبْطَالِ النُّبُوَّةِ؛ بَيَّنَّ أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يَرَوْنَ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ. قَالَ مِقَاتِلُ: «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» هُم مُّؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُم أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ^(١). وَقِيلَ: جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَصَحُّ لِعُمُومِهِ.

وَالرُّؤْيَةُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَطْفًا عَلَى «لَيَجْزِي»، أَي: لَيَجْزِي وَلَيَرَى؛ قَالَه الرَّجَّاجُ وَالْفَرَّاءُ^(٢). وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: «لَيَجْزِي» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «لَتَأْتِيَنَّكُمُ السَّاعَةُ»، وَلَا يُقَالُ: لَتَأْتِيَنَّكُمُ السَّاعَةُ لَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْقُرْآنَ حَقًّا وَإِنْ لَمْ تَأْتِهِمُ السَّاعَةُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ رَفَعَ عَلَى الْإِسْتِنَافِ؛ ذَكَرَهُ الْقَشِيرِيُّ.

قُلْتُ: وَإِذَا كَانَ «لَيَجْزِي» مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى: أَثْبَتَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، فَيَحْسُنُ عَطْفُ «وَيَرَى» أَي: وَأَثْبَتَ أَيْضًا لَيَرَى^(٣) الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا.

﴿الَّذِي﴾ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ لـ «يَرَى»، وَ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ. وَ«هُوَ» فَاصِلَةٌ، وَالْكَوْفِيُّونَ يَقُولُونَ: عِمَادٌ، وَيَجُوزُ الرُّفْعُ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، وَ«الْحَقُّ» خَبَرُهُ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي. وَالنَّصَبُ أَكْثَرُ فِيمَا كَانَتْ فِيهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ عِنْدَ جَمِيعِ النُّحَوِيِّينَ، وَكَذَا مَا كَانَ نَكْرَةً لَا يَدْخُلُهُ الْأَلْفُ وَاللَّامُ، فَيَشْبَهُ الْمَعْرِفَةُ. فَإِنْ كَانَ الْخَبَرُ اسْمًا مَعْرُوفًا نَحْوَ قَوْلِكَ: كَانَ أَخُوكَ هُوَ زَيْدٌ، فَزَعَمَ الْفَرَّاءُ أَنَّ الْإِخْتِيَارَ فِيهِ الرُّفْعُ، وَكَذَا: كَانَ [أَبُو] مُحَمَّدٌ هُوَ عَمْرُو. وَعَلَّتُهُ فِي إِخْتِيَارِهِ الرُّفْعُ: أَنَّهُ

(١) لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٢١٤/١٩ عَنْ قَتَادَةَ، وَيَنْظُرُ مَا سَلَفَ ص ٢٥٨ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنَ لِلْفَرَّاءِ ٣٥٢/٢، وَمَعَانِي الْقُرْآنَ لِلرَّجَّاجِ ٢٤١/٤.

(٣) فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ: رُؤْيَا، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (م).

لَمَّا لَمْ تَكُن فِيهِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ أَشْبَهَ النُّكْرَةَ فِي قَوْلِكَ: كَانَ زَيْدٌ هُوَ جَالِسٌ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ فِيهِ إِلَّا الِرْفَعُ^(١).

﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: يهدي القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دينُ الله. ودلَّ بقوله: «العزیز» على أنه لَا يُعَالَبُ. وبقوله: «الحمید» على أنه لَا يَلِيْقُ به صِفَةُ الْعَجْزِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ وإن شئت أدغمت اللام في النون لقربها منها^(٢). ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ﴾ هذا إخبارٌ عَمَّنْ قَالَ: «لا تأتينا الساعة» أي: هل نُرشدُكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي: يقول لكم: إنكم تُبعثون بعد البلى في القبور. وهذا صادرٌ عن قُرْطٍ إنكارهم.

الرَّمْخَشَرِيُّ^(٣): فإن قلت: كان رسولُ الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يُدَلُّ على مجهولٍ في أمرٍ مجهول.

قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ^(٤) والهُزْءَ والسُّخْرِيَّةَ، فأخرجوه مخرجَ التَّحْكِي^(٥) ببعض الأحاجي التي يُتَحَاجَى بها للضحك والتلهي، مُتَجَاهِلِينَ به وبأمره.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢ . وما سلف بين حاصرتين منهما .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ ، وأدغمها الكسائي .

(٣) في الكشف ٣/ ٢٨١ .

(٤) أي : السخرية . القاموس (طنز) .

(٥) في (ظ) : التحاكي ، وفي الكشف : التحلي .

و«إذا» في موضع نصب، والعاملُ فيها: «مُرَّقَّتُمْ»؛ قاله النحاس^(١)، ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها «يُنَبِّئُكُمْ»؛ لأنه ليس يُخْبِرُهُم ذلك الوقت. ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها ما بعد «إِنَّ»، لأنه لا يعملُ فيما قبله، و«إِنَّ» لا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولُها. وأجاز الزجاج^(٢) أن يكون العاملُ فيها محذوفاً، التقدير: إذا مَرَّقَّتُمْ كُلَّ مَمَرِّ بُعْثْتُمْ، أو ينبئكم بأنكم تُبْعَثُونَ إذا مَرَّقَّتُمْ.

المهدويُّ: ولا يعملُ فيه «مُرَّقَّتُمْ»؛ لأنه مُضَافٌ إليه، والمضافُ إليه لا يعملُ في المضاف. وأجازه بعضهم على أن تُجعل «إذا» للمجازاة، فيعملُ فيها حينئذٍ ما بعدها لأنها غيرُ مُضَافَةٍ إليه. وأكثرُ ما تقع «إذا» للمجازاة في الشعر. ومعنى «مُرَّقَّتُمْ كُلَّ مَمَرِّ»؛ فَرَّقْتُمْ كُلَّ تَفْرِيقٍ. والمَرَّقُ: خرقُ الأشياء؛ يقال: ثوبٌ مَرِيقٌ وممزوقٌ ومتمزَّقٌ وممزَّق.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لَمَّا دخلت ألفُ الاستفهام استغْنيت عن ألفِ الوصل فحذفتها، وكان فتحُ ألفِ الاستفهام فرقاً بينها وبين ألفِ الوصل^(٣). وقد مضى هذا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ [الآية: ٧٨] مستوفى.

﴿أَمْ بِهِ جُنَّةٌ﴾ هذا مردودٌ على ما تقدّم من قول المشركين، والمعنى: قال

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٤١. قال ابن عطية في المحرر الجوزي ٤/ ٤٠٦: وهو خطأ وإفساد للمعنى. وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩ بأنه ليس بخطأ ولا إفساد للمعنى، وأن الصحيح أن إذا الشرطية يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط. قال السمين في الدر المنصون ٩/ ١٥٤: لكن الجمهور على خلافه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٢٤٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣.

المشركون: أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا - والافتراء: الاختلاق - أَمْ بِهِ جِنَّةٌ، أي: جنونٌ، فهو يتكلم بما لا يدري. ثم رَدَّ عليهم فقال: ﴿يَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا، بل هو أصدقُ الصادقين، وَمَنْ يُنْكِرِ الْبَعْثَ فهو غداً في العذاب، واليوم في الضلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبة الافتراء إلى مَنْ أَيْدِه بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا خَسِيفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١﴾﴾

أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَعَلَى تَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ لَهُمْ، فَاسْتَدَلَّ بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِلْكُهُ، وَأَنَّهِنَّ مُحِيطَتَانِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَكَيْفَ يَأْمَنُونَ الْخَسْفَ وَالْكَسْفَ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ وَأَصْحَابِ الْاَيْكَةِ؟!

وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطَ﴾ بِالْيَاءِ فِي الثَّلَاثِ، أَي: إِنْ يَشَأْ اللَّهُ أَمَرَ الْأَرْضَ فَتَنْخَسِفَ بِهِمْ، أَوْ السَّمَاءُ فَتُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا. الْبَاقُونَ بِالنُّونِ عَلَى التَّعْظِيمِ^(١).

وَقَرَأَ السُّلَمِيُّ وَحَفْصٌ: ﴿كِسْفًا﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ. الْبَاقُونَ بِالْإِسْكَانِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي «سَبْحَانَ» وَغَيْرِهَا^(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَي: فِي هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قُدْرَتِنَا «لَآيَةً» أَي: دَلَالَةً ظَاهِرَةً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أَي: تَائِبٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ. وَخَصَّ الْمُنِيبَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْتَفِعُ بِالْفِكْرَةِ فِي حُجْجِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ.

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) ١٣/١٧٥ وعند تفسير الآية (١٨٧) من سورة النمل. وينظر السبعة ص ٣٨٥ والتيسير ص ١٦٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ
الْحَدِيدَ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بَيَّنْ لِمُنْكَرِي نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ إِرسَالَ الرُّسُلِ لَيْسَ أَمْرًا
يَذْعَا، بَلْ أَرْسَلْنَا الرُّسُلَ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَأَحْلَلْنَا بِمَنْ خَالَفَهُمُ الْعِقَابَ. «آتَيْنَا»:
أَعْطَيْنَا. ﴿فَضْلًا﴾ أَي: أَمْرًا فَضَّلْنَاهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ.

واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأول: النبوة.

الثاني: الزبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس؛ قال الله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥].

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿بَنَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾

الآية [ص: ٢٦].

الثامن: إِيْلَانَةُ الحديد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾.

التاسع: حُسْنُ الصَّوْتِ، وَكَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَا صَوْتٍ حَسَنٍ وَوَجْهِ حَسَنٍ.

وَحُسْنُ الصَّوْتِ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَفْضُلٌ مِنْهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] عَلَى مَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ ﷺ لِأَبِي

مُوسَى: «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(١). قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمِزْمَارُ وَالْمِزْمُورُ:

الصَّوْتُ الْحَسَنُ، وَبِهِ سَمِّيَتْ آلَةُ الزَّمْرِ مِزْمَارًا^(٢). وَقَدْ اسْتَحْسَنَ كَثِيرٌ مِنْ فُقَهَاءِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٤٨)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٣): (٢٣٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ

(٢٢٩٦٩)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٣): (٢٣٥) مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الْمَفْهُومُ ٤٢٣/٢.

الأمصار القراءة بالتزيين والترجيح^(١)، وقد مضى هذا في مقدّمة الكتاب^(٢)،
والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾ أي: وقلنا: يا جبالُ أوبي معه، أي: سبّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة^(٣)، ومعنى تسبيح الجبال: هو أن الله تعالى خلّق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسيح، معجزة لداود عليه الصلاة والسلام^(٤).

وقيل: المعنى: سيّري معه حيث شاء، من التأويب الذي هو سيرُ النهار أجمع وينزل الليل. قال ابن مقبل:

لَحِقْنَا بِحَيٍّ أَوَّبُوا السَّيْرَ بَعْدَ مَا دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفَ مُجْنَحَ^(٥)
وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أوبي مَعَهُ» أي: ارجعي معه^(٦)، من آب يؤوب: إذا رجع، أوباً وأوبة وإياباً.

وقيل: المعنى: تصرّفي معه على ما يتصرّف عليه داودُ بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوّت الجبالُ معه، وأصغّت إليه الطيرُ، فكانها فعلت ما فعل.

وقال وهب بن منبه: المعنى: نُوحِي معه، والطيرُ تساعده^(٧) على ذلك، فكان إذا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٥٨٤، وفيه: بالألحان والترجيح.

(٢) ٢١/١.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٢٢٠، وأبو ميسرة هو عمرو بن شريحيل الهمداني.

(٤) الكشف ٣/٢٨١.

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٣، والمحمر الوجيز ٤/٤٠٧، والبيت في ذيل ديوان تميم بن مقبل رقم (١٤). وذكره صاحب منتهى الطلب من أشعار العرب ٦/٤٦ عن الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٣٩. ووقع في (م): يجنح، وهو موافق لما في تفسير الغريب.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢١، والمحمر الوجيز ٤/٤٠٧، قال ابن عطية: أي: في السير، أو في التسبيح.

(٧) في النسخ الخطية: تسعده، والمثبت من (م).

نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه. فصدى الجبال الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة^(١)، فأيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة، فإذا دخلت الفترة اهتاج، أي: ثار وتحرك، وقوي بمساعدة الجبال والطير. وكان قد أعطي من الصوت ما تتزاحم الوحوش من الجبال على حُسن صوته، وكان الماء الجاري ينقطع عن الجري وقوفاً لصوته.

«وَالطَّيْرُ» بالرفع قراءة ابن أبي إسحاق، ونصر عن عاصم، وابن هُرْمُز، ومسلمة ابن عبد الملك^(٢)، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمر في «أُوبِي»، وحسنه الفصل بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع «يا جبال» أي: نادينا الجبال والطير؛ قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعل، على معنى: وسخرنا له الطير. وقال الكسائي: هو معطوف، أي: وآتيناه الطير، حملاً على «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا». النحاس^(٣): ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة. وسمعت الزجاج يُجيز: قمتُ وزيداً، فالمعنى: أُوبِي معه ومع الطير^(٤).

«وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ» قال ابن عباس: صار عنده كالشمع^(٥). وقال الحسن: كالعجين^(٦)، فكان يعملُه من غير نار. وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يُصَرِّفه كيف شاء، من غير إدخال نارٍ ولا ضربٍ بمطرقة^(٧). وقاله مقاتل. وكان يَفْرَغُ من الدرع في بعض اليوم أو بعض الليل،

(١) هذا كلام يناقض سنة الله في كونه، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤، والمحور الوجيز ٤/ ٤٠٧ وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٨٨.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧.

(٧) في (ظ): مطرقة.

ثمنها ألف درهم.

وقيل: أعطِيَ قوةً يَنْثِي بها الحديد، وسَبَبَ ذلك: أَنَّ داود عليه السلام لَمَّا مَلَكَ بني إسرائيل؛ لَقِيَ مَلَكًا وداودُ يَظُنُّه إنسانًا، وداودُ مُتَنَكِّرٌ؛ خرج يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خَفَاءٍ، فقال داودُ لذلك الشخص الذي تَمَثَّلَ له: ما قولك في هذا الملك داود؟ فقال له الملكُ: نِعَمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه. قال داودُ: وما هي؟ قال: يَرْتَزِقُ من بيت المال، ولو أَكَلَ من عَمَلِ يده لَتَمَثَّ فضاءلُه. فرجع، فدعا الله في أَنْ يَعْلَمَه صِنْعَةً وَيَسَهِّلَهَا عليه، فعَلَّمَه صِنْعَةَ لَبَوسٍ كما قال جلٌّ وعزٌّ في سورة الأنبياء، فَأَلَانَ له الحديدَ، فصنع الدُّرُوعَ، فكان يصنع الدُّرْعَ فيما بين يومه وليلته يساوي ألفَ درهمٍ، حتى ادَّخَرَ منها كثيرًا، وتوسَّعتْ معيشةُ منزله، وتَصَدَّقَ على الفقراء والمساكين، وكان يُنْفِقُ ثلثَ المالِ في مَصَالِحِ المسلمين^(١). وهو أوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الدُّرُوعَ وصَنَعَهَا وكانت قبل ذلك صفائحَ. ويقال: إنه كان يبيع كلَّ درعٍ منها بأربعة آلاف^(٢). والدُّرْعُ مؤنثةٌ إذا كانت للحرب، ودرعُ المرأةِ مُذَكَّرٌ^(٣).

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهل الفضلِ الصَّنَاعَ، وأنَّ التحرُّفَ بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادةٌ في فضلهم وفضاءلهم؛ إذ يحصلُ لهم التواضعُ في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكَسَبُ الحلالِ الخَلِيٍّ عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ خَيْرَ مَا أَكَلَ المرءُ مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ داودَ كان يأكلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(٤). وقد مضى هذا في «الأنبياء»^(٥) مُجَوِّدًا، والحمد لله.

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٠٧ - ٤٠٨، وبنحوه في عرائس المجالس ص ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/٥٥٠.

(٢) عرائس المجالس ص ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/٥٥٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٤.

(٤) صحيح البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدم ﷺ، و(٢٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف

١٠/١٦١.

(٥) ١٤/٢٥٤.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١)

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ﴾ أي: دروعاً سابغات، أي: كَوَامِلَ تَامَاتٍ واسعات؛ يقال: سَبَغَ الدُّرْعُ والثوبُ وغيرُهما: إذا غَطَّى كُلَّ ما هو عليه وَفَضَلَ منه. ﴿وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدُّرْعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ، فكانت ثِقَالاً؛ فلذلك أُمِرَ هو بالتقدير فيما يجمع بين (١) الخِفَّةِ والحِصَانَةِ. أي: قَدَّرَ ما تأخذ من هذين المَعْنَيْنِ بِقِسْطِهِ، أي: لا تَقْصِدِ الحِصَانَةَ فَتَثْقُلَ، ولا الخِفَّةَ فَتُزِيلَ المَنْعَةَ.

وقال ابن زيد: التقديرُ الذي أُمِرَ به هو في قَدْرِ الحَلْقَةِ، أي: لا تَعْمَلُهَا صَغِيرَةً فَتَضْعُفَ، فلا تَقْوَى الدُّرْعُ على الدفاع، ولا تَعْمَلُهَا كَبِيرَةً فَيُنَالَ لِبْسُهَا [من خلالها] (٢).

وقال ابن عباس: التقديرُ الذي أُمِرَ به هو في المِسمارِ، أي: لا تجعل مِسمارَ الدرع رقيقاً فَيَقْلَقَ، ولا غليظاً فَيَقْصِمَ الحَلْقَ (٣). روي «يَقْصِمُ» بالقاف، والفاء أيضاً رواية (٤).

﴿فِي السَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نَسْجُ حَلَقِ الدروع، ومنه قيل لصانع الدروع: السَّرَادُ والزَّرَادُ، تُبَدَّلُ من السِّينِ الزاي، كما قيل: سِرَاطٌ وَزِرَاطٌ. والسَّرْدُ: الخَرْزُ، يقال: سَبَرَدَ يَسْرُدُ: إذا خَرَزَ. والمِسرَدُ: الإِسْفَى (٥)، ويقال: سِرَاد. قال الشَّماخ:

(١) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمحذر الوجيز ٤/٤٠٨، والكلام منه.

(٢) المحذر الوجيز ٤/٤٠٨، وما بين حاصرتين منه، وأخرج قول ابن زيد وقول قتادة الطبري ١٩/٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٢٧. وقوله: فيقلق، أي: لا يستقر ولا يثبت. اللسان (قلق). وعلقه البخاري كما في الفتح ٦/٤٥٣ عن مجاهد قال: لا تَرُقَّ المِسمارِ فيسلس، ولا تعظم فينقصم. قال الحافظ: معناه: فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج.

(٤) المحذر الوجيز ٤/٤٠٨.

(٥) وهو يَنْقُبُ الإسكاف، جمعها: الأشافي. معجم متن اللغة (أشف).

فَظَلَّتْ تَبَاعاً خَيْلُنَا فِي بَيْوتِكُمْ كما تابعت سرَدَ العِنانِ الخَوَارِزُ^(١)
والسَّرَادُ: السَّيْرُ الذي يُخْرَزُ به؛ قال لبيد:

يَشْكُ صِفَاحُهَا بِالرَّوْقِ شَزْراً كما خرج السَّرَادُ مِنَ النُّقَالِ^(٢)

ويقال: قد سرَدَ الحديثَ والصومَ، فالسرَدُ فيهما: أن يجيء به ولاءً في نسقٍ واحد، ومنه سرد الكلام. وفي^(٣) حديث عائشة: لم يكن النبي ﷺ يسرُدُ الحديثَ كسرِدِكُمْ، وكان يحدث الحديث لو أراد العادُ أن يعُدّه لأخصّاه^(٤). قال سيبيويه^(٥): ومنه: رجلٌ سرَنَدَى، أي: جريء، قال: لأنه يمضي قُدماً. وأصلُ ذلك في سرَدِ الدَّرْعِ، وهو أن يُحَكِّمَهَا ويجعل نظامَ حَلَقِهَا ولاءً غيرَ مختلفٍ. قال لبيد:

صَنَعَ الحَديدَ مُضَاعَفاً أسْراده لينال طولَ العيشِ غيرَ مَرُومٍ^(٦)
وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعَ السَّوَابِغِ تُبَعُّ^(٧)
﴿وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا﴾ أي: عملاً صالحاً. وهذا خطابٌ لداودَ وأهلِهِ. كما قال:
﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا: ١٣]. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) ديوان الشماخ ص ١٩٤ برواية: شَكَّنَ بِأَحْسَاءِ الذَّنَابِ عَلَى هُدَى - كما تابعت ... يصف أُنثَى وَرَدَنَ وَحَسَّنَ بِالصَّائِدِ فَتَفَرَّنَ عَلَى تَتَابُعٍ وَاسْتِقَامَةٍ. اللسان (عرق). وذكر ابن قتيبة عجزه في غريب القرآن ص ٣٥٤، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسخ الخطية: النعال، والمثبت من (م) وشرح ديوان لبيد ص ٧٩. وقال الشارح: يشك: يطعن (وهو الثور) صفاحها: جنوبها. والرَّوْق: القَرْن. شَزْراً: جانباً. والنقال واحداً نُقِلَ: وهو النعل الخَلَقُ تُرْفَعُ فَتُخْرَزُ.

(٣) في (ظ): ومنه.

(٤) أخرج أوله أحمد (٢٤٨٦٥)، ومسلم (٢٤٩٣)، وعلقه البخاري (٣٥٦٨). وأخرجه من قوله: وكان يحدث الحديث.... البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد (٢٤٩٣): (٧١).

(٥) في الكتاب ٣٢٣/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣٩٧/٥.

(٦) ديوان لبيد ص ١٠٩ برواية: صنع الحديد لحفظه أسراده...، قوله: غير مَرُوم، قال شارح الديوان: أي: لينال طول العيش وهو لا يُرام.

(٧) سلف ٣٣٦/٢.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رَبِّيهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نُدْخِلُهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قال الزجاج^(١): التقدير: وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: «الرَّيحُ» بالرفع^(٢) على الابتداء، والمعنى: له تسخير الريح، أو بالاستقرار، أي: وسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول. فإن قال قائل: إذا قلت: أعطيت زيدا درهماً ولعمرو ديناراً، فرفعته لم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تُعطه الدينار. قيل: الأمر كذا؛ ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى؛ لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل^(٣).

﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ أي: مسيرة شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمُسرع، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للمُسرع^(٤). قال السدي: كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين^(٥).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نُصبت حواليه أربع مئة ألف كرسي، ثم جلس رؤساء الإنس ممّا يليه، وجلس سفلة الإنس ممّا يليهم، وجلس رؤساء الجنّ ممّا يلي سفلة الإنس، وجلس سفلة الجنّ ممّا يليهم، وموكل بكل كرسي طائر لعملٍ قد عرفه، ثم تُقلهم الريح، والطير تُظللهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر [فيقيل بها، ثم يروح من إصطخر] فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾^(٦).

(١) في معاني القرآن ٤/٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٣٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٥.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/١٢٧، والطبري ١٩/٢٢٨. وإصطخر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/٢١١.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/٢٢٧ عن قتادة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/٢٢٧ عن مجاهد.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦، والطبري ١٨/٣٠.

وقال وهب بن منبه: ذكر لي أنَّ منزلاً بناحية دجلة مكتوباً فيه - كتبه بعض صحابة سليمان؛ إما من الجن وإما من الإنس - : نحن نزلناه^(١) وما بنيناه، ومبنيًا وجدناه، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن راثون منه إن شاء الله تعالى فباتون في الشام^(٢).

وقال الحسن: شغلت سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيراً منها وأسرع، أبدله الريح تجري بأمره حيث شاء، غدوها شهر ورواحها شهر^(٣).

وقال ابن زيد: كان مستقر سليمان بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصَّفاح والعمد والرَّخام الأبيض والأصفر^(٤)، وفيه يقول النابغة:

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ^(٥) لَهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْذُذْهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَحَيْسِ الْجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمَرَ بِالصُّفَّاحِ وَالْعَمَدِ
فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعُهُ بِطَاعَتِهِ كَمَا أَطَاعَكَ وَادَّلُهُ عَلَى الرَّشَدِ
وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبْهُ مُعَاقِبَةً تَنْهَى الظُّلُومَ وَلَا تَقْعُدْ عَلَى ضَمَدٍ^(٦)
ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض كسكر^(٧)، أنشأهن بعض

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: نزلنا.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٧/١٩، وابن أبي حاتم ٢٨٥٦/٩.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٢٣٩/٢٢ - ٢٤٠، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٠٤، والبيهقي ٢٥٥/٣، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣١٤/٥ لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) عرائس المجالس ص ٣٠٤، والصَّفَّاح: حجارة عراض رقائق. القاموس (صفح).

(٥) في (ظ): المليك.

(٦) ديوان النابغة ص ٣٣، وذكر البغدادي في الخزائن ٤٠٥/٣ البيت الأول وقال: قوله: فاحذذها، أي: امنع البرية، والحد: المنع. والفند: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ. وقوله: حيس، أي: دُلِّل. والضمد: الحقد. القاموس (حيس) و(ضمد).

(٧) في (د) و(م): يشكر، والمثبت من باقي النسخ، وعرائس المجالس ص ٣٠٤، والكلام منه، وكسكر مكان بالعراق. ينظر معجم البلدان ٤٦١/٤.

أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حول سوى حول ربنا
إذا نحن رُحنا كان رَيْثُ^(١) رَوَاحِنَا
أناس شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسهم
لهم في معالي الدين فضل ورأفة
متى يركبوا الريح المطيعة أسرع
تظللهم طير صفوف عليهم
نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
مسيرة شهر والغدو لآخر
بنضر ابن داود النبي المظهر
وإن نُسبوا يوماً فمن خير معشر
مبادرة عن شهرها لم تقصر
متى رفرقت من فوقهم لم تنقر

قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمْعَ عَيْنِ الْقَطْرِ﴾ القَطْر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره^(٢).
أُسِيت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس
فيما روي لأحد قبله، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب، وإنما ينتفع الناس اليوم بما
أخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملها فيما يريد^(٣). وقيل
لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري^(٤)!

وقال ابن عباس ومجاهد والسدي: أُجريت له عينُ الصُّفر ثلاثة أيام بلياليهن^(٥)؛
قال القشيري: وتخصيصُ الإسالة بثلاثة أيام لا يُدرى ما حده، ولعله وهم من
الناقل؛ إذ في رواية عن مجاهد: أنها سالت من صنعاء ثلاث ليالٍ مما يليها، وهذا
يشير إلى بيان الموضع، لا إلى بيان المدة. والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في

(١) في عرائس المجالس: أمر، والرَّيْث: المقدار. القاموس (ريث).

(٢) تفسير الطبري ٢٢٨/١٩ - ٢٢٩.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣٩٨/٥ بلفظ: أسال الله له عيناً من نحاس، أي: سالت وظهرت، فكان يستعملها فيما يريد.

(٤) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٢٢٨/٥.

(٥) أخرجه عن السدي ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٢٢٨/٥، ولم نقف عليه عن ابن عباس ومجاهد. والصُّفر هو النحاس، أو النحاس الجيد. معجم متن اللغة (صفر).

معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوته.

قال الخليل: القطر: النحاس المذاب^(١).

قلت: دليله قراءة مَنْ قرأ: «مِنْ قَطِرِ آي»^(٢).

﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ ذُنُوبُهُ﴾ أي: بأمره ﴿وَمَنْ يَزِيغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة؛ قاله أكثر المفسرين^(٣).

وقيل: ذلك في الدنيا، وذلك أَنَّ الله تعالى وكَّلَ بهم - فيما روي عن السُّدِّيِّ - ملكاً بيده سوط من نار، فَمَنْ زاغ عن أمر سليمان ضَرَبَهُ بذلك السوط ضربةً من حيث لا يراه، فأُحرقتة^(٤).

و«مَنْ» في موضع نصبٍ بمعنى: وسَخَرْنَا لَهُ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ. ويجوز أن يكون في موضع رفع، كما تقدَّم في الريح^(٥).

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِيْلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيْلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُوْرُ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِيْلٍ﴾ المحرابُ في اللغة: كلُّ موضعٍ مُّرتفع. وقيل للَّذِي يَصْلَىٰ فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يُرفع وَيُعْظَم^(٦). وقال

(١) العين ٩٥/٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٠ ، والمحتسب ٣٦٦/١ ، وسلفت ١٧٢/١٢ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة إبراهيم.

(٣) الوسيط ٤٨٩/٣ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤٣٨/٤ عن الضحاك، والزمخشري في الكشاف ٢٨٢/٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الكشاف ٢٨٢/٣ ، وتفسير البيهقي ٥٥١/٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٣٥/٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣٣٦/٣ .

الضحاك: «مِنْ مَحَارِبٍ» أي: من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاربُ دون القصور^(١). وقال أبو عبيدة: المحاربُ: أشرفُ بيوتِ الدار^(٢)، قال: وماذا عليه أن ذكرْتُ أَوَانِساً كغزلانٍ زُمِّلٍ في محاربٍ أقبالٍ^(٣) وقال عدي بن زيد:

كذُمِّي العاجِ في المحاربِ أو كالـ بيض في الرّوضِ زهره مُسْتَنِيرٌ^(٤)
وقيل: هو ما يُرْفَى إليه بالدَّرَج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ سَوَّرُوا آلَ مِحْرَابٍ﴾ [ص: ٢١] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١] أي: أشرفَ عليهم.

وفي الخبر: أنه أمر أن يُعمل حولَ كرسيِّه ألفُ محرابٍ فيها ألفُ رجلٍ عليهم المسوحُ يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسيِّ في موكبِهِ والمحاربُ حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سَبِّحُوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: هَلِّلُوهُ إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: كَبِّرُوهُ إلى ذلك العَلَم الآخر، فتَلَجَّ الجنودُ بالتسبيحِ والتهلِيلِ لَجَّةً واحدة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَمَثَّلَ﴾ جمع تمثال. وهو كلُّ ما صُوِّر على مثلِ صورةٍ غيره من حيوانٍ أو غيرِ حيوان. وقيل: كانت من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيلُ أشياء ليست بحيوان.

وذكر أنها صورُ الأنبياء والعلماء، وكانت تصوَّر في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادةً واجتهاداً؛ قال ﷺ: «إِنَّ أَوْلَئِكَ كَانَ^(٥) إذا مات فيهم الرجلُ الصالح

(١) أخرج أقوالهم الطبري ١٩/٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) بنحوه في النكت والعيون ٤/٤٣٨، وفي مجاز القرآن ٢/١٤٤ لأبي عبيدة: المحارب: مقدَّم كلِّ مسجد ومصلًى وبيت.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٤. قال شارحه: الأقبال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويربونها، ومعنى قوله: أن ذكرْتُ أوانِساً، أي: ما عليه في أن شَبَّتَ بهنَّ وطَرَبْتُ إليهنَّ.

(٤) الكامل للمبرد ٢/٩٤٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/٣٦٠، والبيان والتبيين ١/٤٥، والمحمر الوجيز ٤/٢٩٤.

(٥) في (ظ): كانوا.

بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوِّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ^(١). أَي: لِيَتَذَكَّرُوا عِبَادَتَهُمْ فَيَجْتَهِدُوا فِي الْعِبَادَةِ.

وهذا يدلُّ على أَنَّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونُسَخ ذلك بشرع محمد ﷺ. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة نوح إن شاء الله تعالى^(٢).

وقيل: التماثيلُ طَلَّسُمَات^(٣) كان يعملُها، ويُحَرِّمُ على كلِّ مصوِّر^(٤) أن يتجاوزها، فلا يتجاوزها، فيعمل تماثلاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزوه واحد أبداً^(٥) ما دام ذلك التمثال قائماً. وواحدُ التماثيل تماثلاً بكسر التاء؛ قال:

وَيَا رَبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةً بِأَنْسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَالٍ^(٦)

وقيل: إِنَّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخَذَهُمْ مِنْ نَحَاسٍ، وسأل رَبَّهُ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ لِيَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحِيكَ فِيهِمُ السِّلَاحُ، ويقال: إِنَّ إِسْفَنْدِيَارَ كانَ مِنْهُمْ^(٧)، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٢)، والبخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وتمتته: «... فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وسلف ٢/٢٩٤.

(٢) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

(٣) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحداها: طَلَّسَم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٤) في (خ): مصر.

(٥) في (ظ): ويأمرهم ألا يتجاوزوه مرة واحدة أبداً.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٢٩. قال شارحه: قوله: بِأَنْسَةٍ، أَي: بِامْرَأَةِ ذَاتِ أَنْسٍ. وقوله: خَطٌّ تَمَثَالٍ، أَي: نقش صورة، وإنما شبهها بالتمثال لأن الصانع له يتأق في تحسينه.

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١١٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: فلا يحيك، أَي: فلا يؤثّر. القاموس (حاك). قال الألوسي في روح المعاني ١١٩/٢٢: وهذا من العجب العجائب، ولا ينبغي لأحد اعتقاد صحته، وما هو إلا حديثُ خرافة.

بَسَطَ الْأَسْدَانُ لَهُ ذِرَاعَيْهِمَا ، وَإِذَا قَعْدَ أَطْلَقَ النَّسْرَانِ أَجْنَحَتَهُمَا^(١).

الثالثة: حكى مكِّي في «الهداية» له: أن فرقة تجوز التصوير، وتحتج بهذه الآية.

قال ابن عطية^(٢): وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزُه.

قلت: ما حكاه مكِّي ذكره النحاس قبله؛ قال النحاس^(٣): قال قوم: عملُ الصور

جائز لهذه الآية، ولَمَّا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن المسيح^(٤). وقال قوم: قد صحَّ النهي

عن النبي ﷺ عنها، والتوعُّد لمن عمَلَهَا أو اتَّخَذَهَا، فنسخ الله عزَّ وجلَّ بهذا^(٥) ما

كان مباحاً قبله، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بُعث عليه الصلاة والسلام والصورُ

تُعبَد، فكان الأصلُ إزالتها.

الرابعة: التمثالُ على قسمين: حيوانٌ ومَوَات. والمواتُ على قسمين: جماذٌ

ونامٍ؛ وقد كانت الجنُّ تصنعُ لسليمان جميعه؛ لعموم قوله: «وتمائيل». وفي

الإسرائيليات: أن التماثيل من الطير كانت على كرسي سليمان.

فإن قيل: لا عموم لقوله: «وَتَمَائِيلَ» فإنه إثباتٌ في نكرة، والإثباتُ في النكرة لا

عموم له، إنما العمومُ في النفي في النكرة.

قلنا: كذلك هو، بيد أنه قد اقترن بهذا الإثباتُ في النكرة ما يقتضي حملَه على

العموم، وهو قوله: «ما يشاء» فاقترانُ المشيئة به يقتضي العموم له.

فإن قيل: كيف استجاز الصورَ المنهيَّ عنها؟^(٦)

(١) الكشاف ٢٨٢/٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤٠٩/٤، وما قبله منه. وكتاب مكِّي اسمه: الهداية إلى بلوغ النهاية. كشف الظنون ٢٠٤١/٢.

(٣) في إعراب القرآن ٣٣٦/٣.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَنَالِقُ لَكُم مِّنَ الْأَلْبَانِ كَهَيِّئَةِ الْكَلْبِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ حَلِيبًا يٰأَيُّهَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) في إعراب القرآن: فنسخ ﷺ.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ١٥٨٨/٤ (والكلام منه): كيف شاء عمل الصور المنهي عنها.

قلنا : كان ذلك جائزاً في شرعه، ونُسَخ ذلك بشرعنا كما بيَّنَّا، والله أعلم. وعن أبي العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً^(١).

الخامسة : مقتضى الأحاديث يدلُّ على أنَّ الصور ممنوعةٌ، ثم جاء : «إِلَّا ما كان رَقْماً في ثوب»^(٢)، فُخِصَّ من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة في الثوب [المصوَّر] : «أُخْرِيه عَنِّي، فَإِنِّي كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا». ثم يَهْتَكِيهِ الثوبُ المصوَّرَ على عائشة مَنَعَ منه، ثم بَقَطْعِهَا له وسادتين حتى تَغَيَّرَتِ الصُّورَةُ وخرجت عن هيئتها، بان^(٣) جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متَّصلةً الهيئة، ولو كان متَّصلةً الهيئة لم يَجْز؛ لقولها في الثَّمَرَةِ المصوَّرة: اشتريتها لك لتقعَّد عليها وتوسَّدها، فمَنَعَ منه، وتوعَّد عليه. وتبيَّن بحديث الصلاة إلى الصور أنَّ ذلك جائز في الرِّقْم في الثوب ثم نَسَخَه المَنعُ منه. فهكذا استقرَّ الأمر فيه، والله أعلم؛ قاله ابن العربي^(٤).

السادسة : روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا سِتْرٌ فيه تمثالٌ طائرٍ، وكان الدَّاخلُ إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ : «حَوِّلِي هذا، فَإِنِّي كُلَّمَا دَخَلْتُ فَرَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا». قالت : وكانت لنا قَطِيفَةٌ كُنَّا نَقُولُ : عَلَمُهَا حَرِيرٌ، فَكُنَّا نَلْبَسُهَا^(٥).

(١) الكشف ٢٨٢/٣.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٣٤٥)، والبخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه وأخرجه مالك في الموطأ ٩٦٦/٢، وأحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠)، والنسائي في المجتبى ٢١٢/٨ عن سهل بن حنيف رضي الله عنه. قال الترمذي : حديث حسن صحيح. والرِّقْم : النقش والوشي. النهاية (رقم). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ١٥٩٠/٤.

(٣) في (د) و(م) : فإن.

(٤) في أحكام القرآن ١٥٩٠/٤، وما بين حاصرتين منه. وقول عائشة رضي الله عنها في الثَّمَرَةِ المصوَّرة: اشتريتها لك...، قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧). (٩٦) عن عائشة رضي الله عنها. والثَّمَرَةُ : الرسادة، وهي يضم النون والراء وبكسرهما، جمعها : نمارق. النهاية (نمرق). وسيأتي تخريج ما ذكر من أحاديث في المسألة التالية.

(٥) صحيح مسلم (٢١٠٧) : (٨٨)، وهو عند أحمد (٢٤٢١٨).

وعنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مستترَةٌ^(١) بِقِرَامٍ فيه صورةٌ، فتلوّن وجهه، ثم تناول الستر فتهكّه، ثم قال: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وعنها: أنه كان لها ثوبٌ فيه تصاويرٌ ممدودٌ إلى سَهْوَةٍ، فكان النبي ﷺ يصلي إليه فقال: «أخبره عني» قالت: فأخبرته، فجعلته وسادتين^(٣).

قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكه عليه الصلاة والسلام الثوب وأمره بتأخيره وَرَعًا؛ لأنَّ محلَّ النبوة والرسالة الكمال. فتأملّه.

السابعة: قال المزيّني عن الشافعي: إنَّ دُعي رجلٌ إلى عُرْسٍ، فرأى صورةَ ذاتِ رُوحٍ، أو صوراً ذاتِ أرواحٍ، لم يدخل إن كانت منصوبةً. وإن كانت تُوطأ فلا بأس، وإن كانت صورُ الشجر [فلا بأس]. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلقة مكروهةٌ غيرُ محرمةٍ. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء^(٤).

واستثنى بعضهم ما كان رَقْماً في ثوبٍ؛ لحديث سهل بن حنيف^(٥).

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصوِّرين ولم يستثن^(٦). وقوله: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَعْذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(٧) ولم يَسْتثنِ؛ وفي الترمذي

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٨٨/١٤: في معظم النسخ: مستترَةٌ، وفي بعضها: مستتر، أي: متخذة سترًا.

(٢) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩١)، وهو عند أحمد (٢٥٦٣١)، والبخاري (٥٩٥٤) و(٦١٠٩).
والقِرَام: الستر الرقيق. النهاية (رقم).

(٣) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩٣)، وهو عند أحمد (٢٥٣٩٢) وفيهما: فجعلته وسائد. والسهوة: بيت صغير يشبه المَخْدَع، وقيل: هي شِبْهُ الطَّاقِي يُجْعَل فيه الشيء، وقيل: شبه الخزانة الصغيرة. المفهم ٤٢٦/٥.

(٤) التمهيد ٣٠٢/١، وما سلف بن حاصرتين منه.

(٥) سلف في بداية المسألة الخامسة.

(٦) سلف ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الخامسة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْرَجُ عُتُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذْنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمَصُورِينَ» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح^(١)؛ وفي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ»^(٢): يدلُّ على المنع من تصوير شيء، أي شيء كان. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ أَنْ تَتَّبِعُوا شَجَرَهَا﴾ [النحل: ٦٠] على ما تقدَّم بيَّأنه فاعلمه.

الثامنة: وقد استُثني من هذا الباب لُعبُ البنات، لِمَا ثبت عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُقَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ وَلُعبُهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً. وَعنها أيضاً قالت: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ لِي صَوَاحِبٌ يَلْعَبْنَ مَعِي، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَنْقِمِعْنَ مِنْهُ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي. خَرَّجَهُمَا مُسْلِمٌ^(٣). قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك، وحاجة البنات حتى يتدرَّبْنَ على تربية أولادهنَّ. ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يُصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له، فَرُخِّصَ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾^(٤) قال ابنُ عرفة: الجواب^(٥) جمعُ الجابية، وهي

(١) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وهو عند أحمد (٨٤٣٠). قوله: عُتُقٌ، أي: طائفة وجانب من النار. الترغيب والترهيب ٦٢٨/٣.

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٨).

(٣) في صحيحه (١٤٢٢): (٧١)، و(٢٤٤٠). والحديث الثاني عند أحمد (٢٤٢٩٨)، والبخاري (٦١٣٠). قولها: ينقمعن، أي: ينقبضن ويستترِزن حياة من النبي ﷺ وهيبة له. وقولها: يُسرِّبُهُنَّ، أي: يُرسلهن ويؤنسهن حتى يزول عنهنَّ ما كان أصابهنَّ.

(٤) في (ظ): كالجوابي، وهي قراءة ابن كثير من السبعة وصلاً ووقفاً، وأثبت الباء في الوصل ورش وأبو عمرو. السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٢.

(٥) في (م): الجوابي.

حُفِيرَةٌ كَالْحَوْضِ. وقال مجاهد: كحياض الإبل^(١). وقال ابن القاسم عن مالك: كالجُبَّةِ مِنَ الْأَرْضِ^(٢)، والمعنى متقارب، وكان يقعد على الجَفْنَةِ الواحدة ألف رجل. النَّحَّاسُ^(٣): «وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِي» الْأُولَى أَنْ تَكُونَ بِالْيَاءِ، وَمَنْ حَذَفَ الْيَاءَ قَالَ: سَبِيلُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ أَنْ تَدْخُلَ عَلَى النُّكْرَةِ فَلَا يَغَيِّرُهَا عَنْ حَالِهَا، فَلَمَّا كَانَ يُقَالُ: جَوَابٍ، وَدَخَلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ؛ أَقَرَّ عَلَى حَالِهِ، فَحَذَفَ^(٤) الْيَاءَ. وَوَاحِدُ الْجَوَابِي جَابِيَةٌ، وَهِيَ الْقِدْرُ الْعَظِيمَةُ، وَالْحَوْضُ الْعَظِيمُ الْكَبِيرُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الشَّيْءُ، أَيْ: يَجْمَعُ، وَمِنْهُ: جَبَيْتُ الْخَرَّاجَ، وَجَبَيْتُ الْجَرَادَ، أَيْ: جَعَلْتُ^(٥) الْكِسَاءَ فَجَمَعْتَهُ فِيهِ. إِلَّا أَنَّ لَيْثًا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الْجَوَابِي جَمْعُ جَوْبَةٍ. وَالْجَوْبَةُ: الْحَفْرَةُ الْكَبِيرَةُ تَكُونُ فِي الْجَبَلِ [يَجْتَمِعُ] فِيهَا مَاءُ الْمَطَرِ.

وقال الكسائي: جَبَوْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ وَجَبَيْتُهُ، أَيْ: جَمَعْتُهُ، وَالْجَابِيَةُ: الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ لِلْإِبِلِ، قَالَ: تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ^(٦) وَيُرَوِّى أَيْضاً: نَفَى الذِّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كجَابِيَةِ السَّيِّحِ ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ^(٧).

(١) أخرجه الطبري ٢٣٣/١٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٩٠/٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/٣٣٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في إعراب القرآن: بحذف.

(٥) في (ظ): بسطت.

(٦) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وسلف عجزه ٤٥١/٨، وذكره بهذه الرواية الطبري ٢٣٢/١٩، والزمخشري في الكشاف ٢٨٢/٣، وهو في الديوان ص ٢٧٥ برواية: نفى الذم عن آل المحلق ... ، وستأتي. قوله تفهق، أي: تمتلئ.

(٧) في معاني القرآن ٣٩٩/٥. والسَّيِّح: الماء الجاري على وجه الأرض، أما رواية: الشيخ، فيقال: =

قوله تعالى: ﴿وَقُدُّورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ قال سعيد بن جبير: هي قدورُ النحاس تكون بفارس. وقال الضحَّاك: هي قدورٌ تعمل من الجبال^(١). غيره: قد نُحِتَتْ من الجبال الصُّمُّ ممَّا عَمِلَتْ له الشياطين، أثافيها^(٢) منها منحوتة هكذا من الجبال.

ومعنى «رَاسِيَاتٍ»: ثوابت، لا تُحمل ولا تحرَّك لعظمتها. قال ابن العربي^(٣): وكذلك كانت قدورُ عبد الله بن جُدعان، يُصعدُ إليها في الجاهلية بسُلَّم، وعنهما عبَّر طرفه بن العبد بقوله:

كَالْجَوَابِي لَا تَنِي مُثْرَعَةً لِقَرَى الْأَضْيَافِ أَوْ لِلْمَحْتَضِرِ^(٤)

قال ابن العربي: ورأيت برباط أبي سعيد قدورَ الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارٍ واحدٍ منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكر في «البقرة»^(٥) وغيرها. وروي أنَّ النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال: «ثَلَاثٌ مَّنْ أَوْتِيَهُنَّ فَقَدْ أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أَوْتِيَ آلُ دَاوُدَ» قال: فقلنا: ما هنَّ؟ فقال: «العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السرِّ والعلانية». خرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة^(٦).

وروي أنَّ داودَ عليه السلام قال: «يا رب، كيف أُطيقُ شكرَكَ على نعمك،

= أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحى سواد العراق غير معين. المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وينظر ما سلف ٨/ ٤٥١.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦، وفيه: ... تعمل من حجارة الجبال.

(٢) جمع أَثْفِيَّةٌ، وهي الحجر يوضع عليه القدر. القاموس (نقي).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠، وما قبله منه.

(٤) ديوان طرفه ص ٥٦، والخزانة ٩/ ٣٧٩، وفيه: لاتني، أي: لا تفتر ولا تزال، والقرى: القيام بالضيف، والمحتضر: النازل على الماء.

(٥) ١٠٤/٢ وما بعدها.

(٦) نوادر الأصول ص ١٣٠.

وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمة لك» فقال: «يا داود، الآن عَرَفْتَنِي»^(١). وقد مضى هذا المعنى في سورة إبراهيم^(٢)، وأنَّ الشُّكْرَ حقيقته: الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، واستعمالُها في طاعته. والكُفْرَانُ: استعمالُها في المعصية. وقليلٌ مَنْ يفعلُ ذلك؛ لأنَّ الخيرَ أَقلُّ من الشرِّ، والطاعة أَقلُّ من المعصية، بحسَبِ سابقِ التقدير^(٣).

وقال مجاهد: لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ قَالَ دَاوُدُ لِسُلَيْمَانَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ الشُّكْرَ فَاتُفِينِي صَلَاةَ النَّهَارِ أَكْفِكَ صَلَاةَ اللَّيْلِ، قَالَ: لَا أَقْدِرُ، قَالَ: فَاتُفِينِي؛ قَالَ الْفَارِيابِيُّ: أَرَاهُ قَالَ: إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ. قَالَ: نَعَمْ، فَكَفَاهُ^(٤).

وقال الزُّهْرِيُّ: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أَي: قُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ^(٥).

و«شُكْرًا» نَصَبٌ عَلَى جِهَةِ الْمَفْعُولِ، أَي: اْعْمَلُوا عَمَلًا هُوَ الشُّكْرُ. وَكَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْعِبَادَاتِ كُلَّهَا هِيَ فِي نَفْسِهَا الشُّكْرُ إِذْ سَدَّتْ مَسَدَّهُ^(٦)، وَبَيَّنَّ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. وَقَدْ قَالَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: ١٤]: أَنَّ الْمُرَادَ بِالشُّكْرِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ^(٧).

(١) المحرر الوجيز ٤/٤١٠، وأورده بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١).

(٢) ١٠٩/١٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٥٩١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/٤٠١، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٨ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/٤٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٤١٠، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نَصَبُهُ عَلَى الْحَالِ، أَي: اْعْمَلُوا بِالطَّاعَاتِ فِي حَالِ شُكْرِكُمْ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ.

(٧) سلف عند تفسير الآية (١٤) من سورة لقمان.

وفي «صحيح» مسلم^(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّرَ قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». انفراد بإخراجه مسلم^(٢).

فظاهرُ القرآنِ والسنةِ أنَّ الشكرَ بعمل الأبدان دون الاقتصارِ على عمل اللسان، فالشكرُ بالأفعالِ عملُ الأركان، والشكرُ بالأقوالِ عملُ اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون مخاطبةً لآلِ داود، ويحتمل أن يكون مخاطبةً لمحمد ﷺ^(٣)؛ قال ابن عطية: وعلى كل وجه فيه تنبيه وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردتُ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فقال عمر ﷺ: كلُّ الناسِ أَعْلَمُ منك يا عمر^(٤)!.

وروي أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يأكل الشعير، ويُطْعِمُ أهله الخُشْكَارَ، ويُطْعِمُ المساكينَ الدَّرْمَكَ^(٥). وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويتوسَّده، والأوَّلُ أصحُّ، إذ الرمادُ ليس بقوت.

وروي أنه ما شبع قطُّ، فقليل له في ذلك، فقال: أخاف إن شبعْتُ أن أنسى الجِيعَ^(٦). وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمَّله، والله أعلم.

(١) برقم (٢٨٢٠).

(٢) كذا قال المصنف، وقد أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، وهو عند أحمد (٢٤٨٤٤).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/٤١٠ (والكلام منه): لآل محمد ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤١٠، وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٢٢/١٠.

(٥) قطعة من رسالة مطولة للحسن البصري أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أخرجها الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/٣٣٨ - ٣٤٤. والخُشْكَار: الخبز الأسمر غير النقي. والدَّرْمَك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط (خشكر) و(درمك).

(٦) المحرر الوجيز ٤/٤١٠.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: فلما حَكَمْنَا على سليمانَ بالموت حتى صار كالأمرِ المفروغِ منه ووقع به الموت ﴿مَا دَلَّمُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ وذلك أنه كان متكِئاً على المنسأة - وهي العصا بلسان الحبشة في قول السُّدِّي^(١). وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيري - فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا؛ لأكلِ الأَرْضَةِ إياها، فعُلم موته بذلك، فكانت الأَرْضَةُ دَالَّةً على موته، أي: سبباً لظهور موته. وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة.

واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجنُّ تدَّعي عِلْمَ الغيب، فلَمَّا مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا^(٢) يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ابن مسعود: أقام حولاً والجنُّ تعملُ بين يديه، حتى أكلت الأَرْضَةُ مِنْسَأَتَهُ فسقط^(٣). ويروى أنه لَمَّا سقط لم يُعلم منذ [كم] مات، فوَضِعَتِ الأَرْضَةُ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبُوا على ذلك، فوجدوه قد مات منذُ سنة^(٤).

(١) أخرجه الطبري ٢٣٨/١٩.

(٢) في (خ) و(د) و(م): تبينت الجن أن لو كانوا. والخبر أخرجه الطبري ٢٤٢/١٩ - ٢٤٣، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٢٣٠/٥ وفيهما: ... فلما خر تبينت الجن، وفي بعض القراءة: فلما خر تبينت الإنس أن الجن لو كانوا ...، وهي قراءة شاذة كما سيرد.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤٠٣/٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٤٢/١٩، وعرائس المجالس ص ٣٢٩ - ٣٣٠، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وقيل: كان رؤساء الجن سبعة، وكانوا مُنْقَادِينَ لسليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس، فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس، فأمر سليمان الجن به، فلما دنت وفاته قال لأهله: لا تُخبروهم بموتي حتى يُتموا بناء المسجد، وكان قد بقي لإتمامه سنة^(١).

وفي الخبر: أَنَّ مَلَكَ الموت كان صديقه، فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرة يُقال لها: الخروب^(٢)، فلم يكن يومٌ يصبح فيه إِلَّا تَنَبُّتُ في بيت المقدس شجرةً فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا، فيقول: ولأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها ف تُقَطَّعَ، ويَغْرَسُها في بستان له، ويأمر بِكُتُبٍ مَنَافِعِها وَمَضَارِّها واسمِها وما تَصْلُحُ له في الطبِّ، فينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرةً نبتت بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة^(٣)، قال: ولأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وَجْهِكَ هلاكِي وهلاكُ بَيْتِ المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه، ثم قال: اللهم عَمَّ عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تُخَيِّرُ الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ. ثم لبس كَفَنَهُ وتحنَّط، ودخل المحراب وقام يصلي، واتكأ على عصاه على كرسيه، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة، وتمَّ بناء المسجد^(٤).

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤١، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٤.

(٢) في (م): الخرنوبة.

(٣) في (م): الخرنوبة.

(٤) أخرجه من قوله: فلم يكن يوم يصبح فيه ...، الطبري ١٩/ ٢٤١ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الأثر - والله أعلم - إنما هو مما تُلقَى من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

قال أبو جعفر النحاس: وهذا أحسن ما قيل في الآية^(١)، ويدل على صحته الحديث المرفوع؛ روى إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيسألها: ما اسمك؟ فإن كانت لغرس غُرس، وإن كانت لدواء كُتبت، فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب^(٢)؛ فقال: لأي شيء أنت؟ فقالت: لخراب هذا البيت، فقال: اللهم عمّ عن الجنّ موتي حتى تعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب. فَتَحَتَهَا عَصاً، فتوَكَّأَ عليها حولاً وهم لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة^(٣)».

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ لَوْ كَانَ الْجَنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ»^(٤).

وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس: «تُبَيَّنَتِ الْجَنُّ» غير مسمّى الفاعل^(٥). ونافع

(١) قال النحاس هذا الكلام في معاني القرآن ٤٠٣/٥ عقب قول قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلما مات سليمان ولم تعلم به الجن، تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ لِلْإِنْسِ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ. وقد سلف قريباً.

(٢) في (ظ): الخروب، وفي (م): الخرنوبة.

(٣) أخرجه البزار (٢٣٥٥ - كشف)، والطبري ٢٤٠/١٩ من طريق إبراهيم بن طهمان به. وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً. قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.

قلنا: وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على الزهد لابن المبارك (١٠٧٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً أيضاً. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأقرب أن يكون موقوفاً.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤٠٥/٥، وإعراب القرآن له ٣٣٨/٣. وذكرها ابن جني في المحتسب ١٨٨/٢ بلفظ: «تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجَنُّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ».

(٥) النشر ٣٥٠/٢.

وأبو عمرو: ﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾ بِأَلْفٍ بَيْنَ السَّيْنِ وَالتَّاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ. وَبِالْبَاقُونَ بِهَمْزَةٍ مُفْتُوحَةٍ مَوْضِعَ الْأَلْفِ، لَغْتَانِ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ ذَكْوَانَ أَسَكَّنَ الْهَمْزَةَ تَخْفِيفاً^(١).

قال الشاعر في ترك الهمزة:

إِذَا دَبَبْتَ عَلَى الْمِنْسَاءِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ وَالْعَزَلُ^(٢)

وقال آخر فهِمَزَ وَفَتَحَ:

ضَرَبْنَا بِمِنْسَاءٍ وَجْهَهُ فَصَارَ بِذَاكَ مَهِيناً ذَلِيلاً^(٣)

وقال آخر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلِ لَا أَبَاكَ ضَرَبْتَهُ بِمِنْسَاءٍ قَدْ جَرَّ حَبْلُكَ أَخْبِلًا^(٤)

وقال آخر فسكَّنَ هَمْزَهَا:

وَقَائِمٍ قَدْ قَامَ مِنْ تُكَّاتِهِ كَقَوْمَةِ الشَّيْخِ إِلَى مِنْسَاتِهِ^(٥)

وَأَصْلُهَا: مَنْ نَسَأْتُ الْغَنَمَ، أَي: رَجَرْتُهَا وَسُقْتُهَا، فَسَمَّيْتُ الْعَصَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُزَجَرُ بِهَا الشَّيْءُ وَيَسَاقُ، وَقَالَ طَرَفَةُ:

أُمُونٍ كَالْوِاحِ الْإِرَانِ نَسَأْتُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجُودٍ^(٦)

(١) السبعة ص ٥٢٧ ، والتيسير ص ١٨٠ . ولم يذكر ابن مجاهد ابن ذكوان. وقال الداني: وحمة إذا وقف جعلها بين بين على أصله.

(٢) مجاز القرآن ١٤٥/٢ ، وتفسير الطبري ٢٣٩/١٩ ، والمحتسب ١٨٧/٢ ، والمحور الوجيز ٤١١/٤ .

(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني ١٢١/٢٢ ، وفيه: ضربت، بدل: ضربنا.

(٤) البيت لأبي طالب كما في المنق لابن حبيب ص ١٤٢ ، والأوائل للعسكري ٥٤/١ ، والبيان والتبيين ٣٠/٣ ، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ١٤٥/٢ ، والمنصف لابن جني ٥٩/٢ ، ولفظ المصنف موافق لما في مجاز القرآن، وفي باقي المصادر اختلاف يسير.

(٥) ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٨٠ برواية:

صَرِيحٍ خَمَرَ قَامَ مِنْ وَكَاتِهِ كَقَوْمَةِ الشَّيْخِ ...

(٦) ديوان طرفة ص ٢٢. قوله: أُمُونٍ، أي: يُؤْمَنُ عَارَهَا، ويعني ناقته. والإران: تابوت يحمل فيه الميت، شَبَّهَهَا بِالْوِاحِ الْإِرَانِ لِشَدَّتِهَا. نَسَأْتُهَا: ضَرَبْتُهَا بِالْمِنْسَاءِ، وَهِيَ الْعَصَا، وَيُرْوَى: نَصَأْتُهَا، وَهِيَ وَاحِدَةٌ. =

فَسَكَّنَ هَمْزَهَا. قال النحاس^(١): واشتقاقها يدلُّ على أَنَّها مهموزة؛ لأنَّها مشتقة من نَسَأَتْه، أي: أَخْرَتْه ودفعته، فقليل لها: مِئْسَاءَةٌ؛ لأنَّها يُدْفَعُ بها الشيء ويؤخَّرُ، وقال مجاهدٌ وعكرمة: هي العصا. فَمَنْ^(٢) قرأ: «مِئْسَاتَه» أبدل من الهمزة أَلْفًا، فإن قيل: البدل من الهمزة قبيحٌ جدًّا، وإنَّما يجوز في الشعر على بُعْدٍ وشذوذٍ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيِّبُ عنه مثلُ هذا لا سيما وأهلُ المدينة على هذه القراءة. فالجوابُ على هذا: أنَّ العربَ استعملت في هذه الكلمة البدلَ ونَظَقُوا بها هكذا، كما يقع البدلُ في غير هذا ولا يقاسُ عليه، حتى قال أبو عمرو: ولستُ أدري ممن هو^(٣)، إلَّا أَنَّها غيرُ مهموزة؛ لأنَّ ما كان مهموزاً فقد يُتْرَكُ همزُه، وما لم يكن مهموزاً لم يُجْزُ همزُه بوجه.

المهدويُّ: وَمَنْ قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذٌّ بعيد؛ لأنَّ هاءَ التانيث لا يكون ما قَبْلَهَا إلَّا متحرِّكاً أو أَلْفًا، لكنَّه يجوزُ أن يكون مِمَّا سَكَّنَ من المفتوح استِخْفَافاً، ويجوز أن يكون لَمَّا أبدل الهمزة أَلْفًا على غير قياسٍ، قَلَبَ الألفَ همزةً كما قَلَبُوهَا في قولهم: العَالَمُ والخَاتَمُ،

وروي عن سعيد بن جبير: «مِنْ» مفصولة «سَأَتْه» مهموزة مكسورة التاء^(٤)؛ فقليل: إِنَّه مِنْ سِئَةِ القوسِ في لغة مَنْ همزها، وقد روي همزُ سِئَةِ القوسِ عن رؤية. قال

= واللاحب: الطريق الذي قد أُنْثِرَ فيه، وهو بمعنى ملحوب، ويجوز أن يكون على بابه، كأنه يَلْحَبُ أخفاف الإبل، أي يؤثر فيها. والبرجد: كساء مخطط. شرح المعلمات للنحاس ٦٠/١، وللتبريزي ص ٨١.

(١) في إعراب القرآن ٣/٣٣٧.

(٢) في النسخ: ثم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) في إعراب القرآن: مم هي.

(٤) المحتسب ١٨٦/٢، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢١ دون نسبة. ويجوز فيها فتح السين وكسرها، مثل: الضَّعَّة والضَّعَّة، ومعناها: من طرف عصاء. ينظر معاني القرآن للفراء ٣٥٧/٢. والمحمر الوجيز ٤١٢/٤.

الجوهري^(١): سِيَّةُ القوس ما عُطِفَ من طرفيها، والجمع سِيَّات، والهاء [في الواحد] عَوْضٌ من الواو، والنسبة إليها سَيَوِيّ، قال أبو عبيدة: كان رؤية يهْمُزُ سِيَّةَ القوس، وسائر العرب لا يهْمُزونها.

وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنها الأَرْضُ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وقد قرئ: «دَابَّةُ الْأَرْضِ» بفتح الراء، وهو واحدُ الأَرْضِ؛ ذكره الماوردي^(٢). الثاني: أنها دابةٌ تأكل العيدان.

قال الجوهري^(٣): والأَرْضُ - بالتحريك - : دُويَّةٌ تأكلُ الخشب؛ يقال: أَرْضَتِ الخشبةُ تُورِضُ أرضاً - بالتسكين - فهي مأروضةٌ: إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ﴾ قال الزجاج^(٤): أي: تبَيَّنَتِ الجنُّ موته. وقال غيره: المعنى: تبَيَّنَ أمرُ الجنِّ، مثل: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وفي التفسير بالأسانيد الصَّحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمان بن داودَ عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئٌ على عصاه، والجنُّ منصرفةٌ فيما كان أمرُها به، ثم سقط بعد حول [وقرأ ابن عباس: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ لو كان الجنُّ يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين» وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير^(٥).

وفي الخبر: أَنَّ الجنَّ شكرت ذلك للأَرْضِ، فأينما كانت يأتونها بالماء، قال

(١) في الصحاح: (سبا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النكت والعيون ٤/٤٤١ والقول الثاني بعده منه أيضاً. وقوله: وهو واحد الأرض، خطأ. والصواب: وهو جمع الأرض، كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤١١. وقول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) في الصحاح (أرض).

(٤) في معاني القرآن ٤/٢٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٧ - ٣٣٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

السُّدِّيُّ: والطين، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب، فإنه مما يأتيها به الشياطين شكراً، وقالت: لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما^(١).

و«أن» في موضع رفع على البدل من الجن، والتقدير: تبين أمر الجن، فحذف المضاف، أي: تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدل الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير حذف اللام^(٢). و«لَبِثُوا»: أقاموا. و«الْعَذَابِ الْمُهِينِ»: السخرة والحمل والبيان وغير ذلك.

وعمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة، فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة^(٣). وقال السُّدِّيُّ وغيره: كان عمر سليمان سبعاً وستين سنة، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة، وكان ملكه خمسين سنة.

وحكي أن سليمان عليه السلام ابتدأ بنيان بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور، ومئة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان وقويتني على بناء هذا المسجد، اللهم فأوزعني شكرك على ما أنعمت عليّ، وتوفني على ملّتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: لا يدخله مذنبٌ دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه، ولا خائف إلا أمنت، ولا سقيم إلا شفيت، ولا فقير إلا أغنيته. والخامس: ألا تصرف نظرك عن دخله حتى يخرج منه، إلا من أراد إلحاداً أو ظلماً، يا رب العالمين؛ ذكره الماوردي^(٤).

(١) تفسير الطبري ١٩/٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٣٠، والنكت والعيون ٤/٤٤١. والنعارة في الخبر ظاهرة.

(٢) مشکل إعراب القرآن ٢/٥٨٥.

(٣) عرائس المجالس ص ٣٣٠.

(٤) في النكت والعيون ٤/٤٤٢.

قلت: وهذا أصحُّ ممَّا تقدَّم أنه لم يفرغ بناؤه إلَّا بعد موته بسنة، والدليلُ على صحة هذا ما خرَّجه النسائيُّ وغيره بإسنادٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «أنَّ سليمانَ بن داودَ لمَّا بنى بيتَ المقدسِ سألَ الله تعالى خِلالاً ثلاثة: حُكْمًا يصادفُ حكمه، فأوتِيَه، وسألَ الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأوتِيَه، وسألَ الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجدَ ألا يأتيه أحدٌ لا ينهزه إلَّا الصلاةُ فيه أن يخرج من خطيبته كيومَ وَلَدَتْهُ أمُّه». وقد ذكرنا هذا الحديث في «آل عمران»^(١) وذكرنا بناءه في «سبحان»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ قرأ نافع وغيره بالضَّرَفِ والتنوين على أنه اسمُ حيٍّ، وهو في الأصل اسمُ رجلٍ، جاء بذلك التوقيفُ عن النبي ﷺ^(٣). روى الترمذيُّ قال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَكَمِ النَّخَعِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَبْرَةَ النَّخَعِيُّ، عَنْ قُرُوءَ بْنِ مُسَيْكٍ الْمُرَادِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَقَاتِلُ مَنْ أَذْبَرَ مِنْ قَوْمِي بَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ؟ فَأَذِنَ لِي فِي قِتَالِهِمْ وَأَثَرَنِي، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ سَأَلَ عَنِّي: «مَا فَعَلَ الْغُطَفِيُّ؟» فَأَخْبَرْتُهُ قَدْ سِرْتُ، قَالَ: فَأَرْسَلْ فِي أَثَرِي فَرَدَّنِي، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «ادْعُ الْقَوْمَ، فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَأَقْبَلْ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ فَلَا تَعْجَلْ حَتَّى أَحْدِثَ إِلَيْكَ». قَالَ: وَأَنْزَلَ فِي «سَبَأٍ» مَا أَنْزَلَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا

(١) ٢٠٧/٥، وهو في سنن النسائي (المجتبى) ٣٤/٢. قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. وقوله: حكماً يصادف حكمه، أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد. قاله السندي.

(٢) ١٥/١٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٨، وقرأ بالصرف والتنوين نافع وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي. السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص ١٦٧.

سَبَأٌ؟ أَرْضٌ أَوْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا بامرأة، ولكنه رجلٌ وَلَدَ عشرةً من العرب، فتيامنَ منهم ستةٌ وتشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأما الذين تشاءَمُوا فَلَحِمٌ وَجُذَامٌ وَغَسَّانٌ وعاملةٌ. وأما الذين تيامنُوا فالأَزْدُ والأشْعَرِيُّونَ وَحِمِيرٌ وَكِنْدَةُ وَمَذْحِجٌ وأنمارٌ» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خُثَعَمٌ وَبَجِيلَةٌ». وروي هذا عن ابن عباس عن النبي ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ^(١).

وقرأ ابن كثير^(٢) وأبو عمرو: «لِسَبَأٌ» بغيرِ صَرْفٍ، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيارُ أبي عبيد، واستدلَّ على أنه اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعده: «في مساكنهم»؛ النحاس^(٣): ولو كان كما قال: لكان: في مساكنها. وقد مضى في «النمل» زيادةٌ بيانٍ لهذا المعنى^(٤). وقال الشاعر في الصَّرف:

الواردون وتيمم في ذرى سبأ قد عضَّ أعناقهم جلدُ الجواميس^(٥)
وقال آخر في غير الصرف:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سَيْلِهِ العَرَمَا^(٦)
وقرأ قُتَيْبٌ وأبو حَيَوَةَ والجَحْدَرِيُّ: «لِسَبَأٌ»؛ بإسكان الهمزة^(٧).

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٨٩/٢٤٠٠٩)، وأخرجه مختصراً أبو داود (٣٩٨٨).

قوله: فتيامن، أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. وقوله: تشاءَم، أي: قصدوا جهة الشام. تحفة الأحوذى ٨٩/٩. والعُطَيْفِيُّ نسبة إلى غطيف، وهو بطن من مُراد. الأنساب للسمعاني ١٦٣/٩. وحديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٨٩٨).

(٢) في رواية البزي. السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص ١٦٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/٣٣٨، وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

(٥) البيت لجريز، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/١٣٠ برواية:

تدعوك تيم وتيمم في قرى سبأ قد عضَّ أعناقهم جلد الجواميس
والبيت برواية المصنف في معاني القرآن للفراء ٢/٣٥٨.

(٦) البيت للناطقة الجعدي أو أمية بن أبي الصلت، كما في سيرة ابن هشام ١/١٤، وطبقات الفحول ١٢٦/١. وهو في ديوان الناطقة الجعدي ص ١٣٤ برواية: أو سبأ...

(٧) السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص ١٦٧ عن قُتَيْب.

﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ قراءة العامة على الجمع^(١)، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأنَّ لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد.

وقرأ إبراهيم وحمة وحفص: ﴿مَسْكِينِهِمْ﴾ موخّداً، إلّا أنَّهم فتحوا الكاف^(٢).
وقرأ يحيى والأعمش والكسائي موخّداً كذلك، إلّا أنَّهم كسروا الكاف^(٣).

قال النحاس^(٤): «ومساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت: «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدّي عن الجمع. والآخر: أن يكون مصدرأ لا يثنى ولا يُجمع، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. فجاء بالسمع موخّداً. وكذا: ﴿مَقْعِدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]. و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلّا سماعاً.

﴿آيَةٌ﴾ اسمُ كان، أي: علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلَقَهم، وأنَّ كلَّ الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكون إلّا من عالمٍ قادر.

﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «آية»، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فيوقف على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام^(٥). قال الزجاج^(٦): أي: الآية جَنَّتَانِ،

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن حمزة وحفص. وإبراهيم هو النخعي، وذكرها عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن الكسائي. وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ عن يحيى (وهو ابن وثاب) والأعمش.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٥) وهو وقف حسن كما ذكر الأشموني في منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ص ٢٢٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

فجنتان رفع لأنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وقال الفراء: رُفِعَ تفسيراً للآية^(١)، ويجوز أن تنصب «آية» على أنها خبرُ كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن^(٢).

قال عبد الرحمن بن زيد: إِنَّ الآية التي كانت لأهل سبا في مساكنهم أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا فِيهَا بَعُوضَةً قَطُّ، وَلَا ذَبَاباً وَلَا بُرْغُوثاً وَلَا قَمَلَةً وَلَا عَقْرَباً وَلَا حِيَةً، وَلَا غَيْرَهَا مِنَ الْهَوَامِّ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الرِّكْبُ فِي ثِيَابِهِمُ الْقَمْلُ وَالِدَوَابُّ، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى بَيْوتِهِمْ مَاتَتِ الدَّوَابُّ^(٣).

وقيل: إِنَّ الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكَتَلٌ، فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تَمَسَّهَا يَدُهَا؛ قاله قتادة^(٤).

وروي أَنَّ الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وَجَدَ فِيهِمَا قَصْرَانِ مَكْتُوبٌ عَلَى أَحَدِهِمَا: نَحْنُ بَنِي سَلْحِينِ^(٥) فِي سَبْعِينَ خَرِيفاً دَائِبِينَ، وَعَلَى الْآخَرِ مَكْتُوبٌ: نَحْنُ بَنِي صِرْوَاحٍ، مَقِيلٌ وَمَرَّاحٌ، فَكَانَتِ إِحْدَى الْجَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِ الْوَادِي وَالْآخَرَى عَنْ شِمَالِهِ.

قال القشيري: وَلَمْ يُرِدْ جَنَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، بَلْ أَرَادَ مِنَ الْجَهْتَيْنِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، أَيِ:

(١) أي على البديل منها، كما ذكره عنه الألوسي في روح المعاني ١٢٥/٢٢، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣٥٨/٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٨.

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤٧/١٩.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ١٣٠/٢، والطبري ٢٤٧/٩. والمِكَتَلُ: الزَّيْبِلُ الكبير، قيل: إنه يسع خمسة عشر صاعاً، كان فيه كتلاً من التمر. النهاية (كتل).

(٥) في (د): سايحين، وفي (خ) و(ظ): سالحين، وسقط هذا الموضع من (ز). ووقع في مطبوع النكت والعيون ٤٤٣/٤ (والكلام منه): سالمين. والمثبت من (م) وهو موافق لما ذكره ياقوت في معجم البلدان ٢٣٥/٣ وقال: سالحين بفتح أوله وسكون ثانيه ثم حاء مهملة مكسورة ... ، حصن عظيم بأرض اليمن.

كانت بلادهم ذات بساتين وأشجارٍ وثمار، تستر الناس بظلالها.

﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم: كلوا، ولم يكن ثم أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: من ثمار الجنتين ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ يعني على ما رزقكم.

﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنف، أي: هذه بلدةٌ طيبةٌ، أي: كثيرةُ الثمار. وقيل: غيرُ سبخةٍ. وقيل: طيبةٌ ليس فيها هوامٌ لطيبٍ هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء^(١).

﴿وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي: والمنعمُ بها عليكم ربُّ غفورٍ يسْتُرُ ذنوبكم، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيبِ بلادهم، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه. وقيل: إنما ذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أول «البقرة»^(٢). وقيل: إنما امتنَّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذَّبوه من سالف الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرارَ فاستؤصلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلِ خَمْطٍ وَأَنْثَلِ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ يعني عن أمره وأتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدِّيُّ وهبٌ: بعث إلى أهل سبا ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم. قال القشيريُّ: وكان لهم رئيس يلقَّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: كان له ولدٌ فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أَكْفَرُ مِنْ حِمَارٍ. وقال الجوهري^(٣): أَكْفَرُ مِنْ حِمَارٍ، هو رجلٌ من عادٍ؛

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٤.

(٢) ٢٧٢/١.

(٣) في الصحاح (حمر).

مات له أولادٌ، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلّا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلّا قتله.

ثم لما سال السيلُ بجنتيهم تفرّقوا في البلاد، على ما يأتي بيانه، ولهذا قيل في المثل: «تفرّقوا أيادي سبا»^(١). وقيل: الأوسُ والخزرجُ منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعَرِمُ فيما روي عن ابن عباس: السدُّ^(٢)، فالتقدير: سَيْلَ السدِّ العَرِمِ. وقال عطاء: العَرِمُ اسمُ الوادي^(٣).

قتادة: العَرِمُ وادي سبا؛ كانت تجتمع إليه مساليلُ من الأودية، قيل: من البحر وأودية اليمن، فردّموا رَدْمًا بين جبلين، وجعلوا في ذلك الرّدْمِ ثلاثة أبوابٍ؛ بعضها فوقَ بعضٍ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قَدَرِ حاجاتهم؛ فأخَصَّبوا وكثرت أموالُهم، فلما كذّبوا الرسل سلّط الله عليهم الفأر فنقب الرّدْمَ^(٤).

قال وَهْب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخربُ سدّهم فأرّة، فلم يتركوا فرجةً بين صخرتين إلّا ربطوا إلى جانبها هرّة، فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرّة حمراء إلى بعض تلك الهِرَرِ فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة، ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السدَّ حتى أوْهنته للسيل وهم لا يدرون، فلما جاء السيل دخل تلك الخللَ حتى بلغ السدَّ، وفاض الماء على أموالهم، فغرّقها ودفن بيوتهم^(٥).

وقال الزّجاج^(٦): العَرِمُ اسمُ الجُرْدِ الذي نَقَبَ السُّكَّرَ عليهم، وهو الذي يقال له:

(١) أي: تفرّقوا تفرّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥. وسيأتي ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٥١ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٠٦/٥.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٥١، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩١ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣. والخبر من الإسرائيليات.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

الخُلْد - وقاله قتادة أيضاً^(١) - فنُسب السيلُ إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابي أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر^(٢).

وقال مجاهد وابن أبي نَجِيح: العَرِمُ ماءٌ أحمرُّ أرسله الله تعالى في السدِّ، فشَقَّه وهدمه^(٣).

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ العَرِمَ المطرُ الشديد. وقيل: العَرِمُ بسكون الراء. وعن الضحَّاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام^(٤).

وقال عمرو بن شُرَحْبِيل: العَرِمُ المُسَنَّة^(٥). وقاله الجوهري^(٦)؛ قال: ولا واحدَ لها من لفظها، ويقال: واحدُها عَرِمَة.

وقال محمد بن يزيد: العَرِمُ كلُّ شيءٍ حاجزٍ بين شيئين، وهو الذي يسمَّى: السُّكْر، وهو جَمْعُ عَرِمَة. النُّحَّاس^(٧): وما يجتمع من مطرٍ بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّةٌ فهو العَرِم، والمُسَنَّةُ هي التي يسمِّيها أهلُ مصرَ الجسر^(٨)، فكانوا يفتحونها إذا

(١) أخرجه الطبري ٢٥٣/١٩.

(٢) تهذيب اللغة ٣٩١/٢.

(٣) علقه البخاري كما في الفتح ٥٣٥/٨ عن مجاهد بأطول منه، ووصله الفريابي كما في تعليق التعليق ٢٨٨/٤ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وتنمته: وحَفَرَ الوادي، فارتفعتا عن الجَبَّتَيْن، وغاب عنهما الماء، فبيستا، ولم يكن الماء الأحمر من السدِّ، ولكن كان عذاباً أرسله الله عليهم من حيث شاء. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: فَبَقَّه، بدل: فشَقَّه؛ قال: وهو الوجه، تقول: بثَقَّتْ النهر: إذا كسرتَه لتصرفه عن مجراه.

(٤) الكشف ٢٨٥/٣؛ إلا أنه ذكر قول ابن عباس دون نسبة، وذكره دون نسبة كذلك النحاس في معاني القرآن ٤٠٧/٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤١٤/٤. وأخرج الطبري ٢٥٢/١٩ عن ابن عباس قال: سيل العرم: الشديد.

(٥) علقه البخاري أيضاً كما في الفتح ٥٣٥/٨. قال الحافظ: قال ابن التين: المراد بالمسناة ما يبني في عرض الوادي ليرتفع السيل ويفيض على الأرض.

(٦) في الصحاح (عرم).

(٧) في إعراب القرآن ٣٣٨/٣، وما قبله منه، وقول محمد بن يزيد بنحوه في الكامل ١٢١٤/٣.

(٨) في (د) و(ظ): الحبس. والجبس: حجارة أو خشب تبني في مجرى الماء لتحبسه، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم. اللسان (حبس).

شاؤوا، فإذا رَوَيْتَ جَنَّتَاهُمْ سَدُّوْهَا.

قال الهَرَوِيُّ: المُسَنَّة: الضفيرة تُبْنَى للسِّل ترده، سُمِّيت مُسَنَّةً لأن فيها مفاتح الماء، ورُوي أَنَّ العَرِمَ سَدُّ بَنَتْهُ بِلَقِيْسُ صاحبةُ سليمانَ عليه الصلاة والسلام، وهو المُسَنَّةُ بلغة حمير، بَنَتْهُ بالصَّخْر والقارِ، وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وهو مشتقٌّ من العَرامة وهي الشدَّة، ومنه: رجلٌ عارم، أي: شديد. وعَرَمْتُ العَظْمَ أَغْرِمُهُ وأَعْرَمُهُ عَرْمًا: إذا عَرَقْتَهُ^(١)، وكذلك عَرَمْتُ الإبلُ الشجرَ، أي: نالت منه. والعُرام بالضم: العُراق من العَظْم والشجر. وتَعَرَمْتُ العَظْمَ: تَعَرَقْتَهُ. وصَبِيٌّ عارِمٌ بَيْنَ العُرام - بالضم - أي: شَرِس. وقد عَرَمَ يَعْرُمُ وَيَعْرِمُ عَرَامَةً - بالفتح -، والعَرِم: العارم؛ عن الجوهري^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ يَخْنَئُهُمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمَطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿أَكْلٍ خَمِطٍ﴾ بغير تنوين مضافاً^(٣). قال أهلُ التفسير والخليل: الخَمِطُ: الأراك^(٤). الجوهري^(٥): الخَمِطُ ضَرْبٌ مِنَ الأراك له حَمْلٌ يُوْكَل. وقال أبو عبيدة^(٦): هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارة. الزجاج^(٧): كلُّ نَبْتٍ فيه مرارةٌ لا يمكنُ أَكْلُهُ.

المبرِّد: الخَمِطُ: كلُّ ما تَغَيَّرَ إلى ما لا يُشْتَهَى، واللبنُ خَمِطٌ إذا حَمُض. والأولى عنده في القراءة: ﴿ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمَطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعتٌ لـ «أَكْلٍ»، أو بَدَلٌ منه؛ لأنَّ الأَكْلَ هو الخَمِطُ بعينه عنده. فأما الإضافةُ فبابُ جوازِها أن يكون تقديرُها:

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. القاموس (عرق).

(٢) في الصحاح (عرم).

(٣) السبعة ص ٥٢٨ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ .

(٥) في الصحاح (خمط).

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٨ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٩ .

ذواتي أَكُلِ حموضة، أو أَكُلِ مرارة^(١). وقال الأخفش: والإضافة أحسنُ في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبٌ خَزٌّ^(٢).

والخَمَطُ [من] اللبِن: الحامض. وذكر أبو عبيد: أنَّ اللبِن إذا ذهب عنه حلاوة الحَلَبِ ولم يتغيَّر طعمه فهو سَامِط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خَامِطٌ وخَمِيطٌ، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّلٌ، فإذا كان فيه طعمُ الحلاوة فهو قُوْهه^(٣).

وتَخَمَّطَ الفحل: هَدَرَ. وتَخَمَّطَ فلانٌ، أي: تغَضَّبَ وتكَبَّرَ. وتَخَمَّطَ البحر، أي: التَّظَمَ. وَخَمَطْتُ الشاةَ أَخَمِطُهَا خَمَطًا: إذا نزعْتَ جلدَها وشويَتهَا، فهي [خَمِيطٌ، فإن نزعْتَ شعرها وشويَتهَا فهي] سَمِيطٌ. والخَمْطَةُ: الخمرُ التي قد أخذت رِيحَ الإدراك كريحِ الثُّقَاح ولم تُدْرِكْ بعدُ. ويقال: هي الحامِضة؛ قاله الجوهري^(٤). وقال القُتَيْبِيُّ في «أدب الكاتب»: يقال للحامضة: خَمْطَةٌ، ويقال: الخَمْطَةُ التي قد أخذت شيئاً من الريح، وأنشد:

عُقَارٌ كماءِ النَّيِّ لَيْسَتْ بِخَمْطَةٍ وَلَا خَلَّةٍ يَكْوِي الشُّرُوبَ شِهَابُهَا^(٥)
«وَأَقْلَبُ» قال الفراء: هو شبيهة بالطَّرَفَاء، إلَّا أنه أعظمُ منه طولاً^(٦)، ومنه أتخذ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠.

(٢) الحجة للفراسي ١٥/ ٦.

(٣) في النسخ عدا (ظ): فوهة، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في الغريب المصنف لأبي عبيد ٩٥/ ١، والصحاح (خمط)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه. قال صاحب اللسان (قوه): ورواه الليث: قُوْهَةٌ بالفاء، وهو تصحيف. اهـ والقُوْهَةُ: اللبِن إذا تغير طعمه قليلاً وفيه حلاوة الحلب. الصحاح (قوه).

(٤) في الصحاح (خمط)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أدب الكاتب ص ١٦٧، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ص ٧٢. يقول: هي في لون ماء اللحم النَّيِّ، وليست كالخمطة التي لم تدرك بعد، ولا كَالْخَلَّةِ التي جاوزت القُدْرَ حتى كادت تصبح خَلًّا. اللسان (خلل). وقال شارح الديوان: قوله: يكوي الشُّرُوبَ، يقول: لها مضٌّ شديد مثل النار. والشروب: النَّدَامَى.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

مِنْبَرُ النَّبِيِّ ﷺ^(١). وللأثل أصولٌ غليظةٌ يتَّخذُ منه الأبواب، وورقه كورق الطَّرفاء،
الواحدة: أثلة، والجمع: أثلات.

وقال الحسن: الأثل: الخشب. قتادة: هو صَرْبٌ من الخشب يشبه الطَّرفاء رأيتُه
بَقِيد^(٢). وقيل: هو السَّمُر^(٣).

وقال أبو عبيدة: هو شجر النَّضَار^(٤). النَّضار: الذهب. والنُّضار: خشبٌ يعمل
منه قِصَاعٌ، ومنه: قَدَحٌ نُّضَار^(٥).

﴿وَشَقِىءٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفَرَاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس^(٦). وقال
الأزهري^(٧): السِّدْر من الشجر سِدران: بَرِيٌّ لا يُنتفع به ولا يصلح وَرْقُهُ لِلْعَسُولِ،
وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يؤكل، وهو الذي يسمَّى الضَّال. والثاني: سِدْرٌ يَنْبُتُ على الماء
وثمره النَّبِق، وورقه عَسُولٌ يشبه شجر العُنَّاب.

قال قتادة: بينما شجرُ القوم من خيرٍ شجرٍ إذ صيَّره الله تعالى من شرِّ الشجر
بأعمالهم^(٨). فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطَّرفاء والسِّدْر.

القُسَيْرِيُّ: وأشجارُ البوادي لا تسمَّى جنةً وبستاناً، ولكن لَمَّا وقعت الثانيةُ في

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٠) مختصراً، والبخاري (٣٧٧)، ومسلم (٣٤٤) مطولاً من حديث سهل بن
سعد رضي الله عنه. ولفظه عنه أحمد: كان من أثل الغابة، يعني منبر النبي ﷺ. ووقع عند مسلم: ... من طُرفاء
الغابة.

(٢) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان ٤/ ٢٨٢.

(٣) جمع سَمرة بضم الميم: من شجر الطَّلح. اللسان (سمر).

(٤) النَّضَار: أثلٌ وَرْسِي اللون بغور الحجاز. المعجم الوسيط (نضر).

(٥) من قوله: النَّضار الذهب، إلى هذا الموضع ليس في (د) و(ظ). وقوله: قدح نُّضار، قال الجوهري في
الصحاح (نضر): يضاف ولا يضاف.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

(٧) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣.

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٨.

مُقابِلَةِ الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ويَحْتَمِلُ أن يرجع قوله: «قَلِيلٍ» إلى جملة ما ذُكر من الخَمَط والأَثَل والسُدْر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا بِهِمْ وَلَهُمْ جُزَاءٌ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (٧)

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ أي: هذا التبديلُ جزاءُ كُفْرِهِمْ. وموضعُ «ذلك» نصبٌ، أي: جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وَهُلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ قراءةُ العامة: «يُجَازَى» بياءٍ مضمومة وزايٍ مفتوحة، «الْكَفُورُ» رفعاً على ما لم يُسمَّ فاعله. وقرأ يعقوبٌ وحَفْصٌ وحمزةٌ والكسائيُّ: «نُجَازَى» بالنون وكسرِ الزاي، «الْكَفُورُ» بالنصب^(١)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالوا: لأنَّ قبله: «جَزَيْنَاهُمْ» ولم يقل: جُوزُوا. النحاس^(٢): والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيه بيّن، ولو قال قائل: خَلَقَ الله تعالى آدمَ ﷺ من طين، وقال آخر: خُلِقَ آدمُ من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآية سؤالٌ ليس في هذه السورة أشدُّ منه، وهو أن يقال: لم خصَّ الله تعالى المجازاةَ بالكُفُور، ولم يذكر أصحابَ المعاصي؟ فتكلَّم العلماء في هذا؛ فقال قومٌ: ليس يُجَازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلامُ والإهلاكُ إِلَّا مَنْ كفر^(٣). وقال مجاهد: يجَازَى بمعنى: يعاقب^(٤)، وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجَازَى بكلِّ سوءٍ عَمِلَه؛ فالمؤمنُ يُجْزَى ولا يُجَازَى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشةُ في الحساب^(٥)، وأمَّا المؤمنُ فلا يناقش الحساب.

وقال قُطْرُبٌ خلافَ هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى:

(١) السبعة ص ٥٢٨ ، والتيسير ص ١٨١ ، والنشر ٣٥٠/٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/٣٤٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٠ ، وقوله: الاصطلام، أي: الاستئصال. الصحاح (صلم).

(٤) أخرجه الطبري ٢٥٩/١٩ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ١٢٩/٢ .

على مَنْ كَفَرَ بالنعم وَعَمِلَ بالكبائر. النحاس^(١): وَأَوَّلَى مَا قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَجَلٌ مَا رُويَ فِيهَا: أَنَّ الْحَسَنَ قَالَ: مِثْلًا بِمِثْلِ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حُسِبَ هَلَكٌ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَيْنَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكٌ»^(٢). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَشَرْحُهُ: أَنَّ الْكَافِرَ يُكَافَأُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَيُحَاسَبُ عَلَيْهَا وَيَحْبُطُ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ؛ وَبَيِّنَ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْأَوَّلِ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾. وَفِي الثَّانِي: ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ وَمَعْنَى «يُجَازَى»: يَكُافَأُ بِكُلِّ عَمَلٍ عَمِلَهُ، وَمَعْنَى «جَزَائِهِمْ»: وَقَيْنَاهُمْ، فَهَذَا حَقِيقَةُ اللَّغَةِ، وَإِنْ كَانَ «جَازَى» يَقَعُ بِمَعْنَى «جَزَى» مَجَازًا^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْىَ ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا أَلْسِيْرٌ سِيْرُوا فِيهَا لِيَأْتِيَ وَأَيَّامًا ءَامِيْنَ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْىَ ظَهْرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام^(٤). والقَرْى التي بورك فيها: الشام والأُرْدُنُّ وفِلَسْطِين. والبركة: قيل: إِنَّهَا كَانَتْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَسَبْعَ مِئَةِ قَرْيَةٍ؛ بورك فيها بالشجر والثمر والماء. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: بَارَكْنَا فِيهَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ^(٥).

﴿قَرْىَ ظَهْرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام^(٦). وقال قتادة: معنى «ظَاهِرَةٌ»: مَتَّصِلَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ، يَغْدُونَ فِيَقِيلُونَ فِي قَرْيَةٍ، وَيَرْوَحُونَ فِيَبِيتُونَ فِي قَرْيَةٍ^(٧).

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٠)، والبخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤١٠.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٤٤.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٦٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠.

وقيل: كان على كلِّ ميلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أمنِ الطريق.

قال الحسن: كانت المرأة تخرج ومعها مِغْزُلُها وعلى رأسها مِكْتَلُها، ثم تَلْتَهِي بمِغْزُلِها فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئ مِكْتَلُها من كلِّ الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك^(١).

وقيل: «ظَاهِرَةٌ» أي: مرتفعة؛ قاله المبرد^(٢). وقيل: إنما قيل لها: «ظَاهِرَةٌ» لظهورها، أي: إذا خرجت عن هذه ظَهَرَتْ لك الأخرى، فكانت قرى ظاهِرَةٌ، أي: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهرٌ، أي: معروف.

﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السَّيْرَ بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْرًا مقدَّرًا من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن قريةٍ إلى قرية. الفراء^(٣) أي: جعلنا بين كلِّ قريتين نصفَ يومٍ، حتى يكون المقيِلُ في قرية والمبيثُ في قرية أخرى. وإنَّما يبالغ الإنسان في السير لِعُذْمِ الزَّادِ والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقَّةَ ونزل أينما أراد.

﴿سَيِّرُوا فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، أي: في هذه المسافة، فهو أمرٌ تمكين، أي: كانوا يسIRON فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمرٌ بمعنى الخبر، وفيه إضمارُ القول.

﴿لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا﴾ ظَرْفَانِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: «لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا» بلفظ النكرة تنبيهًا على قِصَرِ أسفارهم، أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة: كانوا يسIRON غيرَ خائفين ولا جِيَاعٍ ولا ظَمَاءٍ^(٤). وكانوا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٣/٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير الطبري ٦٢/١٩، دون قوله: فكان بين الشام واليمن كذلك.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤١.

(٣) في معاني القرآن ٢٥٩/٢. وقوله: الفراء، ليس في (د) و(م).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤١١/٥، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ١٣٠/٢.

يسرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه^(١).

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لَمَّا بَطَرُوا وَطَعُوا وَشَمُوا الراحة ولم يصبروا على العافية، تَمَنَّا طَوَلَ الْأَسْفَارِ وَالْكَذْحُ فِي الْمَعِيشَةِ، كقول بني إسرائيل: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهِمَا﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّيْفِ صَبْرًا. فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومُزَّقُوا كُلَّ مُمَرِّقٍ، وجعل بينهم وبين الشام قُلُوبًا وَمَقَاوِرَ يركبون فيها الرِّوَا حَلَ وَيَتَزَوَّدُونَ الْأَزْوَادَ.

وقراءة العامة: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به؛ لأنَّ معناه: نَادَيْتُ وَدَعَوْتُ^(٢). ﴿بَعِدَ﴾ سألوا المباعدة في أسفارهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصة وهشام عن ابن عامر: ﴿رَبَّنَا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بَعِدَ﴾ من التباعد^(٣). النحاس^(٤): وباعد وبعد واحد في المعنى، كما تقول: قارب وقرب.

وقرأ أبو صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: ﴿رَبَّنَا﴾ رفعا ﴿بَاعَدَ﴾ بفتح العين والداال على الخبر^(٥).

(١) النكت والعيون ٤/٤٤٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٢.

(٣) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١ عن ابن كثير وأبي عمرو وهشام.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٤٢.

(٥) النشر ٢/٣٥٠ عن يعقوب، وهو من العشرة. والمحتسب ٢/١٨٩ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وأبي صالح ويعقوب وأبي رجاء وسلام والحسن - بخلاف - وابن أبي ليلى والكلبي.

تقديره: لقد بَاعَدَ رَبُّنَا بَيْنَ أَسْفَارِنَا، كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: قَرَّبْنَا لَهُمْ أَسْفَارَهُمْ فَقَالُوا أَشْرًا وَبَطْرًا: لقد بُوعِدَتْ عَلَيْنَا أَسْفَارُنَا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنَّهم ما طلبوا التباعدَ إنما طلبوا أقربَ من ذلك القربِ بَطْرًا وَعُجْبًا مع كفرهم.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وعيسى بن عمر؛ وثروى عن ابن عباس: «رَبُّنَا بَعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» بشدِّ العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شَكَّوْا أَنَّ رَبَّهُمْ بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ^(١).

وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخى الحسن البصري: «رَبُّنَا بَعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، «رَبُّنَا» نداءً مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، وُفِع «بَيْنَ» بالفعل، أي: بَعَدَ ما يَتَّصِلُ بِأَسْفَارِنَا^(٢).

وروى الفراء وأبو إسحاق قراءةً سادسةً مثلَ التي قبلها في ضمِّ العين إلا أَنَّكَ تنصبُ «بَيْنَ» على أنه ظرفٌ، وتقديره في العربية: بَعَدَ سَيْرُنَا بَيْنَ أَسْفَارِنَا. النحاس^(٣): وهذه القراءاتُ إذا اختلفت معانيها لم يُجْزَ أن يقال: إحداها أجودُ من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خَبَّرَ عنهم أنهم دَعَوْا رَبَّهُمْ أن يبعُدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ بَطْرًا وَأَشْرًا، وخَبَّرَ عنهم أنهم لَمَّا فعل ذلك بهم خَبَّرُوا به وشَكَّوْا، كما قال ابن عباس.

﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بكفروهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتَحَدَّثُ بِأَخْبَارِهِمْ، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث. ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: لَمَّا لَحِقَهُمْ مَا لَحِقَهُمْ تَفَرَّقُوا وَتَمَزَّقُوا. قال الشعبي: فلحقت الأنصارُ بِثَرْبٍ، وغَسَّانَ بالشام، والأسدُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٤٢/٣، والقراءة في المحاسب ١٨٩/٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢٤٢/٣، والقراءة في المحاسب ١٨٩/٢.

(٣) في إعراب القرآن ٣٤٢/٣ - ٣٤٣، وما قبله منه. والقراءة في معاني القرآن للفراء ٣٥٩/٢ - ٣٦٠، وللزجاج ٢٥٠/٤. (وهو أبو إسحاق).

بُعْمَان، وَخُزَاعَةُ بَيْتِهَامَةَ^(١)، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَضْرِبُ بِهِمُ الْمَثَلَ فَتَقُولُ: تَفَرَّقُوا أَيَدِي سَبَا، وَأَيَادِي سَبَا، أَي: مَذَاهِبَ سَبَا وَطَرَقَهَا^(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصَّبَّار: الَّذِي يَصْبِرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ تَكْثِيرُ صَابِرٍ، تَمْدَحُ بِهِذَا الْاسْمَ. فَإِنْ أُرِدَتْ أَنَّهُ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِيهِ إِلَّا صَبَّارٌ عَنْ كَذَا. ﴿شَكُورٍ﴾ لِنِعْمِهِ؛ وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي «الْبَقَرَةِ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فِيهِ أَرْبَعُ قَرَاءَاتٍ: قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَشَيْبَةُ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ، وَيُرْوَى عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ ﴿إِبْلِيسُ﴾ بِالرَّفْعِ ﴿ظَنَّهُ﴾ بِالنَّصْبِ^(٥)، أَي: فِي ظَنِّهِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَهُوَ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَي: صَدَقَ عَلَيْهِمْ ظَنًّا ظَنَّهُ إِذْ صَدَقَ فِي ظَنِّهِ^(٥). فَنُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ أَوْ عَلَى الظَّرْفِ.

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «ظَنَّهُ» نَصَبٌ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، أَي: صَدَقَ الظَّنُّ الَّذِي ظَنَّهُ؛ إِذْ قَالَ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَّهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] وَقَالَ: ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]^(٦). وَيَجُوزُ تَعْدِيَةُ الصَّدَقِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ؛ وَيَقَالُ: صَدَقَ الْحَدِيثُ، أَي: فِي الْحَدِيثِ.

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ١٣٠/٢ وَالطَّبْرِيُّ ٢٦٧/١٩، وَالْكَلامُ مِنْ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٣/٣٤٣.

(٢) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٥/٤١٠، وَسَلَفَ ٢٩٢ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ.

(٣) ٦٥/٢ وَ ١٠٤.

(٤) السَّبْعَةُ ص ٥٢٩، وَالتَّبْسِيرُ ص ١٨١، وَالنَّشْرُ ٢/٣٥٠. وَالْكَلامُ مِنْ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٣/٣٤٣.

(٥) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلزَّجَّاجِ ٤/٢٥١ - ٢٥٢، وَفِيهِ: وَصَدَقَ فِي ظَنِّهِ، بَدَلُ: إِذْ صَدَقَ ...، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: أَنَّهُ ظَنَّ بِهِمْ أَنَّهُ إِذَا أَغْوَاهُمْ اتَّبَعُوهُ، فَوَجَدَهُمْ كَذَلِكَ. حِجَةُ الْقَرَاءَاتِ لِابْنِ زَنْجَلَةَ ص ٥٨٩.

(٦) الْحِجَةُ لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ ٦/٢٠.

وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائي:
﴿صَدَقَ﴾ بالتشديد ﴿ظَنَّمُ﴾ بالنصب^(١) بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظَنَّ ظَنًّا،
فكان كما ظَنَّ، فصَدَّقَ ظَنَّهُ^(٢).

وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج: «صَدَقَ عليهم» بالتخفيف «إبليس» بالنصب
«ظَنَّهُ» بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجه لهذه القراءة عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز
هذه القراءة الفراء، وذكرها الزجاج، وجَعَلَ الظَّنَّ فاعِلَ «صَدَقَ» و«إبليس» مفعولاً
به، والمعنى: أن إبليس سَوَّلَ له ظَنُّه فيهم شيئاً، فصَدَّقَ ظَنُّه، فكأنه قال: ولقد صدَّق
عليهم ظَنُّ إبليس^(٣).

و«على» متعلِّقة بـ «صدق»، كما تقول: صدقتُ عليك فيما ظَنَنْتُهُ بك، ولا تتعلّق
بالظَّنِّ لاستحالة تقدُّم شيءٍ من الصلة على الموصول^(٤).

والقراءة الرابعة: «ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنُّه» برفع إبليس والظَّنِّ، مع
التخفيف في «صَدَقَ» على أن يكون «ظَنُّه» بدلاً من «إبليس»، وهو بدلُ الاشتمال^(٥).

ثم قيل: هذا في أهل سبا، أي: كَفَرُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا بعد أن كانوا مسلمين، إلّا
قوماً منهم آمنوا برسولهم. وقيل: هذا عامٌّ، أي: صدق إبليسُ ظَنُّه على الناس كلِّهم إلّا
مَنْ أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد^(٦).

وقال الحسن: لَمَّا أَهْبَطَ آدَمُ عليه السلام من الجنة ومعه حَوَاءُ وهبط إبليس، قال

(١) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٣، وأخرج الطبري ١٩/٢٧٠ قول مجاهد بلفظ: ظَنَّ ظَنًّا، فَاتَّبَعُوا ظَنَّهُ.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/٣٦٠، وللزجاج ٤/٢٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٣، والقراءة
في المحتسب ٢/١٩١ عن أبي الهجهاج والزهري.

(٤) المحتسب ٢/١٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤١٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٩.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٣٥.

إبليس: أَمَا إِذْ أَصَبْتُ مِنَ الْأَبْوِينَ مَا أَصَبْتُ فَالذَّرِيَّةُ أَوْعَفُّ وَأَوْعَفُّ! فَكَانَ ذَلِكَ ظَنًّا
مِنْ إِبْلِيسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ﴾^(١).

وقال ابن عباس: إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: خُلِقْتُ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ طِينٍ، وَالنَّارُ
تَحْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿لَا تَحْنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فَصَدَّقَ ظَنَّهُ عَلَيْهِمْ^(٢).

وقال زيد بن أسلم: إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: يَا رَبِّ، أَرَأَيْتَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَرَّمْتَهُمْ
وَشَرَّفْتَهُمْ وَفَضَّلْتَهُمْ عَلَيَّ، لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، ظَنًّا مِنْهُ، فَصَدَّقَ عَلَيْهِ إِبْلِيسَ
ظَنَّهُ^(٣).

وقال الكلبي: إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ إِنْ أَغْوَاهُمْ أَجَابُوهُ، وَإِنْ أَضَلَّهُمْ أَطَاعُوهُ، فَصَدَّقَ
ظَنَّهُ^(٤).

﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: مَا ضَرَبَهُمْ بِسُوطٍ وَلَا بَعْصًا، وَإِنَّمَا ظَنَّ ظَنًّا، فَكَانَ كَمَا
ظَنَّ بَوَسُوسَتِهِ^(٥).

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدهما: أَنَّهُ يَرَادُ بِهِ
بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَن يُذْنِبُ وَيَنْقَادُ لِإِبْلِيسَ فِي بَعْضِ الْمَعَاصِي،
أَي: مَا سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا إِلَّا فَرِيقٌ، وَهُوَ الْمَعْنِيُّ^(٦) بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ فَعَنَى أَنَّهُ قَالَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
كُلُّهُمْ^(٧)، فـ «مَنْ» عَلَى هَذَا لِلتَّبْيِينِ لَا لِلتَّبْعِيضِ.

(١) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/٢٧٠.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٣٠، والطبري ١٩/٢٧١.

(٦) في (ظ): وهم المعنيون.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٣٤.

فإن قيل : كيف عَلِمَ إبليسُ صِدْقَ ظَنِّه وهو لا يَعْلَمُ الغيبَ؟

قيل له : لَمَّا نَفَذَ له في آدَمَ ما نَفَذَ ، غَلَبَ على ظَنِّه أنه يَنْفُذُ له مثلُ ذلك في ذرِّيَّته ، وقد وقع له تحقيقُ ما ظنَّ.

وجوابُ آخرُ : وهو ما^(١) أُجيبَ به من قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِم بِخَبْرِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأعطيَ القوةَ والاستطاعةَ ، فظنَّ أنه يملكهم كلَّهم بذلك ، فلمَّا رأى أنه تاب على آدَمَ ، وأنه سيكون له نسلٌ يتبعونه إلى الجنة ، وقال : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] علم^(٢) أنَّ له تَبَعًا ولآدَمَ تَبَعًا ، فظنَّ أنَّ تَبَعَهُ أَكْثَرُ من تَبَعِ آدَمَ ؛ لَمَّا وُضِعَ في يديه من سلطان الشهوات ، ووضعت الشهواتُ في أجواف الأدميين ، فخرج على ما ظنَّ حيث نفخ فيهم وزينَ في أعينهم تلك الشهوات ، ومدَّهم إليها بالأمانى والخدائع ، فصدق عليهم الظن الذي ظنَّه ، والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي : لم يَقْهَرْهم إبليسُ على الكفر ، وإنَّما كان منه الدعاء والتزيين . والسلطان : القوة ، وقيل : الحُجَّة ، أي : لم تكن له حُجَّةٌ يَسْتَتِيعُهم بها ، وإنَّما اتَّبَعُوهُ بشهوةٍ وتقليدٍ وهوى نفسٍ ، لا عن حجةٍ ودليل .

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ﴾ يريد علمَ الشهادة الذي يقع به الثواب والعقاب ، فأما الغيبُ فقد عَلِمَهُ تبارك وتعالى . ومذهبُ الفراء^(٣) أن يكون المعنى : إلَّا لنعلم ذلك عندكم ، كما قال : ﴿إِنَّ شُرَكَائِيَ﴾ [فصلت: ٤٧] أي : على قولكم^(٤) وعندكم .

(١) قبلها في (د) و(ظ) : أن .

(٢) في النسخ الخطية : فعلم ، والمثبت من (م) .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٤ .

(٤) في (ظ) : زعمكم .

وليس قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جواب ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ في ظاهره، إنما هو محمولٌ على المعنى، أي: وما جعلنا له عليهم سلطاناً إلا لِنَعْلَمَ، فلا استثناء مُنْقَطِعٌ، أي: لا سلطانَ له عليهم ولكنَّا ابتليناهم بوسوسته لِنَعْلَمَ، فـ «إِلَّا» بمعنى لكن. وقيل: هو متَّصلٌ، أي: ما كان له عليهم من سلطانٍ، غيرَ أَنَّا سَلَطْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَتَمَّ الابتلاء.

وقيل: «كان» زائدة، أي: وماله عليهم من سلطان، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أنتم خيرُ أمة. وقيل: لما اتَّصل طرفٌ منه بقصةِ سبا قال: وما كان لإبليسَ على أولئك الكفار من سلطان.

وقيل: وما كان له في قضائنا السابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إِلَّا لِنُظْهِرُ^(١)، وهو كما تقول: النارُ تُحْرِقُ الحطبَ، فيقول آخر: لا بل الحطبُ يُحرق النار. فيقول الأول: تعالَ حتى نجربَ النارَ والحطبَ لِنَعْلَمَ أيهما يُحرقُ صاحبه، أي: لِنُظْهِرَ ذلك، وإن كان معلوماً لهم ذلك.

وقيل: إِلَّا لتعلموا أنتم. وقيل^(٢): أي: ليعلم أولياؤنا والملائكة، كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: يحاربون أولياء الله ورسوله.

وقيل: أي: لنميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(٣) وغيرها.

وقرأ الزُّهريُّ: «إِلَّا لِيُعْلَمَ»، على ما لم يسمَّ فاعله^(٤).

(١) في (ظ): ليظهر (في الموضعين).

(٢) قبلها في (د): وقيل أي ليعلم على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة كما سيرد.

(٣) ٤٣٨/٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ١٢١/٢، والكشاف ٢٨٧/٣، والمحزر الوجيز ٤١٧/٤.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ أي: إنه عالمٌ بكلِّ شيء. وقيل: يحفظ كلَّ شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُم مِّنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثارِ قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين: هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك. وهذا خطابٌ توبيخ، وفيه إضمار، أي: ادعوا الذين زعمتُم أنهم آلهة لكم من دون الله لِيَتَنَفَعَكُم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك^(١)، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُم مِّنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالإيجاد، فهو الذي يُعبد، وعبادة غيره مُحال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ أي: شفاعَةُ الملائكة وغيرهم ﴿عِنْدَهُ﴾ أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ﴾ قراءة العامة: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿أَذِنَ﴾ بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله^(٢). والآذن هو الله تعالى. و«مَن» يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: جُلِّي^(٣) عن قلوبهم الفزع. فطُرِب:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٣) في (د) و(م): خلي، ولفظة: الفزع (الآتية) ليست في (ظ).

أُخْرِجَ ما فيها من الخوف. مجاهد: كُشِفَ عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة^(١). أي: إنَّ الشفاعة لا تكون من أحدٍ من هؤلاء المعبودين من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام، إِلَّا أَنَّ الله تعالى يَأْذُنُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ فِي الشَّفَاعَةِ وَهُمْ عَلَى غَايَةِ الْفَرْعِ مِنَ اللَّهِ، كما قال: ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والمعنى: أنه إذا أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ وَوَرَدَ عَلَيْهِمْ كَلَامُ اللَّهِ فَرَعُوا؛ لِمَا يَقْتَرِنُ بِتِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْأَمْرِ الْهَائِلِ وَالْخَوْفِ أَنْ يَقَعَ فِي تَنْفِيزِ مَا أُذِنَ لَهُمْ فِيهِ تَقْصِيرٌ، فَإِذَا سُرِّيَ عَنْهُمْ قَالُوا لِلْمَلَائِكَةِ فَوْقَهُمْ وَهُمْ الَّذِينَ يُؤَرِّدُونَ عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ بِالْإِذْنِ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾ أي: ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ وهو أَنْ أُذِنَ لَكُمْ فِي الشَّفَاعَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فله أَنْ يَحْكُمَ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَرِيدُ. ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِذْنًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي شَفَاعَةِ أَقْوَامٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ولا تنفع الشفاعةُ عنده إِلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ، فَفَرَعَ لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِذْنِ تَهْيِئًا لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ الْفَرْعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَجَابَ بِالْإِنْقِيَادِ.

وقيل: هذا الْفَرْعُ يَكُونُ الْيَوْمَ لِلْمَلَائِكَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَأْمُرُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَى، أي: لا تنفع الشفاعةُ إِلَّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ الْيَوْمَ فَرَعُونَ مُطِيعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، دُونَ الْجَمَادَاتِ وَالشَّيَاطِينِ. وفي صحيح الترمذي عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ فِي السَّمَاءِ أَمْرًا ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا^(٢) سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، قَالَ: وَالشَّيَاطِينُ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» قَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٤٨، وأخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ٢٧٥/١٩.

(٢) في (ظ): كانه، وهو موافق لرواية البخاري على ما يأتي.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٣)، وأخرجه البخاري (٤٨٠٠) مطولاً. قوله: خضعاناً بفتح الحاء، وفي رواية: =

وقال النّوّاس بن سمرعان: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ [قال:] رِغْدَةً - شَدِيدَةً خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ ذَلِكَ صَعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ تَعَالَى سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَقُولُ لَهُ مِنْ وَحْيِهِ مَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرِيلُ بِالمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جَبْرِيلُ: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، قَالَ: فَيَقُولُ كُلُّهُمْ كَمَا قَالَ جَبْرِيلُ فَيَنْتَهِي جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحي سُمع له صوت كإمرار السلسلة على الصّفوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلا صَعِقُوا، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليّ الكبير، ثم يقول: يكون العامّ كذا ويكون كذا. فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة فتقول الكهنة للناس: يكون العامّ كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمّا بعث الله محمداً ﷺ دُحِرُوا بالشُّهب، فقالت العرب حين لم تُخبرهم الجن بذلك: هَلَكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة، حتى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس، أمسكوا على أموالكم، فإنّه لم يمُتْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وإنّ هذا ليس بانتثار، أَلَسْتُمْ تَرَوْنَ

= بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين. قوله: كأنه (وهي رواية البخاري)، أي: الصوت المسموع مثل جر السلسلة من الحديد، على الصّفوان الذي هو الحجر الأملس. ينظر الفتح ٨ / ٥٣٨، وتحفة الأحوزي ٩ / ٩٠.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤، والطبري ١٩ / ٢٧٨، والآجري في الشريعة ص ٢٩٤، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٥)، وما بين حاصرتين من المصادر. وفي إسناده نعيم بن حماد، قال الحافظ في التقریب: صدوق يخطئ كثيراً. وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١ / ٦٢١ أنه عرض هذا الحديث على عبد الرحمن بن إبراهيم (وهو دحيم) فقال: لا أصل له.

مَعَالِمَكُم مِّنَ النُّجُومِ كَمَا هِيَ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ؟! قَالَ: فَقَالَ إِبْلِيسُ: لَقَدْ حَدَّثَ الْيَوْمَ فِي الْأَرْضِ حَدَّثٌ، فَأَتُونِي مِنْ تَرَبِّ كُلِّ أَرْضٍ، فَأَتَوَهُ بِهَا فَجَعَلَ يَشْمُهَا، فَلَمَّا شَمَّ تَرَبَّ مَكَّةَ قَالَ: مِنْ هَا هُنَا جَاءَ الْحَدَّثُ، فَانصَبُوا فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بُعِثَ^(١). وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة الحجر^(٢)، ومضى القول أيضاً في رَمِيهِمْ بِالشَّهْبِ وَإِحْرَاقِهِمْ بِهَا، وَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْجِنِّ^(٣) بَيَانُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقيل: إِنَّمَا يَفْزَعُونَ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ.

وقال الكلبي وكعب: كَانَ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِتْنَةٌ، خَمْسُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً لَا يَجِيءُ فِيهَا الرُّسُلُ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ بِالرِّسَالَةِ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَ ظَنُّوا أَنَّهَا السَّاعَةُ قَدْ قَامَتْ، فَصَعِقُوا مِمَّا سَمِعُوا، فَلَمَّا انْحَدَرَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ يَمُرُّ بِكُلِّ سَمَاءٍ فَيَكْشِفُ عَنْهُمْ، فَيَرَفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَلَمْ يَذَرُوا مَا قَالَ، وَلَكِنْهُمْ قَالُوا: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ^(٤).

وقال الضحاك: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُعَقَّبَاتِ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، يَرْسُلُهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِذَا انْحَدَرُوا سُمِعَ لَهُمْ صَوْتُ شَدِيدٍ، فَيَحْسِبُ الَّذِينَ هُمْ أَسْفَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ، فَيَخْرُونَ سُجَّدًا وَيَصْعَقُونَ،

(١) لم نقف عليه عند البيهقي، وهو في تفسير مجاهد ٥٢٦/٢ - ٥٢٧، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣٦/٥ وعزاه للبيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء بن السائب اختلط، وفي سماع حماد بن سلمة منه قبل الاختلاط أو بعده خلاف.

(٢) ١٩٠/١٢.

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) تفسير البغوي ٥٥٧/٣ عن مقاتل والكلبي والسدي.

حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة^(١).

وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم^(٢) أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعدوا وكانت هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام، أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة.

وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند^(٣) نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار^(٤)، أي: قالوا: قال الحق.

وقراءة العامة: ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ مسمى الفاعل^(٥)، وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ومن بناء للمفعول فالجاء والمجرور في موضع رفع، والفعل في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أزيل الفزع عن قلوبهم، حسبما تقدم بيانه^(٦). ومثله: أشكاه: إذا أزال عنه ما يشكوه.

وقرأ الحسن: «فُزِعَ» مثل قراءة العامة، إلا أنه خفف الزاي، والجار والمجرور

(١) أخرجه الطبري ٢٨١/١٩ بنحوه من طريق الضحاك عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في (م): لا يمكن.

(٣) قبلها في (د) و(ظ) و(م): قال الحسن ومجاهد وابن زيد في الآخرة، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من تفسير البغوي ٥٥٧/٣، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٥٥٧/٣ - ٥٥٨، إلا أنه لم يذكر مجاهداً، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ٢٨١/١٩. ولم تنق عليه عن مجاهد.

(٥) قرأ: «فُزِعَ» بفتح الفاء والزاي ابن عامر من السبعة، والباقون بضم الفاء وكسر الزاي. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٨١. وذكرها عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٤٥ وزاد نسبتها لابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٦) ص ٣٠٧-٣٠٨ من هذا الجزء.

في موضع رفع أيضاً، وهو كقولك: انصرفت عن كذا إلى كذا. وكذا معنى «فرغ» بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل، رويت عن الحسن أيضاً وقادة^(١). وعنهما أيضاً «فرغ» بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل، والمعنى: فرغ الله تعالى قلوبهم، أي: كشف عنها، أي: فرغها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً «فرغ» بالتشديد^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب، قرّر ذلك فقال: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمَشْرِكِينَ: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مَنْ يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السماوات، أي: عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. «وَالْأَرْضِ» أي: الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يمكنهم أن يقولوا: هذا فعل آلهتنا. فيقولون: لا ندري. فقل: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: الله يرزقنا، فقد تقرّرت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن، والآخر ضال وهو أنتم. فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالون حين أشركتم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض.

(١) المحتسب ١٩١/٢ - ١٩٢.

(٢) يعني بضم الفاء وبفتحتها، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٥ - ٣٤٦، والمحتسب ١٩١/٢ - ١٩٣، والمحرم الوجيز ٤/٤١٩، والدر المصون ٩/١٨٢.

«أو إياكم» معطوف على اسم «إن»، ولو عُطِفَ على الموضع لكان: «أو أنتم» ويكون «لَعَلِّي هُدَى» للأول لا غير. وإذا قلت: «أو إِيَّاكُمْ» كان للثاني أولى، وحذفت من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيار المبرّد. قال: ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة: أحذنا كاذب، وقد عرف المعنى، كما تقول: أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحذنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، وهكذا: ﴿وَلَيْتَآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١). و«أو» عند البصريين على بابها وليست للشك، لكنّها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يُرد المخير أن يبين وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة والفراء: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين^(٢)، وقال جرير:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً عدلت بهم طهيّة والربابا^(٣)
يعني: أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلما اشتد أمر الحرب فينا تأملنا رياحاً أو رزاما^(٤)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُشْلَوْنَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشَلُّ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُشْلَوْنَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ أي: اكتسبنا ﴿وَلَا تُشَلُّ﴾ نحن أيضاً

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/٣٦٢، ونقله الفراء عن المفسرين وقال: وهو في المعنى كذلك، غير أن العربية على غير ذلك؛ لا تكون أو بمنزلة الواو. وكذلك قال الزجاج في معاني القرآن ٤/٢٥٣، قال: وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى. قال الفراء: والمعنى في قوله: ﴿وَلَيْتَآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال. وهذا كما تقول للرجل: إن أحذنا لكاذب، فكذبته تكذيباً غير مكشوف.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/٨١٤، والكتاب ١/١٠٢ و٣/١٨٣، ومجاز القرآن ٢/١٤٨، والخزانة ١١/٦٩. ووقع فيها جميعاً: والخشابا، بدل: والربابا. قال البغدادى: أي: عدلت هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين!

(٤) لم نقف عليه.

﴿عَمَّا تَقُولُونَ﴾ أي: إنما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنه ينالني ضررُ كُفركم، وهذا كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] والله مُجازي الجميع. فهذه آية مُهادنة ومُتاركة، وهي منسوخة بالسيف. وقيل: نزل هذا قبل آية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي، فيثبُت المهتدي ويعاقب الضالَّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: القاضي بالحق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخلق. وهذا كله منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أروني» هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاء» المفعول الثالث، أي: عرّفوني هذه الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عز وجل، هل شاركت في خلق شيء، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تُعبُدونها؟ ويجوز أن يكون من رؤية البصر، فيكون «شركاء» حالا^(١).

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إن «كَلَّا» ردٌ لجوابهم المحذوف، كأنه قال: أروني الذين ألحقتُم به شركاء. قالوا: هي الأصنام. فقال: كَلَّا، أي: ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسَلناك

إِلَّا لِلنَّاسِ كَافَّةً، أَي: عَامَّةً، ففي الكلام تقديم وتأخير. وقال الزجاج: أَي: وما أرسلناك إِلَّا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ^(١). والكافَّةُ بمعنى الجامع.

وقيل: معناه: كافاً للناس، تكفُّهم عمَّا هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والهاء للمبالغة. وقيل: أَي: إِلَّا ذَا كَافَّةٍ، فحذف المضاف، أَي: ذا منع للناس من أن يَشُدُّوا عن تبليغك، أو ذا منع لهم من الكفر، ومنه: كَفَّ الثوب؛ لَأَنَّهُ ضَمَّ طرفيه.

﴿بَشِيرًا﴾ أَي: بالجنة لِمَن أطاع. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لِمَن كَفَرَ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله، وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عدداً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ﴾ فلا يغرَّتكم تأخيرُه. والميعادُ: الميقات. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعث. وقيل: وقتَ حضورِ الموت، أَي: لكم قبلَ يومِ القيامةِ وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه، فتعلمون حقيقةَ قولِي.

وقيل: أراد بهذا اليومَ يومَ بدر؛ لأنَّ ذلك اليومَ كان ميعادَ عذابهم في الدنيا في حُكْمِ الله تعالى.

وأجاز النحويون: «ميعادُ يومٍ» على أن يكون «ميعادُ» ابتداءً، و«يومٌ» بدلاً منه، والخبر: «لكم». وأجازوا «ميعادُ يوماً» يكون ظرفاً، وتكون الهاء في «عنه» ترجع إلى «يوم». ولا يصح: «ميعادُ يومٍ لا تستأخرون» بغير تنوين وإضافة «يومٍ» إلى ما بعده؛ إذا قَدَّرتِ الهاء عائدةً على اليوم؛ لأنَّ ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجلِ الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم^(٢).

(١) معاني القرآن للزجاج ٢٥٤/٤، وتعقبه أبو حيان في البحر ٢٨١/٧ بأنَّ «كَفَّ» ليس بمحفوظ أنَّ معناه: جمع. والمحفوظ في معناه: منع، والمعنى: إلا مانعاً لهم من الكفر. وينظر الدر المصون ١٨٥/٩.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣٤٨/٣، ومشكل إعراب القرآن ٥٨٨/٢، وقال السمين في الدر =

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَفَنُحْ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد كفار قريش ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيد عن قتادة: «ولا بالذي بين يديه» من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١). وقيل: من [أمر] الآخرة. وقال ابن جريج: قائل ذلك أبو جهل بن هشام^(٢).

وقيل: إنَّ أهل الكتاب قالوا للمشركين: صفة محمد في كتابنا فسألوه، فلمَّا سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب، قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي قبله من التوراة والإنجيل، بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم في مآلهم^(٣)، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أحراراً متناصرين. وجواب «لو» محذوف، أي: لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً.

= المصون ١٨٩/٩ : نصوا على أن الظرف إذا أضيف إلى جملة لم يُعد منها إليه ضمير إلا في ضرورة.

وقد قرئ بجميع ما سلف من وجوه. ينظر الكشف ٢٩٠/٣ ، والبحر ٢٨٢/٧ .

(١) أخرجه الطبري ٢٨٩/١٩ - ٢٩٠ .

(٢) التكت والعيون ٤٥١/٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): فيما لهم.

ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والرؤساء: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أغويتمونا وأضللتُمونا. واللغة الفصيحة: «لولا أنتم»، ومن العرب من يقول: «لولاكم» حكاها سيبويه؛ تكون «لولا» تخفض المضمَر، ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوز «لولاكم»؛ لأنَّ المضمَر عقيب المظهر، فلما كان المظهر مرفوعاً بالإجماع، وجب أن يكون المضمَر أيضاً مرفوعاً^(١).

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار، أي: ما ردّدناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم. ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلٌّ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين مصرّين على الكفر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المكر أصله في كلام العرب: الاحتيال والخديعة. وقد مكر به يَمَكُرُ، فهو ماکر ومكّار. قال الأخفش^(٢): هو على تقدير: هذا مكر الليل والنهار. قال النحاس^(٣): والمعنى - والله أعلم -: بل مكركم في الليل والنهار، أي: مُسَارَّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حَمَلْنَا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكركم بالليل والنهار صدنا^(٤). فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، فأضاف الأجل إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قبيل قولك: ليله قائم ونهاره صائم. قال المبرد: أي: بل مكركم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهاره

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٧٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٢، دون قوله: صدنا.

صائمٌ وليله قائمٌ، وأنشد لجريز:

لقد لُمْتَنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى ونمت وما ليلَ المَطِيِّ بنائم^(١)
وأنشد سيويه:

فنام ليلي وتجلَّى همِّي^(٢)

أي: نمت فيه. ونظيره: ﴿وَالْتَهَكَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقرأ قتادة: «بل مَكْرُ الليل والنهار» بتنوين «مكر» ونصب «الليل والنهار»،
والتقدير: بل مَكْرٌ كائنٌ في الليل والنهار، فحذف^(٣).

وقرأ سعيد بن جبير: «بل مَكْرٌ» بفتح الكاف وشدّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعه
بالابتداء والخبر محذوف. ويجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ دلّ عليه: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ»،
كَأَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا لَهُمْ: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدْيِ؟! قالوا: بل صَدَدْنَا مَكْرُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ^(٤).

وروي عن سعيد بن جبير: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليل والنهار عليهم
فغفلوا^(٥). وقيل: غرهم^(٦) طولُ السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ﴾
[الحديد: ١٦].

(١) ديوان جريز بشرح ابن حبيب ٩٩٣/٢، وسلف ٢٠/١١، وهو في الكتاب ١٦٠/١، والمقتضب ٣٣١/٤ وفيه قول المبرد بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٣٤٩/٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣٤٩/٣، ولم نقف عليه في الكتاب، والرجز لرؤية، وهو في ديوانه ص ١٤٢، والمقتضب ٣٣١/٤.

(٣) المحتسب ١٩٣/٢ - ١٩٤. قال ابن جني: وإن شئت علقتهما بنفس «مكر»، كقوله تعالى: ﴿أَوَّلُ لَيْلَةٍ فِي يَوْمٍ ذِي سَعْيٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥].

(٤) المحتسب ١٩٣/٢ - ١٩٤. قال ابن جني: المَكْرُ والكرور: اختلاف الأوقات. وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ٢٩٢/١٩، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣٤٩/٣.

(٦) قوله: غرهم، من (ظ).

وقرأ راشد: «بل مَكَرَّ الليل والنهار» بالنصب، كما تقول: رأيتَه مَقْدَمَ الحاجِّ، وإنَّما يجوز هذا فيما يُعرف؛ ولو قلتَ: رأيتَه مَقْدَمَ زيد، لم يجز؛ ذكره النحاس^(١).

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي: أشباهاً وأمثالاً ونُظَرَاء. قال محمد بن يزيد: ندُّ فلانٍ فلان^(٢)؟، أي: مثله. ويقال: نَدِيد، وأنشد:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نَدًّا وما تَيْمٌ لذي حَسَبٍ نَدِيدُ^(٣)
وقد مضى هذا في «البقرة»^(٤).

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أي: أظْهَرُوهَا، وهو من الأضداد؛ يكون بمعنى الإخفاء والإبداء؛ قال امرؤ القيس:

تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ مَعْشِرٍ عليَّ حِرَاصٍ لو يُسِرُّونَ مَقْتَلِي^(٥)
ويروى: «يُشِرُّونَ»^(٦).

وقيل: «وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ» أي: تَبَيَّنَتِ الندامةُ في أسرار وجوههم. وقيل: الندامةُ لا تظهر، وإنَّما تكون في القلب، وإنَّما يظهر ما يتولَّد عنها^(٧)، حَسَبَما تقدَّم بيانه في سورة يونس، وآل عمران^(٨).

(١) في إعراب القرآن ٣/٣٤٩ - ٣٥٠، وقراءة راشد في المحتسب ٢/١٩٣ - ١٩٤، والبحر ٧/٢٨٣. قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج. اهـ. وهو ابن نجيح الجُمَانِي، أبو محمد البصري. التهذيب ١/٥٨٤. وقد سلف ذكره ١/١٠٤ (حاشية).

(٢) في (م): فلان ند فلان.

(٣) البيت لجريز، وهو في ديوانه ١/٣٣١، وسلف ١١/٣٣٦.

(٤) ١/٣٤٧.

(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٣، وفيه: يُشِرُّونَ، بدل: يسرُّونَ، وهما روايتان كما سيرد. ووقع في (م): حراساً، وهو موافق لما في شرح المعلقات للنحاس ١/١٧ وللتبريزي ص ٣٧، وهو فيها برواية:

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراساً لو يُشِرُّونَ مقتلي

(٦) وهي رواية الديوان كما سلف، قال النحاس في شرح المعلقات ١/١٧: مَنْ روى: يُسِرُّونَ، فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتُمون، ويجوز معناه: يظهرون. أما يُشِرُّونَ فمعناه يظهرون لا غير.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٠.

(٨) سلف في سورة الأعراف ٩/٣٣٥، وسورة يونس ١١/٨، ولم نقف عليه في سورة آل عمران.

وقيل: إظهارهم الندامة قولهم: ﴿قَلَوْا أَن لَّنا كَرَّةٌ فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسْرُوا

النَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأغلل جمع غُلٍّ، يقال: في رقبته غُلٌّ

من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئة الخُلُق: غُلٌّ قَمْلٌ، وأصله: أن الغُلَّ كان يكون من

قِدٍّ^(١) وعليه شعرٌ فيَقْمَلُ. وَغَلَلْتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: ماله أَلٌّ

وغُلٌّ^(٢). والغُلُّ أيضاً والغُلَّة: حرارة العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ

يُغَلُّ غَلَلًا فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهري^(٣).

أي: جُعِلَت الجوامعُ في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل: من غير هؤلاء

الفريقين. وقيل: يرجع «الذين كفروا» إليهم.

وقيل: تم الكلامُ عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ

بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِـ

كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي

يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا

أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ

الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَتِنَا مُعْجِزِينَ

أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ قال قتادة: أي:

(١) القِدُّ هو السَّيْرُ يُقَدُّ من جلدٍ غير مدبوغ، القاموس (قدد).

(٢) أَلٌّ: دُفْعٌ في قفاه، وغُلٌّ: وَضْعُ الغُلِّ في يديه وعنقه، وهذا دعاء عليه. معجم متن اللغة (أل) و(غل).

(٣) في الصحاح: (غلل).

أغنياؤها ورؤساؤها وجبايرتها وقادة الشر للرسول: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(١).
 ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ أي: فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ لأنَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فَلَا يُعَذِّبُهُ. فردَّ الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ رِيقِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسعُه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقرر، أي: إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلُّ شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدلُّ على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تُغني عنكم غداً شيئاً. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنهم لا يتأملون.

ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ قال مجاهد: أي: قُرْبَى. والرُّفَّةُ: القُرْبَةُ^(٢).

وقال الأخفش^(٣): أي: إزلافاً، وهو اسمُ المصدر، فيكون موضعُ «قُرْبَى» نصباً، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا تقريباً.

وزعم الفراء أنَّ «التي» تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قول آخر - وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج - يكون المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زُلْفَى، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زُلْفَى، ثم حذف خبر الأولِ لدلالة الثاني عليه، وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف^(٤)

(١) أخرجه الطبري ٣٥٢/١٩، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٥١.

(٢) النكت والعيون ٢٩٧/٤. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٩٦/١٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/٦٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥١ وعنه نقل المصنف قول الفراء الزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٢٥٥/٤. وسلف البيت ١٨٨/١٠.

ويجوز في غير القرآن: باللتين وباللاتي وباللواتي وباللذنين، وبالذنين للأولاد خاصة^(١).

أي: لا تزيدكم الأموال عندنا رفعةً ودرجةً، ولا تقربكم تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: إلا من آمن وعمل صالحاً فلن يضره ماله وولده في الدنيا^(٢). وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنّبي المال والولد، فإنني سمعتُ فيما أوحيت: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٣).

قلت: قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم: وجنّبي المال والولد المطفئين، أو اللذين لا خيرَ فيهما، فأما المالُ الصالح والولدُ الصالح للرجل الصالح فينعم هذا! وقد مضى هذا في «آل عمران، ومريم، والفرقان»^(٤).

و«مَنْ» في موضع نصبٍ على الاستثناء المنقطع، أي: لكن مَنْ آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقربانه مني. وزعم الزجاج أنه في موضع نصبٍ بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في «تقربكم». النحاس: وهذا القول غلط؛ لأنَّ الكاف والميم للمخاطب، فلا يجوزُ البدل، ولو جاز هذا لجاز: رأيتك زيدا. وقول أبي إسحاق هذا هو قولُ الفراء، إلا أنَّ الفراء لا يقول: بدل، لأنَّه ليس من لفظ الكوفيين، ولكنَّ قوله يؤوّل إلى ذلك، وزعم أنَّ مثله: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] يكون منصوباً عنده بـ «ينفع». وأجاز الفراء أن يكون «مَنْ» في موضع رفعٍ بمعنى: ما هو إلا مَنْ آمن، كذا قال: ولستُ أحصلُ معناه^(٥).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٩٧ عن ابن زيد، ولم تقف عليه عن سعيد بن جبير.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨.

(٤) ١١٠/ ٥ و ١٣/ ١٤ و ٤٨٨/ ١٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥، وقول الفراء في معاني

القرآن ٢/ ٣٦٣.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَٰلِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فالضَّعْفُ: الزيادة، أي: لهم جزاء التضعيف. وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: لهم جزاء الأضعاف، فالضَّعْفُ في معنى الجمع. وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حقّ اليقين، وصلاة الأولى. أي: لهم الجزاء المضعَّف؛ للواحد عشرة إلى ما يُريد الله من الزيادة.

وبهذه الآية استدللَّ مَنْ فضَّل الغِنَى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنياً تقيّاً آتاه الله أجره مرّتين بهذه الآية^(١). ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

قراءة العامة: «جَزَاءُ الضَّعْفِ» بالإضافة. وقرأ الزُّهريُّ ويعقوبُ ونصر بن عاصم: «جزاء» منوَّناً منصوباً «الضعف» رفعاً^(٢)، أي: فأولئك لهم الضَّعْفُ جزاءً، على التقديم والتأخير. «وَجَزَاءُ الضَّعْفِ» على أن يجازوا الضعف. و«جزاء الضَّعْفِ» مرفوعان، الضَّعْفُ بدل من جزاء^(٣).

وقرأ الجمهور أيضاً: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ على الجمع، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لقوله: ﴿لِنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]. الزمخشريُّ: وقرئ «في الغرفات» بضمِّ الراء وفتحها وسكونها^(٤).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة وخلف: ﴿فِي الْغُرْفَةِ﴾ على التوحيد^(٥)؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفةُ قد يُرادُ بها اسمُ

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٣.

(٢) النشر ٢/٣٥١. و«جزاء» في هذه القراءة منصوب على الحال، كما ذكر أبو حيان في البحر ٧/٢٨٦.

(٣) الكشف ٣/٢٩٢. وقراءة: «جزاء الضعف» - برفعهما - ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٢٢ عن قتادة. وقراءة: «جزاء» بالرفع والتنوين «الضعف» بالنصب ذكرها الألوسي في روح المعاني ٢٢/١٤٩.

(٤) الكشف ٣/٢٩٢، والقراءة بفتح الراء وسكونها في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٨١ عن حمزة. وأما قراءة خلف المشهورة عنه فكقراءة الجمهور.

الجمع واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرفٌ من ياقوتٍ وزبرجدٍ ودُرٍّ. وقد مضى بيان ذلك^(١).

﴿ءَامِثُونَ﴾ أي: من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ في إبطال أدلتنا وحُجَجنا وكتابتنا. ﴿مُعْجِزِينَ﴾: معاندين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في جهنم؛ تُحَضِّرُهُم الزبانية فيها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ كرر تأكيداً. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد: إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد، بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يُخْلِفُهُ. وفيه إضمار، أي: فهو يُخْلِفُهُ عليكم؛ يقال: أَخْلَفَ له وأَخْلَفَ عليه، أي: يعطيكم خَلْفَهُ وبَدَلَهُ، وذلك البَدَلُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبحُ العبادُ فيه إلاَّ ومَلَكٌانِ ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، ويقول الآخر: اللهم أعْطِ مُسْكِيًا تَلْفًا»^(٢).

وفيه أيضاً عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أَنْفِقْ عليك...» الحديث^(٣). وهذه إشارة إلى الخَلْفِ في الدنيا بِمَثَلِ المنفق فيها إذا كانت

(١) ينظر ٢٩٩/١٠ و ٤٩١/١٥. وخبر ابن عباس سيأتي عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الزمر.

(٢) صحيح مسلم (١٠١٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٩٩٣)، وهو عند أحمد (٧٢٩٨)، والبخاري (٤٦٨٤).

النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا، فيكون كالدعاء - كما تقدّم^(١) - سواء في الإجابة أو التكفير أو الادّخار، والادّخارُ هنا مثله في الأجر^(٢).

مسألة: روى الدارقطني وأبو أحمد بن عدي عن عبد الحميد الهلالي، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أنفقَ الرجلُ على نفسه وأهله كُتبَ له صدقةٌ، وما وقى به الرجلُ عِرْضَهُ فهو صدقةٌ، وما أنفقَ الرجلُ من نفقةٍ فعلى الله خلفُها، إلّا ما كان من نفقةٍ في بنيانٍ أو معصية». قال عبد الحميد: قلتُ لابن المنكدر: ما «وقى الرجلُ عِرْضَهُ»؟ قال: يعطي الشاعرَ وذا اللسان^(٣). عبد الحميد وثّقه ابن معين^(٤).

قلت: أمّا ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غيرُ مثابٍ عليه ولا مخلوفٍ له. وأمّا البنيانُ فما كان منه ضروريًا يُكِنُّ الإنسانَ ويحفظُه، فذلك مخلوفٌ عليه ومأجورٌ ببنيانه، وذلك ليحفظ^(٥) بنيته وسترِ عورته؛ قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكنُه، وثوبٌ يوارِي عورته، وجِلْفٌ الخبز، والماء»^(٦). وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفى^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لَمَّا كان يقال في الإنسان: إِنَّهُ يَرْزُقُ عِيَالَهُ، والأُميرُ جنْدَه، قال: «وهو خيرُ الرّازقين» والرزاقُ من الخَلْقِ يَرْزُقُ، لكنَّ ذلك من

(١) ١٨٠/٣.

(٢) في (ظ): الآخرة، وكذلك وقع في أحكام القرآن لابن العربي ١٥٩٢/٣، والكلام فيه بنحوه.

(٣) سنن الدارقطني (٢٨٩٥)، والكامل ١٩٥٩/٥. وسلف ٢٦٨/٩ - ٢٦٩.

(٤) الكامل ١٩٥٨/٥، وعبد الحميد هو ابن الحسن الهلالي، وقال فيه أبو حاتم: شيخ، وضعفه ابن المديني وأبو زرعة والدارقطني. ميزان الاعتدال ٥٣٩/٢.

(٥) في (د) و(م): وكذلك كحفظ، وفي (خ): وذلك كحفظ.

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٠)، والترمذي (٢٣٤١) من حديث عثمان ؓ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥٧/٥. قوله: جلف الخبز، أي: وحده ليس معه إدام، أو: الخبز الغليظ اليابس.

(٧) ٢٦٧/٩ - ٢٦٩.

مالٍ يُملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تنفَى ولا تتناهى. ومن أخرج من العدم إلى الوجود فهو الرّازق على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(١) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ هذا متّصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [الآية: ٣١] أي: لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيعاً. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وأمه. ثم قال: ولو تراهم أيضاً يوم نُحْشَرُهُمْ جميعاً، العابدين والمعبودين، أي: نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ^(١) لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا استفهام، كقوله عز وجل لعيسى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] قال النحاس^(٢): فالمعنى: أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا أكذبتهم؛ كان في ذلك تبيكت لهم، فهو استفهام توبيخ للعبدين.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص في العبادة له. ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: يطيعون إبليس وأعوانه. وفي التفاسير^(٣): أن حياً يقال لهم: بنو مليح من خُزاعة؛ كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

(١) قرأ حفص: «يحشرهم» ويقول بالياء، والباقون بالنون، وهو ما وقع في النسخ. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٠٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وما قبله منه. وقول قتادة قبله أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) في (ظ): وفي التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا﴾ أي: شفاعاة ونجاة ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: عذاباً وهلاكاً. وقيل: أي: لا تملك الملائكة دفع ضرر عن عابديهم، فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا يَنْتَحِبْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا يَنْتَحِبْ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ﴾ أي: أسلافكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَ مَفْتَرٍ﴾ يعنون القرآن، أي: ما هو إلا كذبٌ مُخْتَلَقٌ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فتارة قالوا: سحر، وتارة قالوا: إفك. ويحتمل أن يكون منهم مَنْ قال: سحر، ومنهم مَنْ قال: إفك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ أو ثوبه بطلان ما جئت به، ولا سمعوه من رسولٍ بعث إليهم، كما قال: ﴿لَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. فليس لتكذيبهم وجهٌ يُتَشَبَّهُ به ولا شبهةٌ يُتَعَلَّقُ بها^(١) كما يقول أهل الكتاب - وإن كانوا مُبْطِلِينَ - : نحن أهلُ كتابٍ وشرائعٍ

(١) في (ظ): وجه متشبه به ولا شبهة متعلق بها، وفي الكشف ٢٩٣/٣ (والكلام منه): وجه متشبه ولا شبهة متعلق.

وَمُسْتَنِدُونَ إِلَى رَسَلٍ مِنْ رَسْلِ اللَّهِ.

ثم تَوَعَّدَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ الْحَقُّ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كَذَّبَ قَبْلَهُمْ أَقْوَامٌ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ بَطْشًا، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَأَوْسَعَ عِيشًا، فَأَهْلَكْتُهُمْ؛ كَثُمُودَ وَعَادٍ. ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: مَا بَلَغَ أَهْلُ مَكَّةَ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَا تِلْكَ الْأُمَمَ. وَالْمِعْشَارُ وَالْعُشْرُ سَوَاءٌ، لَغْتَانِ. وَقِيلَ: الْمِعْشَارُ عُشْرُ الْعُشْرِ^(١). الْجَوْهَرِيُّ^(٢): وَمِعْشَارُ الشَّيْءِ عُشْرُهُ، وَلَا يَقُولُونَ هَذَا فِي شَيْءٍ سِوَى الْعُشْرِ.

وقيل: مَا بَلَغَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِعْشَارَ شُكْرِ مَا أُعْطِينَاهُمْ؛ حَكَاهُ النَّقَاشُ. وَقِيلَ: مَا أُعْطَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَبْلِهِمْ مِعْشَارَ مَا أُعْطَاهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ وَالْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَيْسَ أُمَّةٌ أَعْلَمَ مِنْ أُمَّتِهِ، وَلَا كِتَابٌ أَبْيَنَ مِنْ كِتَابِهِ^(٣).

وقيل: الْمِعْشَارُ هُوَ عُشْرُ الْعَشِيرِ، وَالْعَشِيرُ هُوَ عُشْرُ الْعُشْرِ، فَيَكُونُ جُزْءًا مِنْ أَلْفٍ جُزْءٍ. الْمَارُودِيُّ^(٤): وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّقْلِيلِ.

﴿فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عِقَابِي فِي الْأُمَمِ، وَفِيهِ مَحْذُوفٌ وَتَقْدِيرُهُ: فَأَهْلَكْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًّى﴾ وَفُرْدَى ثَمَّ تَنَفَّكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ تَمَمَّ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَيْ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ﴾ أَيْ: أَذْكُرْكُمْ وَأَحْذَرْكُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ. ﴿بِوَحْدَةٍ﴾ أَيْ: بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى جَمِيعِ الْكَلَامِ، تَقْتَضِي نَفْيَ الشُّرْكِ وَإِثْبَاتَ

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.

(٢) في الصحاح (عشر).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥، وما قبله منه.

الإله. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله^(١)، وهذا قول ابن عباس والسُّدي^(٢). وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله^(٣). وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كل المواضع^(٤).

وقيل: تقديره: بخصلة واحدة، ثم بيّنها بقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمْسَةِ ذُرِّيِّاتٍ﴾ فتكون «أن» في موضع خفضٍ على البدل من «واحدة»، أو في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هي أن تقوموا. ومذهب الزجاج^(٥) أنها في موضع نصبٍ بمعنى: لأن تقوموا.

وهذا القيامُ معناه: القيامُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هو ضدُّ القعود، وهو كما يقال: قام فلانٌ بأمر كذا. أي: لوجه الله والتقرب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمْسَةِ ذُرِّيِّاتٍ﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿مِثْلَ خَمْسَةِ ذُرِّيِّاتٍ﴾ أي: وُحداناً ومُجتمعين؛ قاله السُّدي. وقيل: منفرداً برأيه ومُشاوِراً لغيره، وهذا قولٌ مأثور. وقال القُتبي: مناظراً مع غيره ومفكراً في نفسه^(٦)، وكله متقارب.

ويحتمل رابعاً: أنَّ المِثْلَى عملُ النهار، والفُرَادَى عملُ الليل؛ لأنه في النهار مُعَانٌ، وفي الليل وحيد؛ قاله الماوردي^(٧).

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٢٥٤/٣، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٢٤٠/٥.

(٢) النكت والعيون ٤٥٥/٤ عن السدي، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في الدر المنثور ٢٤٠/٥، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ٣٠٤/١٩.

(٤) النكت والعيون ٤٥٥/٤.

(٥) في معاني القرآن له ٢٥٧/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣٥٤/٣.

(٦) النكت والعيون ٤٥٦/٤، وقول ابن قتيبة بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٨. ووقع في (ظ): ومتفكراً مع نفسه.

(٧) في النكت والعيون ٤٥٦/٤.

وقيل: إنما قال: «مَثْنَى وَفُرَادَى» لأنَّ الذهنَ حجةُ الله على العباد، وهو العقل، فأوفَرهم عقلاً أوفَرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فُرَادَى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تَقَابَلَ الذهنان، فترأى من العلم لهما ما أضعِف على الانفراد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ﴾ الوقف عند أبي حاتم وابن الأنباري على:

﴿ثُمَّ تَنفَكُّوْا﴾^(١).

وقيل: ليس هو بوقف؛ لأنَّ المعنى: ثم تنفكروا: هل جرَّبتُم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جنة، أو في أحواله من فساد، أو اختلَفَ إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسحر، أو تعلَّم الأفاصيصَ وقرأ الكتب، أو عرَفْتُموه بالطمع في أموالكم، أو تَقْدِرُونَ على معارضته في سورة واحدة؟ فإذا عرفْتُم بهذا الفكر صدقَه، فما بالُ هذه المعاندة؟!

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي «صحيح» مسلم عن ابن عباس قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: مَنْ هذا الذي يَهْتِفُ؟! قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب» فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقِي؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ». قال: فقال أبو لهب: تَبَّ لك! أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخرِ السورة^(٢).

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٨٤٧/٢، وذكره عن أبي حاتم ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٢٥/٤.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨)، وهو عند أحمد (٢٨٠١)، والبخاري (٤٩٧١). قوله: ورهطك منهم المخلصين، قال أبو العباس في المفهم ٣٨٤/٧: ظاهر هذا أنه كان قرأناً يُتلى، وأنه نُسخ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف، ولا تواتر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: جُعِلَ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ذلك الجُعْلُ لكم إِنْ كُنْتُ سَأَلْتُكُمْوه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: رقيبٌ وعالمٌ وحاضِرٌ لأعمالي وأعمالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحجةَ ويُظهِرُها. قال قتادة: بالحقِّ: بالوحي. وعنه: الحقُّ القرآن^(١). وقال ابن عباس: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ علامُ الغيوبِ^(٢).

وقرأ عيسى بن عمر: «عَلَامُ الْغُيُوبِ»^(٣) على أنه بدلٌ، أي: قُلْ: إِنْ رَبِّي عَلَامُ الْغُيُوبِ يقذفُ بالحقِّ. قال الزجاج^(٤): والرفعُ من وجهين: على الموضع؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ رفعٍ، أو على البدل ممَّا في «يقذف». قال النحاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمارٍ مبتدأ. وزعم الفراء أن الرفع في مثل هذا أكثرُ في كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إِنَّ»، ومثله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]^(٥).

(١) أخرجه الطبري ٣٠٧/١٩ بلفظ: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي «عَلَمُ الْغُيُوبِ. قُلْ جَلَّ لَعْنُ» أي: القرآن. وسيرد في الآية التي بعدها.

(٢) ذكره الرازي ٢٧٠/٢٥ دون نسبة، وربطه بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٤) في معاني القرآن ٢٥٧/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٥٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٦٤.

وقرئ: «الغيوب» بالحركات الثلاث، فالْغُيُوب كالبيوت، والغُيُوب كالصَّيُود^(١)، وهو الأمر الذي غاب وخَفِيَ جدًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس^(٢): والتقدير: جاء صاحب الحق، أي: الكتاب الذي فيه البراهين والحجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان، أي: ما يخلق الشيطان أحداً^(٣) ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، فـ «ما» نفْي. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى: أي شيء، أي: جاء الحق؛ فأَيُّ شيء بقي للباطل حتى يُعيدَه ويُبْدِئَه، أي: فلم يَبْقَ منه شيء، كقوله: ﴿فَهَلْ رَأَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] أي: لا ترى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَأَيْتُ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ وذلك أَنَّ الكفار قالوا: تركت دينَ آبائِكَ فَضَلَلْتُ. فقال له: قل يا محمد: إِنْ ضَلَلْتُ - كما تزعمون - فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي. وقراءة العامة «ضَلَلْتُ» بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وثَّاب وغيره: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ» بكسر اللام وفتح الضاد من «أَضِلُّ»^(٤). والضلالُ والضلالةُ ضدُّ الرشاد، وقد

(١) في (ظ): فالغيوب بالرفع والخفض كالبيوت والبيوت والغيون والعيون وبالنصب كالصيود. اهـ.
والصَّيُود كَقَبُول: الصياد. القاموس (صاد). وقع في (م): كالصبور، وهو موافق لما في مطبوع
الكشاف ٢٩٥/٣، والكلام منه.

وقرأ بكسر الغين حيث وقع حمزة وأبو بكر، والباقون بضمها. السبعة ص ١٧٨-١٧٩، والتيسير
ص ١٠١، والنشر ٢٢٦/٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/٣٥٥، وما قبله منه، وأخرج الخبر عن قتادة الطبري ١٩/١٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/١٠٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٢٦.

ضَلَلْتُ - بفتح اللام - أَضِلُّ بكسر الضاد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلَلْتُ» بالكسر «أَضِلُّ»^(١). أي: إثمُ ضلالتِي على نفسي. ﴿وَلِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِجَىٰ إِلَىٰ رَيْتٍ﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ مَن دَعَاه قَرِيبُ الإجابة. وقيل: وجهُ النَّظْمِ: قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَبَيِّنُ الْحُجَّةَ، وضلالٌ مَن ضلَّ لَا يُبْطِلُ الْحُجَّةَ، ولو ضَلَلْتُ لَأَضْرَرْتُ بِنَفْسِي، لَا أَنَّهُ يُبْطِلُ حُجَّةَ اللَّهِ، وَإِذَا اهْتَدَيْتُ فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ؛ إِذْ ثَبَّنِي عَلَى الْحُجَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت^(٢) يُضْطَرُّون فيه إلى معرفة الحق. والمعنى: لو ترى إذ فرغوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم؛ روي معناه عن ابن عباس^(٣). الحسن: هو فَرَّغَهُمْ في القبور من الصيحة^(٤). وعنه: أَنَّ ذَلِكَ الْفَرْغَ إِنَّمَا هُوَ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ^(٥). وقاله قتادة^(٦).

وقال ابن معقل: إِذَا عَايَنُوا عِقَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٧).

(١) بالكسر أيضاً كما في مختار الصحاح (ضلل)، والكلام من الصحاح (ضلل).

(٢) بعدها في النسخ عدا (ظ): ماء، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ٣٠٩/١٩.

(٤) النكت والعيون ٤٥٨/٤.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ١٣٣/٢، والطبري ٣١٢/١٩. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٢٦/٤: وهذا أرجح الأقوال عندي.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي أخرجه عبد الرزاق ١٣٣/٢ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا﴾ أي: في الدنيا حين رأوا بأس الله. وأخرجه عنه الطبري ٣١٢/١٩ - ٣١٣، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٠.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ٣١٣/١٩.

السُّدِّيُّ: هو فَرَعُهُمْ يَوْمَ بدرٍ حين ضُرِبَتْ أعناقُهُمْ بسيوفِ الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة^(١).

سعيد بن جبير: هو الجيش الذي يُخَسَفُ بهم في البداء، فيبقى منهم رجلٌ، فيخبرُ الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فَرَعُهُمْ^(٢).

﴿فَلَا قُوَّةَ﴾: فلا نجاة؛ قاله ابن عباس^(٣). مجاهد: فلا مَهْرَبَ^(٤).

﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريبٌ لا يَغْرُبُونَ عنه ولا يفوتونه.

وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخر الزمان الكعبة ليُخْرِبوها، فلَمَّا يدخلون^(٥) البداء يُخَسَفُ بهم، فهو الأخذُ من مكانٍ قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبرٌ مرفوعٌ عن حذيفة - وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»^(٦) - قال: قال رسول الله ﷺ؛ وَذَكَرَ فِتْنَةً تكون بين أهلِ المشرقِ والمغرب: «فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السُّفْيَانِيُّ من الوادي اليابس في قَوْره ذلك، حتى يَنْزِلَ دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المَشْرِقِ حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة - يعني مدينةً بغداد - قال: فيقتلون أكثرَ من ثلاثة آلاف، ويفتَضُّون أكثرَ من مئة امرأة، ويقتلون بها ثلاثَ مئة كَبْشٍ من وَلَدِ العباس^(٧)، ثم يخرجون متوجِّهين إلى الشام، فتخرج رايةٌ هدى من

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٨، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٠.

(٢) النكت والعيون ٤/٤٥٨، وأخرجه الطبري ١٩/٣١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٣١٣.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨.

(٥) في (خ) و(م) وكما يدخلون. وفي (د): فلا يدخلون، والمثبت من (ظ). ووقع في الكشف ٣/٢٩٦ والخبر فيه بنحوه: فإذا دخلوا البداء خسف بهم.

(٦) ص ٦٠٩.

(٧) في (ظ): بني إسماعيل، بدل: ولد العباس.

الكوفة، فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين، فيقتلونهم لا يُفْلِتُ منهم مُخْبِرٌ وَيَسْتَنْقِذُونَ ما في أيديهم من السَّبي والغنائم، وَيَحُلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام، فيقول: يا جبريلُ، اذهب فأبْذُهم، فيضربها برجله ضربةً يَخْسِفُ الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. فلا يبقى منهم إلا رجلان؛ أحدهما بشيرٌ والآخرُ نذيرٌ، وهما من جُهَيْنَةَ. ولذلك جاء القول: وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقين^(١).

وقيل: «أُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أي: قُبِضَتْ أرواحُهم في أماكنها، فلم يُمَكِّنْهم الفرارُ من الموت، وهذا على قولٍ من يقول: هذا الفزعُ عند النَّزع.

ويحتمل^(٢) أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فَزَعَ الرجلُ، أي: أجاب الصَّارِخَ الذي يستغيثُ به إذا نزل به خوفٌ. ومنه الخبرُ إذ قال للأنصار: «إِنكُمْ لَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ، وَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ»^(٣).

ومَنْ قال: أراد الخسفَ أو القتلَ في الدنيا كيومٍ بدرٍ قال: أُخِذُوا في الدنيا قبل أن يُؤْخَذُوا في الآخرة. ومَنْ قال: هو فزعُ يومِ القيامة قال: أُخِذُوا من بطن الأرض إلى ظَهرِها. وقيل: «أُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ»: من جهنم فألقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنْتَ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ أي: بالقرآن. وقال مجاهدٌ: بالله عزَّ وجلَّ. الحسن: بالبعث. قتادة: بالرسول ﷺ^(٤). ﴿وَأَنْتَ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال ابن

(١) أخرجه الطبري ٣١٠/١٩ - ٣١١. وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث موضوع.

(٢) في (ظ): ويجوز.

(٣) سلف ٤٠٩/٦.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٥٩، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ٣١٤/١٩.

عباس والضحاك: التناوشُ: الرَّجعة، أي: يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك^(١)! ومنه قول الشاعر:

تَمَنَّى أَنْ تَوُوبَ إِلَيَّ مَيِّ وليس إلى تَنَاوُشِهَا سَبِيلُ^(٢)

وقال السُّدِّي: هي التوبة^(٣)، أي: طلبوها وقد بَعُدَتْ؛ لأنه إِنَّمَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ فِي الدُّنْيَا. وقيل: التناوشُ: التناول؛ قال ابن السَّكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً لِيَأْخُذَ بِرَأْسِهِ وَلَحْيَتِهِ: نَاشَهُ يَتَوَشَّهُ نَوْشاً، وأنشد:

فَهِيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلَا نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَارَ الْقَلَا^(٤)

أي: تتناول ماء الحوض من فوق، وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشُّرْبِ قَلَوَاتٍ، فلا تحتاج إلى ماءٍ آخَرَ. قال^(٥): ومنه المناوشةُ في القتال، وذلك إذا تَدَاوَى الْفَرِيقَانِ. وَرَجُلٌ نَوْشٌ، أي: ذو بطش. والتناوشُ: التَّناوُلُ، والانتياشُ مثله. قال الراجز:

كَانَتْ تَنُوشُ الْعَنْقَ انْتِيَاشَا^(٦)

(١) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ٣١٧/١٩ و٣١٩. وذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٤/٥٩.

(٢) النكت والعيون ٤/٥٩، والمحزر الوجيز ٤/٢٧. ووقع في (ظ): تَوُوبَ إِلَيْهِ، وفي المحزر الوجيز: تَوُوبَ إِلَيْكَ.

(٣) النكت والعيون ٤/٥٩.

(٤) إصلاح المنطق ص ٤٧٩، والصحاح (نوش)، والكلام منه. وهما في معاني القرآن للفراء ٢/٣٦٥، وتفسير الطبري ٣١٥ - ٣١٦، والمنصف لابن جني ١/١٢٤، والاقتضاب ص ٤٢٧، والخزانة ٩/٤٣٧، وذكر سيبويه في الكتاب ٣/٥٣ البيت الأول. قال البطلوسي: لا أعلم لمن هذا الرجز. وقال البغدادي: وهذا من أبيات سيبويه للخمسين التي لا يعلم قائلها، وقال ابن بري: هذا الرجز لغيلان ابن حريث الرُبَيْعِي، ولم أقف على خبر لغيلان. اهـ والضمير في قوله: فَبَيَّ، لِلْإِبْلِ. اللسان (نوش).

(٥) يعني ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص ٤٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوش)، وما قبله منه.

(٦) الصحاح واللسان (نوش)، وهو فيهما برواية: باتت تنوش، والعنق: ضَرْبٌ من سير الدابة والإبل. الصحاح (عنق).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنى لهم تناوُلُ الإيمانِ في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا^(١).

وقرأ أبو عمرو والكسائي والأعمش وحمزة: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ بالهمز^(٢). النحاس^(٣): وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأنَّ «التناوُش» بالهمز: البُعْدُ، فكيف يكون: وَأَنَّى لَهُمُ البُعْدُ من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءة جائزة حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يُتَنَاولُ بها هذا المتناوُلُ^(٤) البعيد. فأحد الوجهين أن يكون الأصلُ غيرَ مهموز، ثم هُمزَت الواو لأنَّ الحركة فيها خَفِيفَةٌ^(٥)، وذلك كثيرٌ في كلام العرب. وفي المصحفِ الذي نقلته الجماعةُ عن الجماعة: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتَ﴾ [المرسلات: ١١]، والأصلُ: «وُقَّتَت»؛ لأنه مشتقٌّ من الوقت. ويقال في جمع دار: أُذُورُ^(٦).

والوجهُ الآخرُ ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون مشتقاً من النيش، وهو الحركةُ في إبطاء، أي: من أين لهم الحركةُ فيما قد بَعُدَ^(٧). يقال: نَاشْتُ الشيء: أخذته من بُعْدٍ، والنيشُ: الشيءُ البطيء. قال الجوهري^(٨): التناوُشُ - بالهمز - : التأخُّر والتباعد. وقد نَاشْتُ الأمرُ أَنَاشُهُ نَاشاً: أَخَّرْتَهُ، فانتَاشَ. ويقال: فَعَلَهُ نَيْشاً، أي: أخيراً. قال الشاعر:

(١) الصحاح (نوش).

(٢) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر السبعة ص ٥٣٠، والتسير ص ١٨١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٦.

(٤) في (م): ولا يتأول بها هذا المتأول، وفي (ظ): ولا يتناول بهذا هذا التأويل.

(٥) في (ظ): خفيفة.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٩: وكلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمُّها لازمة؛ إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت لم تُبدل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٩.

(٨) في الصحاح (ناش).

تَمَنَّى نَشِيشًا أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَّثْتُ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورًا^(١)
وقال آخر:

قَعَدْتُ زَمَانًا عَنْ طِلَابِكَ لِلْعُلَا وَجِئْتُ نَشِيشًا بَعْدَ مَا فَاتَكَ الْخَبِرُ^(٢)
وقال الفرّاء: الهمزُ وتَرَكُ الهمزُ في التناوُسِ مُتَقَارِبٌ، مثل: ذِمْتُ الرَّجُلَ وَذَأَمْتُهُ،
أي: عِبتُهُ.

﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ لَهْمٌ﴾ قال: الردّة، سألوهُ وليس بحين ردّة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذُفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ أي: بالله عزّ وجلّ. وقيل: بمحمد ﷺ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَقْذُفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ العرب تقول لكلّ مَنْ تكلّم بما لا يحقّهُ^(٤): هو يقذف ويرجم بالغيب. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يَرْجُم ولا يُصِيب^(٥)، أي: يرمون بالظنّ فيقولون: لا بعث ولا نشور ولا جنّة ولا نار، رَجْمًا منهم بالظنّ؛ قاله قتادة^(٦).

وقيل: «يقذفون» أي: يرمون في القرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين. وقيل: في محمد، فيقولون: ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنون. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إنّ

(١) معاني القرآن للفرّاء ٣٦٥/٢، وتفسير الطبري ٣١٥/١٩، والصحاح (نأش)، ونسبه البصري في الحماسة ٣٧/٢، والزمخشري في المستقصى ٣٠٢/١، وصاحب اللسان (نأش) لنهشل بن حرّيّ.

(٢) في (خ) و(د): الخير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للفرّاء ٣٦٥/٢، وتهذيب اللغة ٤١٧/١١، واللسان (نوش).

(٣) أخرجه الطبري ٣١٧/١٩، وسلف بنحوه عن ابن عباس والضحاك.

(٤) في (ظ): يحقّقه، وحقّ الأمرُ يحقّهُ وأحقّهُ: كان منه على يقين. اللسان (حقق).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٥٦/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٣٢٠/١٩.

الله بَعْدَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا صِدْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وقيل: أراد البُعْدَ عن القلب، أي: من مكان بعيدٍ عن قلوبهم.

وقرأ مجاهد: «وَيُقَذَّفُونَ بِالْغَيْبِ» غير مسمًى الفاعل، أي: يُرْمَوْنَ به^(١). وقيل: يُقَذَّفُ به إليهم مَنْ يُغْوِبُهُمْ وَيُضِلُّهُمْ.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ﴾ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حِيلَ بينهم وبين النجاة من العذاب. وقيل: حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهلبيهم. ومذهب قتادة أنَّ المعنى: أنهم كانوا يشتهون لَمَّا رَأَوْا العذاب أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ جَلًّا وَعِزًّا، وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله، فحِيلَ بينهم وبين ذلك؛ لأنَّ ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصل: «حُولَ»، فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياءً، ثم حُذِفَتْ حركتها لثقلها^(٢).

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ الأشياءُ جمعُ شَيْعٍ، وشَيْعٌ جمعُ شَيْعَةٍ. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: بَمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى الواحد.

﴿مُرِيبٍ﴾ أي: يُسْتَرَابُ به، يقال: أَرَابَ الرَّجُلُ، أي: صار ذا ريبة، فهو مُرِيبٌ. وَمَنْ قَالَ: هُوَ مِنَ الرَّيْبِ - الَّذِي هُوَ الشُّكُّ وَالتَّهْمَةُ - قَالَ: يُقَالُ: شَكٌّ مُرِيبٌ، كما يُقَالُ: عَجَبٌ عَجِيبٌ، وشِعْرٌ شَاعِرٌ، في التأكيد.

خُتِمَتِ السُّورَةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ١٩٧/٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٢٧: معناه: ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٧، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣٢٢.

سورة فاطر

مكية في قول الجميع ، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مثنى وثلاث وربع
يزيد في الخلق ما يشاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثة أوجه:
الخفض على النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح. وحكى
سيبويه: الحمد لله أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعِلِ الملائكة»^(١). والفاطر: الخالق.
وقد مضى في «يوسف»^(٢) وغيرها. والفطر: الشق عن الشيء؛ يقال: فطَرْتُهُ فانفطر.
ومنه: فطَرَ ناب البعير: طَلَعَ، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء: تَشَقَّق. وسيف فطار،
أي: فيه تشقق؛ قال عنتره:

وسيفي كالعقيقة فهو كمنعي سلاحي لا أقل ولا فطارا^(٣)

والفطر: الابتداء والاختراع؛ قال ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطَرْتُها، أي: أنا
ابتدأتها. والفطر: حلب الناقة بالسبابة والإبهام^(٤). والمرادُ بِذِكْرِ السماوات والأرض

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٦٢/ ٢ - ٦٣ .

(٢) ٤٦٣/ ١١ .

(٣) ديوان عنتره ص ٤٣ ، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٨٢ ، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة:
العقيقة: لمعة البرق. كمنعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي، أقل: به قلل، والفطار: الذي لم يصلق،
فهو متشقق.

(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/ ٤٧٣ ، والطبري ٩/ ١٧٥ ،
وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧١ - ٧٢ ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٨ .

العالم كله، ونَبَّ بهذا على أَنَّ مَنْ قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة.

﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لأنَّه لِمَا مَضَى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعول ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ «فاعلاً» إذا كان لِمَا مَضَى لم يعمل^(١) شيئاً، وإعماله على أنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الحمدُ لله فَطَرَ السماواتِ والأرضَ» على الفعل الماضي^(٢).

﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلُ الملائكة» بالرفع^(٣). وقرأ خُلَيْد بن نَشِيط: «جَعَلَ الملائكة»^(٤) وكلُّه ظاهر.

﴿أُولَ الْأَجْنَحَةِ﴾ نعتٌ، أي: أصحابُ أجنحةٍ. ﴿مَتْنًى وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة^(٥)، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةٌ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهُم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العباد برحمةٍ أو نقمة^(٦).

وفي «صحيح» مسلم^(٧) عن ابن مسعود ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّ مئة جناح.

وعن الزُّهري: أَنَّ جبريلَ عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيتَ إسرافيلَ، إِنَّ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٥٩، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة: ص ١٢٣، والمحتسب ٢/١٩٨.

(٣) القراءات الشاذة: ص ١٢٣، والمحتسب ٢/١٩٨.

(٤) المحتسب ٢/١٩٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/٣٢٦.

(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦١. وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٤.

(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لَأَثْنِي عَشَرَ جَنَاحاً^(١)، منها جناحٌ بِالْمَشْرِقِ، وجناحٌ بِالْمَغْرِبِ، وَإِنَّ الْعَرْشَ لَعَلَى كَاهِلِهِ، وإنه في الْأَحْيَانِ لِيَتَضَاءُلُ لِعَظْمَةِ اللَّهِ حتى يعود مثل الْوَصْعِ - وَالْوَصْعُ: الْعَصْفُورُ الصَّغِيرُ - حتى ما يحمل عرشَ رَبِّكَ إِلَّا عَظْمَتُهُ^(٢).

و«أُولُو» اسمُ جمعٍ لـ«ذو»، كما أن هؤلاء اسم جمع لـ«ذا»، ونظيرُهُما في الِاتِّمَكانَةِ: الْمَخاضُ وَالْخَلْفَةُ^(٣). وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنًى وَثُلُثًى وَرُبْعًى﴾ في «النساء» وأنه غيرُ مَنْصَرِفٍ^(٤).

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: في خَلْقِ الملائكة، في قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدوي. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء. وقال الزُّهريُّ وابنُ جُرَيْجٍ: يعني حُسْنَ الصوت^(٥). وقد مضى القولُ فيه في مقدِّمة الكتاب^(٦). وقال الهيثمُ الفارسيُّ: رأيت النبي ﷺ في منامي، فقال: أنت الهيثمُ الذي تُزَيِّنُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِكَ، جزاك الله خيراً^(٧).

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ الْمَلَاخَةُ فِي الْعَيْنِينَ، وَالْحُسْنَ فِي الْأَنْفِ، وَالْحَلَاوَةُ فِي الْفَمِ^(٨).

(١) في النسخ: لاثني عشر ألف جناح، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٢٢١)، وذكره أبو الليث ٨٠/٣، والزمخشري في الكشاف ٢٩٨/٣.

(٣) الكشاف ٢٩٨/٣. والمخاض اسم للنوق الحوامل، واحداثها خَلْفَةٌ. النهاية (مخض).

(٤) ٣٠/٦.

(٥) النكت والعيون ٤/٤٦٢، وقول الزهري أخرجه البيهقي في الشعب (١١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ٢١/١.

(٧) المحرر الوجيز ٤/٤٢٩.

(٨) أخرجه ابن عدي ٣/٩١٧، والبيهقي في الشعب (٩١٦) مختصراً بذكر الملاحة في العينين. وكذا ورد في المحرر الوجيز ٤/٤٢٩، والكشاف ٢٩٨/٣.

وقيل: الخطُّ الحسن. وقال مهاجر الكلاعي: قال النبي ﷺ: «الخطُّ الحسنُ يزيدُ الكلامَ وضوحاً»^(١).

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن^(٢)؛ ذكره القسيري.

النقاش: هو الشعر الجعد. وقيل: العقل والتميز. وقيل: العلوم والصنائع^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشري^(٤): والآية مُطلقة تتناول كلَّ زيادةٍ في الخلق؛ من طولِ قامَةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمَامٍ في الأعضاء، وقوةٍ في البطش، وحَصَافَةٍ في العقل، وجَزَالَةٍ في الرأي، وجرأةٍ في القلب، وسَمَاحَةٍ في النفس، ودَلَاقَةٍ في اللسان، ولَبَاقَةٍ في التكلم، وحُسْنٍ تأتُّ في مُزاوَلَةِ الأمور؛ وما أشَبَهَ ذلك ممَّا لا يحيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكُ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يَفْتَحُ الله للناس من رحمة» - بالرفع - تكونُ «ما» بمعنى الذي^(٥).

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٦٠/٣ ، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٢٩/٤ ، والذهبي في الميزان ٣٥٨/٢ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشف ٢٩٨/٣.

(٣) النكت والعيون ٤٦٢/٤ .

(٤) في الكشف ٢٩٨/٣ .

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٢٦٢/٤ : ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣٦٠/٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إن الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به الله من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِكُ من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيق وهداية^(١).

قلت: ولفظ الرحمة يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذكر. وفي «موطأ» مالك^(٢): أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنَا بِنُوءِ الْفَتْحِ، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكْرُ الشُّكْرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصبُ والخَفْضُ، فالرفعُ من وجهين: أحدهما بمعنى: هل من خالقٍ إلا الله؛ بمعنى ما خالقٌ إلا الله. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ الله، و«مِنْ» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخفضُ على اللفظ^(٤).

(١) النكت والعيون ٤/٤٦٢-٤٦٣. وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المشور ٥/٢٤٤.

(٢) ١/١٩٢.

(٣) ١/٤٢٩ و ٢/٤٠٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٠. وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص ١٢٣، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: مَنْ خَلَقَ الشرَّ؟ فقال: سبحانه الله! هل مِنْ خالقي غَيْرُ الله جلَّ وعَزَّ خَلَقَ الخيرَ والشرَّ^(١).

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هل مِنْ خالقي غَيْرِ الله﴾ بالخفض. الباقون بالرفع^(٢).
﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: المطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلَافٌ تُؤَفِّكُونَ﴾ من الألفك - بالفتح - وهو الصَّرف؛ يقال: ما أَفَفَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفَكَ عنه. وقيل: من الإفك - بالكسر - وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدْقِ والصَّواب، أي: مِنْ أَيْنَ يَقَعُ لَكُمْ التَّكْذِيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَرِيةِ لأنه نفَى خالقاً غيرَ الله، وهم يُثْبِتُونَ معه خالقيْنَ، على ما تقدَّم في غير موضع^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٤)
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريش ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، ولينأسى بِمَنْ قَبْلَهُ فِي الصَّبْرِ. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةُ وابنُ مُخَيَّصٍ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمًى الفاعل^(٥). واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٦)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وغَطَّ للمُكَذِّبِينَ للرسول بعد إيضاح

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠.

(٢) السبعة ص ٥٣٤، والتيسير ص ١٨٢.

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و ٢٨٥.

(٤) السبعة ص ١٨١، والتيسير ص ٨٠، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

الدليل على صحة قوله: إِنَّ الْبَعْثَ وَالْثَوَابَ وَالْعِقَابَ حَقٌّ. ﴿فَلَا تَغْرَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]^(١).

﴿وَلَا يَغْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم: «الغُرور»: الشيطان^(٢). و«غُرور»: جمع غَرٍّ، و«غَرٌّ مصدر». ويكون «الغُرور» مصدرًا، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق^(٣)؛ لأنَّ «غَرَّزَتْه» متعدٌ، والمصدر [من] المتعدي إنما هو على فعل؛ نحو: ضربته ضربًا، إلَّا في أشياء يسيرة لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمته لزومًا، ونَهَكَه المرض نُهوًا. فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة.

وقراءة العامة: ﴿الْغُرُورُ﴾ بفتح الغين: وهو الشيطان، أي: لا يَغْرَنَّكُمْ بوساوسه في أنه تعالى^(٤) يتجاوز عنكم لفضلكم. وقرأ أبو حيوة وأبو السَّمَال العدوي ومحمد ابن السَّمِيع: «الغُرور» برفع الغين^(٥)، وهو الباطل، أي: لا يَغْرَنَّكُمْ الباطل. وقال ابن السكيت: والغُرور بالضم: ما اغترَّ به من متاع الدنيا^(٦). قال الزجاج^(٧): ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارٍّ، مثل قاعد وقعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشَبَّه بقولهم:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦١. وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٥.

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٦٧، وأخرجه الطبري ١٩/٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/٤٢٩: سماك العبدي. وسلف ١٤/٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوة وابن السميع قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص ٣٦٧، والصحيح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/٢٦٣.

نَهَكَهُ الْمَرَضُ نُهُوكًا، وَلَزِمَهُ لُزُومًا^(١). الزمخشري^(٢): أو مصدر «غره» كاللُزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فَعَادُوهُ وَلَا تُطِيعُوهُ. وبدلُكم على عداوته إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانُه إضلالكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ الآية [النساء: ١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾. ثُمَّ لَا يَبْقَى لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصص علينا قصَّته، وما فعلَ بأبينا آدمَ ﷺ، وكيف انتدبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على^(٣) ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عياض يقول: يا كَذَّابُ يا مُفْتَرٍ، اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسُبَّ الشَّيْطَانَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَأَنْتَ صَدِيقُهُ فِي السِّرِّ. وقال ابن السَّمَاكِ: يا عَجَباً لِمَنْ عَصَى الْمُحْسِنَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِإِحْسَانِهِ، وَأَطَاعَ اللَّعِينَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بَعْدَاوَتِهِ! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوِّداً^(٤).

و﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيشْتِي ويُجمع ويؤنَّث^(٥). ويكون بمعنى النَّسَبِ، فيكون موحَّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَاتَّخِذُوا لَهُمْ عَدُوًّا لِحُجَّتِهِ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدو. النحاس^(٦): فأما

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٣٨/٥.

(٢) في الكشف ٣٠٠/٣.

(٣) في (د): مع.

(٤) ١٣/٣.

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣٦١، وما قبله منه.

قول بعض النحويين: إِنَّ الواو خفية^(١)، فجاءوا بالهاء، فخطأ، بل الواو حرف جلد. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ كَفَتْ «ما» «إِنَّ» عن العمل فوق بعدها الفعل. ﴿حِزْبَهُ﴾ أي: أشياعه. ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فهذه عداوته.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكون «الَّذِينَ» بدلاً من «أَصْحَابٍ» فيكون في موضع خفض، أو يكون بدلاً من «حِزْبِهِ» فيكون في موضع نصب، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضع رفع. وقول رابع وهو أحسنها: يكون في موضع رفع بالابتداء، ويكون خبره: «لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»^(٢)، وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تمّ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وخبره: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ فالمعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهب نفسك عليهم حسرات! قال: وهذا كلام عربي ظريف^(٤) لا يعرفه إلا قليل - وذكره الزمخشري عن الزجاج^(٥) - قال النحاس^(٥): والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية؛ لما ذكره من الدلالة

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢.

(٣) في (خ) و (م): طريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢، والكلام منه.

(٤) الكشف ٣/ ٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٢.

على المحذوف، والمعنى: أَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، كما قال جَلَّ وعَزَّ: ﴿فَلَمَّا كَ بَخَعُ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] قال أهل التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن علي: سألت الأصبغي عن قول النبي ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبَخُّ طاعةً»^(١) ما معنى أبَخُّ؟ فقال: أنْصَح. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسير مجاهداً وغيره يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَّا كَ بَخَعُ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]: معناه: قاتِلٌ نفسَكَ. فقال: هو مِن ذاك بَعِيْنَه، كأنه من شدة التَّصَحُّ لهم قاتِلٌ نفسه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازة: أَفَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ويهدي مَنْ يَشَاءُ^(٢). وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أَفَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله كَمَنْ هُدِيَ، ويكون يدُلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع: ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُ نَفْسَكَ﴾^(٤).

وفي ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّهُم اليهودُ والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قلابة^(٥). ويكون «سوءُ عَمَلِهِ»: معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أَنَّهُم الخوارج؛ رواه عمرو^(٦) بن القاسم. فيكون «سوءُ عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي - كما في حاشية المسند - فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ٨٢/١، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ٥٨/١: أبخع - بالخاء - كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٥٦٥/٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٨٣/٥.

(٤) النشر ٣٥١/٢، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٢٤٥/٥، والكلام في النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن^(١). ويكون «سوءَ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفار قريش؛ قاله الكلبي. ويكون «سوءَ عَمَلِهِ»: الشرك. وقال: إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بن هشام. ﴿فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبي. وقيل: جميلاً^(٢).

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَبُخْتُ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَمَّا كَبُخْتُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾. وهذا ظاهرٌ بين، أي: لا ينفعُ تأسُّفُك على مُقامِهِمْ على كفرهم، فإنَّ الله أضلَّهُمْ. وهذه الآية تردُّ على القدرة قولهم على ما تقدَّم^(٣)، أي: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تُريدُ أن تُهديه، وإنما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وابنُ مُحَيِّص: «فَلَا تَذْهَبْ» بضمِّ التاء وكسرِ الهاء، «نَفْسُكَ» نصباً على المفعول، والمعنيان مُتقاربان^(٤).

«حَسْرَاتٍ» منصوبٌ مفعولٌ من أجله، أي: فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ للحسرات. و«عليهم» صلةٌ «تَذْهَبْ»، كما تقول: هَلَكَ عليه حُبًّا، ومات عليه حزناً. أو هو بيانٌ للمتحوِّس عليه^(٥). ولا يجوز أن يتعلَّق بالحسرات؛ لأنَّ المصدر لا يتقدَّم عليه صلته.

(١) أخرجه الطبري ٣٣٤/١٩، والكلام في النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٢) النكت والعيون ٤٦٣/٤.

(٣) ينظر ٢٣٠/١ و٢٨٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحوِّس عليه، والمثبت من الكشف ٣/٣٠١، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٧/٣٠١، وروح المعاني ٢٢/١٧٠، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقراً، ومتعلِّقاً مقدَّراً، كأنه قيل: على مَنْ تذهب؟ فقليل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كلَّها صارت حشراتٍ لفرطِ التَّحسُّرِ، كما قال جرير:
مَشَّقَ الهَوَاجِرُ لِحَمَهُنَّ مَعَ الشَّرَى حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا^(١)
يريد: رَجَعْنَ كَلَاكِلًا وَصُدُورًا، أي: لم يَبْقَ إِلَّا كَلَالُهَا وَصُدُورُهَا. ومنه قولُ
الآخر:

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطَ نَفْسِي حَسَرَاتٍ وَذَكَرُهُمْ لِي سَقَامٌ^(٢)
أو مُصْدَرًا.
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ
واحد، وكذا مَيِّتَةٌ وَمَيِّتَةٌ، هذا قولُ الحَذَّاقِ مِنَ النُّحَوِيِّينَ. وقال محمد بن يزيد: هذا
قولُ البصريين، ولم يَسْتَشِنْ أَحَدًا، واستدلَّ على ذلك بدلائلَ قاطعة، وأنشد:
لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ كَثِيبًا كَاسِفًا بِأَلْهِ قَلِيلِ الرَّخَاءِ^(٣)
قال: فهل تَرى بين مَيِّتٍ وَمَيِّتٍ فرقًا؟ وأنشد:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يَسَرٍ سُؤَاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارٍ^(٤)

(١) ديوان جرير ٢٢٧/١، والكشاف ٣/٣٠١، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١٦٢/١، قوله: مَشَّقَ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدرِ فلذلك ذكر معه الصدر، وصف رواحلَ أهزلها دُؤُوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشتمري ص ١٣٣.

(٢) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/٢٣٩، والأصمعيات ص ١٨٨، والحماسة البصرية ١/٢٣٨.

(٣) البيتان لعدي بن الرِّعَاءِ النسائي، وسلف البيت الأول ٣/٢٣، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٣. قال النحاس: ويروى: قليل الرجل.

(٤) نُسِبَ لعبيد بن العرنس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/١٠٦، والحماسة البصرية ١/١٥٠، =

قال: فقد أجمعوا على أَنَّ هَيْنُون وهَيْنُون^(١) واحدٌ، وكذا مَيِّتٌ ومَيِّتٌ، وسَيِّدٌ وسَيِّدٌ.

وقال: ﴿فَسَقْنَهُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوِينِ الخطاب. وقال أبو عبيدة: سبيله «فَنَسُوقُهُ»^(٢)، لأنَّه قال: «فَتُشِيرُ سَحَابًا». الرَّمْخُسْرِي^(٣): «فإن قلت: لم جاء «فتشير» على الْمُضَارَعَةِ دونَ ما قبله وما بعده؟ قلت: لتَحْكِي الحالَ التي تقعُ فيها إثارةُ الرياحِ السحابِ، وتَسْتَحْضِرُ تلكَ الصورةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرةِ الربانيةِ، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعٌ تمييزٍ وخصوصيةٍ بحالٍ تُستغرب، أو تَهْمُ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تَأَبَّطُ شَرًّا:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوِي بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَخْصَحَانِ
فأضربُها بلا دَهْشٍ فخرَّتْ صريعاً لليدين وللجِرَانِ^(٤)

لأنَّه قَصَدَ أَنْ يَصوِّرَ لقومه الحالةَ التي تَشْجَعُ فيها بَزْعُمِهِ على ضَرْبِ الغُولِ، كأنَّه يُبْصِرُهُمْ إياها، وَيُظْلِعُهُمْ على كُنْهَيْهَا مشاهدةً، للتعجب^(٥) من جرأته على كُلِّ هَوْلٍ، وثباته عند كُلِّ شِدَّةٍ. وكذلك سَوَّقَ السحابِ إلى البلدِ المَيِّتِ وإحياءِ الأرضِ بالمطرِ بعد موتها لَمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسُقْنَا» و«أَحْيَيْنَا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ٢٣٩/١ ، ومعجم الشعراء ص ١٣٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣/٤ ، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسَر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجذب والقحط، فيُجِيلُونَ القِدَاحَ عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ١٥٢/٢ ، وقع في (د) و(ز) و(م): فتسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «ن فعل».

(٣) في الكشف ٣٠١-٣٠٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تَأَبَّطُ شَرًّا ص ٢٢٤-٢٢٥ ، والأغاني ١٣٤/٢١ . قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِرَانِ، جِرَان البعير: مقدَّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشف: للتعجب.

بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه.

وقراءة العامة: ﴿الرَّيْحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيِّصٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائي: ﴿الريحَ﴾ توحيداً^(١). وقد مضى بيانُ هذه الآية والكلام فيها مستوفى^(٢).

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيُّون بعد ما متُّم، مِنْ نَشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكافُ في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينِ العُقَيْلِيِّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي الله المَوْتَى، وما آيَةُ ذلك في خَلْقِهِ؟ قال: «أما مَرَزَتْ بوادي أَهْلِكَ مُمَجِّلاً، ثم مَرَزَتْ به يَهْتَزُّ خَضِرًا؟» قلتُ: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتى، وتلك آيَةُ في خَلْقِهِ»^(٣) وقد ذكرنا هذا الخبرَ في «الأعراف» وغيرها^(٤).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ التقديرُ عندَ الفراء: مَنْ كان يريد عِلْمَ العِزَّة. وكذا قال غيره من أهل العلم. أي: مَنْ كان يريدُ عِلْمَ العِزَّة التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العِزَّة إذا كانت تؤدِّي إلى ذِلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذِلَّة، والعِزَّة التي لا ذِلَّةَ معها لله عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعًا﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّر الزَّجَّاجُ معناه: مَنْ كان يريد بعبادته الله عزَّ وجلَّ العِزَّة - والعِزَّةُ له سبحانه - فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعِزُّه في الآخرة والدنيا^(٥).

(١) السبعة ص ١٧٢-١٧٣، والتيسير ص ٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/٤٩٨-٥٠٢ و ٩/٢٥٣-٢٥٥.

(٣) الكشف ٣/٣٠٢.

(٤) ١/٢٩٦ و ٩/٢٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٤، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٦٧، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/٢٦٤.

قلت: وهذا أحسن، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ظاهرُ هذا إثنا سُبَّانِ السَّامِعِينَ من عِزَّتِهِ، وتعريفُهم أنَّ ما وجب له من ذلك لا مَطْمَعَ فيه لغيره، فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به سبحانه، وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتمل أن يريد سبحانه أن يُنبِّه ذوي الأقدار والهمم من أين تُنال العِزَّةُ، ومن أين تُستحقُّ، فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة. فَمَنْ طلب العِزَّةَ من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذُلٍّ وسكونٍ وخضوعٍ، وجَدَّها عنده - إن شاء الله - غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١). وَمَنْ طَلَبَهَا من غيرِه وكَلَّه^(٢) إلى مَنْ طَلَبَهَا عنده. وقد ذَكَرَ تعالى قوماً طلبوا العِزَّةَ عند مَنْ سِوَاهُ فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك^(٣) صريحاً لا إشكال فيه أنَّ العِزَّةَ له يُعْزَّ بها مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ. وقال ﷺ مفسراً لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: «مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ»^(٤). وهذا معنى قول الزَّجَّاج، ولقد أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرِّقَابُ تَوَاضَعًا مَنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا^(٥)

فَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ لِنَالِ الْفَوْزِ الْأَكْبَرِ، وَبَدَخَلَ دَارَ الْعِزَّةِ - وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ - فَلْيَقْصِدْ بِالْعِزَّةِ^(٦) اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَالْاعْتِزَّازَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ اعْتَزَّ بِالْعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اعْتَزَّ بِاللَّهِ

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) في (ط): وكل.

(٣) في (ط): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠ و ٨١/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٧.

(٥) قاله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥، وسلف ١١/ ١٢٩.

(٦) في (خ) و(ط): بالذلة.

أَعَزَّهُ اللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وتمّ الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه. ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب^(١)؛ فيكون الكلام متصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضاً. ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عَرْضٌ، لكن ضرب صعوده مثلاً لقبوله؛ لأن موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل^(٢).

وقال الزجاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: علّمه، فهو بمعنى العلم^(٣). وخصّ الكلام الطيب^(٤) بالذكر لبيان الثواب عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحل^(٥) الذي لا يجري فيه لأحد غيره حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعات العبد إلى السماء.

و«الكلم الطيب» هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة. وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه. وأنشدوا:

لا تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حُلَاوَةً قَوْلِهِ حَتَّى يُزَيِّنَ مَا يَقُولُ فَعَالٌ
فَإِذَا وَزَنْتَ فَعَالَهُ بِمَقَالِهِ فَتَوَازَنَا فِإِخَاءِ ذَاكَ جَمَالٌ^(٦)

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٨٤٨/٢، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٩٣/٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٥٠٢/٣ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٥٠٢/٣ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦٢/٨ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فَعَالٌ، كَسَحَاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقَفَّع: قولُ بلا عملٍ، كَثْرِيْدِ بلا دَسَمٍ، وَسَحَابٍ بلا مَطَرٍ، وَقَوْسٍ بلا وَتَرٍ^(١). وفيه قيل:

لا يَكُونُ المَقَالُ إِلَّا بِفَعْلٍ كُلُّ قولٍ بلا فِعَالٍ هَبَاءٌ
إِنَّ قولاً بلا فِعَالٍ جَمِيلٌ وَنِكَاحاً بلا وَلِيٍّ سَوَاءٌ
وقرأ الضحَّاك: «يُصْعَدُ» بضمِّ الياء^(٢). وقرأ جمهورُ الناسِ: «الكَلِمُ» جمع كلمة.
وقرأ أبو عبد الرحمن: «الكلامُ»^(٣).

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطْلَقُ بمعنى الكَلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرجُ قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة^(٤)؛ فَوَضَعَ الكلامَ مَوْضَعَ الكَلِمِ، والله أعلم.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيبَ^(٥). وفي الحديث «لا يَقْبَلُ الله قولاً إلا بعملٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلا بنيةٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيةً إلا بإصابةِ السَّنة»^(٦). قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيباً وأدَّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضه؛ رُدَّ قوله على عمله. قال ابن عطية^(٧): وهذا قولٌ يرُدُّه مُعْتَقِدُ أهلِ السَّنةِ،

(١) الكشف ٣/٣٠٢.

(٢) الكشف ٣/٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص ١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الرَّجَّاجِي ص ١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/٣٤٠.

(٦) الكشف ٣/٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/١٥٠ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/٩١٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوُفَّار، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذَّبه صالح جَزْرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/١٠٧١، والميزان ١/٦٣٣ و ٢/٧٧، وتخریج أحاديث الكشف ص ١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣٣٩.

ولا يصحُّ عن ابن عباس. والحقُّ أنَّ العاصي التارك للفرائض إذا ذَكَرَ الله وقال كلاماً طيباً فإنَّه مكتوبٌ له مُتَقَبَّلٌ منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبَّلُ من كلِّ مَنْ اتَّقَى الشُّرْكَ. وأيضاً فإنَّ الكلامَ^(١) الطيبَ عملٌ صالح. وإنَّما يستقيمُ قولٌ مَنْ يقول: إنَّ العملَ هو الرفعُ للكَلِمِ، بأنَّ يُتَأَوَّلَ أنه يزيدُه^(٢) في رَفْعِهِ وحُسْنِ مَوْقِعِهِ إذا تعاضدَ معه. كما أنَّ صاحبَ الأعمالِ من صلاةٍ وصيامٍ وغير ذلك؛ إذا تخلَّلَ أعماله كَلِمٌ طَيِّبٌ وذَكَرُ الله تعالى كانت الأعمالُ أشرفَ، فيكونُ قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ موعظةٌ وتذكُّرةٌ وحَضُّاً على الأعمال. وأمَّا الأقوالُ التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولةٌ.

قال ابن العربي^(٣): إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنَّ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَعْ، لأنَّ مَنْ خَالَفَ قوله فَعَلَهُ فهو وبالٍ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبولَ له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتبطاً به] فإنَّ كَلِمَةَ الطيبِ يُكْتَبُ له. وعمله السيِّئُ يُكْتَبُ عليه، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابنُ العربيِّ تحقيقٌ. والظاهرُ أنَّ العملَ الصالحَ شَرْطٌ في قبولِ القولِ الطيبِ. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إلهَ إلاَّ الله بنيةً صادقةً، نظَّرت الملائكةُ إلى عمله، فإن كان العملُ موافقاً لقوله صَعِدَا^(٤) جميعاً، وإن كان عمله مخالفاً وقَفَ قوله حتى يتوبَ من عمله»^(٥). فعلى هذا: العملُ الصالحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ

(١) في (ظ) والمحور الوجيز: الكلم.

(٢) في المحور الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعدا.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/٥٠٢ عن الحسن قوله، وهو الأشبه.

الطَّيِّبَ إِلَى اللَّهِ، والكنايةُ في «يرفعه» ترجعُ إلى الكَلِمِ الطَّيِّبِ. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وشَهْر بنِ حَوْشَب وسعيد بن جُبَيْر ومجاهدٍ وقتادة وأبي العالية والضَّحَّاك^(١).

وعلى أنَّ «الكَلِمِ الطَّيِّبِ» هو التوحيدُ، فهو الرفعُ للعملِ الصالح؛ لأنه لا يُقبلُ العملُ الصالح إلاَّ مع الإيمانِ والتوحيد، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطَّيِّبُ، فالكناية تَعوِّدُ على العملِ الصالح. ورُوي هذا القولُ عن شَهْر بنِ حَوْشَب قال: «الكَلِمُ الطَّيِّبُ» القرآن، «والعملُ الصالحُ يرفعُه» القرآن^(٢).

وقيل: تَعوِّدُ على الله جلَّ وعزَّ، أي: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُه الله على الكَلِمِ الطَّيِّبِ؛ لأنَّ العملَ تحقيقُ الكَلِمِ، والعامِلُ أَكثَرُ تَعَباً^(٣) من القائل، وهذا هو حقيقةُ الكلام؛ لأنَّ الله هو الرفعُ الخافِضُ. والثاني والأولُ مجازٌ، ولكنَّه سائغٌ جائز.

قال النحاس^(٤): القولُ الأوَّلُ أَوْلَاهَا وَأَصْحُهَا لَعَلَّوْ مَنْ قَالَ بِهِ، وَأَنَّهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى؛ لأنَّ الْقُرَّاءَ عَلَى رَفْعِ الْعَمَلِ، وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ، أَوْ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^(٥) الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، لَكَانَ الْاِخْتِيَارُ نَضْبَ الْعَمَلِ. وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَهُ مَنْصُوبًا إِلَّا شَيْثًا رُويَ عَنْ عَيْسَى بْنِ عِمْرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَرَأَهُ أَنَسُ: «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ اللَّهُ»^(٦).

وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ صاحِبَه، وهو الذي أراد العزَّةَ وَعَلِمَ أَنَّهَا تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ.

الثانية: ذَكَرُوا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْكَلْبَ يَقْطَعُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِلَيْهِ

(١) تفسير الطبري ٣٣٩/١٩-٣٤٠، ومعاني القرآن للنحاس ٤٤١/٥.

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٤٤٢/٥.

(٣) في (ظ): نفعا.

(٤) في معاني القرآن ٤٤٢/٥.

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٣.

يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١﴾. وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السلف في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يُوجب ذلك، من مثل ما انعقدت به من قرآنٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع^(١). وقد تعلق مَنْ رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إِنَّ الْأَسْوَدَ شَيْطَانٌ» خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ^(٢). وقد جاء ما يُعارضُ هذا، وهو ما خَرَّجَهُ البخاريُّ عن ابن أخي ابن شهابٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَمَّهُ عَنِ الصَّلَاةِ: يَقْطَعُهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ: لَا يَقْطَعُهَا شَيْءٌ؛ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ فَيُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، وَإِنِّي لَمَعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ عَلَى فِرَاشٍ أَهْلُهُ^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتاب «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيان، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر ابن حوشب الأشعري في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ﴾ قال: هم أصحابُ الرياء^(٤). وهو قولُ ابن عباس ومجاهدٍ وقتادة^(٥).

وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لَمَّا اجتمعوا في دار الندوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٥٩٤، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٥٥٩.

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ر. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذر ر.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وينحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/٣٤١، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ٣٥/١.

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبي: يعني الذين يعملون السيئات في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك^(١)، فتكون «السيئات» مفعولة^(٢). ويقال: بارَّ يَبُورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارث السوق، أي: كَسَدَتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوَارِ الأيِّم. وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلَكَى. والمَكْر: ما عُمِلَ على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: يعني آدم عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خَلَقَ أَصْلَكُمْ من تراب. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخرجها من ظهورِ آبائكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قال: أي: زَوْجَ بَعْضَكُمْ بعضاً^(٤). فالذَكَرُ زَوْجُ الْأُنْثَى لِيَتِمَّ الْبَقَاءُ فِي الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَاءِ مُدَّتِهَا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا، فَيَتَزَوَّجُ الذَكَرُ بِالْأُنْثَى فَيَتَنَاسَلُ بِعِلْمِ اللَّهِ، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا واللهُ عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تديره.

﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ سَمَاهُ مَعَمَّرًا بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ﴾ إِلَّا كُتِبَ عُمُرُهُ، كم هو سنة، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعة، ثم يُكْتَبُ فِي كِتَابٍ آخَرَ: نَقَصَ مِنْ عُمُرِهِ يَوْمٌ، نَقَصَ شَهْرٌ، نَقَصَ سَنَةٌ، حَتَّى يَسْتَوْفِيَ أَجَلَهُ^(٥). وقاله سعيد بن جبیر أيضاً؛

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٥٦٧/٣.

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمَّنَ «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتٍ مصدرٍ محذوف، أي: المكورات السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجِه. ينظر البحر ٣٠٤/٧، والدر المصون ٢١٨/٩.

(٣) ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٥، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣٤٢.

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٥، ومعاني القرآن له ٥/٤٤٤.

قال: فما مَضَى من أَجَلِهِ فهو النقصانُ، وما يُسْتَقْبَلُ فهو الذي يُعَمَّرُهُ^(١)، فالهاءُ على هذا للمعمر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمره كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره. وعن قتادة: المعمرُ مَنْ بلغ ستين سنةً، والمُنْقُوصُ من عمره مَنْ يَمُوتُ قبل ستين سنةً^(٢).

ومذهبُ الفراء^(٣) في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكون من عمره ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ بمعنى معمرٍ آخر، أي: لَا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ فالكنايةُ في «عمره» تَرْجِعُ إلى آخر غير الأول، وكَنَى عنه بالهاء كانه الأول، ومثله قولك: عندي درهمٌ ونصفه، أي: نصف آخر.

وقيل: إنَّ الله كتبَ عمرَ الإنسان مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عَصَى، فأَيُّهُمَا بلغ فهو في كتاب^(٤). وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَجَمَهُ»^(٥). أي: إِنَّهُ يُكْتَبُ فِي اللَّوْحِ المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فَإِنْ وَصَلَ رَجَمَهُ زِيدَ في عمره كذا سنةً. فبيِّن ذلك في موضع آخر من اللَّوْحِ المحفوظ، أَنَّهُ سَيَصِلُ رَجَمَهُ. فَمَنْ اطَّلَعَ على الأول دون الثاني ظَنَّ أَنَّهُ زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]. والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِمَ ﴿وَلَا يُنْقَصُ﴾ آخرُ [مِنْ]

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٤٥/٥.

(٢) الكشف ٣/٣٠٣، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٤٧.

(٣) في معاني القرآن ٢/٣٦٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/٤٤٦.

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وسلف ١٠/٢٠٢.

عُمُرِهِ] من عمرِ الهَرَمِ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: بقضاءٍ من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النُّحاس، قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل^(١). ورُوي نحوه عن ابن عباس^(٢). فالهاء على هذا يَجُوزُ أن تكون للمعمر، ويجوز أن تكون لغير المعمر.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابةُ الأعمالِ والآجالِ غيرُ مُتَعَدِّرٍ عليه. وقراءةُ العامة: ﴿يُنْقُصُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ القاف. وقرأت فرقةٌ منهم يعقوبُ: ﴿يُنْقُصُ﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف^(٣)، أي: لا يُنْقُصُ من عمره شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونَقَصَهُ غيره، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدِّ ولازم.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِنْ عُمُرِهِ» بتخفيفِ الميم^(٤). وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحْقُ والسُّحُق. و«يَسِيرٌ» أي: إحصاءٌ طويلُ الأعمارِ وقصيرِها لا يتعدَّرُ عليه شيءٌ منها ولا يَغْزُب. والفعلُ منه: يَسُر. ولو سَمِيتَ به إنساناً انصَرَفَ؛ لأنه فَعِيل^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَاكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: «فُرَاتٌ» حُلُوٌّ، و«أُجَاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحةٌ: «هذا مِلْحٌ أُجَاجٌ» بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح^(٦).

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٤٣/٢، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحَّاك أخرجه الطبري ٣٤٣/١٩.

(٢) أخرجه الطبري ٣٤٣/١٩.

(٣) النشر ٣٥٢/٢.

(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣٦٦/٣.

(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاق: «سَيْغُ شَرَابِهِ» مثل: سَيْدٌ وَمَيْتٌ^(١). ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلاف في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلام فيه^(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَنُتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحليَّةَ إنما تُستخرجُ من الملح، فقليل: منهما؛ لأنَّهما مُختلِطان. وقال غيره: إنما تُستخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليَّةُ - من الدرِّ وغيره - من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون^(٣)، فهو مأخوذٌ منهما^(٤)؛ لأنَّ في البحرَ عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمَارِجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنما تُستخرجُ الحليَّةُ من المِلْحِ خاصةً؛ النحاس^(٥): وهذا أحسنُّها، وليس هذا عندهُ لأنَّهما مُختلِطان، ولكنَّ جُمِيعاً ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ أَيْلًا وَالنَّهَارَ لِنُتَخَرَّجُوا فِيهِ وَلِنَبْنِغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لمألتَ يدك لغةً ونحواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَنُتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحسبه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسَّوَارُ في الذِّراع، والقِلَادَةُ في العنق، والخُلْخَالُ في الرَّجُل.

(١) القراءات الشاذة ص ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغُ» مخففاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/١٩٨، والبحر ٧/٣٠٥.

(٢) ٢٩٥/١٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٦، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/٢٦٦.

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/٤٦٧، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٣٦٦، وما قبله منه.

وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: افتراش الحرير كلبسه؟ قال: نعم^(١). وفي الصحاح عن أنس: فقمْتُ على حصيرٍ لنا قد اسودَّ من طول ما لبس. الحديث^(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَوَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ﴾ قال النحاس^(٣): أي: ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَحَرَّت السفينة تَمَحَّر: إذا شَقَّت الماء. وقد مضى هذا في «النحل»^(٤).

﴿إِتَّبَعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال مجاهد: التجارة في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدة في مدَّة قريبة^(٥)، كما تقدَّم في «البقرة»^(٦). وقيل: ما يُستخرج من حليته ويصاد من حيتانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فضله. وقيل: على ما أنجاكم من هوله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»^(٧) وغيرها. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كلبسه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ٩٢/١٠، ولم يخرج النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ٢٦٥/١.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/٣٦٧.

(٤) ٣٠٢/١٢.

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٧.

(٦) ٤٩٧/٢.

(٧) ٨٥/٥ - ٨٧.

بيانه^(١). ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَزَاكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: هذا الذي مِن صُنْعِهِ مَا تَقَرَّرَ هُوَ الخالق المدبّر، والقادر المقتدر، فهو الذي يُعْبَد. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرُونَ عليه ولا على خَلْقِهِ. والْقِطْمِيرُ: القِشْرَةُ الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين^(٢). وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّوَةِ^(٣)، وهو اختيار المبرد، وقاله قتادة. وعن قتادة أيضاً: الْقِطْمِيرُ: الْقَمْعُ الذي على رأس النواة^(٤). الجوهرِي^(٥): ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظَهْرِ النَّوَةِ، تَنْبُثُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي: إن تَسْتَغِيثُوا بِهِمْ فِي النَّوَابِ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ؛ لَأَنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادة: المعنى: لو سَمِعُوا لَمْ يَنْفَعُواكُمْ^(٦). وقيل: أي: لو جَعَلْنَا لَهُمْ عَقُولاً وَحَيَاةً فَسَمِعُوا دُعَاءَكُمْ لَكَانُوا أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَلَمَّا اسْتَجَابُوا لَكُمْ عَلَى الْكُفْرِ.

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتيل، كما في معاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ١٧١/٢، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القطمير أنه القشر - وفي لفظ: الجلد - الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ٣٤٩/١٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤٤٨/٥، والدر المنثور ١٧١/٢ و ٢٤٨/٥.

(٤) أخرجه الطبري ٣٥٠/١٩ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القطمير: القشرة التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٣٥١/١٩.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرّزون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين ممّا يَعْقِلُ، كالملائكة والجنّ والأنبياء والشياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي: يحييها الله حتى تُخْبِرَ أنها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو الله جلّ وعزّ، أي: لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله في عمله^(١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكلّ أحوالكم. الرّمحشريّ: فإن قلت: لِمَ عَرَفَ «الفقراء»؟ قلت: قَصَدَ بذلك أن يُريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلّهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرهم؛ لأنّ الفقر ممّا يتبع الضّعف، وكلّما كان الفقير أضعف كان أفقر^(٢)؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ ولو نكّر لكان المعنى: أنتم بعض الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ «الغني» فما فائدة «الحميد»؟ قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم، وليس كلّ غنيّ نافعا بغناه إلّا إذا كان الغنيّ جواداً مُنعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحقّ عليهم الحمد، ذكر «الحميد» ليدلّ به على أنّه الغنيّ النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحقّ بإنعامه عليهم أن يحمّدوه^(٣).

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

وتخفيفُ الهمزة الثانية أَجَوَدُ الوجوه عند الخليل، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحدها^(١)، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدة، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذفٌ، المعنى: إِنْ يَشَأْ [أَنْ] يُذْهِبْكُمْ يُذْهِبْكُمْ^(٣)، أي: يفتيكهم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أطوعَ منكم وأزكى. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٌ عسيرٌ مُتَعَذِّرٌ. وقد مضى هذا في «إبراهيم»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِئْتَمَّا يَنْتَرِكْ لِنَفْسِهِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٧﴾

تقدّم الكلامُ فيه^(٥)، وهو مقطوعٌ ممّا قبله. والأصل: «تَوَزَّرَ» حُذفت الواوُ اتباعاً لِيَزِرَ. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحدوفٍ، أي: نفسٌ وازرةٌ. وكذا ﴿وَلَا تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾ قال الفراء^(٦): أي: نفسٌ مُثْقَلَةٌ، أو دابةٌ. قال: وهذا يقع للمذكّر والمؤنث. قال الأخفش^(٧): أي: وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إنساناً إلى جَمِلِهَا، وهو ذنوبها. والجَمَلُ: ما كان

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٨، وسهّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٧-٣٦٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٦٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢٥/١٢.

(٥) ١٤٥/٩.

(٦) في معاني القرآن ٢/٣٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٨.

(٧) في معاني القرآن له ٢/٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٨.

على الظَّهْر، والحَمْلُ: حَمَلُ المرأة، وَحَمَلُ النخلة؛ حكاها الكسائي بالفتح لا غير. وَحَكَى ابن السَّكِّيت أَنَّ حمل النخلة يُفْتَح وَيُكْسَر.

﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسان المدعو ذَا قُرْبَى. وأجاز الفراء: ولو كان ذُو قُرْبَى. وهذا جائز عند سيبويه، ومثله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُونَ بأعمالهم إِنْ خَيْرٌ فَخَيْرٌ؛ على هذا، وخيراً فخييراً^(١)؛ على الأول.

وروي عن عكرمة أنه قال: بلغني أَنَّ اليهوديَّ والنَّصرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أسديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أحسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسأل الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجلَ ليأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أكن بك باراً، وعليك مُشْفِفاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احمِلْ عني سيئةً، فيقول: إِنَّ الذي سألَني يسيراً، ولكنِّي أخافُ مثلاً ما تخاف. وأنَّ الأبَ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فَيَرُدُّ عليه نحوهً من هذا. وأنَّ الرجلَ ليقول لزوجته: ألم أكنُ حَسَنَ^(٢) العِشرةِ لك؟ فأحمِلِي عني خطيئةً لَعَلِّي أنجو، فتقول: إِنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾^(٣).

(١) في (د) و (م): وخيراً فخييراً، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عَمِلَ خيراً جُزِيَ خيراً، أو: إن كان الذي عَمِلَ خيراً فالذي يُجْزَى به خيراً. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ٢٥٨/١ - ٢٦٠. وقول الفراء في معاني القرآن ٣٦٨/٢. وقول الأخفش في معاني القرآن ٦٦٥/٢.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٦٩/٣، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور.

وقال الفضيل بن عياض: هي المرأة تُلْقَى ولدها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثديي لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أمّاه! فتقول: يا بني، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول: إليك عني يا أمّاه، فإني بذنبي عنك مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنّما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّ فَإِنَّا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه. وقرأ: «وَمَنْ أَرْزَقْنِي فَإِنَّا يَرْزُقُنِي لِنَفْسِهِ»^(١). ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مرجع جميع الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم. مثل: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ قال الأخفش سعيد^(٢): «لا» زائدة؛ والمعنى: ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحَرُور.

قال الأخفش: والحَرُور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّمُوم يكون بالليل^(٣)،

(١) المحرر الوجيز ٣٠٦/٤ ، والبحر ٣٠٨/٧ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٦٦٥/٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٦٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤١٩ ، وفيه: ... والسَّمُوم يكون بالليل والنهار، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس^(١). وقال رُؤْبَةُ بْنُ الْعِجَاج: الْحَرُورُ يَكُونُ بِاللَّيْلِ^(٢) خَاصَّةً، وَالسَّمُومُ يَكُونُ بِالنَّهَارِ^(٣) خَاصَّةً، حَكَاهُ الْمَهْدَوِيُّ^(٤). وقال الْفَرَّاءُ: السَّمُومُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالنَّهَارِ، وَالْحَرُورُ يَكُونُ فِيهِمَا^(٥). النُّحَاسُ^(٦): وَهَذَا أَصَحُّ؛ لِأَنَّ الْحَرُورَ فَعُولٌ مِنَ الْحَرِّ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّكْثِيرِ، أَيْ: الْجَرَّ الْمُؤْذِي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَتِ النَّارُ: رَبِّ أَكُلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذَّنَ لِي أَنْتَفَسَ، فَأَذَّنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ بَرْدٍ أَوْ زَمْهَرِيرٍ فَمِنْ نَفْسٍ جَهَنَّمَ، وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرٍّ أَوْ حَرُورٍ فَمِنْ نَفْسٍ جَهَنَّمَ»^(٧).

وَرُوي من حديث الزُّهْرِيِّ، عن سَعِيدٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَمَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ فَمِنْ سَمُومِهَا، وَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ فَمِنْ زَمْهَرِيرِهَا»^(٨) وهذا يَجْمَعُ تِلْكَ الْأَقْوَالَ، وَأَنَّ السَّمُومَ وَالْحَرُورَ يَكُونُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَتَأَمَّلْهُ.

وقيل: المرادُ بِالظِّلِّ وَالْحَرُورِ: الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَالْجَنَّةُ ذَاتُ ظِلٍّ دَائِمٍ، كَمَا قَالَ

(١) ذكره النُّحَاسُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) فِي (د) وَ (م): بِالنَّهَارِ.

(٣) فِي النِّسْخِ: بِاللَّيْلِ، وَالمُثَبَّتُ عَنْ مَجَازِ الْقُرْآنِ ٢/١٥٤، وَتفسير الطبري ١٩/٣٥٦، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ لِلنُّحَاسِ ٥/٤٥١، وَالمحرر الوجيز ٤/٤٣٥، وَزَادَ الْمَسِيرَ ٦/٤٨٣.

(٤) بَعْدَهَا فِي (ظ): وَقَالَ السَّمُومُ فِي اللَّيْلِ.

(٥) تفسیر الطبري ١٩/٣٠٨، وَالنَّكَتُ وَالْعَيُونُ ٤/٤٦٩، وَالمحرر الوجيز ٤/٤٣٦، وَزَادَ الْمَسِيرَ ٦/٤٨٣، وَلَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ لَهُ.

(٦) فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/٣٦٩-٣٧٠.

(٧) صحيح مسلم (٦١٧): (١٨٧)، وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ (٧٧٢٢)، وَالبخاري (٥٣٧) وَ(٣٢٦٠).

(٨) أَخْرَجَهُ بِنَحْوِهِ بِهَذَا الْإِسْتَادَ مَرْفُوعاً أَحْمَدَ (٧٢٤٧)، وَالبخاري (٥٣٧). وَأَخْرَجَهُ بِلَفْظِ الْمُصَنِّفِ ابْنُ مَاجَهَ (٤٣١٩) وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ ٥/١٦-١٧ عَنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، والنار ذات حرور؛ قال معناه السدي^(١). وقال ابن عباس: أي ظلُّ الليل، وحرُّ السموم بالنهار. قُطِرَب: الحرور؛ الحر، والظلُّ: البرد^(٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ قال ابن قتيبة^(٣): الأحياء: العقلاء، والأموات: الجَهَّال. قال قتادة: هذه كلها أمثال، أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن^(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يسمع أوليائه الذين خلقهم لجنته، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: الكفار الذين أَمَاتَ الكفر قلوبهم، أي: كما لا تسمع من مات، كذلك لا تسمع من مات قلبه.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو بن ميمون: «بمسمع من في القبور» بحذف التنوين تخفيفاً، أي: هم بمنزلة [أهل] القبور في أنهم لا يتفعلون بما يسمعون ولا يقبلونه^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾

أي: رسولٌ منذرٌ، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدى شيء، إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالجنة أهل طاعته،

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٤٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٦٩، ولم تقف على خبر ابن عباس.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص ٣٦١.

(٤) الوسيط ٣/٥٠٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/١٣٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القرءات الشاذة ص ١٢٣ عن علي ؑ.

ونذيراً بالنار أهل معصيته. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَفَ فِيهَا نَبِيٌّ. قال ابن جريج: إلا العرب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفار قريش ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم، يُسَلِّي رَسُولَهُ ﷺ. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرر الزُّبُرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلاف اللفظين. وقيل: ترجع البينات والزُّبُرُ والكتابُ إلى معنى واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْشٌ عن نافع وشيبة الياء في «نكيري» حيث وقعت في الوصل دون الوقف. وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين^(٢). وقد مضى هذا كله، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ وَرَأَيْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ، فـ«أَنَّ» واسمها وخبرها سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولِي الرُّوْيَةِ.

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٢) التيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ هو من باب تلوين الخطاب . ﴿تُخْلَفَ أَلْوَنُهَا﴾ نُصِبَتْ «مُخْتَلَفًا» نعتاً لـ «ثَمَرَاتٍ» ، «أَلْوَنُهَا» رفع بـ «مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ «ثَمَرَاتٍ» لما عاد عليه من ذكره. ويجوز في غير القرآن رفعه، ومثله: رأيت رجلاً خارجاً أبوه^(١).

﴿بِهِ﴾ أي: بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا﴾ الجُدَدُ: جمعُ جُدَّة، وهي الطرائق المختلفة الألوان، وإن كان الجميع حجراً أو تراباً. قال الأخفش^(٢): ولو كان جمع جديد لقال: جُدُد - بضم الجيم والdal - نحو: سرير وسُرُر. وقال زهير:

كأنه أسفعُ الخدين ذو جُدَدٍ طاوٍ ويرتُع بعد الصيف عُريانا^(٣)
وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطْع، مأخوذٌ من جددت الشيء: إذا قطعتَه؛ حكاها ابن بحر^(٤).

قال الجوهري^(٥): والجُدَّة: الحُطَّة التي في ظهر الحمار تُخالف لونه. والجُدَّة: الطريقة، والجمعُ جُدَد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالف لونَ الجبل. ومنه قولهم: ركب فلانُ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكسأً مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشري^(٦): وقرأ الزُّهري: «جُدُد» بالضم جمع جَدِيدَة، وهي الجُدَّة؛ يقال:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢: السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧.

جديدة وجُدُد وجَدَائِد، كسفينة وسُفُن وسَفَائِن. وقد فُسِّرَ بها قول أبي ذؤيب:

جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَع^(١)

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحيتين، وهو الطريق الواضح المُسْفِر، وَصَّعَهُ موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض^(٢).

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ﴾ وقُرئ: «والدواب» مخففاً، ونظيرُ هذا التخفيف قراءة مَنْ قرأ: «وَلَا الضَّالِّينَ»؛ لِأَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما فَرٌّ من التقاء الساكنين، فحرَّكَ ذاك أولهما، وحذَفَ هذا آخرهما؛ قاله الزمخشري^(٣).

﴿وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ» فذكر الضمير مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنّما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى «ما» مُضمرة، مَجَازُهُ: ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه، أي: أبيض وأحمر وأسود.

﴿وَعَرَكَيْبٌ سَوْدٌ﴾ قال أبو عبيدة^(٤): الغريب: الشديد السَّوَادِ، ففي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ومن الجبال سَوْدٌ غرابيب. والعربُ تقول للشديد السَّوَادِ الذي لونه كَلَوْنِ الغراب: أَسودُ غريبٌ.

(١) ديوان الهذليين ص ٤، والخزانة ٤٢٠/١، وصدرة: والدهر لا يبقى على جذثانه قال البغدادي: الحدثنان بمعنى الحادثة، والسَّراة: أعلى الظهر. والجَوْن: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجَدَائِد: الأتُن التي لا ألبان لها، واحدها جَدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار - وهو المراد هنا - كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشف ٣٠٧/٣، والقراءتان في المحتسب ١٩٩-٢٠٠، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) في الكشف ٣٠٧/٣، وقراءة: «والدواب» بالتخفيف في المحتسب ٢٠٠/٢ عن الزهري. وقراءة: «الضالين» بالهمز في القراءات الشاذة ص ١، والمحتسب ٤٦/١ عن أيوب السخيتاني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ١٥٤/٢.

قال الجوهري^(١): وتقول: هذا أسودٌ غريبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غريبٌ سودٌ، تجعلُ السودَ بدلاً من غريبٍ؛ لأنَّ توكيدَ الألوانِ لا تتقدَّم.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد^(٢). قال امرؤ القيس:

العينُ طامحةٌ واليدُ سابحةٌ والرجلُ لافحةٌ والوجهُ غريبٌ^(٣)
وقال آخرٌ يصفُ كَرَمًا:

ومن تَعَاجِبِ خَلْقِ اللَّهِ غَاطِيَةٌ يُعَصِّرُ مِنْهَا مُلَاحِيٌّ وَغَرِيبٌ^(٤)
﴿كَذَلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلام^(٥)، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم استأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدِيرٌ، أَتَقَنَّ بِمَعَاقِبِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، كَمَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٦).

وقال الربيع بن أنس: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ تَعَالَى فَلَيْسَ بِعَالِمٍ^(٧).

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/٤٧٠. والحديث أخرجه ابن عدي ٣/١٠١٦، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقریب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/٤٧١، ورواية الديوان ص ٢٢٦:

والعينُ قاذحةٌ واليدُ سابحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غريبٌ

قال شارح الديوان: قاذحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مدت يديها فكانها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غريب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص ٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/١٩١، واللسان (غطى). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلاحِي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٤٨٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/٣٦٤.

(٧) النكت والعيون ٤/٤٧١.

وقال مجاهد: إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بِخَشِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمًا، وبالاغترار [به] جَهْلًا^(١).

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَنْ أَفْقَهُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: أَتَقَاهُمْ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢). وعن مجاهد قال: إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٣). وعن عليٍّ ؓ قال: إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخَّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُؤْمَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدْعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةَ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا^(٤).

وأُسْنَدُ الدَّارِمِيِّ أَبُو مُحَمَّدٍ عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِيهِ وَالنُّونَ فِي الْبَحْرِ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ النَّاسَ الْخَيْرِ الْخَيْرُ مَرْسَلٌ^(٥).

قال الدارمي^(٦): وَحَدَّثَنِي أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَازِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي جَرِيرُ بْنُ زَيْدٍ^(٧) أَنَّهُ سَمِعَ ثُبَيْعًا يَحْدُثُ عَنْ كَعْبٍ قَالَ: إِنِّي لَأَجِدُ نَعْتَ قَوْمٍ يَتَعَلَّمُونَ لَغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيَتَفَقَّهُونَ لَغَيْرِ الْعِبَادَةِ، وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ؓ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١. وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١.

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمانة الباهلي ؓ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢.

وَيَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ، قُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ؛ فِيهِ يَغْتَرُونَ، وَإِيَايَ يُخَادِعُونَ، فِيهِ حَلَفْتُ لَا تَيْحَنَ لَهُمْ فِتْنَةٌ تَذُرُ الْحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانًا. خَرَّجَهُ الترمذي مرفوعاً من حديث أبي الدرداء، وقد كتبناه في مقدمة الكتاب^(١).

الزمخشري^(٢): «فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ» بِالرَّفْعِ «مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ» بِالنَّصْبِ، وَهُوَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَتُحْكِي عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ.

قُلْتُ: الْخَشْيَةُ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ اسْتِعَارَةٌ، وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا يُجْلَهُمْ وَيُعْظَمُهُمْ - كَمَا يُجَلُّ الْمَهِيبُ الْمُخْشِي مِنَ الرِّجَالِ بَيْنَ النَّاسِ - مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ عِبَادِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تَعْلِيلٌ لَوْجُوبِ الْخَشْيَةِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَى عَقُوبَةِ الْعَصَاةِ وَقَهْرِهِمْ، وَإِثَابَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ. وَالْمَعَايِبُ وَالْمُثِيبُ حَقُّهُ أَنْ يُخْشَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هَذِهِ آيَةُ الْقُرَّاءِ الْعَامِلِينَ الْعَالِمِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْفَرْضَ وَالنَّفْلَ، وَكَذَا فِي الْإِنْفَاقِ. وَقَدْ مَضَى فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ قَارِئُ الْقُرْآنِ^(٣). ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: خَبَرُ «إِنَّ»: «يَرْجُونَ»^(٤).

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ قِيلَ: الزِّيَادَةُ: الشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ. وَهَذَا مِثْلُ الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾

(١) ٣٥/١، وَلَمْ يَخْرُجْهُ الترمذي، وَيَنْظُرُ الْكَلَامُ عَلَى الْحَدِيثِ ثَمَّة.

(٢) فِي الْكَشَافِ ٣٠٨/٣.

(٣) ٤٨/١ وَمَا بَعْدَهَا.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٣٧١/٣.

[النور: ٣٧]، وقوله في آخر «النساء»: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الآية: ١٧٣] وهناك بيّناه. ﴿إِنَّهُمْ عَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣١﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٢﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٣﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: هذه الآية مُشْكِلَةٌ؛ لأنه قال جلَّ وعزَّ: ﴿اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قال النحاس^(١): فَمِنْ أَصَحِّ مَا رُوي فِي ذَلِكَ مَا رُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابْنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار^(٢)، عن ابن عباس. وعن

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١.

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان^(١)، ويكون التقدير في العربية: «فَمِنْهُمْ» أي: من عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر - وقال الحسن: أي: فاسق - ويكون الضمير الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم.

وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التقي على الإطلاق. قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الآية [الواقعة: ٧]. قالوا: وبعيد أن يكون مَن يُصْطَفَى ظالم^(٢). ورواه مجاهد عن ابن عباس^(٣). قال مجاهد: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾: أصحاب المشأمة، ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾: أصحاب الميمنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾: السابقون من الناس كلهم^(٤).

وقيل: الضمير في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثة الأصناف، على ألا يكون الظالم هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممن روي عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول: أن يكون الظالم لنفسه: الذي عمِلَ الصغائر والمقتصد، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها، فيكون «جَنَاتٌ عَذْبٌ يَدْخُلُونَهَا» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتبيين^(٥). وروي عن أبي سعيد الخدري^(٦).

(١) أخرجه الطبري ٣٧١/١٩ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/٣٦٩-٣٧٠، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ٣٧١/١٩، ٣٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ٣٧١/١٩ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ٣٧٢/١٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٢، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر رضي الله عنه سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده من لم يُسم.

وقال كعب الأحبار: استَوَتْ مَنَابِقُهُمْ رَبُّ الكعبة، وتفاضلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السبيعي: أمّا الذي سمعت منذ ستين سنة: فكلُّهم ناج^(١).

وروى أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»^(٢).

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»^(٣). فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله: ﴿أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حذف كما حذف المضاف في ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اصطفينا دينهم، فبقي: اصطفيناهم، فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] أي: تزدريهم، فالاصطفاء إذاً موجهٌ إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال النحاس^(٤): وقول ثالث: يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّتْ عَيْنٌ يَدُورُهَا﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير. وهذا قول جماعة من أهل النظر؛ لأن الضمير - في حقيقة النظر - لما يليه أولى.

قلت: القول الوسط أولاها وأصحها إن شاء الله؛ لأن الكافر والمنافق لم

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وأخرجهما الطبري ١٩/٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٦/٧: فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سني الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/٤٤٣، والبخاري ٣/٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون بن سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ١٣٩. وذكر البخاري عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٧٢.

يُضْطَفُّوا بحمد الله، ولا اضْطَفِّي دينهم، وهذا قول ستة من الصحابة، وحسبك. وسنزيده بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْزَنَّا الْكِتَابَ﴾ أي: أعطينا. والميراث عطاء حقيقة أو مجازاً؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر. و«الكتاب» هاهنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه ورث أمة محمد عليه الصلاة والسلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلها^(١).

﴿أَصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخترنا. واشتقاقه من الصَّفْو، وهو الخلوص من شوائب الكدر. وأصله: اصْتَفَوْنَا، فَأُبْدِلَتِ التَّاء طاءً والواو ياءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المراد أمة محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس وغيره. وكان اللفظ يَحْتَمِلُ جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأول لم يرثوه^(٢).

وقيل: المصطفون الأنبياء، تَوَارَثُوا الكتاب، بمعنى: أنه انتقل عن^(٣) بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]. فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مَن وَقَعَ في صغيرة. قال ابن عطية^(٤): وهذا قول مردود من غير ما وجه.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: من ذرِّيَّتِهِمْ ظالمٌ لنفسه، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف في الظالم. والآية في أمة محمد ﷺ.

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/٤٣٨، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٣٨، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/٣٦٨، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩.

وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمُقْتَصِدِ والسَّابِقِ، فقال سهل ابن عبد الله: السَّابِقُ العالم، والمُقْتَصِدُ المتعلِّم، والظَّالِمُ الجاهل. وقال: ذو النون المصري: الظَّالِمُ الذَّاكِرُ اللهَ بلسانه فقط، والمُقْتَصِدُ الذَّاكِرُ بقلبه، والسَّابِقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكي: الظَّالِمُ صاحبُ الأقوال، والمُقْتَصِدُ صاحبُ الأفعال، والسَّابِقُ صاحبُ الأحوال^(١).

وقال ابن عطاء: الظَّالِمُ الذي يحبُّ اللهَ من أجلِ الدنيا، والمُقْتَصِدُ الذي يحبه من أجلِ العُقْبَى، والسَّابِقُ الذي أسقط مُرَادَه بمراد الحق^(٢).

وقيل: الظَّالِمُ الذي يعبدُ اللهَ خوفاً من النار، والمُقْتَصِدُ الذي يعبدُ اللهَ طمعاً في الجنة، والسَّابِقُ الذي يعبدُ اللهَ لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظَّالِمُ الزَّاهِدُ في الدنيا؛ لأنَّه ظلم نفسه فترك لها حظاً وهي المعرفة والمحبة، والمُقْتَصِدُ العارفُ، والسَّابِقُ المحبُّ.

وقيل: الظَّالِمُ الذي يَجْزَعُ عند البلاء، والمُقْتَصِدُ الصَّابِرُ على البلاء، والسَّابِقُ المتلذِّذُ بالبلاء.

وقيل: الظَّالِمُ الذي يعبدُ اللهَ على العَقْلَةِ والعادة، والمُقْتَصِدُ الذي يعبدُ اللهَ على الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، والسَّابِقُ الذي يعبدُ اللهَ على الهَيْبَةِ.

وقيل: الظَّالِمُ الذي أُعْطِيَ فَمَنَعَ، والمُقْتَصِدُ الذي أُعْطِيَ فَبَدَّلَ، والسَّابِقُ الذي مَنَعَ فَشَكَرَ وآثَرَ.

ويروى أنَّ عابدين التقيا، فقال: كيف حال إخوانكم بالبصرة؟ قال: بخير، إنَّ أُعْطُوا شَكَرُوا، وإنَّ مَنَعُوا صَبَرُوا. فقال: هذه حالة الكلابِ عندنا بَبْلَخْ! عِبَادُنَا إِنَّ

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩.

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعُوا شَكَرُوا، وَإِنْ أُعْطُوا آثَرُوا^(١).

وقيل: الظالمُ مَنْ استغنى بماله، والمقتصدُ مَنْ استغنى بدينه، والسابقُ مَنْ استغنى بربه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئ للقرآن العاملُ به والعالمُ به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذن، والظالمُ الذي يدخل المسجدَ وقد أقيمت الصلاة؛ لأنه ظلم نفسه الأجرَ فلم يحصلَ لها ما حصله غيره^(٢).

وقال بعضُ أهل العلم في هذا: بل السابقُ الذي يدرك الوقتَ والجماعةَ فيُذكرُ الفضيلتين، والمقتصدُ الذي إن فاتته الجماعةُ لم يُفِرط في الوقت، والظالمُ الغافلُ عن الصلاة حتى يفوت الوقتَ والجماعةَ، فهو أولى بالظلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دينه، والسابقُ الذي يحبُّ ربه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصف ولا يُنصف، والمقتصدُ الذي ينتصف ويُنصف، والسابقُ الذي يُنصف ولا ينتصف.

وقالت عائشة رضي الله عنها: السابقُ الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصدُ مَنْ أسلم بعد الهجرة، والظالمُ مَنْ لم يُسلم إلا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم^(٣).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٧/٨ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٣٩/٤ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم.... وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٤٢٦/٢ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها الثعلبي في «تفسيره». وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد، وهو ترك الميل، ومنه قول جابر بن حنيّ التغلبي:

نُعَاطِي الْمُلُوكِ السُّلَمَ مَا قَصَدُوا لَنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمَحَرَّمٍ^(١)
أي: نُعَاطِيهِمْ^(٢) الصِّلَحَ مَا رَكَبُوا بِنَا الْقَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قَتْلُهُمْ بِمَحَرَّمٍ عَلَيْنَا إِنْ جَارُوا، فلذلك^(٣) كان المقتصد منزلةً بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني إتياننا^(٤) الكتاب لهم. وقيل: ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير. وقيل: وغد الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير.

الثالثة: وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق؛ ف قيل: التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم، وأن المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل؛ ذكره الزمخشري^(٥)، ولم يذكره غيره.

وقيل: قدم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه؛ إذ ليس له شيء يتكلم عليه إلا رحمة

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص ٢١١، ومتهى الطلب ٤٩/٤.

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/٣٠٩.

رَبِّهِ. وَاتَّكَلَ الْمُقْتَصِدُ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ، وَالسَّابِقُ عَلَى طَاعَتِهِ.

وقيل: قَدَّمَ الظَّالِمَ لثَلَا يَيْشَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَخَّرَ السَّابِقَ لثَلَا يُعْجِبَ بِعَمَلِهِ.

وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق عليه السلام: قَدَّمَ الظَّالِمَ لِيُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ إِلَّا بِصِرْفِ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ، وَأَنَّ الظُّلْمَ لَا يُوَثِّرُ فِي الْأَصْطِفَائِيَّةِ إِذَا كَانَتْ ثَمَّ عَنَائَةً، ثُمَّ ثَنَّى بِالْمُقْتَصِدِينَ لِأَنَّهُمْ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، ثُمَّ خَتَمَ بِالسَّابِقِينَ لثَلَا يَأْمَنَ أَحَدٌ مَكْرَ اللَّهِ، وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ بِحُرْمَةِ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ^(١).

وقال محمد بن علي الترمذي: جَمَعَهُمْ فِي الْأَصْطِفَاءِ إِزَالَةً لِلْعَلَلِ عَنِ الْعَطَاءِ؛ لِأَنَّ الْأَصْطِفَاءَ يُوجِبُ الْإِزْثَ، لَا الْإِثْرَ يُوجِبُ الْأَصْطِفَاءَ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي الْحِكْمَةِ: صَحَّحَ التَّسْبِيَةَ ثُمَّ ادَّعَى فِي الْمِيرَاثِ ^(٢).

وقيل: أَخَّرَ السَّابِقَ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى الْجَنَاتِ وَالثَّوَابِ، كَمَا قَدَّمَ الصَّوَامِعَ وَالبَيْعَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ عَلَى الْمَسَاجِدِ، لِتَكُونَ الصَّوَامِعُ أَقْرَبَ إِلَى الْهَدْمِ وَالْخَرَابِ، وَتَكُونَ الْمَسَاجِدُ أَقْرَبَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.

وقيل: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ بِالذِّكْرِ ^(٣) قَدَّمُوا الْأَذْنَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفِغَورٌ رَجِيءٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِهَا وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالْجَنَّةُ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلت: وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَعَايَةُ هَذَا الْجُودِ أَنْتَ وَإِنَّمَا يُؤَافَى إِلَى الْغَايَاتِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ
الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿جَنَّكَ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَنَّهُ مِيرَاثٌ، وَالْعَاقُ

(١) ذَكَرَهُ بَنَحْوِ الْبَغْوِيِّ ٥٧٢/٣.

(٢) فِي (ظ): ثُمَّ ادَّعَى لِلْمِيرَاثِ، وَفِي (خ) وَ (د) وَ (ز): ثُمَّ ادَّعَى فِي الْمِيرَاثِ، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (م).

(٣) فِي (ظ): فِي الذِّكْرِ.

والبار في الميراث سواء إذا كانوا مُعْتَرِفِينَ بِالنَّسَبِ، فالعاصي والمطيع مُقَرَّنُونَ بِالرَّبِّ. وقرئ: «جَنَّةٌ عَذْنٌ» على الإفراد، كأنها جنةٌ مُخْتَصَّةٌ بالسابقين لِقَلَّتْهُمْ، على ما تقدَّم^(١).

و«جَنَّاتٍ عَذْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسرُه الظاهرُ، أي: يَدْخُلُونَ جَنَّاتٍ عَذْنٍ يَدْخُلُونَهَا^(٢). وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: «يَدْخُلُونَهَا» بضم الياء وفتح الخاء^(٣). قال: لقوله: «يُحْلَلُونَ». وقد مضى في «الحج» الكلام في قوله تعالى: «يُحْلَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجل المسجد فقال: اللهم ارحم غُرْبَتِي، وآنسْ وَخَدَتِي، وَيَسِّرْ لِي جَلِيساً صَالِحاً. فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً فلأننا أسعدُ بذلك منك، سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» قال: فيجيء هذا السابقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيُحَاسَبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسه فيُحَبَسُ في المقامِ وَيُؤَنِّخُ وَيَقْرَعُ، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»^(٤). وفي لَفْظٍ آخَرَ: «وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ يُحَبَسُونَ فِي طَوْلِ الْمَحْشَرِ،

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشف ٣/٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٠ لزر ابن حُبَيْش.

(٢) الكشف ٣/٣٠٩. والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص ٥٣٤، والتيسير ص ١٨٢.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/٣٧٥، والبيهقي ٣/٥٧١، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت - أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد - غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يتلافاهم^(١) الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾^(٢).

وقيل: هو الذي يؤخذ منه في مقامه، يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبي: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جِئْتُ عَنِ يَدْلُونَا﴾، ولقوله: ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافر والمنافق لم يضطفوا.

قلت: وهذا هو الصحيح، وقد قال ﷺ: «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر»^(٣). فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار اليهود^(٤) والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه^(٥). والنصب: التعب. واللغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١٣/١.

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ١٦٦/٢.

بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿[النساء: ٥٦].﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿أي: كافر بالله ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكون للنفي حينئذ جواب، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقَضَى»، تقديره: لا يُقَضَى عليهم ولا يموتون^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُورُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائي: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُورُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنه رأس آية، و﴿لَا يُقَضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأس آية. ويجوز في كل واحد منهما ما جاز في صاحبه^(٢).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصراخ: الصوت العالي، والصارخ: المستغيث، والمُصْرِخُ: المُغِيثُ؛ قال:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزَعٌ كان الصراخُ له قرعُ الظنابِ^(٣)

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: ربنا أخرجنا من جهنم، وردنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: نُقْلُ: لا إله إلا الله^(٤). وهو معنى^(٥) قولهم: ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بدَلِ الكفر، ونطيعُ بدَلِ المعصية، ونمثلُ أمرَ الرسل.

﴿أَوَّلَ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَر. وترجم البخاري: بابٌ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعَمَرِ،

(١) المحتسب ٢/٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص ١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظُّنبوب: العظم اليابس من قدم الساق، عنى به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخف في زجر الفرس قرعاً للظنبوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرَبَ لهذا الأمر ظنبوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/٥٠٦.

(٥) في (د) و (ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدثنا عبد السلام بن مطهر قال: حدثنا عمر بن علي قال: حدثنا معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»^(١).

قال الخطابي^(٢): «أعذر إليه، أي: بلغ به أقصى العذر، ومنه قولهم: قد أعذر من أنذر، أي: أقام عذر نفسه في تقديم نذارته. والمعنى: أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر؛ لأن الستين قريب من معتك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع، وترقب المنية ولقاء الله تعالى، ففيه إعذار بعد إعذار»^(٣)، الأول بالنبي ﷺ، والموتان^(٤) في الأربعين والستين^(٥). قال علي وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾: «إنه ستون سنة»^(٦). وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال في مواعظته: «ولقد أبلغ في الإعذار من تقدم في الإنذار، وإنه لينادي مناد من قبل الله تعالى أبناء الستين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾»^(٧).

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٣٩/١١.

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٣٥٩/٢.

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). وقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٣٢٢/٩، وفيه: ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ١٣٨/٢، والطبري ٣٨٥/١٩. وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ٣٨٦/١٩. أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الراهرمزي في الأمثال ص ٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نُودِيَ أبناءُ السَّتين، وهو العمرُ الذي قال الله: ﴿أَوَّلَهُ نُعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾»^(١).

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنة. وعن الحسن البصريّ ومسروقٍ مثله^(٢). ولهذا القول أيضاً وجه، وهو صحيح؛ والحجة له قوله تعالى: ﴿كَحَىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تنأهي العقل، وما قبل ذلك وما بعده مُتَقَصِّصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويُخَالِطُونَ النَّاسَ، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا النَّاسَ واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف^(٣).

وخرَّج ابن ماجه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمتي ما بين السَّتين إلى السبعين، وأقلُّهم من يُجاوِزُ ذلك»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَحَمَّاءُ كُفَّاتٍ يَرْمُونَ النَّبِيَّ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النُّذُرُ»^(٥) واختُلف فيه؛ فقليل: القرآن، وقيل: الرسول؛ قاله زيد بن عليّ وابن زيد^(٦). وقال ابنُ عباس وعكرمة وسفيان ووكيعٌ والحسين بن الفضل والفراء والطبري: هو الشيب^(٧).

(١) نوادر الأصول ص ١٧٧، وأخرجه الطبري ٣٨٥/١٩، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ٣٨٤/١٩ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٥٧٣/٣.

(٣) ٣٢٢/٩.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٢١٨/٥.

(٥) الكشف ٣١١/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٣٨٧/١٩ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣٧٠/٣، وسلف ٣٢٢/٩، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغوي =

وقيل: النذيرُ الحُمَى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقل^(١).
والنذيرُ بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَى وموتُ الأهلِ كلُّهُ إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَى رائدُ الموت»^(٢). قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحُمَى رسولُ الموت^(٣)، أي: كأنَّها تُشعرُ بقدومه وتُنذِرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سنُّ اللُّهُو واللَّعِب، قال:

رَأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ نُذُرِ الْمَنَايَا لَصَاحِبِهِ وَحَسْبُكَ مِنْ نَذِيرِ
وقال آخرُ:

فَقُلْتُ لَهَا الْمَشِيبُ نَذِيرٌ عَمْرِي وَلَسْتُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النَّذِيرِ^(٤)
وأما موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوان؛ فإنذارٌ بالرحيلِ في كلِّ وقتٍ وأوانٍ، وحينٍ وزمانٍ، قال:

وَأَرَاكَ تَحْمِلُهُمْ وَلَسْتَ تَرُدُّهُمْ فَكَأَنَّنِي بِكَ قَدْ حُمِلْتَ فَلَمْ تُرَدَّ
وقال آخرُ:

الْمَوْتُ فِي كُلِّ حِينٍ يَنْشُرُ الْكَفَنَا وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا^(٥)

= ٥٧٣/٣. وذكره عن الفراء والطبري الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٦، وسلف في ترجمة عند البخاري قرياً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٦.

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/١٦٤، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع رضي الله عنه. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلاً.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/١٦٣.

(٤) نسبه المبرِّد في الكامل ٢/٧٠٣ للعتبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/٥١، والعقد الفريد ٣/٥١.

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص ٥٧، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤.

وَأَمَّا كَمَالُ الْعَقْلِ فِيهِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ، وَيُفْضَلُ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ،
فَالْعَاقِلُ يَعْمَلُ لِآخِرَتِهِ وَيَرْغَبُ فِيهَا عِنْدَ رَبِّهِ، فَهُوَ نَذِيرٌ.

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَبِعَثَّةِ اللَّهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا إِلَى عِبَادِهِ قَطْعًا لِحُجْجِهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ يريدُ عذابَ جهنَّمَ؛ لأنَّكم ما اعتبرتم ولا اتَّعظتم^(١).
﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: مانع من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ﴾ (٢٨)

تقدَّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ رَدَّكُمْ إِلَى الدُّنْيَا لَمْ تَعْمَلُوا
صَالِحًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. و﴿عَلِمَ﴾ إذا كان بغيرِ
تنوينٍ صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منونًا لم يَجُزْ أن يكون
للماضي^(٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢٩)

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال قتادة: خَلَفًا بَعْدَ خَلْفٍ،
وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ^(٣). وَالْخَلْفُ هُوَ التَّالِي لِلْمَتَقَدِّمِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا خَلِيفَةَ اللَّهِ،
فَقَالَ: لَسْتُ بِخَلِيفَةِ اللَّهِ، وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا رَاضٍ بِذَلِكَ^(٤).

(١) في (ظ): ما آمتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر...، وابن أبي مليكة لم يدرك
أبا بكر ﷺ.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: جزاء كُفْرِهِ، وهو العقاب والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضللاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوز رفعه، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو من هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُستفهمٌ عنه. ولو قلت: أرايتُ زيداً أبو من هو؟ لم يَجْزِ الرفع. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخبرني عنه، وكذا معنى هذا: أخبروني عن شركائكم الذين تَدْعُونَ من دون الله، أَعْبَدْتُمُوهُمْ لأنَّ لهم شِرْكََةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقُوا من الأرض شيئاً؟! ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ أي: أم عندهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشِّرْكَة. وكان في هذا ردٌّ على مَنْ عَبَدَ غيرَ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر أن يُعْبَدَ غيره^(١).

﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بالتوحيد، وَجَمَعَ الباقون^(٢). وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ إِلَّا أَنَّ قِرَاءَةَ الْجَمْعِ أَوْلَى؛ لَأَنَّهُ لَا يَخْلُو مَنْ قَرَأَهُ: ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ من أن يكون خَالَفَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، أو يكون جاء به على لغةٍ مَنْ قال: جاءني طلحت^(٣)، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذَّةٌ قليلة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) السبعة ص ٥٣٥، والتيسير ص ١٨٢.

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس^(١).

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أُولَى لموافقة الخطِّ، لأنَّها في مصحف عثمان: «بَيِّنَاتٍ بِالْأَلْفِ وَالتَّاءِ».

﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيل تغرُّ، وهو قولُ السادة للسُّفلة: إِنَّ هَذِهِ الْآلِهَةُ تَنْفَعُكُمْ وَتَقْرِبُكُمْ. وقيل: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ. وقيل: وَعَدَهُمْ بِأَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيَّنَّ أَنَّ خَالِقَهُمَا وَمُمْسِكُهُمَا هُوَ اللَّهُ، فَلَا يَوْجِدُ حَادِثٌ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا بِبَقَائِهِ. و«أَنَّ» فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِمَعْنَى: كِرَاهَةً أَنْ تَزُولَا، أَوْ لَثَلًا تَزُولَا، أَوْ يُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ يَمْنَعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنَ^(٢) أَنْ تَزُولَا، فَلَا حَاجَةَ عَلَى هَذَا إِلَى إِضْمَارٍ، وَهَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ^(٣).

﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ^(٤): أَي: وَلَوْ زَالَتَا مَا أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ، وَ«إِنْ» بِمَعْنَى مَا. قَالَ: وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وَقِيلَ: الْمَرَادُ زَوَالُهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٥).

(١) فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/٣٧٦.

(٢) قَوْلُهُ: مِنْ، مِنْ (ظ)، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لَمَّا فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلزَّجَّاجِ ٤/٢٧٣، وَإِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ ٣/٣٧٦، وَالْكَلَامُ مِنْهُ.

(٣) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٤/٢٧٣.

(٤) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢/٣٧٠، وَنَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ عَنْهُ بِوَاسِطَةِ النَّحَاسِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٣/٣٧٦.

(٥) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلزَّجَّاجِ ٤/٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيم قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابن مسعودٍ إلى كعب الأخبارِ يتعلَّم منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إِنَّ السماءَ تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحَى، في عمودٍ على منكبٍ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديته! إِنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ إِنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت^(١).

وعن ابن عباس نحوه، وأنه قال لرجلٍ مُثْبِلٍ من الشام: مَنْ لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إِنَّ السماواتِ على منكبٍ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أما ترك يهوديته بعد؟ إِنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٢).

والسماواتُ سبعٌ والأرضون سبعٌ، ولكن لما ذكّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَْنَهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهل التأويل: إِنَّ اللهَ يمسكُ السماواتِ والأرضَ أَنْ تزولا مِنْ كُفْرِ الكافرين، وقولهم: اتَّخَذَ اللهَ ولداً. قال الكلبي: لما قالت اليهودُ: عزيزُ ابنُ الله، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله، كادت السماواتُ والأرضُ أَنْ تزولا عن أمكتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٣٩٢/١٩، وأخرجه أيضاً ٣٩١/١٩ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود ؑ.

(٢) الكشف ٣/٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْهَدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريش؛ أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً ﷺ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فلعنوا من كذب نبيهم منهم، وأقسموا بالله جل اسمه: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبي ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْهَدَى الْأُمَمِ﴾ يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب^(١).

وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنّوه - وهو النذير من أنفسهم - نفروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عتوا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: مكر العمل السيئ، وهو الكفر وخدع الضعفاء، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم. وأنت «من إهدى الأمم» لتأنيث أمة؛ قاله الأخفش^(٢).

وقرأ حمزة والأعمش: ﴿ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ﴾^(٣) فحذف الإعراب من الأول وأثبتته في الثاني. قال الزجاج: وهو لحن^(٤)، وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه. وزعم المبرّد أنه لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحلّه يقرأ بهذا، وقال: إنما كان يقف عليه، فغلط

(١) النكت والعيون ٤/٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٧٧ .

(٣) السبعة ص٥٣٥-٥٣٦ ، والتيسير ص١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٣٧٧ ، وما

سيأتي هو من كلام النحاس.

مَنْ أَدَّى^(١) عنه، قال: والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأنَّ الثاني لَمَّا لم يكن تمام الكلام أُعْرِبَ باتِّفاق، والحركة في الثاني أثْقَلُ منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين. وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزة في هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره:

إِذَا اغْوَجَجْنَ قَلْتُ صَاحِبَ قَوْمٍ^(٢)

وقال الآخر:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِنَّمَا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ^(٣)

وهذا لا حجة فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجِزْه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على الشذوذ ولضرورة الشعر. وقد خولف فيه، وزعم الزجاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إِذَا اغْوَجَجْنَ قَلْتُ صَاحِ قَوْمٍ

وأنه أنشد:

فَالْيَوْمَ فَاشْرَبَ^(٤) غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ

ذَكَرَ جَمِيعُهُ النَّحَاسُ^(٥).

الزمخشريُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيِّئ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اِخْتَلَسَ فُظُنَّ سكوناً، أَوْ وَقَفَ وَقَفَةً خفيفةً ثم

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٢٠٣/٤، وسلف ١١٢/٢، وعجزه: بالدَّوِّ أمثال السفين العُوم.

(٣) الكتاب ٢٠٤/٤، والبيت لامرئ القيس، وسلف ١١٢/٢، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص ١٢٢: فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص ٢٥٨: فاليوم فاشرب، وستأتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٢٧٥/٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٨/٣ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالقاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص ٢٥٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣٧٧-٣٧٨، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحق». وقرأ ابن مسعود: «ومكرًا سيئًا»^(١).

وقال المهدوي: وَمَنْ سَكَّنَ الهمزة من قوله: «ومكر السيئ» فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات^(٢) والياءات، كما قال:

فاليومَ أشربَ غيرَ مستحقٍ

قال القشيري: وقرأ حمزة: «ومكر السيئ» بسكون الهمزة، وخطأه أقوام. وقال قوم: لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي ﷺ قرأه فلا بد من جوازه، ولا يجوز أن يقال: إنه لحن^(٣). ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا تنزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك. وقيل: هذا إشارة إلى قتلهم بيدر.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنية فاستقلت ذراعاً بعد ما كانت تحيق^(٤)

(١) الكشف ٣/٣١٢، وما سلف بين حاصرتين منه، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/٢٠٢.

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص ١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٧٩، والبيت للمفضل الكوري كما في الأصمعيات ص ٢٠٠، والمعاني الكبير ٢/٩٤٥، ومنتهى الطلب ٨/٢٣٩، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص ٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/١٧١ أن المفضل هو عارم بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدَارَكَة.

أي: تنزل، وهذا قولٌ قُطِرُب. وقال الكلبي: «يَحِيقُ» بمعنى يُحِيط^(١). والحق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أن كعباً قال له: إني أجد في التوراة: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا. فقال ابن عباس: فَإِنِّي أوجدُكَ في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقراً: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢). وفي أمثال العرب: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ جُبًّا وَقَعَ فِيهِ مِنْكَبًا^(٣).

وروى الزهري أن النبي ﷺ قال: «لَا تَمْكُرْ وَلَا تُعِنْ مَآكَرًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وَلَا تَبْغِ وَلَا تُعِنْ بَاغِيًّا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾» [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]^(٤). وقال بعض الحكماء:

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمَ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى تُحْصِي الْمُضْطِيبَاتِ وَتَنْسَى النُّعَمَ^(٥)
وفي الحديث: «المكر والخديعة في النار»^(٦). فقوله: «في النار» يعني: في

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٣١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٣.

(٣) المستقصى ٢/٣٥٤، والكشاف ٣/٣١٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: وَلَا تَبْغِ وَلَا تُعِنْ بَاغِيًّا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، وَلَا تَنْكُ وَلَا تُعِنْ نَاكِسًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/٥٠٠، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٦٠٧/٤ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ - كشف) وابن عدي ٤/١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدْخِلُ أَصْحَابَهَا فِي النَّارِ؛ لَأَنَّهَا مِنْ أَخْلَاقِ الْكُفَّارِ لَا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَخْيَارِ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمن المَكْرُ والخديعةُ والخيانة»^(١). وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلُّق بهذه الأخلاق الذميمة، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُوءَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين. ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل^(٢) ذلك سُنَّةً فيهم، فهو يعذب بمثله مَنْ استحقَّه، لا يقدر أحد أن يبدِّل ذلك، ولا أن يحوِّل العذاب عن نفسه إلى غيره.

والسُّنَّةُ: الطريقة، والجمعُ سُنَن. وقد مضى في «آل عمران»^(٣). وأضافها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضع آخر: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضاف إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأجل، تارةً يضاف إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾

بَيَّنَّ السُّنَّةَ التي ذَكَرَهَا، أي: أولم يَرَوْا إلى ما أنزلنا بَعَادَ وِثْمٍ وَمَذِينٍ وَأَمْثَالِهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرِّسْلَ، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم^(٤) إلى مساكنهم ودُورهم، وبما سمعوا على

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص ٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٣٣٢/٥.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتر بما حلّ بهم، أفليس فيه عبرة وبيان لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليله قوله: ﴿وَكَاوُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إذا أراد إنزال عذابٍ بقومٍ لم يُعجزه ذلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾ (٤٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوانِ ممَّا دَبَّ وَدَرَج. قال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام. وقال الكلبي: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يريد الجنَّ والإنس دونَ غيرهما؛ لأنَّهما مُكَلَّفَانِ بالعقل^(١).

وقال ابن جريج^(٢) والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دونَ غيرهم.

قلت: والأوّل أظهر، لأنّه عن صحابيٍّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعَذَّبَ في جُحره بذنْبِ ابنِ آدم^(٣). وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجلٌ بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يضرُّ إلا نفسه. فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلا هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبَارَى

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/٣٩٧.

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جرير، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٣٠١، والحاكم ٢/٤٢٨ وصححه. والجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتَمَوْتُ هَزْلاً فِي وَكْرِهَا بَظْلَمِ الظَّالِمِ^(١).

وقال الثَّمَالِيُّ ويحيى بن سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كل شيء^(٢).

وقد مضى في «البقرة»^(٣) نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [الآية: ١٥٩]: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرض».

﴿وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وعدَّهم في اللُّوحِ المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة^(٤). ﴿فَلَا تَأْتِيهِمْ سَاعَةٌ وَلَا يَذَكَّرُونَ﴾ أي: بمن يستحقُّ العقابَ منهم ﴿بَصِيرًا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومَ إنَّ زيداً خارجٌ. ولكن العامل فيها «جاء»؛ لشَبَّهها بحروفِ المُجازاة^(٥)، والأسماءُ التي يُجازَى بها يَعملُ فيها ما بعدها. وسيبويه لا يرى المُجازاةَ بـ«إذا» إلَّا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرْتُ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَتَضَارِبِ^(٦)

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٦٠/١٤، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والجباري: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٧٩. والثَّمَالِيُّ: هو أبو حمزة ثابت ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٤٨/٥.

(٣) ٤٨٣/٢.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٨٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٧٩.

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص ٨٨، والكتاب ٣/٦٠، وسلف ١/٣٠٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

وهي مَكِّيَّةٌ بإجماع، وهي ثلاثٌ وثمانون آيةً، إِلَّا أَنْ فَرَقَهُ قَالَتْ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿وَنَكْثُوبٌ مَّا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [الآية: ١٢] نَزَلَتْ فِي بَنِي سَلَمَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَتْرَكُوا دِيَارَهُمْ، وَيَتَقَلُّوا إِلَى جَوَارِ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، عَلَى مَا يَأْتِي^(١).

وَفِي كِتَابِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَؤُوا يَسَ عَلَى مَوْتَاكُمْ»^(٢).

وَذَكَرَ الْأَجْرِيُّ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُقْرَأُ عَلَيْهِ سُورَةُ يَسَ إِلَّا هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٣).

وَفِي «مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يَسَ فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ؛ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ»^(٤). خَرَّجَهُ أَبُو نَعِيمٍ الْحَافِظُ أَيْضاً^(٥).

(١) ص ٤٢٠-٤٢١ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥.

(٢) سنن أبي داود (٣١٢١)، وسلف ٤٤٩/٥، وذكرنا ثمة قول الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث. اهـ. وأورده ابن حبان في صحيحه (٣٠٠٢) وقال: قوله: «اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يَسَ»: أَرَادَ بِهِ مَنْ حَضَرَتْهُ الْمَيِّتَةُ، لَا أَنَّ الْمَيِّتَ يُقْرَأُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «لَقُّوْا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٦٩٦٩) عَنْ أَبِي الْمَغِيرَةِ، عَنْ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمَشَيْخَةُ أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضِيفَ بْنِ الْحَارِثِ الثَّمَالِيِّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ، فَقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ «يَسَ»؟ قَالَ: فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ. قَالَ: وَكَانَ الْمَشَيْخَةُ يَقُولُونَ: إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خَفَّفَ عَنْهُ بِهَا. وَحَسَّنَ إِسْنَادَ هَذَا الْأَثَرِ الْحَافِظُ ابْنَ حَجَرَ فِي الْإِصَابَةِ (تَرْجُمَةُ غُضِيفَ).

(٣) سلف ٤٤٩/٥، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٧) وهو من طريق الحسن عن أبي هريرة به، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ٣٨. وأخرجه ابن حبان (٢٥٧٤) من طريق الحسن عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ كَمَا فِي الْمَرَاثِلِ ص ٤٢: لَمْ يَصِحَّ لِلْحَسَنِ سَمَاعٌ مِنْ جَنْدَبٍ. اهـ. وَسَنَلُ الدَّارِقُطْنِي عَنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ: اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى الْحَسَنِ... وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ثَابِتٌ. الْعُلَلُ ١٠/ ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٥) حلية الأولياء ٢/ ١٥٩.

وَرَوَى الترمذِيُّ عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَس، وَمَنْ قَرَأَ يَسَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ» قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وفي إسناده هارونُ أبو محمدٍ شيخٌ مجهولٌ، وفي الباب عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، ولا يصحُّ حديثُ أبي بكرٍ من قِبَلِ إسناده، وإسناده ضعيفٌ^(١).

وعن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْقُرْآنِ لَسُورَةً تَشْفَعُ لِقَارِئِهَا وَيُغْفَرُ لِمُسْتَمِعِهَا، أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يَس، تُدْعَى فِي التَّوْرَةِ: الْمُعِمَّْةُ» قيل: يا رسولَ الله، وما الْمُعِمَّْةُ؟ قال: «تَعْمُ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا، وَتَدْفَعُ عَنْهَا أَوَّلَ الْآخِرَةِ، وَتَدْفَعُ الدَّافِعَةَ، وَالْقَاضِيَةَ» قيل: يا رسولَ الله، وكيف ذلك؟ قال: «تَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهَا كُلَّ سُوءٍ، وَتَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا عَدَلَتْ لَهُ عَشْرِينَ حَجَّةً، وَمَنْ سَمِعَهَا كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ دِينَارٍ تَصَدَّقَ بِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ كَتَبَهَا وَشَرِبَهَا أَدَخَلَتْ جَوْفَهُ أَلْفَ دَوَاءٍ، وَأَلْفَ نَوْرٍ، وَأَلْفَ يَقِينٍ، وَأَلْفَ رَحْمَةٍ، وَأَلْفَ رَافَةٍ، وَأَلْفَ هَدًى، وَنَزَعَ عَنْهُ كُلَّ دَاءٍ وَغِلٍّ» ذكره الثعلبيُّ من حديثِ عائشة^(٢)، والترمذِيُّ الحَكِيمُ في «نَوَادِرِ الْأَصُولِ» من حديثِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ مُسْنَدًا^(٣).

وفي «مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ» عن شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قال: قال ابنُ عباس: مَنْ قَرَأَ «يَسَ» حِينَ يُصْبِحُ؛ أُعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّى يُمَسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي صَدْرِ لَيْلَةٍ أُعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ^(٤).

وذكر النحاسُ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ وَقَلْبُ الْقُرْآنِ

(١) سنن الترمذي (٢٨٨٧). وسيأتي حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٥ عن عائشة رضي الله عنها منه إلى قوله: «... أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يَس».

(٣) نَوَادِرِ الْأَصُولِ ص ٣٢٥ وليس في مطبوعه ذكر الإسناد، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٦٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٥٦)، وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٣٥٥) من حديث أنس ﷺ وقال: هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٩). وشهر بن حوشب؛ قال الحافظ في التقریب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

«يس»، مَنْ قَرَأَهَا نَهَاراً كُفِيَ هَمَّهُ، وَمَنْ قَرَأَهَا لَيْلاً غُفِرَ ذَنْبُهُ. وقال شهر بن حوشب: يقرأ أهل الجنة «طه» و«يس» فقط^(١). رفع هذه الأخبار الثلاثة المأزدي، فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْباً وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ «يس»، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ أُعْطِيَ يُسَّرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي يَوْمٍ أُعْطِيَ يُسَّرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَإِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُرْفَعُ عَنْهُمْ الْقُرْآنُ فَلَا يَقْرَءُونَ شَيْئاً إِلَّا «طه» و«يس»^(٢).

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن مَنْ قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يُصبح، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَزَلْ فِي فَرَحٍ حَتَّى يُمَسِيَ؛ وقد حَدَّثَنِي مَنْ جَرَّبَهَا^(٣). ذكره الثعلبي وابن عطية، قال ابن عطية^(٤): وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ التَّجَرُّبَةُ.

وذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّلْتِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مِرْوَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: مَنْ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ قِسَاوَةً فَلْيَكُتُبْ «يس» فِي جَامٍ بَزْغَفَرَانٍ ثُمَّ يَشْرَبْهُ^(٥).

حَدَّثَنِي أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَضْرَمُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ بَقِيَّةَ بْنِ الْوَلِيدِ، عَنْ الْمُعْتَمِرِ بْنِ أَشْرَفٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُرْآنُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ دُونَ اللَّهِ، وَفَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، فَمَنْ وَقَرَّ الْقُرْآنَ فَقَدْ وَقَرَّ اللَّهَ، وَمَنْ لَمْ يَقَرَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَقَرَّ اللَّهَ، وَحَرَمَةُ الْقُرْآنِ عِنْدَ اللَّهِ كَحَرَمَةِ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٥، ولم نقف عليه عن غيره، وسلف بعضه، وسلف كلام الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث.

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢١٨).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥، والخبر فيه دون قوله: وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يُصْبِحُ...

(٥) نوادر الأصول ص ٣٣٥، وهو مقطوع على أبي جعفر، وهو محمد بن علي. وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٦٨) من طريق الحسن بن الحسين العرنى عن عمرو بن ثابت به. وعمرو بن ثابت قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: ليس بثقة ولا مأمون. وقال النسائي: متروك. الميزان ٣/ ٢٤٩.

الوالد على ولده. القرآن شافع مشفع، وماجل^(١) مصدق، فمن شفع له القرآن شفع، ومن محل به القرآن صدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار. وحملت القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، يقول الله تعالى: يا حملة القرآن استجيبيوا لرؤسكم بتوقير كتابه يزيدكم حباً ويحببكم إلى عبادي، يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، [يدفع عن تالي القرآن] بلوى الآخرة، ومن استمع آية من كتاب الله كان له أفضل ممّا تحت العرش إلى الثخوم، وإن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة، ويدعى صاحبها الشريف، يوم القيامة تشفع لصاحبها في أكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يس^(٢).

وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له»^(٣). وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل المقابر فقرا سورة يس خفف الله عنهم يومئذ، وكان له بعدد حروفها حسنات»^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَس﴾ في «يس» أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة والكسائي: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة:

(١) أي: خصم مجادل. النهاية (محل).

(٢) نواذر الأصول ص ٣٣٥ - ٣٣٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وأصرم بن حوشب قال فيه يحيى: كذاب خبيث، وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك. الميزان ١/ ٢٧٢.

(٣) وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٧٧) بلفظ: «من قرأ ليلة الجمعة «حم» الدخان و«يس» أصبح...» وقال: تفرد به هشام (وهو ابن زياد) وهو ضعيف. اهـ وقال النسائي: متروك، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات. الميزان ٤/ ٢٩٨.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ١١٩/ ٨، وفي إسناده ضعفاء ومجاهيل.

«يَس» بإظهار النون^(١). وقرأ عيسى بن عمر: «يَس» بنصب النون. وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «يَس» بالكسر. وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السَّمِيع: «يَس» بضم النون، فهذه خمس قراءات^(٢).

القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأنَّ النون تُدغم في الواو. ومَن يَن قال: سبيلُ حروفِ الهجاءِ أن يُوقَفَ عليها، وإنَّما يكون الإدغامُ في الإدراج.

وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما: أن يكون مفعولاً، ولا يَصْرِفُه؛ لأنَّه عنده اسمٌ أعجميٌّ بمنزلة هابيل، والتقدير: اذكر يَس، وجعله سيبويه اسماً للسورة. وقوله الآخر: أن يكون مبنياً على الفتح، مثل: كيف وأين. وأمَّا الكسرُ فزَعَمَ الفراءُ أنه مشبَّه بقول العرب: جَبِرَ لا أفعل^(٣)، فعلى هذا يكون «يَس» قَسَمًا. وقاله ابن عباس^(٤).

وقيل: مشبَّه بأَمَسٍ وحَذَامٍ وهؤلاءِ ورَقَاشٍ. وأمَّا الضمُّ فمشبَّه بمنذُ وحيثُ وقَطُ، وبالمنادى المُفْرَدِ إذا قلت: يا رجلُ، لِمَن يقف عليه. قال ابنُ السَّمِيع وهارون: وقد جاء في تفسيرها: يا رجلُ، فالأوَّلَى بها الضمُّ.

قال ابن الأنباري: «يس» وقفَ حَسَنٌ لِمَن قال: هو افتتاحُ للسورة. ومَن قال: معنى «يس»: يا رجلُ، لم يقف عليه^(٥).

ورُويَ عن ابن عباسٍ وابن مسعود وغيرهما أنَّ معناه: يا إنسان^(٦)، وقالوا في

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١، وقد قرأ بإدغام النون ورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي والباقون من السبعة بإظهارها. التيسير ص ١٨٣، وينظر السبعة ص ٥٣٨.

(٢) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١ - ٣٨٢، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٧١. وجَبِرَ بكسر الراء، وقد يَنْوَن، وكائِن: يعين، أي: حقًا. القاموس (جبر).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم تقف عليه عن ابن مسعود. ووقع في (ظ): وروي عن ابن عباس وغيره أن...

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي: على آلِ محمدٍ.

وقال سعيد بن جبير: هو اسمٌ من أسماءِ محمدٍ ﷺ، ودليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قال السيد الحميري:

يا نفسُ لا تَمَحْضِي بالتَّضَحُّجِ جاهدةً عَلَى المودَّةِ إِلَّا آلُ يَاسِينَ^(١)
وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: معناه: يا سيدَ البشرِ^(٢).

وقيل: إِنَّهُ اسمٌ من أسماءِ الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهبُ قال: سألتُه هل ينبغي لأحدٍ أَنْ يَتَسَمَّى بـ «يس»؟ قال: ما أراه ينبغي؛ لقول الله: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ يقول: هذا اسمي «يس». قال ابن العربي^(٣): هذا كلامٌ بدیع، وذلك أَنَّ العبدَ يجوزُ له أَنْ يَتَسَمَّى باسمِ الربِّ إذا كان فيه معنىٌ منه، كقوله: عالم وقادر ومريد ومتكلم. وإنَّما مَنَعَ مالِكٌ من التسمية بـ «يس»؛ لأنَّه اسمٌ من أسماءِ الله لا يُذَرَى معناه، فربَّما كان معناه ينفردُ به الربُّ فلا يجوزُ أَنْ يُقَدِّمَ عليه العبدُ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] قلنا: ذلك مكتوبٌ بهجاءٍ فتجوزُ التسميةُ به، وهذا الذي ليس بمُتَهَجِّجٍ هو الذي تكلمَ مالِكٌ عليه؛ لِمَا فيه من الإشكال، والله أعلم.

وقال بعضُ العلماء: افتتحَ الله هذه السورةَ بالياء والسَّيْنِ وفيهما مَجْمَعُ الخير، ودَلَّ الْمُفْتَتَحُ على أَنَّهُ قلبٌ، والقلبُ أميرٌ على الجسد، وكذلك «يس» أميرٌ على سائر السور، مُشْتَمِلٌ على جميع القرآن.

ثم اختلفوا فيه أيضاً^(٤)؛ فقال سعيد بنُ جبير وعكرمة: هو بِلُغَةِ الحبشة. وقال الشَّعْبِيُّ: هو بِلُغَةِ طَيِّئ.

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٤٥. والسيد الحميري هو إسماعيل بن محمد بن يزيد، أبو هاشم، من فحول الشعراء، توفي سنة (١٧٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ٨/٤٤.

(٢) تفسير البغوي ٥/٤.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٥٩٦، وما قبله منه.

(٤) قوله: اختلفوا، يعني به الذين قالوا: معناه: يا إنسان، وهو مروى عن الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير كما ذكر الماوردي في التكت والعيون ٥/٥، والكلام الذي سيأتي منه.

الحسن: بُلُغَةُ كَلْبٍ. الكلبي: هو بالسريانية، فتكَلَّمْتُ به العرب، فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في «طه»^(١)، وفي مقدّمة الكتاب مستوفى^(٢).

وقد سَرَدَ القاضي عياضُ أقوالَ المفسّرين في معنى «يس»، فحكى أبو محمدٍ مكّي أنه رُوِيَ عن النبي ﷺ قال: «لي عند ربّي عشرةُ أسماءٍ» ذَكَرَ أَنَّ منها: طه ويس اسمان له^(٣).

قلت: وَذَكَرَ الماورديُّ عن عليّ عليه السلام قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى سَمَّاني في القرآن سبعةَ أسماءٍ: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبد الله»^(٤) قاله القاضي^(٥). وَحَكَى أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ عن جعفر الصادق أنه أراد: يا سيد^(٦)، مُخاطَبَةً لِنَبِيِّهِ ﷺ.

وعن ابن عباس: «يس»: يا إنسان، أراد محمداً ﷺ^(٧)، وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله سبحانه^(٨).

وقال الزَّجَّاج: قيل: معناه: يا محمد، وقيل: يا رجل، وقيل: يا إنسان^(٩).

وعن ابن الحنفية: «يس»: يا محمد^(١٠).

(١) ٨/١٤ وما بعدها.

(٢) ١٠٩/١.

(٣) الشفا ٤٤٨/١، وقد سلف الكلام على هذا الحديث ٩/١٤.

(٤) النكت والعيون ٥/٥، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ١٥٩٦/٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال: وهذا حديث لا يصح. قال النووي في تهذيب الأسماء ٢٠٠/٤ بعد أن ذكر الحديث عن الماوردي: قوله: سماني عبد الله، يعني في قول الله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَمَّا كَانَتْ أُمَّةً لِّلَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

(٥) في الشفا ٤٥٠/١، ووقع في (خ) و(ظ): قال القاضي.

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ٤٤٩/١.

(٧) الوسيط ٥٠٩/٣، وأخرج الطبري ٣٩٨/١٩ عنه في قوله تعالى: «يس» قال: يا إنسان، بالحبشية.

(٨) أخرجه الطبري ٣٩٨/١٩.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٢٧٧/٤.

(١٠) النكت والعيون ٥/٥.

وعن كعب: «يس» قَسَمَ أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرضَ بِالْفَيِّ عام: يا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

ثم قال: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ فَإِنْ قَدَّرَ أَنَّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ، وَصَحَّ فِيهِ أَنَّهُ قَسَمَ، كَانَ فِيهِ مِنَ التَّعْظِيمِ مَا تَقَدَّمَ، وَيُؤَكِّدُ فِيهِ الْقَسَمَ عَظْفُ الْقَسَمِ الْآخِرِ عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى النِّدَاءِ؛ فَقَدْ جَاءَ قَسَمٌ آخَرُ بَعْدَهُ لَتَحْقِيقِ رِسَالَتِهِ وَالشَّهَادَةِ بِهَدَايَتِهِ. أَقَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِاسْمِهِ وَكِتَابِهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ بَوْحِيهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَعَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ مِنْ إِيْمَانِهِ، أَي: طَرِيقٍ لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ، وَلَا عُدُولَ عَنِ الْحَقِّ.

قال النقَّاش: لَمْ يُقَسِّمِ اللَّهُ تَعَالَى لِأَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ بِالرِّسَالَةِ فِي كِتَابِهِ إِلَّا لَهُ، وَفِيهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَتَمَجِيدِهِ عَلَى تَأْوِيلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَا سَيِّدُ، مَا فِيهِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»^(٢). انْتَهَى كَلَامُهُ.

وحكى القُشَيْرِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتْ كَفَّارُ قَرِيشٍ: لَسْتُ مُرْسَلًا، وَمَا أَرْسَلَكُ اللَّهُ إِلَيْنَا، فَأَقَسَمَ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

و«الْحَكِيمُ»: الْمُحْكَمُ حَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ لِبُطْلَانٍ وَتَنَاقُضٍ، كَمَا قَالَ: ﴿أُخْرِجْتُ مِنْ أَيْتَانِهِ﴾ [هود: ١]. وَكَذَلِكَ أُخْرِجَ فِي نَظْمِهِ وَمَعَانِيهِ، فَلَا يَلْحَقُهُ خَلَلٌ. وَقَدْ يَكُونُ «الْحَكِيمُ» فِي حَقِّ اللَّهِ بِمَعْنَى الْمُحْكَمِ بِكُسْرِ الْكَافِ، كَالْأَلِيمِ بِمَعْنَى الْمُؤَلِّمِ.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي: دِينٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ^(٣): عَلَى طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا، وَقَالَ: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» خَبَرُ إِنْ، وَ«عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» خَبَرُ ثَانٍ، أَي: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِنَّكَ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وقيل: الْمَعْنَى: لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٢٥٨/٥.

(٢) سلف ٢٥٤/٤.

(٣) في معاني القرآن ٢٧٧/٤ - ٢٧٨.

من صِلَةِ المرسلين، أي: إنك لَمِنَ المرسلين الذين أُرْسِلُوا على طريقةٍ مستقيمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] أي: الصُّرَاطُ الذي أمر الله به.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ وحفصُ والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ بِنَصْبِ اللامِ على المصدر^(١)، أي: نَزَلَ الله ذلك تنزيلاً. وأضاف المصدرَ فصار معرفةً كقوله: ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤] أي: فَضَرَبَا للرِّقَاب. الباقيون: ﴿تنزيلٌ﴾ بالرفع على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلٌ، أو: الذي أنزل إليك تنزيلُ العزيز الرحيم.

هذا وقرئ: «تنزيلٌ» بالجرِّ على البَدَل من «القرآن»^(٢).

والتنزيلُ يرجعُ إلى القرآن. وقيل: إلى النبي ﷺ، أي: إنك لَمِنَ المرسلين، وإنك تنزيلُ العزيزِ الرحيم. فالتنزيلُ على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُوا﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ويقال: أُرْسَلَ الله المطرَ وأنزله بمعنى. ومحمدٌ ﷺ رحمةُ الله أنزلها^(٣) من السماء. وَمَنْ نَصَبَ قال: إنك لَمِنَ المرسلين إرسالاً من العزيز الرحيم.

و«العزيز»: المنتقم مِّنْ خالفه، «الرحيم» بأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿لِئِنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَمَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِئِنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ «ما» لا موضعَ لها من الإعراب عند

(١) السبعة ص ٥٣٩، والتيسير ص ١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣، والكشاف ٣/ ٣١٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٤ للبيدي.

(٣) في (خ): رحمة الله أرسلها. وفي (ظ): رحمة أنزلها الله.

أكثر أهل التفسير^(١)، منهم قتادة^(٢)؛ لأنها نفْيٌ، والمعنى: لتُنذِرَ قوماً ما أتى آباؤهم قبلك نذير.

وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقاتدة أيضاً^(٣). وقيل: إنَّ «ما» والفعل مصدرٌ، أي: لتنذر قوماً إنذارَ آبائهم.

ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبارُ الأنبياء، فالمعنى: لم يُنذروا برسولٍ من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبرُ ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا.

ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقوم لم يبلغهم خبرُ نبيٍّ، وقد قال الله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] أي: لم يأتهم نبيٌّ. وعلى قول من قال: بلغهم خبرُ الأنبياء، فالمعنى: فهم مُعرضون الآن مُتغافلون عن ذلك، ويقال للمُعرضِ عن الشيء: إنه غافل عنه. وقيل: ﴿فَهُمْ غَفِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وجب العذابُ على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك. وهذا فيمن سبقَ في علم الله أنه يموتُ على كفره.

ثم بيّن سببَ تركهم الإيمانَ فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْتَقِهِمْ أَغْلَالًا﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحبه المخزوميين، وذلك أنَّ أبا جهلٍ حلف لئن رأى محمداً يُصلِّي ليرضخن رأسه بحجر، فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، فهو على هذا تمثيلٌ، أي: هو بمنزلة من غلَّت يده إلى عنقه. فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخُ رأسه. فأتاه وهو يصلِّي

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٤٠١/ ١٩ - ٤٠٢.

(٣) أخرجه عن عكرمة الطبري ٤٠١/ ١٩، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٦، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقاتدة.

على حالته ليرميّه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، فقال: والله ما رأيته، ولقد سمعتُ صوته! فقال الثالث: والله لأشدخنّ أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقري ينكص على عقبيه حتى خرّ على قفاه مغشياً عليه. فقليل له: ما شأنك؟ قال: عظيم^(١)! رأيْتُ الرجل، فلما دنوتُ منه، وإذا فحلّ يخطرُ بذنِّه؛ ما رأيْتُ فحلاً قطّ أعظم منه؛ حال بيني وبينه، فواللّات والعزى لو دنوتُ منه لأكلني! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾^(٢).

وقرأ ابن عباس: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ». وقال الزجاج: وقرئ: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ». قال النحاس^(٣): وهذه القراءة تفسيرٌ، ولا يُقرأ بما خالف المصحف. وفي الكلام حذفٌ على قراءة الجماعة، التقدير: إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ وَفِي أَيْدِيهِمْ أَغْلَالًا فهي إلى الأذقان، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعربُ تحذف مثل هذا، ونظيره: ﴿سَرَبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وتقديره: وسرابيل تقيكم البرد، فحذف؛ لأنّ ما وقى من الحرّ وقى من البرد؛ لأنّ الغلّ إذا كان في العنق فلا بدّ أن يكون في اليد، ولاسيّما وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فقد علم أنّه يُراد به الأيدي^(٤) ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأنّ مَنْ غُلَّتْ يده إلى ذقنه ارتفع رأسه. روى عبد الله بن يحيى: أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماح، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسه. قال النحاس^(٥): وهذا أجلّ ما روي فيه، وهو مأخوذٌ ممّا حكاه الأصمعيّ؛ قال: يقال:

(١) في (م): قال شاني عظيم.

(٢) بنحوه في سيرة ابن هشام ٢٩٨/١ - ٢٩٩، وتفسير الطبري ٤٠٦/١٩ - ٤٠٧، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٥٢) و(١٥٣) و(١٥٦)، وإعراب القرآن للنحاس ٣٨٣/٣ - ٣٨٤، وتفسير البغوي ٦/٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣٨٤/٣، وما قبله منه، وقول الزجاج في معاني القرآن ٢٧٩/٤.

(٤) في إعراب القرآن: فقد أعلم الله عز وجل أنها يراد بها الأيدي.

(٥) في إعراب القرآن ٣٨٤/٣، وما قبله منه، وخبر علي عليه السلام أخرجه مطولاً الطبراني في الأوسط (٣٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣١/٩: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

أَقْمَحْتُ^(١) الدابة: إذا جَذَبْتَ لِجَامِهَا لترفع رأسها. قال النحاس: والقاف مُبْدَلَةٌ من الكاف لِقُرْبِهَا منها. كما يقال: قَهَرْتُهُ وَكَهَرْتُهُ.

قال الأصمعي: يقال: أَكْمَحْتُ الدابة: إذا جَذَبْتَ عِنَانَهَا حتى يَنْتَصِبَ رَأْسُهَا، ومنه قول الشاعر:

... وَالرَّاسُ مُكْمَحُ^(٢)

ويقال: أَكْمَحْتُهَا وَأَكْفَحْتُهَا وَكَبَحْتُهَا، هذه وحدها بلا ألفٍ عن الأصمعي^(٣). وَقَمَحَ البعيرُ قُمُوحاً: إذا رفع رأسه عند الحوضِ وامتنع من الشرب، فهو بعيرٌ قَامِحٌ [الجمع]: قُمَحٌ؛ يقال: شَرِبَ فَتَقَمَّحَ وَانْقَمَحَ بمعنى: إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيّاً. وقد قَامَحَتْ إِبِلُكَ: إذا وَرَدَتْ ولم تشرب، وَرَقَعَتْ رأسها من داءٍ يكونُ بها أو بردٍ، وهي إِبِلٌ مُقَامِحَةٌ، وبعيرٌ مُقَامِحٌ، وناقَةٌ مُقَامِحٌ أيضاً، والجمع قِمَاحٌ على غير قياس؛ قال بشرٌ يصفُ سفينةً:

ونحن على جوانبها قُعُودٌ نَخْضُ الطَّرْفَ كالإبلِ القِمَاحِ^(٤)

والإقماح: رفعُ الرأسِ وغمضُ البصر؛ يقال: أَقْمَحَ العُلُ: إذا ترك رأسه مرفوعاً مِنْ ضِيْقِهِ. وشَهْرًا قِمَاح^(٥): أشدُّ ما يكون من البرد، وهما الكانونان، سُمِّيَا بذلك لأنَّ

(١) في إعراب القرآن: أكمحت. وكذا نقله الجوهري في الصحاح (كمح) عن الأصمعي على ما يأتي.

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه ١٢٢١/٢، والكلام من الصحاح (كمح)، ورواية البيت في الديوان: تموجُ ذراعها وترمي بجَوْزها جذاراً من الإبعاد والرأس مُكْمَحُ

قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: جَوْزُهَا: وَسَطُهَا. وقوله: تموج ذراعها، يقول: ليست بلازقتين بالجنب. ومُكْمَحُ: مرفوع. وفي اللسان (كمح): وأراد الشاعر بقوله: الإبعاد، ضربُه لها بالسوط، فهي تجتهد في عَذْوِهَا لخوفها من سوطه.

(٣) الصحاح (كبح). قوله: أكفحت، يقال: أكفحت الدابة: إذا تَلَقَّيْتُ فاه باللجام تضربه به ليلتقمه. وكبحت الدابة: إذا جَذَبْتُهَا إِلَيْكَ باللجام لكي تقف ولا تجري. الصحاح (كفع) و(كبح).

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩١، والصحاح (قمح)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) يكتتاب وُغْرَاب. القاموس (قمح).

الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رؤوسها^(١)، ومنه قَمِخْتُ السَّويق^(٢).

وقيل: هو مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول [من التصرف]؛ قاله يحيى بن سلام وأبو عبيدة^(٣). وكما يقال: فلان حمار، أي: لا يُبْصِرُ الهدى. وكما قال:

لهم عن الرُّشدِ أغلالٌ وأقيادُ^(٤)

وفي الخبر: أن أبا ذؤيب كان يَهْوَى امرأةً في الجاهلية، فلما أسلم راودته، فأبى وأنشأ يقول:

فليس كعهدِ الدارِ يا أمَّ مَالِكٍ ولكن أحاطت بالرقابِ السَّلاسلُ
وعاد الفتى كالكَهْلِ ليس بقائلٍ سوى العدلِ شيئاً فاستراحَ العَوَاضِلُ^(٥)
أراد: مُنِعْنَا بموانعِ الإسلامِ عن تَعَاطِي الزَّنى والفسق.

وقال الفراء أيضاً^(٦): هذا ضَرْبٌ مَثَلٍ، أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله،

(١) الصحاح (قمح) دون قوله: رؤوسها.

(٢) قمح السَّويق (كسمع): رفع رأسه لسفاه، والسَّويق: طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق. (المعجم الوسيط).

(٣) النكت والعيون ٧/٥، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم يذكر أبا عبيدة، ولم نقف على هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٤) البيت للأفوه الأودبي صلاة بن عمرو بن الحارث، كما في الحماسة البصرية ٦٩/٢، وصدده: كيف الرشاد إذا ما كنت من نفر، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٨٥.

(٥) البيتان في ديوان الهذليين ١٥٠/٢، وشرح أشعار الهذليين ١٢٢٣/٣ وسيرة ابن هشام ٤٧٣/٢، والكامل ٥٦٥/٢، والبيت الثاني في العمدة لابن رشيق ص ٢٧٨، وقائلهما أبو خراش وليس أبا ذؤيب كما ذكر المصنف، وقد سلف الأول منهما ١٩٩/٦. قوله: فاستراح العواذل، أي: لأنهن لا يجدن ما يعزلن فيه سوى العدل، أي: سوى الحق. وقصة البيتين كما ذكر في المصادر السالفة أن جميل بن معمر الجمحي قتل قريباً لأبي خراش كان في ضمن الأسرى يوم حنين، فقال أبو خراش هذه الأبيات في رثائه، وهذا يخالف ما ذكره المصنف. وقوله: فليس كعهد الدار...، شرحوه أيضاً بخلاف ما سيشرحه فقال ابن رشيق: يقول: نحن من عهد الإسلام في مثل السلاسل، وإلا فكنا نقتل قاتله.

(٦) في معاني القرآن ٣٧٣/٢.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقاله الضحاك^(١).

وقيل: إنَّ هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحقِّ كَمَن جُعل في يده غُلٌّ فجُمعت إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه، وغاضاً بصره لا يفتحه. والمتكبر يوصف بانتصاب العنق.

وقال الأزهري^(٢): إنَّ أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم؛ رَفعت الأغلال أذقأنهم ورؤوسهم صُعُداً؛ كالإبل ترفع رؤوسها.

وهذا المنعُ بخلقِ الكُفْرِ في قلوبِ الكفَّار. وعند قومٍ: بسلبهم التوفيقَ عقوبةً لهم على كفرهم.

وقيل: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يُفعل بأقوامٍ غداً في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيَٰٓءِ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وأخبر عنه بلفظ الماضي.

﴿فَهُمْ مُّقَمَحُونَ﴾ تقدّم تفسيره. وقال مجاهد: «مُقَمَحُونَ»: مُغَلَّلُونَ عن كلِّ خير^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ① وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ② إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ③

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجلٌ آخرٌ من بني مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر. فلما دنا من النبي ﷺ؛ طَمَسَ الله على بصره فلم يرَ النبي ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يُبصرهم حتى نادوه، فهذا

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٦٢).

(٢) في تهذيب اللغة ٨٢/٤.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ١٣٩/٢، والطبري ٤٠٤/١٩ عن قتادة، ولم تقف عليه عن مجاهد.

معنى الآية^(١).

وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية ابن خلف، يُراصدون النبي ﷺ ليبلغوا من أذاه، فخرج عليهم عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ «يس» وفي يده تراب، فرماهم به وقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتى مرَّ عليهم عليه الصلاة والسلام^(٢). وقد مضى هذا في سورة سبحان^(٣)، ومضى في «الكهف» الكلام في «سَدًّا» بضم السين وفتحها^(٤)، وهما لغتان.

﴿فَأَعَشَيْنَاهُمُ﴾ أي: غطينا أبصارهم، وقد مضى في أول «البقرة»^(٥). وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بالعين غير مُعْجَمَةٍ^(٦) من العشا في العين، وهو ضَعُفٌ بصريها حتى لا تُبْصِرَ بالليل، قال:

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ^(٧)

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٦]، والمعنى متقارب.

والمعنى: أعميناهم، كما قال:

وَمِنَ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالَكَ أَنَّنِي ضُرِبَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ
لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ نَلْعَةٍ بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادٍ^(٨)

(١) ذكره عن مقاتل أبو الليث في تفسيره ٩٣/٣ - ٩٤، وسلف مطولاً ص ٤١٢-٤١٣ من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٨٥، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/٤٨٣.

(٣) ٩٢/١٣.

(٤) ٣٨٣/١٣.

(٥) ٢٩١/١.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٤، والمحتسب ٢/٢٠٤.

(٧) صدر بيت للحطينة، وعجزه: تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُؤَقَّدٍ. وهو في ديوانه ص ١٦١، وسلف ٤/٤٩١.

(٨) البيتان للأسود بن يَعْقَرُ النهشلي كما في المفضليات ص ٢١٦، ومنتهى الطلب من أشعار العرب =

﴿فَهُمْ لَا يَصِيرُونَ﴾ أي: الهدى؛ قاله قتادة^(١). وقيل: محمداً حين ائتمروا على قتله؛ قاله السدي^(٢).

وقال الضحّاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي: الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة، أي: عمّوا عن البعث، وعمّوا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] أي: زينوا لهم الدنيا، ودعّوهم إلى التكذيب بالآخرة، وقيل: على هذا «من بين أيديهم سداً»، أي: اغتروا^(٣) بالدنيا، «ومن خلفهم سداً» أي: كذبوا^(٤) بالآخرة. وقيل: «ما بين أيديهم»: الآخرة، «وما خلفهم»^(٥): الدنيا.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدّم في «البقرة»، والآية ردّ على القدرية وغيرهم^(٦).

وعن ابن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أخضّر غيلان القدريّ فقال: يا غيلان، بلغني أنك تتكلّم بالقدر، فقال: يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين، أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] فقال: اقرأ يا غيلان، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فقال: اقرأ، فقرأ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن شعرت أن

= ٤١٥/١ ، والاختيارين ص ٥٥٩ ، وفيه: التلعة: المسيل من الرابية إلى الوادي، والجمع: تلاع. وقد سلف البيت الأول ٢٢٠/١٣.

(١) أخرجه الطبري ٤٠٦/١٩.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٨/٥. وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٢٥٩/٥.

(٣) في (م): اغترارا.

(٤) في (م): تكذيبا.

(٥) في (م): من بين أيديهم... ومن خلفهم.

(٦) ينظر ما سلف ٢٨١/١ و ٢٨٥.

هذا في كتابِ اللهِ قَطُّ! فقال له: يا غيلان، اقرأ أَوَّلَ سورةِ يس، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين، لكأنِّي لم أقرأها قَطُّ قَبْلَ اليوم! اشْهَدْ يا أمير المؤمنين أَنِّي تائبٌ. فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فُتِّبَ عليه وثُبَّتَ، وإن كان كاذباً فسلَّطَ عليه مَنْ لا يرحمُه، واجْعَلْهُ آيَةً للمؤمنين. فأخذه هشامٌ فقطع يديه ورجليه وصلَّبه. قال ابنُ عَوْنٍ: فأنا رأيته مصلوباً على بابِ دمشق، فقلنا: ما شأنُك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوةُ الرجلِ الصالحِ عمرَ بنِ عبد العزيز^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن، وعَمِلَ به ﴿وَحِثَّى الزَّجَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة^(٢). وقيل: أي: يخشاه في مَغْيِبِهِ عن أبصارِ الناسِ وانفراذه بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذَّيْهِ ﴿وَأَجْرِ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أخبر تعالى بإحيائه الموتى ردّاً على الكُفْرَةِ. وقال الضحَّاك والحسن: أي: نُحْيِيهِمْ بالإيمان بعد الجهل^(٣). والأوّلُ أظهر؛ أي: نُحْيِيهِمْ بالبعث للجزاء.

(١) بنحوه في السنة لعبد الله بن أحمد ص ١٤٥ - ١٤٦، والشرية للأجري ص ٢٢٨ - ٢٢٩، وشرح أصول الاعتقاد ٧٨٨/٤، وتاريخ مدينة دمشق ٢٠٨/٤٨ - ٢٠٩. وقول ابن عون (وهو عبد الله بن عون) أخرجه أيضاً أحمد (٥٨٨١) مختصراً بذكر الصلب. وغيلان هو ابن أبي غيلان، أبو مروان، كان من بلغاء الكتاب، وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله. لسان الميزان ٤/٤٢٤.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٨/٥.

(٣) النكت والعيون ٩/٥ عن الضحَّاك، وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/٣١٦ عن الحسن قوله: إحيائهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان.

ثم توعدّهم بذِكْرِه كَتَبَ الْآثَارِ - وهي :

الثانية - وإحصاء كلِّ شيء وكلِّ ما يصنعه الإنسان. قال قتادة: معناه: من عمل. وقاله مجاهد وابن زيد^(١). ونظيره قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] وقوله: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شرّ يجازى عليها: من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنّوه: من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك. أو سيّ، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسيكّة أخذتها فيها تخسيرهم، أو شيء أخذته فيه صدّ عن ذكر الله من الحان وملاؤ. وكذلك كلُّ سنّة حسنة أو سيئة يستن بها.

وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تأوّل الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبّير^(٢). وعن ابن عباس أيضاً أن معنى: «وَأَثَارُهُمْ»: خطاهم إلى المساجد. قال النحاس^(٣): وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إن الآية نزلت في ذلك؛ لأنّ الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد. وفي الحديث مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «يُكْتَبُ لَهُ بِرَجُلٍ حَسَنَةٌ، وَتُحْطُّ عَنْهُ بِرَجُلٍ سَيِّئَةٌ، ذَاهِباً وَرَاجِعاً إِذَا خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ»^(٤).

قلت: وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سليمة في ناحية المدينة، فأرادوا النُقْلَةَ إلى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَثَارَكُمْ تُكْتَبُ» فلم ينتقلوا. قال:

(١) أخرجه قولهم الطبري ٤٠٨/١٩ - ٤٠٩ .

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن ماجه (٧٨٥) والطبري ٤٠٩/١٩ ، ولم تقف عليه عن عمر وسعيد بن جبّير.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٦ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٦ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٦٥٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أبي هريرة ؓ عند مسلم (٦٦٦) ، وسلف ٢٨٨/١٥ . وآخر من حديث أبي هريرة أيضاً عند البخاري (٦٤٧) ، وثالث من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٤٠) ، والطبراني في الكبير ١٧/ (٨٣١).

هذا حديث [حسن] غريب من حديث الثوري^(١).

وفي «صحيح» مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قُرب المسجد، قال: والبقاعُ خالية، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أننا كنا نحولنا^(٢).

وقال ثابت البناني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت، فحبسني، فلما انقضت الصلاة [قال لي: مشيت مع زيد بن ثابت إلى الصلاة، فأسرعت في مشي فحبسني، فلما انقضت الصلاة] قال: مشيت مع النبي ﷺ فأسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال: «أما علمت أن الآثار تكتب» فهذا احتجاج بالآية^(٣).

وقال قتادة ومجاهد أيضاً والحسن: الآثار في هذه الآية: الخطأ. وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الآثار هي الخطأ إلى الجمعة^(٤). وواحد الآثار أثر، ويقال: أثر.

الثالثة: في هذه الأحاديث المفسرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل، فلو كان بجوار مسجد؛ فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد؟ اختلف فيه؛ فروي عن أنس أنه كان يجاوز المحدث إلى القديم. وروي عن غيره: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً. وكره الحسن وغيره هذا، وقال: لا يدعُ مسجداً قُربه ويأتي غيره. وهذا مذهب مالك، وفي تخطي مسجده إلى المسجد الأعظم قولان^(٥).

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ٤٦٦/٣، وتحفة الأحوذ ٩٥/٩.

(٢) صحيح مسلم (٦٦٥): (٢٨١)، وهو عند أحمد بنحوه (١٤٥٦٦). وأخرج نحوه البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) من حديث أنس.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٤٨، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٨)، والعقيلي في الضعفاء ٢/٢١٩، وفي إسناده الضحاك بن نبراس، قال فيه ابن معين فيما ذكر العقيلي: ليس بشيء. وأخرجه الطبراني في الكبير بإسناد آخر من طريق محمد بن ثابت البناني عن أبيه به، ومحمد بن ثابت قال فيه البخاري: فيه نظر، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف. الميزان ٣/٤٩٥. وأخرجه الطبري ١٩/٤١٠ بإسناد آخر عن ثابت عن أنس عن زيد موقوفاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٤٨، وأخرجه عن الحسن ومجاهد وقاتة الطبري ١٩/٤١١. وعلقه البخاري عن مجاهد إثر الحديث (٦٥٥).

(٥) المفهم ٢/٢٩٢.

وخرَجَ ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يُجمَع فيه بخمس مئة صلاة»^(١).

الرابعة: «دياركم» منصوب على الإغراء، أي: إلزموا، و«تكتب» جزم على جواب ذلك الأمر^(٢).

«وكل» نصب بفعل مضمر يدل عليه «أحصيناه»، كأنه قال: وأحصينا كل شيء أحصيناه^(٣). ويجوز رفعه بالابتداء، إلا أن نصبه أولى؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل. وهو قول الخليل وسيبويه^(٤).

والإمام: الكتاب المقتدى به الذي هو حجة. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ. وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيرُنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ هذه القرية هي

(١) سنن ابن ماجه (١٤١٣). وإسناده ضعيف كما ذكر البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٥٢/١. قوله: يُجمَع بالتشديد، أي: يصلّى فيه الجمعة. النهاية (جمع).

(٢) المفهم ٢٩٢/٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤٤٨/٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٨٧/٣.

(٥) المحرر الوجيز ٤٤٨/٤.

أَنْطَاكِیَّةُ فِي قَوْلِ جَمِيعِ الْمَفْسِّرِينَ، فِيمَا ذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ^(١). نُسِبَتْ إِلَى أَهْلِ أَنْطَبِيسَ، وَهُوَ اسْمُ الَّذِي بَنَاهَا، ثُمَّ غُيِّرَ لَمَّا غُرِبَ؛ ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ^(٢). وَيُقَالُ فِيهَا: أَنْطَاكِیَّةٌ؛ بِالتَّاءِ بَدَلَ الطَّاءِ.

وَكَانَ بِهَا فِرْعَوْنُ يُقَالُ لَهُ: أَنْطِيخُسُ بْنُ أَنْطِيخُسٍ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ؛ ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ، وَحَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ^(٣) عَنْ كَعْبٍ وَوَهْبٍ. فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ ثَلَاثَةً: وَهُمْ صَادِقٌ وَصَدُوقٌ، وَشُلُومٌ هُوَ الثَّالِثُ. هَذَا قَوْلُ الطَّبْرِيِّ^(٤). وَقَالَ غَيْرُهُ: شَمْعُونُ وَيُوحَنَّا. وَحَكَى النَّقَّاشُ: سَمْعَانُ وَيَحْيَى^(٥)، وَلَمْ يَذْكُرُوا صَادِقًا وَلَا صَدُوقًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «مَثَلًا» وَ«أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ» مَفْعُولَيْنِ لِـ «اضْرِبْ»، أَوْ «أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ» بَدَلًا مِنْ «مَثَلًا» أَيُّ: اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِثْلَ^(٦) أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ.

أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنْذَارِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِكُفَّارِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رُسُلٍ. قِيلَ: رُسُلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ. وَقِيلَ: إِنَّ عِيسَى بَعَثَهُمْ إِلَى أَنْطَاكِیَّةَ لِلدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾، وَأَضَافَ الرَّبُّ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ عِيسَى أَرْسَلَهُمَا بِأَمْرِ الرَّبِّ، وَكَانَ ذَلِكَ حِينَ رُفِعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قِيلَ: ضَرَبُوهُمَا وَسَجَنُوهُمَا. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَيُّ: فَقَوَّيْنَا وَشَدَّدْنَا الرِّسَالَةَ بِثَالِثٍ.

(١) فِي النَّكَتِ وَالْعِیُونَ ١٠/٥ .

(٢) فِي التَّعْرِيفِ وَالْإِعْلَامِ ص ١٤٣ ، وَفِيهِ: أَنْطِيقَسُ، بَدَلَ: أَنْطِيسَ.

(٣) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٤٨٣/٥ .

(٤) فِي التَّفْسِيرِ ٤١٤/١٩ .

(٥) قَوْلُ النَّقَّاشِ وَالْقَوْلُ الَّذِي قَبْلَهُ ذَكَرَهُمَا الْمَاوَرْدِيُّ فِي النَّكَتِ وَالْعِیُونَ ١٠/٤ .

(٦) فِي (م): اضْرِبْ لَهُمْ مِثْلًا، وَفِي (ظ): اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ بَاقِي النُّسخِ وَمَشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ٦٠١/٢ ، وَالْكَلامُ مِنْهُ. وَقَالَ مَكِّي: فَالْمِثْلُ الثَّانِي بَدَلَ مِنَ الْأَوَّلِ.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بالتخفيف، وشَدَّدَ الباقر^(١). قال الجوهري^(٢): وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يُخَفَّفُ وَيُشَدَّدُ، أي: قَوَّيْنَا وَشَدَّدْنَا. قال الأصمعي: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلِّم: أَجْدُ إِذَا رُحِلَتْ تَعَزَّزَ لَحْمُهَا وَإِذَا تُشَدُّ بِنَسْعِهَا لَا تَنْبِسُ^(٣) أي: لَا تَرُغُو. فعلى هذا تكونُ القراءتان بمعنى.

وقيل: التخفيفُ بمعنى: غَلَبْنَا وَقَهَرْنَا، ومنه: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾^(٤) [ص: ٢٣]. والتشديدُ بمعنى: قَوَّيْنَا وَكَثَّرْنَا.

وفي القصة: أَنَّ عيسى أَرْسَلَ إِلَيْهِم رَسُولَيْنِ، فَلَقِيَا شَيْخًا يَزْعَى غُنِيَمَاتٍ لَهُ، وَهُوَ حَبِيبُ النَّجَارِ صَاحِبُ «يس»، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَقَالَا: نَحْنُ رَسُولَا عِيسَى نَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ. فَطَالَبَهُمَا بِالْمُعْجِزَةِ، فَقَالَا: نَحْنُ نَشْفِي الْمَرْضَى، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ مَجْنُونٌ. وَقِيلَ: مَرِيضٌ عَلَى الْفِرَاشِ، فَمَسَحَاهُ، فَقَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ صَحِيحًا، فَأَمَّنَ الرَّجُلُ بِاللَّهِ - وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى - فَفَشَا أَمْرُهُمَا، وَشَفِيَ كَثِيرًا مِنْ الْمَرْضَى، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَيْهِمَا - وَكَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ - يَسْتَخِيرُهُمَا، فَقَالَا: نَحْنُ رَسُولَا عِيسَى. فَقَالَ: وَمَا آيَتُكُمَا؟ قَالَا: نُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَنُبْرِئُ الْمَرِيضَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَنَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَهَمَّ الْمَلِكُ بِضَرْبِهِمَا. وَقَالَ وَهَب: حَبَسَهُمَا

(١) السبعة ص ٥٣٩، والتيسير ص ١٨٣.

(٢) في الصحاح (عزز).

(٣) غريب الحديث لابن قتيبة ٧٩/٢، وجمهرة اللغة ٢٩٠/١، والصحاح (عزز)، والكلام منه، واللسان (عزز)، وهو في المصادر عدا الصحاح برواية: ضمرت، بدل: رحلت. قوله: أَجْدُ، هي الناقة القوية المؤثقة الخلق. القاموس (أجد). والتَّسْع: سَيْرٌ يُضْفَرُ عَلَى هَيْئَةِ أَعْتَةِ النَعَالِ تُشَدُّ بِهِ الرَّحَالُ. اللسان (نسع).

(٤) يعني: غلبني في القول. تفسير أبي الليث ٩٥/٣، والكلام فيه بنحوه. وقال مكِّي في الكشف عن وجوه القراءات ٢١٤/٢: ويكون المفعول محذوفاً، وهو المرسل إليهم، تقديره: فَعَزَّزْنَا بِهِم بِثَالِثٍ، أي: فغلبناهم بثالث.

الملك وجَلَدَهما مئةَ جَلْدَةٍ. فانتَهى الخبرُ إلى عيسى فأرسل ثالثاً - قيل: شمعون الصِّفا رأسُ الحواريين - لِنُضْرَهما، فعاشرَ حاشيةَ الملك حتى تمكَّنَ منهم واستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنسَ به. وأظْهر موافقته في دينه، فرضيَ الملك طريقته، ثم قال يوماً للملك: بَلْغني أَنَّكَ حَبَسْتَ رجلين دَعَوَاكَ إلى الله، فلو سألتَ عنهما ما وراءَهما. فقال: إِنَّ الغضبَ حالَ بيني وبين سؤاليهما. قال: فلو أَخَصَرْتَهُما. فأمر بذلك، فقال لهما شمعون: ما بُرْهانكما على ما تدَّعيان؟ فقالا: نُبْرِيُّ الأَكْمَةِ والأَبْرَصِ. فجيءَ بَغلامٍ ممسوحِ العينين؛ موضعُ عينيه كالجبهة، فدَعَوَا رَبَّهُما فانشقَّ موضعُ البصر، فأخذا بُنْدَقَتَيْنِ طيناً، فوضعاهما في خَدَّيه، فصارتا مَقْلَتَيْنِ يُبْصِرُ بهما. فعجب الملك وقال: إِنَّ هاهنا غلاماً مات منذ سبعةِ أيامٍ ولم أَدْفِنْهُ حتى يَجِيءَ أبوه، فهل يُحييه ربُّكما؟ فدَعَوَا اللهَ علانيةً، ودعاه شمعون سرّاً، فقام الميتُ حيّاً، فقال للناس: إِنِّي مِتُّ منذ سبعةِ أيامٍ، فَوُجِدْتُ مشركاً، فأدْخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ من النار، فأحْذَرَكُم ما أنتم فيه، فَأَمِنُوا بالله، ثم فتحت أبوابُ السماء، فرأيتُ شاباً حَسَنَ الوجهِ يشفعُ لهؤلاءِ الثلاثةِ شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، وأنَّ عيسى روحُ اللهِ وكلمته، وأنَّ هؤلاءِ هم رسلُ الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم، وهو أَفْضَلُهُم. فأَعْلَمَهُم شمعون أنه رسولُ المسيح إليهم، فأثّرَ قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فأمنَ الملكُ في قومٍ كثيرٍ، وكَفَرَ آخرون^(١). وحكى القشيريُّ أَنَّ الملكَ آمَنَ ولم يُؤْمِنْ قومه، وصاح جبريلُ صيحةً مات كُلُّ مَنْ بقي منهم من الكُفَّار.

ورُوي أنَّ عيسى لَمَّا أَمَرَهُم أَنْ يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبيَّ اللهِ، إِنَّا لا نَعْرِفُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بالسِّتْهم ولُغَاتِهِم. فدعا اللهَ لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نَوْمَتِهِم

(١) بنحوه في تفسير أبي الليث ٩٥/٣، وعرائس المجالس ص ٤٠٨، وتفسير البغوي ٧/٤ - ٩. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٤٩/٤: واللازم من الآية أن الله تعالى بعث إليها رسولين، فدعيا أهل القرية إلى عبادة الله وحده فكذبوهما، فشدد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية.

وقد حملتهم الملائكة، فألقتهم بأرضٍ أنطاكية، فكلّم كل واحدٍ منهم صاحبه بلغة القوم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فقالوا جميعاً: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾. قالوا ما أنشأ إلاً بشراً مثلاً؟ تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ﴿وَمَا أُنزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يأمر به، ولا ينهى عنه ﴿إِن أَنشَأَ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعَاكُمْ الرسالة، فقالت الرسل: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإن كذبتُمونا، ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ في أن الله واحدٌ ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: نَشَاءُ مِنَّا بكم. قال مقاتل: حُسِبَ عنهم المطرُ ثلاث سنين، فقالوا: هذا بشؤمكم^(١). ويقال: إنهم أقاموا يندرونهم عشر سنين.

﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا﴾ عن إنذارنا ﴿لَتَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال الفراء^(٢): لنقتلنكم. قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة^(٣). وقيل: لَنَشْتِمَنَّكُمْ، وقد تقدّم جميعه^(٤).

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيب المؤلم. وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل، كالسُلخِ والقَطعِ والصَّلْبِ.

فقالت الرسل: ﴿طَّيَّرَكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم معكم، أي: حظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحاك^(٥). وقال قتادة: أعمالكم معكم^(٦). ابن عباس: معناه: الأرزاق والأقدار تُتَبَّعُكُمْ^(٧). الفراء^(٨):

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٤٩. قال ابن عطية: والأظهر أن تطيّر هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة واقتتان الناس، وهذا على نحو تطيّر قريش بمحمد ﷺ.

(٢) في معاني القرآن ٢/٣٧٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٤١٦ - ٤١٧.

(٤) ٢٠١/١١.

(٥) ذكره البغوي ٩/٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/٤١٧.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/٤٨٥.

(٨) في معاني القرآن ٢/٣٧٤.

«طائركم معكم»: رزقكم وعملكم، والمعنى واحد. وقرأ الحسن: «اَطْيِرْكُمْ» أي: تَطْيِرْكُمْ^(١).

﴿أَيْنَ دُكِّرْتُمْ﴾ قال قتادة: إن دُكِّرْتُمْ تَطْيِرْتُمْ^(٢). وفيه تسعة أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة: «أَيْنَ دُكِّرْتُمْ» بتخفيف الهمزة الثانية. وقرأ أهل الكوفة: «أَيْنَ» بتحقيق الهمزتين. والوجه الثالث: «أَيْنَ دُكِّرْتُمْ» بهمزتين بينهما ألف، أدخلت الألف كراهةً للجمع بين الهمزتين. والوجه الرابع: «أَيْنَ» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة^(٣).

والقراءة الخامسة: «أَأَنَّ» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف. والوجه السادس: «أَأَنَّ» بهمزتين مُحَقَّقَتَيْنِ مفتوحتين. وحكى الفراء: أن هذه قراءة أبي رزين^(٤). قلت: وحكاها الثعلبي عن زِرِّ بْنِ حُبَيْش وابنِ السَّمِيعِ.

وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري: «قالوا طائركم معكم أَيْنَ دُكِّرْتُمْ» بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة: «دُكِّرْتُمْ» بالتخفيف؛ ذكر جميعه النحاس^(٥).

وذكر المهدوي عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهمداني: «أَنَّ دُكِّرْتُمْ» بالمد، على أنَّ همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة. الماجشون: «أَنَّ دُكِّرْتُمْ» بهمزة واحدة

(١) الكشف ٣/ ٣١٨. قال السمين في الدَّرِّ المصون ٩/ ٢٥٢: «اَطْيِرْكُمْ» مصدر «اَطْيَر» الذي أصله «تَطْيَر»، فلما أريد إدغامه أبدلت التاء طاءً وسكنت واجتلبت همزة الوصل فصار «اَطْيَر»، فيكون مصدره «اَطْيِرْ». وذكر السمين أنه روي عن الحسن: «طَيْرْكُمْ»، وقال: ويغلب على الظن أنها هذه، وإنما تصحفت على الراي فحسبها مصدرًا، وظن أن ألف «قالوا» همزة وصل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٣) قرأ بتسهيل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس وأبو جعفر، وقالون وأبو عمرو يدخلان بينهما ألفًا، وكذلك أبو جعفر إلا أنه يفتح الثانية. وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال. ينظر التيسير ص ٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٨. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٥، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٠٥ عن الأعمش أنه قرأ: «أَيْنَ دُكِّرْتُمْ». قال ابن جني: فكأنه قال: أين ذكرتم، أو أين وجدتم وجد شؤمكم معكم.

مفتوحة^(١). فهذه تسع قراءات.

وقرأ ابن هرْمُز: «طَيِّرْكُمْ مَعَكُمْ»^(٢). «أَيُّنْ ذُكِّرْتُمْ» أي: لِأَنَّ وُعِظْتُمْ؛ وهو كلامٌ مستأنفٌ، أي: إِنْ وُعِظْتُمْ تَطَيَّرْتُمْ. وقيل: إِنَّمَا تَطَيَّرُوا لَمَّا بَلَّغَهُمْ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ دَعَا قَوْمَهُ فَلَمْ يُجِيبُوهُ كَانَ عَاقِبَةُ قَوْمِهِ الْهَلَاكُ.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: مُسْرِفُونَ فِي تَطَيُّرِكُمْ. يحيى بن سلام: مُسْرِفُونَ فِي كُفْرِكُمْ. وقال ابن بحر: السَّرَفُ هَاهُنَا: الْفُسَادُ، وَمَعْنَاهُ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْسِدُونَ^(٣).

وقيل: مُسْرِفُونَ: مُشْرِكُونَ، وَالْإِسْرَافُ: مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، وَالْمُشْرِكُ يُجَاوِزُ^(٤) الْحَدَّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ يُهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٨﴾ إِنْئِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ إِنْئِذَا آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُمُودٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب بن مري^(٥)، وكان

(١) ذكر هذه القراءة عن الماجشون ابن جني في المحتسب ٢/٢٠٥. والماجشون هو يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة، توفي سنة (٢٨٤هـ). ينظر طبقات القراء لابن الجزري ٢/٤٠٥، وروح المعاني ٢٢٤/٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٥٠ عن ابن هرْمُز والحسن وعمرو بن عبيد، والقراءات الشاذة ص ١٢٥ عن الحسن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ١٢/٥.

(٤) في (خ): مجاوز، وفي (ظ): تجاوز.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/٤١٩ عن أبي مجلز.

نجاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصّاراً. وقال ابن عباسٍ ومجاهدٌ ومقاتلٌ: هو حبيب بن إسرائيل النجار^(١)، وكان يَنْحَتُ الأصنامَ، وهو ممن آمَنَ بالنبيِّ ﷺ وبينهما ستُّ مئة سنة، كما آمَنَ به تُبَّعُ الأكبرُ وورقةُ بن نوفل وغيرهما. ولم يؤمن بنبيٍّ أحدٌ إلا بعد ظهوره^(٢).

قال وَهَبُ: وكان حبيبٌ مجذوماً، ومنزلُهُ عند أقصى بابٍ من أبوابِ المدينة، وكان عكف على عبادةِ الأصنامِ سبعين سنةً يدعوهم لعلَّهم يرحمونه ويكشفون ضرَّهُ، فما استجابوا له، فلمَّا أَبْصَرَ الرسلَ دَعَوْهُ إلى عبادةِ الله، فقال: هل من آيةٍ؟ قالوا: نعم، ندعو ربَّنَا القادرَ فيفِرِّجَ عنكَ ما بك. فقال: إِنَّ هَذَا لَعَجَبٌ! أدعو هذه الآلهةَ سبعين سنةً تفرِّجَ عني فلم تَسْتَطِعْ، يفرِّجْهُ ربُّكُمْ في غداةٍ واحدةٍ؟ قالوا: نعم، ربُّنا على ما يشاء قديرٌ، وهذه لا تنفعُ شيئاً ولا تضرُّ. فأَمَنَ، ودَعَا ربَّهُم، فكشف الله ما به، كأنَّ لم يكن به بأسٌ، فحينئذٍ أَقْبَلَ على التَّكشُّبِ، فإذا أمسى تَصَدَّقَ بِكَسْبِهِ، فأطعمَ عياله نصفاً وتَصَدَّقَ بنصفٍ، فلمَّا هَمَّ قَوْمُهُ بِقَتْلِ الرسلِ جاءهم ف ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية^(٣).

وقال قتادةٌ: كان يعبدُ الله في غارٍ، فلمَّا سمعَ بخبرِ المرسلين جاء يسْعَى، فقال للمرسلين: أَتَطْلُبُونَ على ما جئْتُمْ به أجراً؟ قالوا: لا، ما أَجْرُنَا إِلَّا على الله^(٤). قال أبو العالية: فاعْتَقَدَ صِدْقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ^(٥). وَأَقْبَلَ على قومه ف ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ * أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُرُ أَجْرًا﴾ أي: لو كانوا مَتَّهِمِينَ لَطَلَبُوا مِنْكُمْ الْمَالَ. ﴿وَهُمْ مُتَّهَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم^(٦).

(١) عرائس المجالس ص ٤٠٩ عن ابن عباس ومقاتل، وفي الكشف ٣/٣١٨ دون نسبة.

(٢) الكشف ٣/٣١٨. وتُبَّعُ الأكبر: هو أسعد أبو كرب، ملك اليمن، أراد غزو البيت الحرام، ثم شَرَفَهُ وعظَّمَهُ وكساه. البداية والنهاية ٣/١٢٢ وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الدخان.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٤١٩ - ٤٢٠ مختصراً.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/١٤١، والطبري ١٩/٤٢١.

(٥) النكت والعيون ٥/١٣.

(٦) قال الألوسي في روح المعاني ٢٢/٢٢٦: ولا جَزَمَ لي بإيمانه ولا عَدَمِهِ قبل إرسال الرسل، =

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة: قال له قومه: أنت على دينهم. فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلّقي ﴿وَالَّذِي تُرْجِعُون﴾. وهذا احتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأنّ ذلك نعمة عليه تُوجبُ الشكر، والبعث إليهم؛ لأنّ ذلك وعيد يقتضي الرّجاء، فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرًا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرًا.

﴿ءَاتَاكَ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَهًا﴾ يعني أصنامًا ﴿إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ يُضِلَّ﴾ يعني ما أصابه من السُّقْم ﴿لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون﴾: يخلّصوني ممّا أنا فيه من البلاء ﴿إِنِّي إِذًا﴾ يعني: إن فعلت ذلك ﴿لَأَنفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خسرانٍ ظاهر ﴿إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. ومعنى «فاسمعون» أي: فاشهدوا، أي: كونوا شهودي بالإيمان^(١). وقال كعبٌ وهبٌ: إنّما قال ذلك لقومه: إنّني آمنْتُ بربكم الذي كفرتم به^(٢).

وقيل: إنه لما قال لقومه: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا، فطوّل معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: ﴿إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه. قال ابن مسعود: وطّشوه بأزجلهم حتى خرج قُضْبُهُ من دبره^(٣). وألقي في بئر، وهي الرّس، وهم أصحاب الرّس. وفي رواية: أنهم قتلوا الرسل الثلاثة.

وقال السّديّ: رمّوه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهْدِ قومي، حتى قتلوه^(٤). وقال الكلبيّ: حفروا حفرةً وجعلوه فيها، ورَدَمُوا فوقه التراب، فمات رَدْمًا.

= وظواهر الأخبار في ذلك متعارضة، ومع ذلك لم يتحقق عندي صحة شيء منها.

(١) أخرجه الحاكم ٤٢٩/٢.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٤٢٣/١٩.

(٣) أخرجه الطبري ٤٢٤/١٩. والقُصْب: الجع. القاموس (قصب).

(٤) عرائس المجالس ص ٤٠٩.

وقال الحسن: خرقوا خرقاً^(١) [في حلقه]، وعلّقوه من سور المدينة، وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي^(٢).

وقال القشيري: وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها^(٣).
وقيل: نسّوه بالمنشار حتى خرج من بين رجله، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها، فذلك قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فلما شاهدها ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوِي يَعْلَمُونَ﴾. بما غفر لي ربي ﴿أي: بغفران ربي لي، ف «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي، والعائد من الصلة محذوف. ويجوز أن تكون استفهاماً فيه معنى التعجب، كأنه قال: ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي^(٤)؛ قاله الفراء. واعترضه الكسائي فقال: لو صحّ هذا لقال: بيم، من غير ألف. وقال الفراء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهام، وأنشد فيه أبياتاً^(٥).

الزمخشري^(٦): بيم غفر لي، بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا، وبيم صنعت.

المهدي: وإثبات الإلف في الاستفهام قليل. فيوقف على هذا على «يعلمون». وقال جماعة: معنى ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾: وجبت لك الجنة، فهو خبر بأنه قد استحق دخول الجنة؛ لأن دخولها يستحق بعد البعث.

(١) في (ظ) و(م): حرقوه حرقاً، وفي (ز): حفروا حرقاً.

(٢) في عزائس المجالس ص ٤٠٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وفيه: وقبره في سوق أنطاكية.

(٣) قال الألوسي في مجمع البيان ٢٢/٢٢٨: والجمهور على أنه قتل. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٠١/٤: أن الأحاديث والروايات تواترت بذلك.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٠١.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/٣٧٤ - ٣٧٥.

(٦) في الكشف ٣/٣٢٠.

قلت: والظاهر من الآية أنه لما قُتل قيل له: ادخل الجنة.

قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حيٌّ يُرزقُ، أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ^(١) على ما تقدّم في «آل عمران» بيانه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ مرتّب على تقدير سؤالٍ سائلٍ عمّا وَجَدَ من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿يَمَّا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. وقرئ: «مِنَ الْمُكْرَمِينَ» ^(٢).

وفي معنى تَمَنّيه قولان:

أحدهما: أنه تَمَنّى أن يَعْلَمُوا بحاله لِيَعْلَمُوا حُسْنَ مآله وَحَمِيدَ عاقبته .

الثاني: تَمَنّى ذلك ليؤمنوا مثلَ إيمانه فيصيروا إلى مثلِ حاله. قال ابن عباس: نَصَحَ قَوْمَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا ^(٣). رَفَعَهُ الْقَشِيرِيُّ فَقَالَ: وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية: «إِنَّهُ نَصَحَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ» ^(٤).

وقال ابن أبي ليلي: سُبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَصَاحِبُ يَسَ، فَهَمُ الصَّدِيقُونَ ^(٥). ذكره الزمخشريُّ مرفوعاً عن رسول الله ﷺ ^(٦).

(١) الكشف ٣/٣١٩ .

(٢) الكشف ٣/٣٢٠ ، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ١٤/٥ .

(٤) أخرجه مطولاً ابن مردويه - كما في تخريج أحاديث الكشف لابن حجر ص ١٤٠ - من حديث المغيرة ابن شعبة .

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٥٠ بنحوه.

(٦) الكشف ٣/٣١٩ ، وأخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٢) و(١١١٧) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلي، عن أبيه، عن النبي ﷺ، وفي إسناده عمرو بن جميع البصري، قال فيه الحافظ في تخريج أحاديث الكشف ص ١٤٠ : متروك. وأخرجه بنحوه أيضاً الطبراني في الكبير (١١١٥٢)، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث منكر.

وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والجلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفره عبدة أصنام؟! (١)

فلما قُتل حبيب غضب الله له، وعجل النعمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي: ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن (٢). قال الحسن: الجند: الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء (٣).

وقيل: الجند: العساكر، أي: لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر، بل أهلكتهم (٤) بصيحة واحدة. قال معناه ابن مسعود وغيره (٥). فقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغيرٌ لأمرهم، أي: أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفيعه إلى السماء.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ على من كان قبلهم. الزمخشري (٦): فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال: ﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَكِ مَرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿يَكْنُثُ عَلَافٍ مِنَ الْمَلَكِ مُنْزِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿يَخْمَسُ عَلَافٍ مِنَ الْمَلَكِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٧ عن مجاهد وقتادة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٥.

(٤) في (د) و(ظ) و(م): بل أهلكهم.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٧.

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قلت: إنما كان يكفي مَلَكٌ واحدٌ، فقد أهْلِكْتُ مدائن قوم لوطٍ بريشةً من جناح جبريل، وبلادُ ثمودَ وقومَ صالحٍ بصيحةٍ [منه]، ولكنَّ اللهَ فضَّلَ محمداً ﷺ بكلِّ شيءٍ على كبار^(١) الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يؤلِّه أحداً، فَمِنْ ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا﴾. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أن أنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهِّل لها إلَّا مثلك، وما كُنَّا نفعله لغيرك^(٢).

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قراءةُ العامَّةِ: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على تقدير: ما كانت عقوبتهم إلَّا صيحةً واحدةً.

وقرأ أبو جعفر بنُ القَعْقَاعِ وشيبةُ والأعرجُ: «صَيْحَةً» بالرفع هنا، وفي قوله «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحدةً فإذا هم جميعٌ» [الآية: ٥٣]^(٣)، جعلوا الكَوْنَ بمعنى الوقوع والحدوث، فكأنَّه قال: ما وقعت عليهم إلَّا صيحةٌ واحدة. وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثيرٌ من النُحَوِّيِّين بسبب التأنيث فهو ضعيف، كما تكون: ما قامت إلَّا هُنْدٌ ضعيفاً، من حيث كان المعنى: ما قام أحدٌ إلَّا هُنْدٌ. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إِنْ كَانَ إِلَّا صَيْحَةً.

قال النحَّاس^(٤): لا يمتنع شيءٌ من هذا، يقال: ما جاءني إلَّا جاريثك، بمعنى: ما جاءني امرأةٌ أو جاريةٌ إلَّا جاريثك. والتقديرُ في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق، قال: المعنى: إِنْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ إِلَّا صَيْحَةً واحدةً، وقدره غيره: ما وقعت عليهم إلَّا صَيْحَةً واحدةً. وكان بمعنى وَقَعَ كثيرٌ في كلام العرب.

وقرأ عبد الرحمن بنُ الأسود - ويقال: إنه في حَرْفِ عبدِ الله كذلك -: «إِنْ كَانَتْ

(١) في (خ) و(م): سائر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشف.

(٢) في (خ) و(ظ) والكشاف: بغيرك.

(٣) النشر ٣٥٣/٢ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٩٠، وما قبله منه.

إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً». وهذا مخالف للمصحف. وأيضاً فإن اللغة المعروفة: زَقَا يَزْقُو: إذا صاح، ومنه المثل: أثقل من الزواقي، فكان يجب على هذا أن يكون: زَقُوَّةً. ذكره النحاس^(١).

قلت: وقال الجوهري^(٢): الزَّقْوُ والزَّقِي مصدر، وقد زَقَا الصَّدَى يزقو [ويزقي] زُقَاءً، أي: صاح، وكلُّ صائحٍ زاقٍ، والزَّقِيَّةُ: الصيحة. قلت: وعلى هذا يقال: زَقُوَّةٌ وزَقِيَّةٌ لغتان^(٣)، فالقراءة صحيحة لا اعتراض عليها. والله أعلم.

﴿فَإِذَا هُمْ خَكِيدُونَ﴾ أي: ميتون هامدون؛ تشبيهاً بالرماد الخامد. وقال قتادة: هَلَكَى^(٤). والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٦﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ منصوب؛ لأنه نداء نكرة، ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين^(٥). وفي حرف أبي: «يا حسرة العباد» على الإضافة^(٦). وحقيقة الحسرة في اللغة: أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً^(٧).

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٠ - ٣٩١، دون ذكر المثل، وهو في جمهرة الأمثال ١/ ٢٩٣، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٦. قال العسكري: الزواقي: الديكة، وكان الفتيان يسمرون بالليل، فإذا زقت الديكة انصرف كل إلى رَحْلِهِ، فاستثقلوها لقطعها عليهم سَمَرَهُمْ. وقراءة: «إن كانت إلا زقية» في القراءات الشاذة ص ١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢٠٦.

(٢) في الصحاح (زقا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) معاني القرآن للقراء ٢/ ٣٧٥.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢٠٦.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٩.

وزعم الفراء أنَّ الاختيارَ النصبُ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصفة^(١) كان صواباً. واستشهد بأشياء؛ منها أنه سُمع من العرب: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهْتَمَّ، وأنشد:

يا دارُ غَيْرِها البَلَى تَغْيِيرًا^(٢)

قال النحاس: وفي هذا إبطالُ بابِ النداءِ أو أكثره؛ لأنه يرفعُ النكرةَ المَحْضَةَ، ويرفع ما هو بمنزلةِ المضافِ في طوله، ويحذفُ التنوينَ متوسِّطاً، ويرفع ما هو في المعنى مفعولٌ بغيرِ علَّةٍ أو جَبَتْ ذلك. فأما ما حكاه عن العرب فلا يُشبه ما أجازَه؛ لأنَّ تقدير: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهْتَمَّ، على التقديم والتأخير، والمعنى: يا أيها المهْتَمُّ لا تهْتَمَّ بأمرنا. وتقديرُ البيت: يا أيتها الدارُ، ثم حَوَّلَ المخاطبة، أي: يا هؤلاء غير هذه الدارِ البَلَى، كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَنْ بِيَمٍ﴾ [يونس: ٢٢]^(٣). ف«حسرة» منصوبٌ على النداء، كما تقول: يا رجلاً أقبل، ومعنى النداء: هذا موضعُ حُضُورِ الحسرة.

الطبري^(٤): المعنى: يا حسرةً من العباد على أنفسهم، وتندماً وتلهُفاً في استهزائهم برسُلِ الله عليهم السلام.

(١) في النسخ: بالصلة، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/٢٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩١، وعنه نقل المصنف.

(٢) البيت للأحوص كما في الكتاب ٢/٢٠١، ونسبه السيرافي في شرح أبيات سيويه ١/٥٢٣ للحارث بن خالد المخزومي، وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/٢٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩١، وروايته في الكتاب:

يا دارُ حَسَرِها البَلَى تَحْسِيرًا وَسَقَتْ عَلَيْها الرِيحُ بَعْدَكَ مُورًا

قال السيرافي: حَسَرها: أزال ما كان فيها من الأطلال، والمور: الغبار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩١ - ٣٩٢. وشرح الكلام أنه لما قال: يا دار، نادى داراً بعينها فصارت معرفةً ولذلك بناها على الضم، ثم إنه أتى بعدها بقوله: حَسَرها البلى - والفعل لا ينعت به إلا النكرة - فكأنه قال: يا دار، ثم أقبل على إنسان فقال: حَسَرها البلى، فحَسَرها ليس ينعت للدار. ينظر الكتاب ٢/٢٠١، وشرح أبيات سيويه للسيرافي ١/٥٢٣.

(٤) في التفسير ١٩/٤٢٩.

ابن عباس: «يا حسرة على العباد» أي: يا ويلاً على العباد^(١). وعنه أيضاً: حلّ هؤلاء محلّ من يتحسّر عليهم^(٢).

وروى الربيع بن^(٣) أنس عن أبي العالية: أنّ العباد هاهنا الرسل، وذلك أنّ الكفار لمّا رأوا العذاب قالوا: «يا حسرة على العباد»، فتحسّروا على قتلهم وترك الإيمان بهم، فتمنّوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان^(٤). وقاله مجاهد.

وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل^(٥).

وقيل: «يا حسرة على العباد» من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لمّا وثب القوم لقتله.

وقيل: إنّ الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لمّا قتل القوم ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وحلّ بالقوم العذاب: يا حسرة على هؤلاء، كأنهم تمنّوا أن يكونوا قد آمنوا.

وقيل: هذا من قول القوم؛ قالوا لمّا قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة، على اختلاف الروايات: يا حسرة على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمنّا بهم في الوقت الذي ينفع الإيمان. وتمّ الكلام على هذا، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾.

وقرأ ابن هُرْمُز ومسلم بنُ جُنْدُب وعكرمة: «يا حَسْرَةُ على العباد» بسكون الهاء^(٦)، للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضعَ وَغْظٍ وَتَنْبِيهِ،

(١) أخرجه الطبري ١٩/٥٣٠ بلفظ: يا ويلاً للعباد.

(٢) النكت والعيون ١٥/٤ .

(٣) في النسخ. عن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٢ .

(٤) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٤/٤٥٢ ، وتفسير البغوي ٤/١١ . قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ الآية، يدفع هذا التأويل.

(٥) النكت والعيون ١٥/٤ .

(٦) القراءات الشاذة ص ١٢٥ ، والمحتسب ٢/٢٠٨ .

والعربُ تفعلُ ذلك في مثله وإن لم يكن موضعاً للوقف. ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ: أنه كان يُقَطِّعُ قراءته حرفاً حرفاً^(١)؛ حرصاً على البيان والإفهام.

ويجوز أن يكون «على العباد» متعلقاً بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف لا بالحسرة، فكأنه قدّر الوقف على الحسرة فأسكّن الهاء، ثم قال: «على العباد»، أي: أتَحَسَّرُ على العباد.

وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: «يا حسرة العباد» مضافٌ بحذف «على»^(٢). وهو خلافُ المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل، فيكونُ العبادُ فاعِلين، كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسَّروا، فهو كقولك: يا قيامَ زيد. ويجوز أن تكونَ من باب الإضافة إلى المفعول، فيكون العبادُ مفعولين، فكأنَّ العبادَ يتحسَّرُ عليهم مَنْ يُشْفِقُ لهم. وقراءةٌ من قرأ: «يا حسرةً على العباد» مقوِّيةٌ لهذا المعنى^(٣).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَهْلَكَنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: «أنَّ» بدلٌ من «كَمْ»، ومعنى «كَمْ» هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يُبدَلَ منها ما ليس باستفهام. والمعنى: ألم يَرَوْا أنَّ القرونَ الذين أهلكناهم أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ^(٤). وقال الفراء^(٥): «كَمْ» في موضع نصبٍ من وجهين: أحدهما بـ «يَرَوْا»، واستشهد على هذا بأنه في قراءة ابن مسعود: «أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا». والوجه الآخر أن يكون «كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «أهلكنا».

قال النحاس^(٦): القولُ الأولُ مُحالٌ؛ لأنَّ «كَمْ» لا يَعْمَلُ فيها ما قَبْلَها؛ لأنَّها

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٨٣)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. ووقع عند أحمد وأبي داود: آية آية، بدل: حرفاً حرفاً.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢٠٨، وسلفت في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٢١١.

(٤) بنحوه في الكتاب ٣/ ١٣٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

استفهام، ومُحال أن يدخل الاستفهام في خبر^(١) ما قبله. وكذا حُكمها إذا كانت خبراً. وإن كان سيبويه قد أزمأ إلى بعض هذا فجعل «أنهم» بدلاً من «كم». وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال: «كم» في موضع نصب بـ «أهلكنا»، و«أنهم» في موضع نصب، والمعنى عنده: بأنهم، أي: ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون بالاستئصال. قال: والدليل على هذا: أنها في قراءة عبد الله: «مَنْ أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون»^(٢).

وقرأ الحسن: «إنهم إليهم لا يرجعون» بكسر الهمزة على الاستئناف^(٣). وهذه الآية ردّ على مَنْ زعم أن من الخَلْق مَنْ يَرْجِعُ قبل القيامة بعد الموت.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ بتشديد «لما»، وخفف الباقون^(٤). فـ «إن» مخففة من الثقيلة، وما بعدها مرفوعٌ بالابتداء، وما بعده الخبر. وبطل عملها حين تغيّر لفظها. ولزمت اللام في الخبر قرناً بينها وبين إن التي بمعنى ما. و«ما» عند أبي عبيدة زائدة. والتقدير عنده: وإن كلٌّ لجميع^(٥). قال الفراء^(٦): وَمَنْ شَدَّدَ جَعَلَ «لَمَّا» بمعنى إلّا و«إن» بمعنى ما، أي: ما كلٌّ إلّا لجميع^(٧)، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعِي حِجَّةً﴾ [المؤمنون: ٢٥]. وحكى [ذلك] سيبويه في قوله: سألتك بالله لَمَّا فَعَلْتَ. وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا^(٨). وقد مضى هذا المعنى في «هود»^(٩). وفي حرف أبي: «وإن منهم إلّا جميع

(١) في مطبوع إعراب القرآن: حيز.

(٢) من قوله: قال والدليل على هذا، إلى هذا الموضع ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٩٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٥.

(٤) التيسير ص ١٢٩.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٦٠.

(٦) بنحوه في معاني القرآن ٢/ ٣٧٧.

(٧) في النسخ عدا (ظ): لجميع، وهو خطأ.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) ٢١٩/١١.

لدينا مُخَضَّرُونَ»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣١﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾ نَبِّههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكرهم توحيدَه وكمال قدرته، وهي الأرض الميتة أحيائها بالنبات وإخراج الحب منها. ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذَّون. وشدَّد أهل المدينة «الميتة» وخفَّف الباقون^(٢)، وقد تقدَّم^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَمِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وخصَّصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار. ﴿وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: في البساتين ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الهاء في «ثمره» تعودُ على ماء العيون؛ لأنَّ الثمر منه اندرج؛ قاله الجرجاني والمهدوي وغيرهما. وقيل: أي: ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا، كما قال: ﴿وَلَنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ بَطُونُهُ﴾ [النحل: ٦٦].

وقرأ حمزة والكسائي: «مِنْ ثَمَرِهِ» بضم الثاء والميم. وفتحهما الباقون^(٤). وعن الأعمش ضمُّ الثاء وإسكان الميم^(٥). وقد مضى الكلامُ فيه في «الأنعام»^(٦).

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ «ما» في موضع خفضٍ على العطف على «مِنْ ثَمَرِهِ» أي:

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٩٤/٥، والمحرق الوجيز ٤٥٢/٤.

(٢) قراءة التشديد هي قراءة نافع، والباقون من السبعة بالتخفيف. السبعة ص ٢٠٣، والتيسير ص ١٠٦.

(٣) ٢٣/٣.

(٤) السبعة ص ٢٦٤، والتيسير ص ١٠٥.

(٥) المحرق الوجيز ٤٥٣/٤.

(٦) ٤٧٤/٨.

وممّا عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون: «وما عَمِلْتُ» بغير هاء^(١). الباقون: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على الأصل من غير حذف. وحذف الصلة أيضاً في الكلام كثير لطول الاسم. ويجوز أن تكون «ما» نافية لا موضع لها، فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع، أي: ولم عمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل^(٢).

وقال غيرهم: المعنى: ومن الذي عَمِلَتْهُ أيديهم، أي: من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، وممّا اتَّخَذُوا من الحبوب بعلاج، كالخبز والدُّهْنِ المستخرَج من السُّمْسِم والزيتون. وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرُسُه الناس. روي معناه عن ابن عباس أيضاً. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَهُ؟!

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رَأَوْه من نِعَمِهِ وآثارِ قدرته. وفيه تقديرُ الأمر، أي: سُبِّحُوهُ ونَزِّهُوهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. وقيل: فيه معنى التعجب، أي: عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات! وَمَنْ تَعَجَّبَ مِنْ شَيْءٍ قَالَ: سبحان الله!

والأزواج: الأنواع والأصناف، فكلُّ صِنْفٍ زَوْجٌ^(٣)؛ لأنه مختلفٌ في الألوان والطُعوم والأشكال والصُّغَرِ والكِبَرِ، فاختلافها هو ازدواجها. وقال قتادة: يعني الذكر والأنثى. ﴿وَمِمَّا تُلَيْتُ الْأَرْضُ﴾ يعني من النبات؛ لأنه أصناف. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني وخلق منهم أولاداً أزواجاً، ذكوراً وإناثاً. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من أصناف خلقه في البرِّ والبحر والسماء والأرض. ثم يجوزُ أن يكون ما يَخْلُقُهُ لَا يَعْلَمُهُ البشر وتَعْلَمُهُ

(١) قرأ بغير هاء أبو بكر وحزمة والكسائي، والباقون من السبعة بالهاء. السبعة ص ٥٤٠، والتيسير ص ١٨٤.

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما النحاس في معاني القرآن ٤٩٢/٥، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٢٦٣/٥. وذكره عن الضحاك ومقاتل الواحدي في الوسيط ٥١٣/٣، والبلغوي ١٢/٤.

(٣) في (م): فكل زوج صنف.

الملائكة. ويجوزُ ألا يعلمه مخلوق. ووجه الاستدلال في الآية: أنه إذا انفردَ بالخلقِ فلا ينبغي أن يُشرك به.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ أَيْلُ نَسَلْخُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ أَيْلُ نَسَلْخُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ أي: وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلهيته. والسَّلْخُ: الكَشْطُ والنزع؛ يقال: سلخه الله من دينه، ثم تُستعمل بمعنى الإخراج. وقد جعلَ ذهابَ الضوء ومجيء الظلمة كالسَّلْخِ من الشيء وظهور المسلوخ، فهي استعارة.

﴿مُظْلِمُونَ﴾: داخلون في الظلام؛ يقال: أَظْلَمْنَا، أي: دخلنا في ظلام الليل، وأَظْهَرْنَا: دخلنا في وقتِ الظُّهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيل: «منه» بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياء النهار. «فإذا هم مُظْلِمُونَ» أي: في ظلمة؛ لأنَّ ضوءَ النهار يتداخلُ في الهواء فيضيء، فإذا خرج منه أَظْلَمَ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يجوزُ أن يكون تقديره: وأية لهم الشمس. ويجوز أن يكون «الشمس» مرفوعاً بإضمار فعلٍ يفسره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء^(٢) ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر، أي: جارية.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ»^(٣).

وفيه عن أبي ذرٍّ أن النبي ﷺ قال يوماً: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخْرُ

(١) النكت والعيون ١٧/١٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٤.

(٣) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥١)، وهو عند أحمد (٢١٤٠٦)، والبخاري (٤٨٠٣).

ساجدةً، فلا تَزَالُ كذلك حَتَّى يُقَالَ لها: ارْجِعِي، ارْجِعِي من حيثِ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ، فتُصْبِحُ طالِعةً من مَطْلِعِهَا، ثم تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إلى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخْرُجُ ساجدةً، ولا تَزَالُ كذلك حَتَّى يُقَالَ لها: ارتفعي، ارجعي من حيثِ جِئْتِ، فترجع، فتُصْبِحُ طالِعةً من مَطْلِعِهَا، ثم تَجْرِي لا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ منها شيئاً حَتَّى تَنْتَهِيَ إلى مُسْتَقَرِّهَا ذاك تَحْتَ الْعَرْشِ، فيقال لها: ارتفعي، أَصْبِحِي طالِعةً من مَغْرِبِكَ، فتُصْبِحُ طالِعةً من مَغْرِبِهَا» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَانُ لَوْ تَكُنَّ ءَامَنَتٍ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»^(١).

ولفظ البخاري: عن أبي ذرٍّ قال: قال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ حين غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»^(٢).

ولفظ الترمذي: عن أبي ذرٍّ قال: دخلتُ المسجدَ حين غابتِ الشَّمْسُ والنبي ﷺ جالسٌ. فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، أتدري أين تذهب هذه؟» قال: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؛ قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا: اطلعي من حيثِ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا» قال: ثم قرأ: «ذَلِكَ مُسْتَقَرُّ لَهَا» قال: وذلك قراءةُ عبد الله. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(٣).

وقال عكرمة: إِنَّ الشَّمْسَ إِذَا غَرَبَتْ دَخَلَتْ مَحْرَاباً تَحْتَ الْعَرْشِ تَسْبُحُ اللَّهَ حَتَّى تَصْبَحَ، فَإِذَا أَصْبَحَتْ اسْتَعَفَّتْ رَبَّهَا مِنَ الْخُرُوجِ، فيقولُ لها الربُّ: وَلَمْ ذَاكَ؟ قالت:

(١) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وهو بنحوه عند أحمد (٢١٤٥٩).

(٢) صحيح البخاري (٣١٩٩).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٧)، وأخرجه البخاري (٧٤٢٤)، ومسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وبنحوه عند أحمد (٢١٥٤١).

إني إذا خرجتُ عِدْتُ من دونك. فيقول الربُّ تبارك وتعالى: اخرجني، فليس عليك من ذلك شيءٌ، سأبعثُ إليهم^(١) جهنَّمَ مع سبعين ألفَ مَلَكٍ يقودونها حتى يُدخلوهم فيها.

وقال الكلبيُّ وغيره: المعنى: تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلها^(٢)، فمستقرُّها بلوغُها الموضعَ الذي لا تتجاوزه بل ترجعُ منه، كالإنسان يقطعُ مسافةً حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضي وَطَرَه، ثم يرجعُ إلى منزله الأولِ الذي ابتداءً منه سَفَرَه. وعلى تبليغ الشمسِ أقصى منازلها، وهو مستقرُّها إذا طلعت الهَنُعة^(٣)، وذلك اليومُ أطولُ الأيامِ في السَّنة، وتلك الليلةُ أقصرُ الليالي، فالنَّهارُ خمسَ عشرةَ ساعةً، والليلُ تسعَ ساعات. ثم يأخذُ في النقصان وترجعُ الشمس، فإذا طلعت الثريا استوى الليلُ والنهار، وكلُّ واحدٍ ثنتا عشرةَ ساعةً. ثم تبلغُ أدنى منازلها وتَظْلُعُ النَّعائمُ^(٤)، وذلك اليومُ أقصرُ الأيام، والليلُ خمسَ عشرةَ ساعةً. حتى إذا طلعَ فَرُغُ الدَّلْوِ المؤخَّرُ^(٥) استوى الليلُ والنهار، فيأخذُ الليلُ من النهار كلَّ يومٍ عَشَرَ ثلثِ ساعة، وكلَّ عشرةِ أيامٍ ثلثَ ساعة، وكلَّ شهرٍ ساعةً تامةً، حتى يستويا، ويأخذُ الليلُ حتى يبلغَ خمسَ عشرةَ ساعةً، ويأخذُ النهارُ من الليل كذلك. وقال الحسن: إنَّ للشمس في السنة ثلاثَ مئةٍ وستينَ مطلعاً، تنزلُ في كلِّ يومٍ مطلعاً، ثم لا تنزلُ إلى

(١) في (خ): عليهم.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١٧/٥.

(٣) الهَنُعة: كوكبان بينهما قيد سوط، وهي منزل من منازل القمر، ينظر الأزمنة والأمكنة ١٧٦/١ و١٧٩. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً على ما يأتي، وفي العمدة لابن رشيقي ٢٥٣/٢: السنة ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، وهو المقدار الذي تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثني عشر، لكل برج منزلتان وثلث منزلة. وينظر ما سيأتي ص ٣١ من هذا الجزء.

(٤) منزل من منازل القمر، وهو ثمانية كواكب. ينظر الأزمنة والأمكنة ١٧٦/١ و١٨٤.

(٥) من منازل القمر، وهما فرغان؛ فرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخَّر، وكلُّ واحدٍ منهما كوكبان. الصحاح (فرغ)، وينظر الأزمنة والأمكنة ١٨٥/١.

الحول، فهي تجري في تلك المنازل، وهي مستقرها^(١). وهو معنى الذي قبله سواء.
وقال ابن عباس: إنها إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت
تحت العرش إلى أن تطلع.

قلت: ما قاله ابن عباس يجمع الأقوال فتأمل.

وقيل: إلى انتهاء أمدها عند انقضاء الدنيا.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «والشمس تجري لا مُسْتَقَرَّ لَهَا» أي: إنها تجري
في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار^(٢)، إلى أن يُكوِّرها الله يوم القيامة. وقد احتجَّ
مَنْ خالف المصحف فقال: أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس. قال أبو بكر
الأنباري: وهذا باطل مردود على مَنْ نقله؛ لأنَّ أبا عمرو روى عن مجاهد عن ابن
عباس، وابن كثير روى عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾
فهذان السُّندان عن ابن عباس - اللذان يشهد بصحتهما الإجماع - يُبطلان ما روي
بالسند الضعيف ممَّا يخالف مذهب الجماعة وما اتفقت عليه الأمة.

قلت: والأحاديث الثابتة التي ذكرناها تردُّ قوله، فما أجراه على كتاب الله،
قاتله الله.

وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: إلى مستقرها، والمستقرُّ: موضع القرار. ﴿ذَلِكَ
تَقْدِيرٌ﴾ أي: الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿الْمَرْجُونَ الْقَدِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ﴿٦٦﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ يكون تقديره: وآية لهم القمر. ويجوز أن يكون

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٣/٢٨٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم تقف عليه من الحسن.

(٢) النكت والعيون ٥/١٧، والقراءة في المحتسب ٢/٢١٢.

«والقمر» مرفوعاً بالابتداء. وقرأ الكوفيون ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على إضمار فعل^(١)، وهو اختيار أبي عبيد؛ قال: لأنَّ قبله فعلاً وبعده فعلاً؛ قبله: «نسلخ»، وبعده «قدَرناه». النحاس^(٢): وأهل العربية جميعاً فيما علمت على خلاف ما قال، منهم الفراء^(٣)؛ قال: الرفع أعجب إليّ. وإنَّما كان الرفع عندهم أولى؛ لأنه معطوف على ما قبله، ومعناه: وآية لهم القمر. وقوله: إنَّ قبله «نسلخ»، فقبله ما هو أقرب [إليه] منه وهو «تَجْرِي» وقبله «والشمس» بالرفع. والذي ذكره بعده وهو «قدَرناه» قد عمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفع أولى؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير، فرفعته بالابتداء.

ويقال: القمر ليس هو المنازل، فكيف قال: ﴿قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: قدَرناه ذا منازل، مثل: ﴿وَسَّالِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. والتقدير الآخر: قدَرنا له منازل، ثم حذفت اللام، وكان حذفها حسناً لتعدي الفعل إلى مفعولين، مثل: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل، وهي: الشَّرْطَان. البُطَيْن. الثُّرَيَّا. الدَّبْرَان. الهَقَّة. الهَنَعَة. الذَّرَاع. النُّثْرَة. الطَّرْف. الجَبْهَة. الحَرَاتَان. الصَّرْفَة. العَوَاء. السَّمَاء. الغُفْر. الرُّبَانِيَان. الإكْلِيل. القَلْب. السُّوْلَة. النَّعَام. البَلْدَة. سَعْدُ الذَّابْح. سَعْدُ بُلْع. سَعْدُ السُّعُود. سَعْدُ الْأَخْبِيَة. الفَرْعُ الْمَقْدَم. الفَرْعُ الْمُؤَخَّر. بطن الحوت^(٤). فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة. ثم يَسْتَسِرُّ، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلاث. فللحمَل الشَّرْطَانُ والبُطَيْنُ وثلاث

(١) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي. السبعة ص ٥٤٠، والتيسير ص ١٨٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٤، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٨.

(٤) ذكرها المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ - ١٨٦، وابن رشيق في العمدة ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٧،

وينظر شرحها فيهما.

الثريا، وللشور ثلثا الثريا والدَّبْران وثلثا الهَقْعَة، ثم كذلك إلى سائرهما. وقد مضى في «الحجر» تسمية البروج^(١)، والحمد لله.

وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَقَ الشمسَ والقمرَ من نارٍ، ثم كَسِيها النورَ عند الطلوع، فأَمَّا نورُ الشمسِ فَمِنْ نورِ العرشِ، وأَمَّا نورُ القمرِ فَمِنْ نورِ الكرسيِّ، فذلك أصلُ الخلقة وهذه الكِسوة. فأَمَّا الشمسُ فتركَّتْ كِسوتُها على حالها لَتَشْعِيعَ وتُشْرِقَ، وأَمَّا القمرُ فأمرَ الروحُ الأَمِينُ جناحَه على وجهه فمحا ضوءَه بسلطانِ الجناحِ، وذلك أَنَّهُ روحٌ، والروحُ سلطانه غَالِبٌ على الأشياءِ. فبقي ذلك المحوُّ على ما يراه الخَلْقُ، ثم جُعِلَ في غلافٍ من ماء، ثم جُعِلَ له مَجْرَى، فكلَّ ليلةٍ يبدو للخلقِ من ذلك الغلافِ قمراً بمقدارٍ ما يُقَمِّرُ لهم^(٢)، حتى ينتهي بدوُّه ويراها الخلقُ بكَماله واستدارته. ثم لا يزال يعودُ إلى الغلافِ كلَّ ليلةٍ شيءٌ منه، فينقصُ من الرؤية والإقمارِ بمقدارٍ ما زاد في البدء. وابتدئُ في النقصانِ من الناحية التي لا تراه الشمسُ، وهي ناحيةُ الغروبِ، حتى يعودَ كالعُرجونِ القديمِ، وهو العِذْقُ المتقوَّسُ لِيُبْسِه ودَقَّتِه. وإنَّما قيل: القمرُ؛ لأنه يُقَمِّرُ، أي: يُبَيِّضُ الجوَّ ببياضِهِ إلى أن يَسْتَسِرَّ.

الثانية: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ قال الزَّجَّاجُ: هو عُوْدُ العِذْقِ الذي عليه السَّمَارِيخُ، وهو فُعْلون من الانعراج، وهو الانعطافُ، أي: سار في مَنَازِلِه، فإذا كان في آخرها دَقًّا واستَقْوَسَ وضاق حتى صار كالعُرجونِ^(٣). وعلى هذا فالنُونُ زائدة. وقال قتادة: هو العِذْقُ اليابسُ المُنْحَنِي من النخلة^(٤).

ثعلب: «كالعُرجونِ القديمِ» قال: العُرجون: الذي يبقى من الكِبَاسَة في النخلة إذا

(١) ١٨٦/١٢.

(٢) كلام ظاهر البطلان.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٢٨٧/٤، والكشاف ٣/٣٢٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ١٤١/٢.

قُطِعَتْ، و«القديم»: البالي^(١).

الخليل - في بابِ الرباعي -: العُرْجُونُ أصلُ العِدْقِ، وهو أصْفَرُ عَرِيضٌ يَشْبَهُ به الهلالُ إذا انحنى^(٢).

الجوهري^(٣): العُرْجُونُ: أصلُ العِدْقِ الذي يَعْوُجُ وتُقَطَّعُ منه الشماريخُ، فيبقى على النخل يابساً، وعَرْجَنَه: ضَرَبَه بالعُرْجُونِ. فالنُونُ على قولٍ هؤلاء أصليةٌ، ومنه شعرُ أعشى بني قيس:

شَرَقَ الْمَسْكُ وَالْعَبِيرُ بِهَا فـهـي صَفراءُ كَعُرْجُونِ الْقَمَرِ^(٤)
فالعرجونُ إذا عَتَقَ وَيَسَ وتَقَوَّسَ شُبُه القمرُ في دَقَّتِه وصُفِرَتِه به. ويقال له أيضاً:
الإهَانُ وَالْكِبَاسَةُ وَالْقِنُو، وأهلُ مصرَ يسمُّونه الإِسْبَاطَةَ.

وقرئ: «العُرْجُونُ» بوزن الفِرْجُونِ^(٥)، وهما لغتان، كالبَزْيُونِ والبِرْزْيُونِ؛ ذكره الزمخشري^(٦) وقال: هو عودُ العِدْقِ ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة.

واعلم أن السَّنَةَ منقسمةٌ على أربعةِ فصولٍ، لكلِّ فصلٍ سبعةُ منازلٍ: فأوَّلُها الربيعُ، وأوَّلُه خمسةُ عشرَ يوماً من آذار، وعددُ أيامه اثنان وتسعون يوماً، تقطعُ فيه

(١) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص ٤٢٢. والكِبَاسَةُ: العِدْقُ التام بشماريخه ورُطْبَه. معجم متن اللغة (كيس).

(٢) بنحوه في العين ٣٢٠/٢.

(٣) في الصحاح (عرجن).

(٤) النكت والعيون ١٨/٥، وليس هو في ديوان أعشى قيس، وهو في المفضليات ص ٩٢، والعمدة لابن رشيق ١١٨/٢ منسوب للمرَّار بن منقذ، وبلا نسبة في العين ١٨٢/١، واللسان (عبق)، وروايته في هذه المصادر عدا النكت: عَبَقَ العنبرُ والمَسْكُ بها، وفي المفضليات والعمدة: ... كعرجون العمر.

(٥) الفِرْجُونُ، كِبَرْدُونُ: المَحَسَّةُ (آلة من حديد لها أسنان تنظف بها الدابة) القاموس والمعجم الوسيط (فرجن).

(٦) في الكشف ٣٢٣/٣، والقراءة في القرءات الشاذة ص ١٢٥. والبزبون؛ كجَرْدَحْلٍ وعُصْفُورٍ: السندس. القاموس (بزين).

الشمسُ ثلاثة بروج: الحَمَلُ، والثور، والجُوزاء، وسبعة منازل: الشَّرطان، والبُطين، والثُّريا، والدَّبَران، والهَقعة، والهَنعة، والذَّراع. ثم يدخلُ فصلُ الصيف في خمسة عشر يوماً من حَزيران، وعدُدُ أيامه اثنان وتسعون يوماً، تقطُعُ الشمسُ فيه ثلاثة بروج: السَّرطان، والأسد، والسُّنبلة، وسبعة منازل؛ وهي: النَّثرة، والطَّرَف، والجبهة، والخَرَاتان، والصَّرفة، والعَواء، والسَّمَك. ثم يدخلُ فصلُ الخريف في خمسة عشر يوماً من أيلول، وعدُدُ أيامه أحد وتسعون يوماً، تقطُعُ فيه الشمسُ ثلاثة بروج، وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعة منازل: الخُفر، والزُّبانان، والإكليل، والقلب، والسُّولة، والنعائم، والبلدة. ثم يدخلُ فصلُ الشتاء في خمسة عشر يوماً من كانون الأوّل، وعدُدُ أيامه تسعون يوماً، وربّما كان أحداً وتسعين يوماً، تقطُعُ فيه الشمسُ ثلاثة بروج؛ وهي: الجُدي، والدَّلُو، والحوت، وسبعة منازل: سعد الذَّابح، وسعد بُلُع، وسعد السُّعود، وسعد الأُخبية، والفرغُ المقدّم، والفرغ المؤخّر، وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل، كانون الثاني، أشباط^(١)، آذار، نيسان، أيار، حَزيران، ثَمُوز، آب، أيلول، وكلُّها أحدٌ وثلاثون إلّا تشرين الثاني ونيسان وحَزيران وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوماً وربيعُ يوم.

وإنّما أردنا بهذا أن ننظر في قدرة الله تعالى، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ فَدَرَزْنَاهُ مَنَازِلَ﴾. فإذا كانت الشمسُ في منزلٍ أهلَّ الهلالَ بالمنزل الذي بعده، وكان الفجرُ بمنزلتين من قبْلِهِ. فإذا كانت الشمسُ بالثريا في خمسة وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجرُ بالشَّرطين، وأهلَّ الهلالُ بالدَّبَران، ثم يكون له في كلِّ ليلةٍ منزلةٌ حتى يقطع في ثمانٍ وعشرين ليلةً ثمانيةً وعشرين منزلةً، وقد قطعت الشمسُ منزلتين فيقطعُهما، ثم يَطلُعُ في المنزلة التي بعدَ منزلةِ الشمسِ فـ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢).

(١) وفي القاموس: شُباط، كُثْراب.

(٢) من قوله: واعلم أن السنة منقسمة، إلى هذا الموضع وقع في (خ) و(ظ) قبل المسألة الثانية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿الْقَدِيمُ﴾ قال الزمخشري^(١): القديم: المَحُولُ^(٢)، وإذا قَدُم؛ دَقَّ وانحنى واصفرَّ، فشبَّه القمرُ به من ثلاثة أوجِه. وقيل: أقلُّ عدَّة الموصوفِ بالقديم^(٣) الحَوْلُ، فلو أنَّ رجلاً قال: كلُّ مملوكٍ لي قديمٍ فهو حرٌّ، أو كَتَبَ ذلك في وصيته، عتقَ مَنْ مَضَى له حَوْلٌ أو أكثر.

قلت: قد مضى في «البقرة» ما يترتَّب على الأهلَّة من الأحكام^(٤)، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ رفعت «الشمس» بالابتداء، ولا يجوزُ أن تعمل «لا» في معرفة. وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أنَّ الشمس لا تُدْرِكُ القمرَ فتُبْطِلُ معناه^(٥)، أي: لكلِّ واحدٍ منهما سلطانٌ على حياله، فلا يَدْخُلُ أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يُبْطِلَ الله ما دَبَّرَ من ذلك، فتطلع الشمسُ من مغربها على ما تقدَّم في آخر سورة الأنعام بيانه^(٦). وقيل: إذا طلعت الشمسُ لم يكن للقمر ضوءٌ، وإذا طلع القمرُ لم يكن للشمس ضوءٌ. روي معناه عن ابن عباس والضحاك^(٧).

وقال مجاهد: أي: لا يُشَبِّه ضوءُ أحدهما ضوءَ الآخر^(٨).

(١) في الكشف ٣/٣٢٣.

(٢) من أَخْوَلَ، يقال: أَخْوَلَ بالمكان، أي: أقام به حَوْلًا. ينظر القاموس (حول).

(٣) في الكشف: أقلُّ مدة الموصوف بالقدم.

(٤) ٣/٢٢٨ وما بعدها.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٥.

(٦) ٩/١٢٧ وما بعدها.

(٧) أخرجه الطبري ١٩/٤٤٠ عن الضحاك، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٨) النكت والعيون ٥/١٨، وعلقه البخاري عنه قبل الحديث (٤٨٠٢) وفيه: لا يستر، بدل: لا يشبه،

وكذا أخرجه الطبري ١٩/٤٣٩.

وقال قتادة: لكلُّ حدٍّ وعَلَمٌ لا يَغْدُوهُ ولا يَقْصُرُ دونه، إذا جاء سلطانُ هذا ذهب هذا^(١).

وقال الحسن: إنَّهما لا يجتمعان في السماء ليلةَ الهلالِ خاصةً^(٢). أي: لا تبقى الشمسُ حتى يَظْلُعَ القمرُ، ولكنْ إذا غَرَبَتِ الشمسُ طلعَ القمرُ.

يحيى بن سلام: لا تُدْرِكُ الشمسُ القمرَ ليلةَ البدرِ خاصةً؛ لأنه يبادر بالمَغِيبِ قبل طلوعها. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخرِ في منازلٍ لا يَشْتَرِكَانِ فيها؛ قاله ابنُ عباسٍ أيضاً^(٣).

وقيل: القمرُ في السماء الدنيا، والشمسُ في السماء الرابعة، فهي لا تُدْرِكُهُ؛ ذكره النحاس^(٤) والمهدويُّ.

قال النحاس: وأَحْسَنُ ما قيل في معناها وأَبَيْنُهُ ممَّا لا يُدْفَعُ: أَنَّ سَيْرَ القمرِ سَيْرٌ سريع، والشمسُ^(٥) لا تُدْرِكُهُ في السَّيْرِ؛ ذكره المهدويُّ أيضاً.

فأمَّا قولُه سبحانه: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فذلك حين حَبَسَ الشمسُ عن الطُّلوعِ، على ما تقدَّم بيَّأنه في آخرِ «الأنعام»^(٦)، ويأتي في سورة القيامة أيضاً. وَجَمَعُهما علامةٌ لانقضاءِ الدنيا وقيامِ الساعة.

﴿وَكُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرُونَ. وقيل: يَدُورُونَ. ولم يَقُلْ: تَسْبَحُ؛ لأنه وَصَفَها بِفِعْلٍ مَن يَعْمَلُ.

وقال الحسن: الشمسُ والقمرُ والنجومُ في فَلَكٍ بين السماء والأرض غير

(١) في (م): ذهب سلطان هذا، والخبر أخرجه الطبري ٤٣٩/١٩.

(٢) النكت والعيون ١٨/٥، وأخرجه عبد الرزاق ١٤٣/٢.

(٣) النكت والعيون ١٨/٥، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٤٤٠/١٩ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٩٥.

(٥) في إعراب القرآن: فالشمس.

(٦) ١٢٩/٩.

مُلْصَقَةً، ولو كانت مُلْصَقَةً مَا جَرَتْ؛ ذكره الثعلبي والماوردي^(١).

واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ على أن النهار مخلوق قبل الليل، وأن الليل لم يَسْبِقْهُ بِخَلْقِهِ^(٢).

وقيل: كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه، إلى أن يُجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة؛ كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ لِلْإِجْمَامِ وَالِاسْتِرَاحَةِ، وَالنَّهَارُ لِلتَّصَرُّفِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩] أي: راحة لأبدانكم من عمل النهار. فقوله: ﴿وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: غالب النهار؛ يقال: سبق فلان فلاناً، أي: غلبه.

وذكر المبرّد قال: سمعت عمارة^(٣) يقرأ: «ولا الليل سابق النهار» فقلت: ما هذا؟ قال: أردت: سابق النهار، فحذفت التنوين لأنه أخف. قال النحاس^(٤): يجوز أن يكون «النهار» منصوباً بغير تنوين، ويكون التنوين حذفت لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢ وَلِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ مَعَانٍ: أحدها: عبرة لهم؛ لأن في الآيات اعتباراً. الثاني: نعمة عليهم؛ لأن في الآيات إنعاماً. الثالث: إنذار لهم؛ لأن

(١) في النكت والعيون ١٨/٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٥.

(٣) ابن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية اليربوعي، يكنى أبا عقيل، شاعر فصيح قدم من اليمامة فمدح المأمون، وبقي إلى أيام الواثق ومدحه. معجم الشعراء للمزباني ص ٧٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٩٥ - ٣٩٦، وما قبله منه.

في الآيات إنذاراً^(١).

﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ^(٢) فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ مِنْ أَشْكَلِ مَا فِي السُّورَةِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَحْمُولُونَ^(٣). فَقِيلَ: الْمَعْنَى: وَآيَةٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّةَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَالضَّمِيرَانِ مُخْتَلِفَانِ؛ ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَحَكَاهُ النَّحَّاسُ^(٤) عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَلِيمَانَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُهُ.

وَقِيلَ: الضَّمِيرَانِ جَمِيعاً لِأَهْلِ مَكَّةَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ ذُرِّيَّتَهُمْ أَوْلَادَهُمْ وَضِعْفَاءُ هُمُ. فَالْفُلْكَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ سَفِينَةُ نُوحٍ. وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ اسْمًا لِلْجِنْسِ؛ خَبَرٌ جَلٌّ وَعَزٌّ بِلُطْفِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّفْنَ يُحْمَلُ فِيهَا مَنْ يَضْعُبُ عَلَيْهِ الْمَشْيُ وَالرَّكُوبُ مِنَ الذَّرِّيَّةِ وَالضَّعْفَاءِ، فَيَكُونُ الضَّمِيرَانِ عَلَى هَذَا مُتَّفَقَيْنِ.

وَقِيلَ: الذَّرِّيَّةُ: الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ، حَمَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَالْآبَاءُ ذُرِّيَّةٌ، وَالْأَبْنَاءُ ذُرِّيَّةٌ، بِدَلِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ قَالَ أَبُو عَثْمَانَ. وَسَمَّى الْآبَاءُ ذُرِّيَّةً؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ ذُرّاً الْأَبْنَاءَ^(٥).

وَقَوْلٌ رَابِعٌ: أَنَّ الذَّرِّيَّةَ النُّطْفُ، حَمَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي بَطُونِ النِّسَاءِ تَشْبِيهاً بِالْفُلْكِ الْمَشْحُونِ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام؛ ذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ^(٦). وَقَدْ مَضَى فِي «الْبَقَرَةِ» اشْتِقَاقُ الذَّرِّيَّةِ وَالْكَلَامُ فِيهَا مُسْتَوْفَى^(٧). وَ«الْمَشْحُونُ»: الْمَمْلُوءُ الْمُؤَقَّرُ، وَ«الْفُلْكَ» يَكُونُ وَاحِداً وَجَمْعاً. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «يُونُسَ» الْقَوْلُ فِيهِ^(٨).

(١) النكت والعيون ١٩/٥ .

(٢) بالجمع، قراءة نافع وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: «ذريتهم» بالتوحيد. السبعة ص ٥٤٠ ، والتيسير ص ١٨٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/٣٩٦ .

(٥) النكت والعيون ١٩/٥ ، وفيه: أبان بن عثمان، بدل: أبو عثمان.

(٦) في النكت والعيون ١٩/٥ . وقال أبو حيان في البحر ٧/٣٣٨: وهذا لا يصح؛ لأنه نوعٌ من تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيء لا يدلُّ عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة، يحرفون الكلم عن مواضعه.

(٧) ٣٦٨/٢ .

(٨) ٤٧٤/١٠ ، وينظر في الكلام فيه أيضاً ٤٩٤/٢ .

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصل: يركبونه، فحذفت الهاء لطول الاسم وأنه رأسُ آية. وفي معناه ثلاثة أقوال:

مذهبُ مجاهدٍ وقتادةَ وجماعةٍ من أهل التفسير، وروي عن ابن عباس: أن معنى «مِنْ مِثْلِهِ» للإبل^(١)، خَلَقَهَا لَهُم للركوب في البرِّ مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تشبّه الإبلَ بالسفن؛ قال طرفة:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَصِفِ مِنْ دَدٍ^(٢)
جمعُ خَلِيَّةٍ، وهي السفينة العظيمة.

والقول الثاني أنه للإبل والدواب وكلُّ ما يُرْكَبُ.

والقول الثالث: أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحُّها؛ لأنَّه متَّصلُ الإسنادِ عن ابن عباس؛ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خَلَقَ لَهُم سَفْنًا أَمْثَالَهَا يَرْكَبُونَ فِيهَا^(٣). وقال أبو مالك: إِنَّهَا السَّفْنُ الصَّغَارُ خَلَقَهَا مِثْلَ السَّفْنِ الْكِبَارِ. وروى عن ابن عباس أيضاً والحسن^(٤). وقال الضحاك وغيره: هي السَّفْنُ الْمَتَّخِذَةُ بَعْدَ سَفِينَةِ نُوحٍ^(٥).

قال الماوردي: وَيَجِيءُ عَلَى مَقْتَضَى تَأْوِيلِ عَلِيٍّ ؑ فِي أَنَّ الذَّرِّيَّةَ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ هِيَ النَّظْفُ فِي بَطُونِ النِّسَاءِ قَوْلُ خَامِسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ: النِّسَاءُ خُلِقْنَ لِرُكُوبِ الْأَزْوَاجِ، لَكِنْ لَمْ أَرَهُ مُحْكِمًا^(٦)!

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشَاءُ نَفْرَقْهُمْ﴾ أي: في البحر، فَتَرْجِعُ الْكِنَايَةُ إِلَى أَصْحَابِ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٦، دون قوله: وروي عن ابن عباس. وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ٤٤٦/ ١٩.

(٢) ديوان طرفة ص ٢٠، والنكت والعيون ٥/ ٢٠، والكلام منه. الحُدُوج جمع حُذَج، وهو مَرْكَب من مراكب النساء. والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة. والنواصف جمع ناصفة، وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي. ودد: موضع. اللسان (ددا).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٦. والخبر أخرجه الطبري ٤٤٤/ ١٩.

(٤) أخرجه الطبري ٤٤٤/ ١٩ عن أبي مالك والحسن.

(٥) أخرجه الطبري ٤٤٥/ ١٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠، وسلف الكلام على خبر علي ؑ في تفسير الآية السابقة، وأنه من تحريف الكلم عن مواضعه.

الذَّرِّيَّةَ، أو إلى الجميع. وهذا يدلُّ على صحَّة قولِ ابن عباس ومَن قال: إِنَّ المراد «مِنْ مِثْلِهِ» السفنُ لا الإبل.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مُغِيثَ لَهُمْ، رواه سعيدٌ عن قتادة. ورَوَى شيبان عنه: فلا مَنَعَةٌ لَهُمْ^(١). ومعناها مُتقاربان. و«صَرِيخٌ» بمعنى مُصرِخ، فعيلٌ بمعنى فاعل.

ويجوزُ: «فلا صَرِيخٌ لَهُمْ»^(٢)؛ لأنَّ بعده ما لا يجوزُ فيه إلَّا الرَفْعُ؛ لأنَّه معرفةٌ وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾، والنحويون يختارون: لا رجلٌ في الدارِ ولا زيدٌ. ومعنى: «يُنْقَذُونَ»: يُخَلَّصُونَ مِنَ الغَرَقِ. وقيل: من العذاب.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ قال الكسائيُّ: هو نصبٌ على الاستثناء. وقال الزجاج: نُصِبَ [لأنه] مفعولٌ من أجله، أي: للرحمة، ﴿وَمَتَّعًا﴾ معطوفٌ عليه^(٣).

﴿إِلَى حِينٍ﴾: إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلام: إلى القيامة^(٤)، أي: إلَّا أَنْ نَرْحَمَهُمْ ونَمَتَّعَهُمْ إلى آجالهم، وأنَّ الله عَجَّلَ عذابَ الأممِ السالفة، وأخَّرَ عذابَ أُمَّةٍ محمدٍ ﷺ - وإن كَذَّبوه - إلى الموت والقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُكُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ اطْعَمَهُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادة: يعني «اتَّقُوا

(١) النكت والعيون ٢٠/٥، وأخرج الأول عبد الرزاق ١٤٤/٢، والطبري ٤٤٧/١٩.

(٢) وقد قرئ بها كما ذكر العكبري في الإملاء ٢٢٩/٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٧، وما سلف بن حاصرتين منه، وقول الزجاج في معاني القرآن ٢٨٩/٤.

(٤) النكت والعيون ٢٠/٥، وقول قتادة أخرجه الطبري ٤٤٧/١٩.

ما بين أيديكم» أي: من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، «وما خلّفكم» من الآخرة^(١).

ابن عباس وابن جبير ومجاهد: «ما بين أيديكم»: ما مضى من الذنوب، «وما خلّفكم»: ما يأتي من الذنوب^(٢).

الحسن: «ما بين أيديكم»: ما مضى من أجلكم، «وما خلّفكم»: ما بقي منه.

وقيل: «ما بين أيديكم»: من الدنيا، «وما خلّفكم»: من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان^(٣). وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس. قال: «ما بين أيديكم»: من أمر الآخرة فاعملوا لها^(٤)، «وما خلّفكم»: من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها.

وقيل: «ما بين أيديكم»: ما ظهر لكم، «وما خلّفكم»: ما خفي عنكم.

والجواب محذوف، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دليله قوله بعد: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فاكتمى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهود، أمروا بإطعام الفقراء^(٥).

وقيل: هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي ﷺ: أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. فحرموهم وقالوا: لو شاء الله أطعمكم - استهزاء - فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿أَنْطَعِمُ﴾ أي: أنرزق ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾، كان بلغهم

(١) أخرجه عبد الرزاق ١٤٤/٢، والطبري ٤٤٨/١٩.

(٢) أخرجه الطبري ٤٤٨/١٩ عن مجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس وابن جبير.

(٣) النكت والعيون ٢١/٥.

(٤) في النسخ: من أمر الآخرة وما عملوا لها، والمثبت من الوسيط ٥١٥/٣، وتفسير البغوي ١٤/٤.

(٥) النكت والعيون ٢١/٤.

من قول المسلمين: أن الرازق هو الله. فقالوا هزءاً: أنرزق من لو يشاء الله أغناه؟! (١)

وعن ابن عباس: كان بمكة زنادقة، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيْفقره الله ونُطعمه نحن! وكانوا يسمعون المؤمنين يعلّقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء الله لأعزّه (٢)، ولو شاء الله لكان كذا. فأخرجوا هذا الجواب مُخرَج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى.

وقيل: قالوا هذا تعلقاً بقول المؤمنين لهم: ﴿انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: فإذا كان الله رزقنا فهو قادرٌ على أن يرزقكم، فلم تلتمسون الرزق منّا؟. وكان هذا الاحتجاج باطلاً؛ لأن الله تعالى إذا ملك عبداً مالاً ثم أوجب عليه فيه حقاً؛ فكأنه انتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صدّقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم، ولكن كذبوا في الاحتجاج. ومثله قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قيل: هو من قول الكفار للمؤمنين، أي: في سؤال المال وفي اتباعكم محمداً. قال معناه مقاتل وغيره. وقيل: هو من قول أصحاب النبي ﷺ لهم. وقيل: هو من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب.

وقيل: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين، فلقبه أبو جهل فقال: يا أبا بكر، أتزعم أن الله قادرٌ على إطعام هؤلاء؟! قال: نعم. قال: فما باله لم يُطعمهم؟ قال: ابتلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٣٢٥ إلى قوله: لو شاء الله أطعمكم. وذكره بنحوه البغوي ٤/١٤، وابن الجوزي ٧/٢٤ وعزاه لمقاتل.

(٢) في النسخ: لأعز، والمثبت من الكشاف ٣/٣٢٥، والكلام منه.

الأغنياء بالإعطاء. فقال: واللّه يا أبا بكر ما أنت إلّا في ضلال! أتزعم أنّ الله قادرٌ على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم، ثم تطعمهم أنت؟! فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الآيات [الليل: ٥-٦]]^(١). وقيل: نزلت الآية في قومٍ من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوامٌ يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، واستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول؛ ذكره القشيريُّ والماورديُّ^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان هذا استهزاءً منهم أيضاً، أي: لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيلَ ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يَخْتَصِمُونَ في أمورِ دنياهم، فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخة الصُّعْق.

وفي «يَخِصِّمُونَ» خمسُ قراءاتٍ: قرأ أبو عمرو وابنُ كثير: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد. وكذا رَوَى وَرْشٌ عن نافع^(٣). فأما أصحابُ القراءاتِ وأصحابُ نافعٍ سوى ورشٍ قرؤوا عنه: «يَخِصِّمُونَ» بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين.

وقرأ يحيى بن وثابٍ والأعمشُ وحمزة: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بإسكان الخاء وتخفيفِ الصاد؛ من خَصَمَهُ.

وقرأ عاصمٌ والكسائيُّ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بكسرِ الخاء وتشديدِ الصاد^(٤)،

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النكت والعيون ٢١/٥.

(٣) وهي قراءة هشام أيضاً. غير أن أبا عمرو كان يختلس فتحة الخاء. السبعة ص ٥٤١، والتيسير ص ١٨٤. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٧.

(٤) وقرأ بها أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية ابن ذكوان. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٧.

ومعناه: يَخْصِمُ بعضهم بعضاً. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يَخْتَصِمُونَ في الحجة أنهم لا يُبْعَثُونَ.

وقد روى ابنُ جُبَيْرٍ عن أبي بكر عن عاصم، وحماذ عن عاصم كَسَرَ الياءِ والخاءِ والتشديد^(١).

قال النحاس: القراءةُ الأولى أَيْبُهَا. والأصلُ فيها: يَخْتَصِمُونَ، فأدغمت التاء في الصاد، فقلبت حركتها على الخاء^(٢)، وفي حَرْفِ أَبِي: «وهم يَخْتَصِمُونَ». وإسكانُ الخاءِ لا يجوز؛ لأنه جمعٌ بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدٍّ ولين^(٣). وقيل: أَسَكَّنُوا الخاءَ على أصلها.

[فأما مَنْ قرأ: «يَخْصِمُونَ» فالتقدير: [يَخْصِمُ^(٤) بعضهم بعضاً، فحذف المضاف^(٥)، وجاز أن يكون المعنى: يَخْصِمُونَ مُجَادِلَهُمْ عند أنفسهم فحذف المفعول. قال الثعلبي: وهي قراءة أبي بن كعب.

قال النحاس^(٦): فأما «يَخْصِمُونَ» فالأصل فيه أيضاً: يَخْتَصِمُونَ، فأدغمت التاء في الصاد، ثم كُسِرت الخاءُ لالتقاء الساكنين. وزعم الفراء^(٧) أن هذه القراءة أجود وأكثر؛ فترك ما هو أولى - من إلقاء حركة التاء على الخاء - واجتَلَبَ لها حركةً

(١) جامع البيان للداني ٣٦٦/٢. والمشهور عن عاصم فتح الياء كما سلف. وابن جبير هو أحمد بن جبير ابن محمد، أبو جعفر الكوفي المقرئ.

(٢) في (م): فنقلت حركتها إلى الخاء.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٧. وقراءة أبي ﴿﴾ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/٣٧٩.

(٤) قبلها في النسخ: والمعنى، والمثبت من الحجة للفارسي ٤٢/٦.

(٥) قال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢١٧: حذف المضاف، وهو «بعض» الأول، وقام الضمير المخفوض مقام «بعض» في الإعراب، فصار ضميراً مرفوعاً، فاستتر في الفعل؛ لأن المضمّر المرفوع لا يتفصل بعد الفعل، لا تقول: اختصم هم.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣٩٨.

(٧) في معاني القرآن له ٢/٣٧٩.

أخرى، وجَمَعَ بين ياء وكسرة، وزعم أنه أجود وأكثر. وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة!

وما روي عن عاصم من كسر الياء والخاء فللاِتِّباع. وقد مضى هذا في «البقرة» في ﴿يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ [الآية: ٢٠] وفي «يونس» في ﴿يَهْدِي﴾ [الآية: ٣٥].

وقال عكرمة في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال: هي النفخة الأولى في الصُّور. وقال أبو هريرة: يُنفخُ في الصُّور والناسُ في أسواقهم؛ فمن حالبٍ لفحة، ومن ذارعٍ ثوباً، ومن مارٍ في حاجة^(١).

وروى نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرَا ثوبهما يتبايعانه، فلا يَطْوَِيَانِه حتى تقوم الساعة، والرجلُ يَلِيْطُ حَوْضَه لِيَسْقِي مَاشِيَتَه، فما يسقيها حتى تقوم الساعة، والرجلُ يخفِضُ ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة، والرجلُ يرفعُ أكلته إلى فيه، فما يَبْتَلِعُهَا^(٢) حتى تقوم الساعة»^(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِه - قال - فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ» الحديث^(٤).

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يستطيعُ بعضهم أن يوصيَ بعضاً لِمَا في يده من حقٍّ^(٥). وقيل: لا يستطيعُ أن يوصيَ بعضهم بعضاً بالتوبة والإقلاع، بل يموتون في أسواقهم ومَوَاضِعِهِمْ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٨.

(٢) في (خ): يبلعها، وفي (م): يتبلعها.

(٣) النكت والعيون ٢٢/ ١٥، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٨٢٤)، والبخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤) من طريق الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وأخرجه بنحوه أيضاً الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٨٣) من طريق نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قوله: يَلِيْطُ حَوْضَه - وفي رواية: يلوط - أي: يطينه ويصلحه. النهاية (لوط).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٩٤٠)، وسلف ٨/ ٤٣٠.

(٥) النكت والعيون ٢٢/ ٥.

﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا ماتوا. وقيل: إنَّ معنى «ولا إلى أهلهم يَرْجِعُونَ»: لا يَرْجِعُونَ إليهم قولاً. وقال قتادة: «ولا إلى أهلهم يَرْجِعُونَ» أي: إلى منازلهم؛ لأنَّهم قد أُعْجِلُوا عن ذلك^(١).

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ٥١ ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ٥٢ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ٥٣ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٥٤

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة. وقد بيَّنا في سورة النمل أنَّهما نفختان لا ثلاث^(٢) وهذه الآية دالة على ذلك. وروى المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النَّفْخَتَيْنِ أربعون سنة: الأولى يُمِيتُ الله بها كلَّ حيٍّ، والأخرى يُحيي الله بها كلَّ ميِّتٍ»^(٣).

وقال قتادة: الصُّورُ جمعُ صُورَةٍ، أي: نُفِخَ فِي الصُّورِ الأرواحُ^(٤). وصُورَةٌ وصُورٌ مثلُ سورة البناءِ وسُورٍ؛ قال العجاج:
وَرُبُّ ذِي سُرَادِقٍ مَخْجُورٍ سُرْتُ إِلَيْهِ فِي أَعَالِي السُّورِ^(٥)
وقد روي عن ابن هرمز أنه قرأ: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ»؛ النحاس^(٦): والصحيحُ أنَّ

(١) النكت والعيون ٢٢/٥، وأخرجه الطبري ٤٥٤/١٩ دون قوله: أي إلى منازلهم.

(٢) عند تفسير الآية (٨٧) منها.

(٣) النكت والعيون ٢٣/٥، وسلف عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.

(٤) في (م) والأرواح.

(٥) ديوان العجاج ص ٢٢٩ - ٢٣٠، والكتاب ٥١/٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٩، والكلام منه. قوله: سُرْتُ، أي: وثبت. شرح الشواهد للشتمري ص ٥٤٩،

(٦) في إعراب القرآن ٣/٣٩٩، وما قبله منه، ووقع في النسخ: أبي هريرة، بدل: ابن هرمز، وهو تصحيف، وينظر المحرر الوجيز ٤/٤٥٧، والبحر ٧/٣٤١. والقراءة في المحتسب ٢/٢١٢ عن قتادة.

«الصُّور» بإسكان الواو: القَرْن، جاء بذلك التوقيفُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك معروفٌ في كلامِ العرب، أنشد أهلُ اللغة:

نَحْنُ نَطْخُنَاهُمْ غَدَاةَ الْغُورَيْنِ بِالضَّابِحَاتِ فِي غُبَارِ النَّقْعَيْنِ
نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَظْحِ الصُّورَيْنِ

وقد مضى هذا في «الأنعام» مستوفى^(١).

﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور. وقرئ بالفاء: «مِنَ الْأَجْدَافِ» ذكره الزمخشري^(٢). يقال: جَدَثَ وَجَدَفَ. واللغة الفصيحة: جَدَثَ؛ بالثاء، والجمعُ أَجْدَثُ وَأَجْدَاتُ؛ قال المتنخلُ الهذليُّ:
عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنِعَافٍ عِرْقٍ عَلَامَاتٍ كَتَحْبِيرِ النَّمَاطِ^(٣)
وَجَدَثَتْ: أي: اتَّخَذَ جَدَثًا.

﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُوكَ﴾ أي: يخرجون؛ قاله ابنُ عباس وقتادة^(٤). ومنه قولُ امرئِ

القيس:

فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسِلِ^(٥)

ومنه قيل للولد: نَسَلَ؛ لأنَّه يخرج من بطنِ أمِّه.

(١) ٤٣٠/٨ وما بعدها، وسلف ثَمَّة البيت الأول والثالث، والأول برواية: الجمعين، بدل: الغورين، والأبيات الثلاثة في أمالي القالي ٣٦/١. قوله: بالضابحات، من ضبحت الخيل: إذا عَدَّت. اللسان (صبح).

(٢) في الكشف ٣/٣٢٥.

(٣) ديوان الهذليين ١٨/٢، والصحاح (جدث)، والكلام منه. قال شارح الديوان: أجْدَثَ ونِعَافٌ عِرْقٌ: هي مواضع، كتعبير: كتتنقيش. والنمَاط جمع نمط. اهـ وفي القاموس (نمط): النمط: ضربٌ من البُسْط.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٩/٤٥٥ - ٤٥٦.

(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٣، وسلف ١٤/٢٨٧. وصدرة: وإن كنت قد ساءت منك مني خليفة.

وقيل: يُسرعون. والنَّسْلان والعَسْلان: الإسراعُ في السير، ومنه مِثْيَةُ الذئب؛ قال:

عَسْلَانِ الذَّئْبِ أَمْسَى قَارِباً بَرَدَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَنَسَلَ^(١)

يقال: عَسَلَ الذئبُ ونَسَلَ، يَغْسِلُ وَيَنْسِلُ، من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ. ويقال: يَنْسِلُ بالضم أيضاً. وهو الإسراعُ في المشي، فالمعنى: يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [القمان: ٢٨]، وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وفي «سأل سائل»: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [الآية: ٤٣] أي: يُسرعون. وفي الخبر: شَكَّوْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الضعْفَ فقال: «عليكم بالنَّسَل»^(٢) أي: بالإسراع في المشي، فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَوَلَّيْنَا﴾ قال ابن الأنباري^(٣): «يا ويلنا» وقفَ حسنٌ، ثم تَبَدَّى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾. وروي عن بعض القراء: «يا ويلنا مِنْ بَعَثْنَا» بكسر من والثاء من البعث، رُوي ذلك عن عليٍّ ؓ، فعلى هذا المذهب لا يَحْسُنُ الوقفُ على قوله: «يا ويلنا»، حتى يقول: ﴿مِنْ مَرَقِدِنَا﴾، وفي قراءة أبي بن كعب: «مَنْ أَهْبَنَّا»^(٤) بالوصل^(٥) «مِنْ مَرَقِدِنَا»، فهذا دليلٌ على صحة مذهب العامة.

(١) البيت للبيد أو للنابغة الجعدي، وقد سلف ٢٨٧/١٤. قوله: قارباً؛ القارب هو طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

(٢) غريب الحديث لابن الجوزي ٤٠٥/٢، والنهاية ٥٠/٥، وأخرجه بنحوه ابن قتبية في غريب الحديث ٢٢١/١ من طريق ابن عيينة عن رجل: أن النبي ﷺ مر بأصحابه وهم يمشون، فشكوا إليه الإعياء، فأمرهم أن ينسلوا، وإسناده ضعيف.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٨٥٤/٢.

(٤) في (ظ): أبعثنا، وفي (م): هبنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء، إلا أن ابن الأنباري نسبها لابن مسعود ؓ. وذكر ابن جني في المحتسب ٢١٤/٢ عن أبي أنه قرأ: «هَبْنَا»، وعن ابن مسعود أنه قرأ: «أهْبَنَّا».

(٥) قوله: بالوصل، ليس في (خ) و(ز) ولا في إيضاح الوقف والابتداء (والكلام منه). وسيدكر المصنف عن ابن الأنباري لاحقاً أنها بالوصل.

قال المهدوي: قرأ ابن أبي لیلی: «قالوا يا وَيْلَتَنَا» بزيادة تاء^(١)، وهو تأنيث الويل، ومثله: ﴿يَوَيْلَ الَّذِينَ إِذْ أَتَاهُمْ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢].

وقرأ عليّ: «يا وَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا» ف «مِنْ» متعلّقة بالويل، أو حالٌ من «ويلنا» فتعلّق بمحذوف، كأنه قال: يا ويلنا كائنًا مِنْ بَعْثِنَا، وكما يجوز أن يكون خبراً عنه كذلك يجوز أن يكون حالاً منه. و«مِنْ» من قوله: «مِنْ مَرَقَدِنَا» متعلّقة بنفس البعث^(٢).

ثم قيل: كيف قالوا هذا وَهُمْ من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب: أن أبي بن كعب قال: ينامون نومة^(٣). وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من هَبْنَا^(٤) من مرقدنا.

قال أبو بكر الأنباري: لا يُحْمَلُ هذا الحديثُ على أن «هَبْنَا» من لَفْظِ القرآن كما قاله مَنْ طَعَنَ في القرآن، ولكنه تفسيرٌ «بَعَثْنَا» أو مُعَبَّرٌ عن بعض معانيه.

قال أبو بكر: وكذا حَفِظَتْهُ: «مَنْ هَبْنَا» بغير ألفٍ في «هَبْنَا» مع تَسْكِينِ نونٍ «مَنْ»، والصوابُ فيه على طريق اللغة: «مَنْ اهْبَنَّا» بفتح النون على أن فتحة همزة أَهَبَّ أَلْقِيَتْ على نونٍ «مَنْ» وأسقطت الهمزة، كما قالت العرب: مَنْ أَخْبَرَكَ، مَنْ أَغْلَمَكَ؟ وهم يريدون: مَنْ أَخْبَرَكَ. ويقال: أَهْبَبْتُ النَّائِمَ فَهَبَّ النَّائِمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وَعَاذِلِي هَبْتُ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي ولم يَغْتَمِرْ نِي قَبْلَ ذَاكَ عَذُولُ^(٥)

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٥. وذكر ابن جني عن ابن أبي لیلی: «يا ويلتنا» بالتاء بعدها ألف. وذكر أبو حيان في البحر ٣٤١/٧ القراءتين عن ابن أبي لیلی، وقال في الثانية: ومعنى هذه القراءة أن كل واحد منهم يقول: يا ويلتنا.

(٢) المحتسب ٢١٣/٢. وقراءة عليّ ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٥ وقد سلفت قريباً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٠/٣. وأخرج قول أبيّ الطبري ٤٥٦/١٩. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٥٨/٤: وهذا غير صحيح الإسناد.

(٤) في (د) و(م): أهبنا.

(٥) الأماشي للقالبي ٣٨/١، وزهر الآداب للحصري القيرواني ٣٥٦/١. وأحمد بن يحيى هو ثعلب. قال =

وقال أبو صالح: إذا نُفِخَ النفخة الأولى رُفِعَ العذابُ عن أهل القبور وهجعوا هجعةً إلى النفخة الثانية، وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾^(١). وقاله ابن عباس وقتادة^(٢).

وقال أهل المعاني: إنَّ الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم^(٣).

قال مجاهد: فقال لهم المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾. وقال قتادة: فقال لهم من هدى الله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وقال الفراء: فقال لهم الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾. النحاس^(٤): وهذه الأقوال متفقة؛ لأنَّ الملائكة من المؤمنين ومن هدى الله عز وجل. وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] وكذا الحديث: «المؤمن عند الله خير من كل ما خلق»^(٥). ويجوز أن يكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

وقيل: إنَّ الكفار لما قال بعضهم لبعض: «مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» صدَّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: «هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصدق المرسلون» فكذبنا به. أقرؤا حين لم ينفعهم الإقرار.

= البكري في سمط اللآلي شرح أمالي القالي: هذا الشعر لبعض بني فزارة، والاعتماد: الاستضعاف.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ٤٥٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٠ ، وما قبله منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ .

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ عند غير النحاس، وأخرج ابن ماجه (٣٩٤٧) من حديث أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته». قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٨٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن سفيان.

وكان حفص يقف على «مِنْ مَرَقِدِنَا» ثم يبتدئ فيقول: «هذا»^(١). قال أبو بكر بن الأنباري^(٢): «مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرَقِدِنَا» وقف حسن، ثم تبتدئ: «هذا ما وَعَدَ الرحمن». ويجوز أن تقف على: «مَرَقِدِنَا هذا» فتخفض «هذا» على الإتيان للمرقد، وتبتدئ: «ما وَعَدَ الرحمن» على معنى: بَعَثْكُمْ ما وعد الرحمن، أي: بَعَثْكُمْ وعد الرحمن.

النحاس^(٣): التمام على «مِنْ مَرَقِدِنَا»، و«هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «ما وَعَدَ الرحمن». ويجوز أن يكون في موضع خفض على النعت لـ «مَرَقِدِنَا»، فيكون التمام «مِنْ مَرَقِدِنَا هذا» [ويكون] «مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» في موضع رفع من ثلاث جهات، ذكر أبو إسحاق منها اثنتين قال: يكون بإضمار هذا. والجهة الثانية أن يكون بمعنى: حق ما وعد الرحمن^(٤). والجهة الثالثة أن يكون بمعنى: بَعَثْكُمْ ما وعد الرحمن.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني: إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة، وهي قول إسرافيل: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، والعظام المتفرقة، والشعور المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء^(٥). وهذا معنى قوله الحق: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقال: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] على ما يأتي. وفي قراءة ابن مسعود - إن صح عنه -: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً»، والزقية: الصيحة، وقد تقدم هذا^(٦).

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «فإذا هم جميع» مبتدأ وخبره، «جَمِيعٌ» نكرة،

(١) ذكر الداني في التيسير ص ١٤٢ عن حفص أنه كان يسكت مع مراد الوصل على الألف في قوله تعالى: «من مرقدنا»، ثم يقول: «هذا».

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٨٥٤/٢.

(٣) في إعراب القرآن ٤٠٠/٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في النسخ: بعثكم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني القرآن للزجاج ٢٩١/٤.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٤٧٥/٢١ عن كعب الأحمري.

(٦) ص ٢١ من هذا الجزء.

و«مُخَضَّرُونَ» من صفته^(١). ومعنى «مُخَضَّرُونَ»: مَجْمُوعُونَ أَحْضَرُوا مَوْقِفَ الحساب، وهو كقوله: ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصْرِ﴾ [النحل: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْظِلُمْ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لَا تُنْقَضُ من ثَوَابِ عَمَلٍ. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «مَا» في محلِّ نَضْبٍ من وجهين: الأول أنه مفعول ثانٍ لِمَا لم يُسَمَّ فاعله. والثاني بِنَزْعِ حرفِ الصفة، تقديره: إِلَّا بما كنتم تعملون، أي: تعملونه، فحذف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شَغَلَهُمْ افْتِضَاضُ الْعَذَارَى^(٢). وذكر الترمذي الحكيم في كتاب «مشكل القرآن» له: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ الرَّازِيُّ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ الْقُمِّي، عَنْ حَفْصِ ابْنِ حَمِيد، عَنْ شَمْرِ بْنِ عَطِيَّة، عَنْ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ قال: شَغَلَهُمْ افْتِضَاضُ الْعَذَارَى^(٣). حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، عَنْ نَهْشَلٍ، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمِثْلِهِ^(٤).

وقال أبو قِلَابَةَ: بينما الرجلُ من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تَحَوَّلْ إِلَى أَهْلِكَ، فيقول: أنا مع أهلي مشغول! فيقال: تَحَوَّلْ أَيْضاً إِلَى أَهْلِكَ. وقيل: أصحاب الجنة

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٠١/٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٠١/٣ ، والنكت والعيون ٢٤/٥ ، وزاد المسير ٢٧/٧ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد الطبري ٤٦٠/١٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٤٦٠/١٩ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

في شغلٍ بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم إلى النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلهم^(١)؛ قاله سعيد ابن المسيب وغيره.

وقال وكيع: يعني في السماع. وقال ابن كيسان: «في شغلٍ» أي: في زيارة بعضهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى^(٢).

وروي: أنه إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أين عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب؟ فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرّي، ركبانا على نُجُبٍ من نورٍ أَرَمَتْهَا من الباقوت، تطيرُ بهم على رؤوس الخلائق، حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقولُ الله جلَّ وعزَّ لهم: السلامُ على عبادي الذين أطاعوني وحفظوا عهدي بالغيب، أنا اضطفيتكم، وأنا اجتبيتكم، وأنا اخترتكم، اذهبوا فادخلوا الجنةَ بغير حساب، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. فيمرُّون على الصراط كالبرق الخاطِيف، فتفتح لهم أبوابها. ثم إنَّ الخلقَ في المحشر موقوفون، فيقول بعضهم لبعض: يا قوم، أين فلانٌ وفلان؟! وذلك حين يسأل بعضهم بعضاً، فينادي منادٍ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾^(٣).

و«شُغْلٍ» و«شُغْلٍ» لغتان قرئ بهما^(٤)، مثل: الرُّعْبِ والرُّعْبِ؛ والسُّحْتِ والسُّحْتِ، وقد تقدَّم^(٥).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٠١/٣.

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ١٦/٤. قال الألوسي في روح المعاني ٣٤/٢٣: ليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط، بل بيان أنه من جملة أشغالهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «شُغْلٍ» بإسكان الغين، والباقون بضمها. السبعة ص ٥٤١ - ٥٤٢، والتيسير ص ١٨٤.

(٥) ٤٨٧/٧ - ٤٨٨.

﴿فَكَيْهُونَ﴾ قال الحسن: مَسْرُورُونَ. وقال ابن عباس: فَرِحُونَ. مجاهدٌ والضحاك: مُعْجَبُونَ. السُّدِّيُّ: نَاعِمُونَ^(١). والمعنى متقاربٌ. والفُكَاهَةُ: المزاح والكلامُ الطيِّبُ.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرجُ: «فَكَيْهُونَ» بغير ألف^(٢)، وهما لغتان كالفارِه والفَرِه، والحاذِرِ والحَذِرِ؛ قاله الفراء^(٣). وقال الكسائيُّ وأبو عبيدة: الفَاكِهَةُ: ذو الفَاكِهَةِ، مثل: شاجِمٍ ولاجِمٍ وتامِرٍ ولايِنٍ، والفَكِهَةِ: المتفَكِّه والمتنمِّع^(٤). و«فَكَيْهُونَ» بغير ألف في قول قتادة: مُعْجَبُونَ^(٥). وقال أبو زيد: يقال: رجلٌ فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس ضحوكاً^(٦).

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «فاكِهين» نَصَبَهُ على الحال^(٧).

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَكُونُونَ﴾ مبتدأ وخبره. ويجوزُ أن يكون «هم» توكيداً، «وأزواجهم» عطفٌ على المُضْمَر، و«مُتَكُونُونَ» نعتٌ لقوله: «فاكِهُونَ»^(٨).

وقراءةُ العامة: «في ظُلُلٍ» بكسرِ الظاءِ والألف. وقرأ ابنُ مسعود وعبيد بنُ عمير والأعمشُ ويحيى وحمزة والكسائيُّ وخلفٌ: «في ظُلُلٍ» بضمِّ الظاءِ من غير ألف^(٩).

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٤٦٣/١٩ ، والنكت والعيون ٢٤/٥ ، وتفسير البغوي ١٦/٤ ، وزاد المسير ٢٨/٧ .

(٢) النشر ٣٥٤/٢ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٣) في معاني القرآن ٣٨٠/٢ .

(٤) بنحوه في مجاز القرآن ١٦٣/٢ - ١٦٤ .

(٥) ذكره الأزهرى في تهذيب اللغة ٢٧/٦ ، وأبو الليث ١٠٣/٣ ، وابن عزيز في تفسير الغريب ص ٣٥٥ دون نسبة. قالوا: وفاكهون ناعمون.

(٦) تهذيب اللغة ٢٦/٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤٠١/٣ .

(٨) المصدر السابق.

(٩) السبعة ص ٥٤٢ ، والتيسير ص ١٨٤ ، والنشر ٣٥٥/٢ عن حمزة والكسائي وخلف.

فَالظَّلَالُ جَمْعُ ظَلٍّ، وَظَلَّلَ جَمَعَ ظُلَّةً. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعني السُّرُرَ فِي الْحِجَالِ^(١)،
وَاحِدُهَا أَرِيكَة، مِثْلُ سَفِينَةٍ وَسَفَانٍ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

كَأَنَّ أَحْمَرَ الزُّرْدِ فَوْقَ غُصُونِهِ بَوَقَتِ الصُّحَى فِي رَوْضِهِ الْمُتَضَاجِكِ
خُدُودُ عَذَارَى قَدْ خَجَلْنَ مِنَ الْحَيَا تَهَادَيْنَ بِالرَّيْحَانِ فَوْقَ الْأَرَائِكِ
وَفِي الْخَبَرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا جَامَعُوا
نِسَاءَهُمْ عُذْنُ أَبْكَارٍ»^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُعَانِقُ الْحَوْرَاءَ
سَبْعِينَ سَنَةً، لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ، كُلَّمَا أَتَاهَا وَجَدَهَا بَكَرًا، وَكُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهَا عَادَتْ إِلَيْهِ
شَهْوَتُهُ؛ فَيَجَامِعُهَا بِقُوَّةِ سَبْعِينَ رَجُلًا، لَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَنِيٌّ؛ يَأْتِي مِنْ غَيْرِ مَنِيٍّ مِنْهُ وَلَا
مِنْهَا^(٣).

﴿لَمَّمْتُمْ فِيهَا فَكَيْهَةٌ﴾ ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ ﴿وَلَمَّمْتُمْ مَاءً يَدْعُونَ﴾ الدَّالُّ الثَّانِيَةُ مُبْدَلَةٌ مِنْ تَاءٍ؛ لِأَنَّهُ
يَفْتَعِلُونَ مِنْ دَعَا^(٤)، أَيِ: مَنْ دَعَا بِشَيْءٍ أُعْطِيَ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ^(٥)، فَمَعْنَى «يَدْعُونَ»:
يَتَمَنَّوْنَ، مِنَ الدَّعَاءِ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ ادَّعَى مِنْهُمْ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ طَبَعَهُمْ عَلَى
أَلَّا يَدَّعِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَا يَجْمُلُ وَيَحْسُنُ أَنْ يَدَّعِيَهُ.

(١) جَمْعُ حَجَلَةٍ، وَهُوَ مَوْضِعٌ مِثْلُ الْقَبَةِ يَتَخَذُ لِلْعُرُوسِ، يَزِينُ بِالشَّيَابِ وَالسُّتُورِ وَالْأَمِيرَةِ. مَعْجَمُ مَتْنِ اللُّغَةِ
(حَجَل).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَزَارُ (٣٥٢٧ - كَشَفَ)، وَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ (٢٤٩)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْعُلَلِ
٩٣٠/٢. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ٤١٧/١٠: فِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعْلَى الْوَاسِطِيِّ، وَهُوَ كَذَّابٌ.
أَمَّا وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عِنْدَ ابْنِ حِبَانَ (٧٤٠٢).

(٣) لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ بِهَذَا السِّيَاقِ، وَلَأَجْزَائِهِ شَوَاهِدٌ وَرَدَتْ مَرْفُوعَةً، يَنْظُرُ حَدِيثُ أَنَسٍ ؓ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ
(٢٥٣٦) وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ (٧٤٠٠)، وَحَدِيثُ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ عِنْدَ أَحْمَدَ (١٩٢٦٩)، وَحَدِيثُ أَبِي أَمَامَةَ
عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي الْكَبِيرِ (٧٤٧٩)، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ، الْأَحَادِيثُ الطَّوَالُ ٢٥/٣٧.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٤٠١/٣.

(٥) بَنَحُوهُ فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ ١٦٤/٢.

وقال يحيى بن سلام: «يَدْعُونَ»: يَشْتَهُون. ابن عباس: يَسْأَلُونَ^(١). والمعنى متقارب.

قال ابن الأنباري^(٢): «ولهم ما يدعون» وقف حسن، ثم تبتدئ: «سَلَامٌ»، على معنى: ذلك لهم سلامٌ. ويجوز أن يُرْفَعَ السَلَامُ على معنى: ولهم ما يدعون مُسَلِّمٌ خَالِصٌ. فعلى هذا المذهب لا يَحْسُنُ الوقف على «ما يدعون».

وقال الزجاج^(٣): «سَلَامٌ» مرفوعٌ على البدل من «ما»، أي: ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا مُنَى أهل الجنة. وروي من حديث جابر بن عبد الله^(٤): أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم؛ إذ سَطَعَ لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم، فقال: السَلَامُ عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلِّمُوا قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾». فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، فيبقى نوره وبركاته عليهم في ديارهم» ذكره الثعلبي والقشيري^(٥). ومعناه ثابتٌ في «صحيح» مسلم، وقد بيَّناه في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنتَظَرٍ﴾ [الآية ٢٦] ^(٦).

ويجوز أن تكون «ما» نكرة، و«سَلَامٌ» نعتاً لها، أي: ولهم ما يدعون مُسَلِّمٌ. ويجوز أن يكون «ما» رفع بالابتداء، و«سَلَامٌ» خبر عنها. وعلى هذه الوجوه لا يوقف على «ولهم ما يدعون». وفي قراءة ابن مسعود: «سلاماً» يكونُ مصدرًا، وإن شئت في

(١) النكت والعيون ٢٦/٥، وفيه: ابن زياد، بدل: ابن عباس.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٥٤ - ٨٥٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/٢٩٢.

(٤) في النسخ: جرير بن عبد الله البجلي، وهو خطأ وينظر التعليق بعده.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وابن عدي ٦/٢٠٣٩، والعقيلي في الضعفاء ٢/٢٧٤، وأخرجه من طريق الثعلبي الواحدي في الوسيط ٣/٥١٧، والبيهقي ٤/١٦. جميعهم من حديث جابر ﷺ. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/٦٨: هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى الرقاشي.

(٦) ٤٨٣/١٠، والحديث عند مسلم (١٨١) عن صهيب ﷺ.

موضع الحال، أي: ولهم ما يدعون ذا سلام أو سلامية، أو: مسلماً^(١)؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يدعون»^(٢).

وقرأ محمد بن كعب القرظي: «سِلْمٌ» على الاستئناف، كأنه قال: ذلك سِلْمٌ لهم لا يتنازعون فيه، ويكون «ولهم ما يدعون» تاماً. ويجوز أن يكون «سِلْمٌ»^(٣) بدلاً من قوله: «ولهم ما يدعون»، وخبر «ما يدعون»: لهم. ويجوز أن يكون «سِلْمٌ» خبراً آخر، ويكون معنى الكلام: أنه لهم خالص من غير منازع فيه.

﴿قَوْلًا﴾ مصدرٌ على معنى: قال الله ذلك قولاً. أو يقوله قولاً، ودلَّ على الفعل المحذوف لفظُ مَصْدَرِهِ^(٤). ويجوز أن يكون المعنى: ولهم ما يدعون قولاً، أي: عِدَّة من الله. فعلى هذا المذهب الثاني لا يحسن الوقف على «يدعون». وقال السجستاني: الوقف على قوله: «سلامٌ» تامٌّ. وهذا خطأ؛ لأنَّ القولَ خارجٌ ممَّا قبله^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال: تَمَيَّزُوا وَأَمَّا زُوا وامْتَازُوا بمعنى، ومِزَّتُهُ فَاثْمَارَ وامْتَازَ، ومِيزَتُهُ^(٦) فتميَّز. أي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، أي: أخرجوا من جملتهم. قال قتادة: عُزِلُوا عن كلِّ خير^(٧).

وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض؛ فيمتاز اليهود فرقةً،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٢/٣. وقراءة: «سلاماً» في المحتسب ٢/٢١٥ عن عيسى الثقفي.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٥٦.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سلام، وكذا في الموضع الذي بعده، والمثبت من (د) و(ز)، وهو موافق لما في المحتسب ٢/٢١٥.

(٤) المحتسب ٢/٢١٥.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٥٥.

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): ومزته، وهما بمعنى ينظر العين ٣٩٤ والصحاح (ميز)، واللسان (ميز).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/٤٦٩.

والنصارى فرقةً والمجوس فرقةً، والصابئون فرقةً، وعبدة الأوثان فرقة^(١). وعنه أيضاً:
 إِنَّ لِكُلِّ فِرْقَةٍ فِي النَّارِ بَيْتًا تَدْخُلُ فِيهِ وَيَرُدُّ بِأَبِهِ، فَتَكُونُ فِيهِ أَبَدًا لَا تَرَى وَلَا تُرَى^(٢).

وقال داود بن الجراح: فيمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء،
 فيكونون مع المجرمين^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ۡءَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ
 عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا
 كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ۡءَادَمَ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية، أي: أَلَمْ
 أَوْصِيكُمْ وَأَبْلُغْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرِّسْلِ ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لَا تُطِيعُوهُ فِي
 مَعْصِيَتِي. قال الكسائي: لَا لِلنَّهْيِ ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ بكسر النون على الأصل، وَمَنْ
 ضَمَّ كَرِهَ كَسْرَ بَعْدَهَا ضَمَّةً^(٤). ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادتي دينٌ قويم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا﴾ أي: أَغْوَى ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خَلَقًا كَثِيرًا؛
 قاله مجاهد. قتادة: جموعاً كثيرة. الكلبي: أُمَمًا كَثِيرَةً^(٥)، والمعنى واحد.

وقرأ أهل المدينة وعاصم: «جِبِلًّا» بكسر الجيم والباء. وأبو عمرو وابن عامر:
 «جُبْلًا» بضم الجيم وإسكان الباء. الباقون: «جُبْلًا» بضم الجيم والباء وتخفيف
 اللام^(٦). وشددها الحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر

(١) النكت والعيون ٢٦/٥.

(٢) تفسير البغوي ١٦/٤.

(٣) النكت والعيون ٢٧/٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٢/٣.

(٥) النكت والعيون ٢٧/٥، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٤٧١/١٩.

(٦) قرأ بها أيضاً من السبعة ابن كثير وحزمة والكسائي. السبعة ص ٥٤٢، والتيسير ص ١٨٤.

ابن أنس^(١). وقرأ أبو يحيى والأشهبُ العقيليُّ: «جِبْلًا» بكسر الجيم وإسكان الباءِ وتخفيف اللّام^(٢). فهذه خمسُ قراءات. قال المهدويُّ والثعلبيُّ: وكلُّها لغاتٌ بمعنى الخلق.

النّحاس^(٣): أبينها القراءةُ الأولى؛ والدليلُ على ذلك أنَّهم قد أجمعوا على أن قروا: ﴿وَالْجِبْلَةَ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٨٤] فيكون «جِبْلًا» جمعُ جِبْلَةٍ، والاشتقاقُ فيه كلُّه واحدٌ. وإنّما هو من: جَبَلَ الله عزَّ وجلَّ الخلقَ، أي: خَلَقَهُمْ. وقد ذُكرتْ قراءةٌ سادسةٌ وهي: «ولقد أَضَلَّ منكم جِبِلًّا كثيرًا» بالياء.

وحكي عن الضحّاك أنَّ الجِبِلَّ^(٤) الواحدَ عشرةُ آلافٍ، والكثير ما لا يُحصيه إلّا الله عزَّ وجلَّ؛ ذَكَرَهُ الماورديُّ^(٥).

﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ عداوته، وتعلّموا أنَّ الواجبَ طاعةُ الله. ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: تقولُ لهم خزنةُ جهنّم: هذه جهنّمُ التي وُعدْتُم فكذبْتُم بها. وروى عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ جَمَعَ اللهُ الإنسانَ والجنَّ والأولينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ، ثمَّ أشرفَ عنقٌ من النارِ على الخلائقِ فأحاطَ بهم، ثمَّ ينادي منادٍ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فحينئذٍ تَجْشَوُا الأممُ على رُكَبِها، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَ حَمْلِها، وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وترى النَّاسَ سُكَّارَى وما هم بسُكَّارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ»^(٦).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٢/٣، والمحتسب ٢١٦/٢ وشُدُّها أيضاً يعقوب - وهو من العشرة - في رواية رُوح. اهـ. وعبد الله بن عبيد هو أبو هاشم الليثي المكي، تابعي جليل، توفي سنة (١١٣هـ). طبقات القراء لابن الجزري ٤٣٠/١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٣/٣، والمحتسب ٢١٦/٢، وهي قراءة شاذة.

(٣) في إعراب القرآن ٤٠٣/٣.

(٤) في (م): الجبل.

(٥) في النكت والعيون ٢٧/٥.

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٤٧٠/١٩، من طريق إسماعيل بن رافع، عن حدثه، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وإسناده ضعيف لضعف إسماعيل بن رافع، ولا بهام شيخه.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّوكَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَائِبِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تَعَمَّرَهُ نَكَسْنَاهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في «صحيح» مسلم^(١) عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك فقال: «هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربّه، يقول: يا ربّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلُمِ؟ قال: يقول: بلى، فيقول: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قال: فيقول: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وبالكرامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فقال: فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فيقال لأركانِهِ: انْطِقِي، قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قال: ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فعنكنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ».

خرّجه أيضاً من حديث أبي هريرة. وفيه: «ثم يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ^(٢) فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيَقَالُ لَفَخِذِهِ [وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ]: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذَهُ وَلَحْمَهُ وَعِظَامَهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمَنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْحَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ^(٣)».

وخرّج الترمذي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال «ها هنا^(٤) إلى ها هنا تُحْشَرُونَ رُكْبَانًا وَمَشَاءً، وَتُجْرُونَ عَلَىٰ وَجُوهِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَىٰ أَفْوَاهِكُمُ الْفِدَامُ، تُؤْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ

(١) برقم (٢٩٦٩).

(٢) في النسخ الخطية: يفكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وما سلف بين حاضرتين منه.

(٤) في (د) و(م): من ها هنا.

على الله، وإنَّ أَوَّلَ ما يُعْرِبُ عن أحديكم فخذُه»^(١) في رواية أخرى: «فخذُه وكفه»^(٢)
 الفِدامُ مِصفاءُ الكوزِ والإبريقِ؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنَّهم مُنعوا الكلامَ
 حتى تكلمَ أفخاذُهم، فشبهَ ذلك بالفِدامِ الذي يُجعل على الإبريق^(٣).
 ثم قيل في سببِ الختمِ أربعةٌ أوجهُ:

أحدها: لأنَّهم قالوا ﴿وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فختم الله على أفواههم
 حتى نطقت جوارحُهم؛ قاله أبو موسى الأشعري^(٤).

الثاني: ليَعْرِفَهُم أهلُ الموقفِ فيتميّزون منهم؛ قاله ابن زياد.

الثالث: لأنَّ إقرارَ غيرِ النَّاطِقِ أبلغُ في الحجة من إقرارِ النَّاطِقِ؛ لخروجه مخرجَ
 الإعجاز، وإنَّ كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز.

الرابع: ليَعْلَمَ أنَّ أعضاءه التي كانت [له] أعواناً في حقِّ نفسه صارت عليه شهوداً
 في حقِّ ربِّه.

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿وَكُلِّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فجعل ما كان من اليد
 كلاماً، وما كان من الرِّجلِ شهادةً؟

قيل: لأنَّ اليدَ مُباشرةً لعمله، والرجل حاضرة، وقولُ الحاضِرِ على غيره شهادة،
 وقولُ الفاعلِ على نفسه إقرارٌ بما قال أو فعل؛ فلذلك عبَّرَ عمَّا صدرَ من الأيدي
 بالقول، وعمَّا صدرَ من الأرجلِ بالشهادة. وقد روي عن عُقبة بن عامر قال: سمعتُ
 رسولَ الله ﷺ يقول: «أولُّ عظمٍ من الإنسان يتكلَّم يومَ يُخْتَمُ على الأفواه فخذُه من

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٤) و(٣١٤٣)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٣١) و(٢٠٠٥٠)، والنسائي في الكبرى (١١٣٦٧) ولفظ المصنف أقرب إليه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٦).

(٣) تهذيب اللغة ١٤/١٤٧، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٤٩/١ بنحوه.

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/٤٧٢ - ٤٧٣، والكلام من النكت والعيون ٥/٢٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

الرَّجُلِ الْيُسْرَى» ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ^(١) وَالْمَهْدَوِيُّ. وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: إِنِّي لِأَحْسِبُ أَنْ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنْهُ فَخْذُهُ الْيَمْنَى^(٢)؛ ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ أَيْضاً.

قَالَ الْمَاورِدِيُّ^(٣): فَاحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَقَدُّمُ الْفَخْذِ بِالْكَلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ؛ لِأَنَّ لَذَّةَ مَعَاصِيهِ يُذَكِّرُهَا بِحَوَاسِّهِ الَّتِي هِيَ فِي الشَّطْرِ [الْأَعْلَى مِنْ جَسَدِهِ، وَأَقْرَبُ أَعْضَاءِ الشَّطْرِ] الْأَسْفَلِ مِنْهَا الْفَخْذُ، فَجَازَ لِقُرْبِهِ مِنْهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي الشَّهَادَةِ عَلَيْهَا. قَالَ: وَتَقَدَّمَ الْيُسْرَى؛ لِأَنَّ الشَّهْوَةَ فِي مِيَامِنِ الْأَعْضَاءِ أَقْوَى مِنْهَا فِي مَيَاسِرِهَا؛ فَلِذَلِكَ تَقَدَّمَتِ الْيُسْرَى عَلَى الْيَمْنَى لِقَلَّةِ شَهْوَتِهَا.

قُلْتُ: أَوْ بِالْعَكْسِ لَغَلْبَةِ الشَّهْوَةِ، أَوْ كِلَاهُمَا مَعاً وَالْكَفُّ؛ فَإِنَّ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ يَكُونُ تَمَامُ الشَّهْوَةِ وَاللَّذَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ حَكَى الْكِسَائِيُّ: طَمَسَ يَطْمِسُ وَيَطْمُسُ^(٤). وَالْمَطْمُوسُ وَالطَّيْمِسُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ: الْأَعْمَى الَّذِي لَيْسَ فِي عَيْنِهِ شَقٌّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَعْنَى: لِأَعْمِيَانِهِمَا عَنِ الْهُدَى، فَلَا يَهْتَدُونَ أَبَداً إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ^(٥).

وَقَالَ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: الْمَعْنَى: لَتَرَكْنَاهُمَا غُمِيّاً يَتَرَدَّدُونَ. فَالْمَعْنَى: لِأَعْمِيَانِهِمَا فَلَا يُبْصِرُونَ طَرِيقاً إِلَى تَصَرُّفِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَلَا غَيْرِهَا. وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ^(٦). وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أَي: اسْتَبَقُوا الطَّرِيقَ لِيَجُوزُوا ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أَي: فَمِنْ أَيْنَ يُبْصِرُونَ.

(١) فِي النُّكْتِ وَالْعَيُونِ ٢٨/٥ ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٣٧٤) وَيَنْظُرُ الْكَلَامَ عَلَيْهِ فِي حَاشِيَةِ الْمُسْنَدِ.

(٢) قِطْعَةٌ مِنْ خَبَرِ طَوِيلٍ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٩/٤٧٢ - ٤٧٣ ، وَقَدْ سَلَفَ بَعْضُهُ.

(٣) فِي النُّكْتِ وَالْعَيُونِ ٢٨/٥ ، وَمَا سِيرِدَ بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ.

(٤) إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٤٠٣/٣ .

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٩/٤٧٤ بِنَحْوِهِ.

(٦) فِي تَفْسِيرِهِ ١٩/٤٧٥ ، وَأَخْرَجَهُ عَنِ الْحَسَنِ. وَذَكَرَهُ عَنِ الْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ الْبَغَوِيُّ ١٨/٤ .

وقال عطاء ومقاتل وقتادة، وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لَفَقْنَا أَعْيَنَ ضَلَالَتِهِمْ، وأَعْمِينَاهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ، وَحَوَّلْنَا أَبْصَارَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى؛ فَاهْتَدَوْا وَأَبْصَرُوا رُشْدَهُمْ، وَتَبَادَرُوا إِلَى طَرِيقِ الْآخِرَةِ. ثم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا يُبْصِرُونَ﴾ ولم نفعل ذلك بهم^(١)، أي: فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة، على الضلالِ باقية.

وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومُدَّ الصُّرَاطُ، نادى مناد: ليقُم محمدٌ ﷺ وأُمته، فيقومون برُّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصُّرَاطُ، فإذا صاروا عليه طَمَسَ الله أَعْيَنَ فُجَّارِهِمْ، فاستَبَقُوا الصُّرَاطُ، فَمِنْ أَيْنَ يَبْصِرُونَهُ حَتَّى يُجَاوِزُوهُ؟ ثم ينادي مناد: ليقُم عيسى ﷺ وأُمته، فيقوم فيتبعونه برُّهم وفاجرهم، فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائرُ الأنبياء عليهم السلام. ذكره النحاس^(٢). وقد كتبناه في «التذكرة» بمعناه حَسَبَ ما ذكره ابنُ المبارك في «رقائقه»^(٣).

وذكر^(٤) القشيري: وقال ابن عباس ﷺ: أخذ الأسودُ بنُ عبد الأسد^(٥) حجراً ومعه جماعةٌ من بني مخزومٍ ليطرَحَه على النبي ﷺ، فَطَمَسَ الله على بَصَرِهِ، وَأَلْصَقَ الْحَجَرَ بِيَدِهِ، فَمَا أَبْصَرَهُ وَلَا اهْتَدَى، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِ^(٦). والمطموسُ هو الذي لا يكونُ بين جَفْنَيْهِ شَقٌّ، مأخوذٌ من: طَمَسَ الرِّيحُ الْأَثَرَ؛ قاله الأخفش والقُتَيْبِيُّ^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَنْظَفُوا مُضِيًّا وَلَا

(١) تفسير البغوي ١٨/٤.

(٢) في إعراب القرآن ٤٠٤/٣.

(٣) برقم (٣٩٨ - زوائد نعيم)، وهو في التذكرة ص ٣٣٨.

(٤) في (ظ) و(م): وذكره.

(٥) في (م): الأسود بن الأسود. ولعل الصواب: الأسود بن عبد الأسد، وهو أخو أبي سلمة ﷺ، وكان الأسود من المستهزئين بالنبي ﷺ ومات كافراً، كما ذكر الحافظ في الإصابة ٢٠٠/١.

(٦) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص ٤١٢-٤١٣ و ٤١٦ من هذا الجزء.

(٧) التكت والعيون ٢٩/٥، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب له ص ٣٦٧.

يَرْجِعُونَ ﴿٦٥﴾ الْمَسْخُ: تبديلُ الْخَلْقَةِ وَقَلْبُهَا حَجراً أَوْ جَماداً أَوْ بهيمةً. قال الحسن: أي: لأَقْعِدْنَاهُمْ فلا يستطيعون أن يَمْضُوا أمامهم ولا يرجعوا ورائهم^(١). وكذلك الجمادُ لا يتقدّم ولا يتأخّر. وقد يكون المسخُ تبديلَ صورةِ الإنسانِ بهيمةً، ثم تلك البهيمَةُ لا تَعْقِلُ موضعاً تقصده، فتتحيّر، فلا تُقْبِلُ ولا تُدْبِرُ.

ابن عباس ؓ: المعنى: لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم^(٢). وقيل: المعنى: لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كله يوم القيامة، يَظْمَسُ الله تعالى أعينهم على الصُّراط^(٣).

وقرأ الحسن والسُّلَمِيُّ وَزَرَّ بن حُبَيْش وعاصمٌ في رواية أبي بكر: «مَكَانَاتِهِمْ» على الجمع، الباقون بالتوحيد^(٤). وقرأ أبو حَيَّوَة: «فما استطاعوا مَضِيّاً»^(٥) بفتح الميم. والمُضِيّ بضم الميم مصدر مَضَى يَمْضِي مَضِيّاً: إذا ذهب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ قرأ عاصم وحمزة: «نُنَكِّسْهُ» بضم النون الأولى وتشديد الكاف، من التنكيس. الباقون: «نُنَكِّسْهُ» بفتح النون الأولى وضم الكاف^(٦)، مِنْ نَكَسْتُ الشَّيْءَ أَنْكَسْتُهُ نَكْساً: قلبته على رأسه فانتكس.

قال قتادة: المعنى: أَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى حَالِ الْهَرَمِ الَّذِي يُشَبِّهِ حَالَ الصَّبَا^(٧).

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾: إذا بلغ ثمانين سنةً تَغَيَّرَ جَسْمُهُ وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ^(٨)، قال الشاعر:

(١) أخرجه الطبري ٤٧٧/١٩ مختصراً بلفظ: لو نشاء لأقعدناهم.

(٢) أخرجه الطبري ٤٧٧/١٩ - ٤٧٨.

(٣) سلف قول عبد الله بن سلام بنحوه مطولاً في تفسير الآية السابقة.

(٤) السبعة ص ٥٤٢ - ٥٤٣، والتيسير ص ١٠٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٤٦١. وقال الزمخشري في الكشاف ٣/٣٢٩: وقرئ «مَضِيّاً» بالحركات الثلاث.

(٦) السبعة ص ٥٤٣، والتيسير ص ١٨٥.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ٤٧٨/١٩.

(٨) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/٢٩.

مَنْ عَاشَ أَخْلَقْتَ أَيَّامُ جِدَّتُهُ وخانه ثِقَّتَاه السَّمْعُ والبَصَرُ^(١)
 فطوّل العمرِ يصيّر الشبابَ هَرَمًا ، والقوّةَ ضعفًا ، والزيادةَ نقصًا ، وهذا هو
 الغالبُ. وقد تَعَوَّذَ ﷺ من أن يُرَدَّ إلى أرْدَلِ العمرِ^(٢). وقد مضى في «النحل» بيّانه^(٣).
 ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنْ مَنْ فَعَلَ هذا بكم قَادِرٌ على بَعْثِكُمْ. وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوان:
 «تَعْقِلُونَ» بالتاء. الباكون بالياء^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُٓ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾
 لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾
 قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: أخبر تعالى عن حالِ نبيّه ﷺ، وردَّ قولَ مَنْ قال مِنَ الكفار: إِنَّهُ شاعرٌ،
 وإنَّ القرآنَ شعرٌ، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُٓ﴾ وكذلك كان رسولُ الله ﷺ
 لا يقولُ الشعرَ ولا يَزِنُهُ، وكان إذا حاولَ إنشادَ بيتٍ قديمٍ متمثلاً كَسَرَ وَزَنَهُ، وإنَّما كان
 يُحَرِّزُ المعانيَ فقط ﷺ. مِنْ ذلك أَنَّهُ أنشد يوماً قولَ طَرْفَة:
 سَتُبْدِي لَكَ أَيَّامُ ما كُنْتَ جَاهِلًا ويأتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْهُ بالأخبارِ^(٥)

(١) البيت لابن أبي فتن، كما في عيون الأخبار ٢/ ٣٢٠، والعقد الفريد ٣/ ٥٧.

(٢) صحيح البخاري (٢٨٢٢).

(٣) ٣٧٥/١٢.

(٤) التيسير ص ١٨٥، وذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ١٤٣ عن نافع وحده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١، والبيت من معلقة طرفة، وهو في ديوانه ص ٤١، وأصله: ويأتيك بالأخبار
 من لم تزود. والخبر أخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٤٥، وبنحوه الطبري ١٩/ ٤٨٠ من طريق قتادة عن
 عائشة رضي الله عنها. وحديث قتادة عن عائشة مرسل كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٤٢.
 وأخرجه أحمد (٢٤٠٢٣) و(٢٥٠٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٢)، والترمذي (٢٨٤٨) من
 طرق عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: ويأتيك بالأخبار من لم تزود، على أصل رواية البيت. قال
 الترمذي: حسن صحيح. اهـ وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٩٣) عن ابن عباس رضي الله
 عنهما.

وأنشد يوماً وقد قيل له: مَنْ أشعرُ الناسِ؟ فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وجدتُ بها وإن لم تطيَّب طيباً^(١)
وأنشد يوماً:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَّ يدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيُنِنَا^(٢)
وقد كان عليه الصلاة والسلام ربّما أنشد البيتَ المستقيم في النادر؛ روي أنه
أنشد بيتَ ابن رواحة:

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَنْقَلَتْ بِالْمَشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ^(٣)
وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي عليه الصلاة والسلام:
كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، إنّما قال الشاعر:

هَرِيرَةٌ وَدُعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ
الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ^(٤)﴾.

وعن الخليل بن أحمد: كان الشَّعرُ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثيرٍ من الكلام،

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٦١، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤١، وأصله: وجدت بها طيباً وإن لم تُطَيَّب.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢٧٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/١٨١، والبيت للعباس بن مرداس وأصل البيت: بين عُيُنِنَا والأقْرَع، وسلف ١٠/٢٦٣. والكلام من المحرر الوجيز ٤/٤٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٤٦١. وينظر حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي سلف ١٤/١٣٠. وبيت عبد الله بن رواحة رضي الله عنه سلف ٦/٣٤٦.

(٤) أخرجه ابن سعد ١/٣٨٢ - ٣٨٣، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. والبيت لسحيم عبد بني الحسحاس كما في شرح المفصل ٨/٩٣، والخزانة ١/٢٦٧، وفيهما: عميرة، بدل هريرة. وعجزه في كتاب سيويه ٢/٢٦ و٤/٢٢٥.

ولكن [كان] لا يتأتى له^(١).

الثانية: إصابته الوزن أحياناً لا يُوجِبُ أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حُين وغيره:

«هل أنت إلا إصبغ دَمِيتِ وفي سبيلِ الله ما لَقِيتِ»^(٢)
وقوله:

«أنا النبي لا كَذِبُ أنا ابنُ عبدِ المطلب»^(٣)

فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وفي كل كلام، وليس كل ذلك شعراً ولا في معناه^(٤)، كقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقوله: ﴿وَحَقَّانِ كَلْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِيَتٍ﴾ [سبا: ١٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربي^(٥) منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال في قوله: «أنا النبي لا كَذِبُ»: ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب «العين»: إنَّ ما جاء من السَّجْعِ على جُزْءَيْنِ لا يكون شعراً. ورُوي عنه: أنه من منهوك الرَّجَزِ^(٦). وقد قيل: لا يكون من منهوك الرَّجَزِ إلا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب»، ومن قوله: «عبد المطلب». ولم يُعلم كيف قاله النبي ﷺ. قال ابن العربي^(٧): والأظهر من حاله أنه قال: «لا كَذِبُ» [بتنوين] الباء مرفوعة، وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة.

(١) الكشف ٣/ ٣٢٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديث جندب البجلي رضي الله عنه.

(٣) سلف ١٤٩/١٠.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢ دون ذكر البيت الأول.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٨ - ١٦٠١.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٦٤ - ٦٥. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٢، وما قبله وما سجد بين حاصرتين منه.

وقال النحاس^(١): قال بعضهم: إنَّما الروايةُ بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوَّل أو ضمَّها أو نوَّنْها، وكَسَرَ الباء من البيت الثاني، خرج عن وزن الشعر. وقال بعضهم: ليس هذا الوزنُ من الشعر. وهذا مكابرةُ العيان؛ لأنَّ أشعارَ العربِ على هذا قد رواها الخليلُ وغيره.

وأما قوله: «هل أنتِ إلَّا إصبَعُ دَمِيَّتٍ» فقليل: إنَّه من بحر السريع، وذلك لا يكونُ إلَّا إذا كُسِرَت التاء من «دميت»، فإنَّ سُكُنَ لا يكونُ شعراً بحال؛ لأنَّ هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول^(٢)، ولا مدخلُ لفعول في بحر السريع. ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء، أو متحرَّكة التاء من غير إشباع. والمعوَّل عليه في الانفصال على تسليم أنَّ هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزمُ منه أن يكون النبي ﷺ عالماً بالشعر ولا شاعراً. إنَّ التمثيلَ بالبيت النذر وإصابةَ القافيتين من الرجز وغيره لا يوجبُ أن يكونَ قائلُها عالماً بالشعر، ولا يُسمَّى شاعراً باتِّفاقِ العلماء، كما أنَّ مَنْ خاطَّ خيطاً لا يكونُ خياطاً.

قال أبو إسحاق الزجاج^(٣): معنى «وما علَّمناه الشعرَ»: وما علَّمناه أن يشعُر، أي: ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنعُ أن يُنشِدَ شيئاً من الشعر. قال النحاس^(٤): وهذا من أحسنِ ما قيل في هذا. وقد قيل: إنَّما خبَّرَ الله عزَّ وجلَّ أنه ما علَّمه الله الشعر، ولم يُخبر أنه لا ينشُدُ شعراً، وهذا ظاهرُ الكلام. وقيل فيه قولٌ بيِّنٌ، زعم صاحبه أنه إجماعٌ من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كلُّ مَنْ قال قولاً موزوناً لا يَقْصِدُ به إلى شعرٍ فليس بشعرٍ، وإنَّما وافقَ الشعر. وهذا قولٌ بيِّن.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٢) في النسخ الخطية: لا تكون فعولاً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ١٦٠٢/٤ ، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

قالوا: وإنما الذي نفاه الله عن نبيّه عليه الصلاة والسلام فهو العلمُ بالشعر وأصنافه، وأعاريضه وقوافيه، والاتّصافُ بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق. ألا ترى أن قريشاً تراوَصَتْ فيما يقولون للعرب فيه إذا قَدِمُوا عليهم الموسمَ، فقال بعضهم: نقول إنّه شاعرٌ. فقال أهل الفطنة منهم: واللّه لتكذّبَتكم العربُ، فإنّهم يعرفون أصنافَ الشعر، فواللّه ما يُشَبِّه شيئاً منها، وما قوله بشعر. وقال أنيسٌ أخو أبي ذرٍّ: لقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم أنه شعرٌ. أخرجه مسلم^(١)، وكان أنيسٌ من أشعر العرب. وكذلك قال عتبة بن ربيعةٍ لما كَلَّمه: واللّه ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، على ما يأتي من خبره في سورة فصلت^(٢)، إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرُهما من فصحاء العربِ العَرَباءِ، واللُّسَنِ البُلغاءِ.

ثم إنَّ ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يُعدُّ شعراً، وإنّما يعدُّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القَصْدِ إليه، فقد يقول القائل: حدّثنا شيخٌ لنا، وينادي: يا صاحبَ الكسائي^(٣)، ولا يُعدُّ هذا شعراً. وقد كان رجلٌ ينادي في مرَضِهِ وهو من عُرضِ العامّةِ العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكْتَوَى.

الثالثة: روى ابنُ القاسم عن مالكٍ أنّه سُئِلَ عن إنشاد الشعرِ فقال: لا تُكثِرَنَّ منه، فَمِنَ عَيْبِهِ أَنْ الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ قال: ولقد بلغني أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن اجْمَعْ الشعراءَ قبْلَكَ وسلّمهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفةٌ، وأخضِرْ لبيداً ذلك، قال: فجمعهم فسألهم، فقالوا: إنّنا لنَعْرِفُهُ ونقولُهُ، وسأل لبيداً فقال: ما قلتُ شعراً منذ سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الَمْ ذَلِكَ أَلْكَتُبُ لَا رَبِّ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢].

قال ابن العربي^(٤): هذه الآية ليست من عيب الشعر، كما لم يكن قوله: ﴿وَمَا

(١) في صحيحه (٢٤٧٣)، وسلف ١١٦/١.

(٢) في أولها، وسلف ١١٦/١.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ١٦٠٣/٤. والكلام منه: الكساء.

(٤) في أحكام القرآن ١٦٠٣/٤، وما قبله منه.

كُنْتُ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْطَعُ سِيَمِينَكَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨] من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفْيُ النَّظْمِ عن النبي ﷺ من عيب الشعر.

روي أَنَّ المأمون قال لأبي عليِّ المِنْقَرِيِّ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ أُمِّي، وَأَنَّكَ لَا تُقِيمُ الشعر، وَأَنَّكَ تُلَحِّنُ. فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا اللَّحْنُ فَرَبَّمَا سَبَقَ لِسَانِي مِنْهُ بِشْيءٌ، وَأَمَّا الْأُمِيَّةُ وَكَسْرُ الشَّعْرِ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَكْتُبُ وَلَا يُقِيمُ الشعر. فقال له: سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثَةِ عَيُوبٍ فِيكَ فَرِذْتَنِي رَابِعاً وَهُوَ الْجَهْلُ! يَا جَاهِلُ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَضِيلَةً، وَهُوَ فِيكَ وَفِي أَمْثَالِكَ نَقِصَةً. وَإِنَّمَا مُنِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ لِنَفْيِ الظَّنَّةِ عَنْهُ، لَا لَعَيْبٍ فِي الشَّعْرِ وَالْكِتَابَةِ^(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾ أي: وما ينبغي له أَنْ يَقُولَهُ. وجعل الله جَلَّ وَعَزَّ ذَلِكَ عَلَماً مِنْ أَعْلَامِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِئَلَّا تَدْخُلَ الشَّبَهَةُ عَلَى مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ قَوِيٌّ عَلَى الْقُرْآنِ بِمَا فِي طَبْعِهِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الشَّعْرِ. وَلَا اعْتِرَاضَ لِمُلْحِدٍ عَلَى هَذَا بِمَا يَتَّفَقُ الْوِزْنُ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّ مَا وَافَقَ وَزْنُهُ وَزْنَ الشَّعْرِ، وَلَمْ يُقْصَدْ بِهِ إِلَى الشَّعْرِ، لَيْسَ بِشَّعْرٍ، وَلَوْ كَانَ شَعْرًا لَكَانَ كُلُّ مَنْ نَطَقَ بِمُوزُونٍ مِنَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْوِزْنَ شَاعِرًا، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وقال الزَّجَّاجُ^(٢): معنى ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾ أي: مَا يَتَسَهَّلُ لَهُ قَوْلُ الشَّعْرِ، لَا الْإِنْشَادُ^(٣). ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: حَيِّ الْقَلْبِ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ. الضَّحَّاكُ: عَاقِلًا^(٤). وقيل: الْمَعْنَى: لَتُنذِرَ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِي عِلْمِ اللَّهِ. هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ التَّاءِ خَطَابًا

(١) العقد الفريد ٤٧٩/٢.

(٢) في معاني القرآن ٢٩٣/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤٠٥/٣.

(٣) في (م): الإنشاء.

(٤) أخرج القولين الطبري ٤٨١/١٩.

للنبي عليه الصلاة والسلام، وهي قراءة نافع وابن عامر. وقرأ الباقر بالباء^(١)، على معنى: لِيُنْذِرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، أو لينذرَ محمدًا ﷺ، أو لينذرَ القرآن. وروي عن ابن السَّمِيعِ: «لِيُنْذِرَ» بفتح الياء والذال^(٢). ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: وتَجِبُ الحجة بالقرآن على الكفرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب، أي: أولم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا. ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا﴾ أي: مما أبدعناه وعمَلناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة. و«ما» بمعنى الذي، وحذفت الهاء لطول الاسم. وإن جعلت «ما» مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء.

﴿أَنْعَمًا﴾ جمع نَعَم، والنَّعَمُ مذكَّر. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾: ضابطون قاهرون. ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: سخرناها لهم، حتى يقود الصبيُّ الجملَ العظيم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج من طاعته.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء، أي: مَرَكُوبُهُمْ، كما يقال: ناقةٌ حلوبٌ، أي: محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمِيعِ: «فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ» بضم الراء على المصدر^(٣). وروي عن عائشة أنها قرأت: «فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ»^(٤) وكذا في مُصَحِّفِهَا^(٥).

(١) السبعة ص ٥٤٤، والتيسير ص ١٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٦٢، والبحر ٧/٣٤٦، قال أبو حيان: هو مضارع نذر بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعد له. وفيهما عن ابن السميع أيضاً أنه قرأ: «لِيُنْذِرَ» بضم الياء وفتح الذال.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٦، والمحتسب ٢/٢١٦.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/٣٨١، والقراءات الشاذة ص ١٢٦، والمحتسب ٢/٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٤٠٦.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٢ عن عروة بن الزبير.

والرَّكُوبُ والرَّكُوبَةُ واحدٌ، مثل: الحَلُوب والحَلُوبَةُ، والحَمُولُ الحَمُولَةُ. وحكى النحويون الكوفيون أنَّ العرب تقول: امرأةٌ صبورٌ وشكورٌ بغير هاء. ويقولون: شاةٌ حَلُوبَةٌ، وناقَةٌ رَكُوبَةٌ؛ لأنَّهم أرادوا أن يفرَّقوا بين ما كان له الفعلُ، وبين ما كان الفعلُ واقعاً عليه، فحذفوا الهاء ممَّا كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان مفعولاً، كما قال:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبَةً سوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ^(١)

فيجب أن يكون على هذا: رَكُوبَتهم. فأما البصريون فيقولون: حُذفت الهاء على النسب. والحجةُ للقول الأول ما رواه الجَرَمِيُّ عن أبي عبيدة قال: الرَّكُوبَةُ تكون للواحدِ والجماعة، والرَّكُوب لا يكون إلا للجماعة. فعلى هذا يكونُ لتذكير الجمع. وزعم أبو حاتم أنَّه لا يجوز: «فَينها رُكُوبُهُم» بضمِّ الراءِ لأنَّه مصدرٌ، والرَّكُوب ما يُركب. وأجاز الفراء^(٢): «فَينها رُكُوبُهُم» بضمِّ الراءِ، كما تقول: فَينها أَكُلُهُم ومنها شَرِبُهُم.

﴿وَمِنهَا يَأْكُلُونَ﴾ مِنْ لَحْمَانِهَا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك. ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ يعني ألبانها، ولم يَنْصَرِفَا لأنَّهما من الجموع التي لا نظيرَ لها في الواحد [ولا يُجْمَع]^(٣). ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نِعَمِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ ٧٦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي: قد رَأَوْا هذه الآياتِ من قُدْرَتنا، ثم اتَّخَذُوا من دوننا آلهةً لا قدرةَ لها على فِعْلِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ أي: لِمَا يرجون من

(١) البيت لعترة، وهو في ديوانه ص ١٧، وسلف ١١٨/٥، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤٠٦/٣.

(٢) في معاني القرآن ٣٨١/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤٠٧/٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٧/٣، وما بين حاصرتين منه.

نُضِرَتْهَا لَهُمْ إِنَّ نَزَلَ بِهِمْ عَذَابٌ. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: لَعَلَّهُ أَنْ يَفْعَلَ.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة. وُجِّعُوا بِالْوَاوِ وَالنُّونِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِخَبَرِ الْآدَمِيِّينَ. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي: للآلهة، ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ قال الحسن: يَمْنَعُونَ مِنْهُمْ وَيُدْفَعُونَ عَنْهُمْ^(١). وقال قتادة: أي: يَغْضَبُونَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا^(٢). وقيل: الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْآلِهَةَ وَيَقُومُونَ بِهَا؛ فَهُمْ لَهَا بِمَنْزِلَةِ الْجُنْدِ، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْصُرَهُمْ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ مُتَقَارِبَةٌ الْمَعْنَى. وَقِيلَ: إِنَّ الْآلِهَةَ جُنْدٌ لِلْعَابِدِينَ مُحْضَرُونَ مَعَهُمْ فِي النَّارِ، فَلَا يَدْفَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِ جُنْدُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْعَنُونَهُمْ وَيَتَّبِعُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ. وَقِيلَ: الْآلِهَةُ جُنْدٌ لَهُمْ مُحْضَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِعَانَتِهِمْ فِي ظُنُونِهِمْ.

وَفِي الْخَبَرِ: إِنَّهُ يُمَثِّلُ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَتَّبِعُونَهُ إِلَى النَّارِ؛ فَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ.

قُلْتُ: وَمَعْنَى هَذَا الْخَبَرِ مَا ثَبَّتَ فِي «صَحِيحِ» مُسْلِمٍ^(٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ: أَلَا لَيْتَبُعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ، فَيُمَثِّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلَيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ^(٤).

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ هَذِهِ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةُ، وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: يُحْزَنُكَ^(٥).

وَالْمُرَادُ تَسْلِيَةً نَبِيَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَيْ: لَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ: شَاعِرٌ، سَاحِرٌ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٧/٣، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٢٦٩/٥.

(٢) أخرجه الطبري ٤٨٥/١٩.

(٣) برقم (١٨٢) مطولاً، وسلف ٤٠٨/١٢.

(٤) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حسن صحيح. وسلف ٤٠٨/١٢ - ٤٠٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٧/٣.

وَتَمَّ الْكَلَامُ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَمَا يُظْهِرُونَ، فَتَجَاوَزَهُمْ بِذَلِكَ.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ رِءَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧)

قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ رِءَ الْإِنْسَانُ﴾ قال ابن عباس: الإنسان هو عبد الله بن أبي (١). وقال سعيد بن جبیر: هو العاص بن وائل السهمي (٢). وقال الحسن: هو أمية بن خلف (٣). وقال مجاهد وقتادة (٤): هو أبي بن خلف الجمحي (٥). وقاله ابن إسحاق، ورواه ابن وهب عن مالك (٦).

﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء، نطف: إذا قطر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: مُجَادِلٌ في الخصومة مُبِينٌ للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظيم حائل فقال: يا محمد، أترى أن الله يُحيي هذا بعد ما رَمَا فقال النبي ﷺ: «نعم، وَيَبْعَثُك الله وَيُدْخِلُكَ النار» فنزلت هذه الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨)

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

(١) أخرجه الطبري ٤٨٧/١٩. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله ابن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٦٤: وهو وهم ممن نسبته لابن عباس؛ لأن السورة والآية مكية بإجماع، ولأن عبد الله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة.

(٢) أخرجه الطبري ٤٨٧/١٩.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٦٣، ونسبه أيضاً لمجاهد وقتادة.

(٤) من قوله: هو أمية... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) أخرجه عنهما الطبري ٤٨٦/١٩، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/١٤٦. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤١: وعليه المفسرون.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٤٦٤. وقول ابن إسحاق ذكره ابن هشام في السيرة ١/٣٦١ - ٣٦٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/١٤٦، والطبري ٤٨٦/١٩ عن قتادة. وينظر الدر المنثور ٥/٢٧١ - ٢٧٢.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: ونسي أننا أنشأناه من نطفة ميتة، فرغبنا فيه الحياة. أي: جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، يُحييك»^(١) الله ويدخلك النار» ففي هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جلَّ وعزَّ احتجَّ على مُنكري البعث بالنشأة الأولى.

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالية. رَمَّ العظمُ فهو رَمِيمٌ ورُمَام. وإنما قال: رميم، ولم يقل: رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه^(٢)، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُنْثَىٰ بِفَيْيَا﴾ [مریم: ٢٨] أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية.

وقيل: إنَّ هذا الكافر قال للنبي ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ سَحَقْتُهَا وَأَذْرَيْتُهَا فِي الرِّيحِ، أَيْعِيدُهَا اللَّهُ! فنزلت: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: من غير شيء، فهو قادرٌ على إعادتها في النشأة الثانية من شيء، وهو عَجَمُ الذَّنْبِ. ويقال: عَجَبُ الذَّنْبِ بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: كيف يُبدئُ ويُعيد.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ في العظام حياة، وأنها تَنَجَّسُ بالموت. وهو قولُ أبي حنيفةٍ وبعضِ أصحابِ الشافعيِّ. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا حياة فيها^(٣). وقد تقدَّم هذا في «النحل»^(٤).

فإن قيل: أراد بقوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ﴾ أصحابِ العظام، وإقامة المضافِ مقامَ

(١) في (م): وبيعتك.

(٢) في تفسير البغوي ٢٠/٤ (والكلام منه): أخواته، بدل: إعرابه.

(٣) بنحوه في أحكام القرآن للكلبي ٣/٣٥٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٠٤.

(٤) ٣٩٥/١٢ - ٣٩٧، ولكنه ذكر ثمة عن أبي حنيفة قوله بطهارة القرن والسن والعظم، وأنها لا تنجس بموت الحيوان، وهذا يوافق ما ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٣/٣٧٦، والزمخشري في الكشاف ٣/٣٣٢.

المضاف إليه كثيرٌ في اللغة، موجودٌ في الشريعة.

قلنا: إنّما يكون [ذلك] إذا احتيج [إليه] لضرورة، وليس هاهنا ضرورةٌ تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقرُ إلى هذا التقدير، إذ الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادرٌ عليه، والحقيقة تشهدُ له؛ فإنَّ الإحساس الذي هو علامةُ الحياةِ موجودٌ فيه؛ قاله ابن العربي^(١).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴿٨٨﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٩﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَّهُم كُنْ فَيَكُونُ ﴿٩٠﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نَبّه تعالى على وُحْدانيته، ودلّ على كمال قدرته في إحياء المَوْتَى، بما يشاهدونه من إخراج المُحْرِقِ اليابس من العود النديّ الرُّطْب. وذلك أَنَّ الكافر قال: النطفةُ حارةٌ رطبةٌ بطبعِ الحياة، فخرج منها الحياة، والعظمُ باردٌ يابسٌ بطبعِ الموت، فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي: إنّ الشجر الأخضر من الماء، والماءُ باردٌ رطبٌ ضدُّ النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادرُ على إخراج الضدِّ من الضد، وهو على كلّ شيءٍ قدير. ويعني بالآية ما في المَرْخ والعَفَّار، وهي زنادةُ العرب؛ ومنه قولهم: في كلّ شجرٍ نارٌ واستمجدَ المَرْخُ والعَفَّارُ^(٢)؛ فالعَفَّارُ الزُّند، وهو الأعلى، والمَرْخُ الزُّندة، وهي الأسفل؛ يؤخِّدُ منهما غصنان مثلُ

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٠٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٩٢، ومجمع الأمثال ٢/٧٤، والمستقصى ٢/١٨٣، والكشاف ٣/٣٣٢. قال العسكري: يضرب في تفضيل الرجال بعضهم على بعض، أي: لكل واحد من هؤلاء فضل، إلا أن فلانا أفضل.

المسواكين^(١) يقطران ماءً، فيحَكُّ بعضُهما إلى بعضٍ، فتخرجُ منهما النار.

وقال: «مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ» ولم يقل: الخضراء، وهو جمع؛ لأنه رَدَّه إلى اللَّفْظ. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: الشَّجَرُ الْخَضْرَاءُ؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنَ شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ فَلَاثُونَ وَمِنْهَا الْأَبْطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٢-٥٣]^(٢).

ثم قال تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: أمثال المُنْكَرِينَ للبعث. وقرأ سَلَامُ أَبُو الْمُنْذِرِ وَيَعْقُوبُ الْحَضْرَمِيُّ^(٣): «يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» على أنه فِعْلٌ. ﴿بَلَى﴾ أي: إِنَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِهِمْ، فَالَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُمْ. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «الْخَالِقُ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ الكسائي «فَيَكُونُ» بالنصب^(٥) عطفًا على «يقول»، أي: إذا أَرَادَ خَلَقَ شَيْءًا، لا يحتاجُ إلى تعبٍ ومُعَالَجَةٍ. وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ تَعَالَى عَنِ الْعِجْزِ وَالشَّرِّ. وَمَلَكُوتٌ وَمَلَكُوتِي فِي كَلَامِ الْعَرَبِ بِمَعْنَى مَلِكٍ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: جَبَرَوْتِي خَيْرٌ مِنْ رَحَمَوْتِي. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ»: مَفَاتِحُ كُلِّ شَيْءٍ^(٦).

وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ وَالْأَعْمَشُ: «مَلَكَةُ»^(٧)، وَهُوَ بِمَعْنَى

(١) في (خ): السواكين.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٨/٣.

(٣) في رواية رويس عنه. النشر ٣٥٥/٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٦.

(٥) وقرأ بها ابن عامر أيضاً. التيسير ص ١٣٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٨/٣.

(٧) المحتسب ٢١٧/٢.

ملكوت؛ إلا أنه خلاف المصحف. ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُردُّون وتَصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمِيُّ وَزَرَّ بْنُ حُبَيْشٍ وَأَصْحَابُ عبد الله: «يُرْجَعُونَ» بالياء على الخبر.

تم الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الثامن عشر ويبدأ بسورة الصافات

فهرس الجزء السابع عشر

- تفسير سورة السجدة

- ٦ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَتَوَلَّ الْكَتَبَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ [١-٣]
- ٧ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [٤] .
- ٨ - قوله تعالى: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ مَسْجِدٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٥]
- ١٣ - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَبْرِ الرَّحِيمِ﴾ [٦-٩]
- ١٦ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا صَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَوْهًا لَقِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ [١٠]
- ١٨ - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يَخْلُقُكُمْ مِمَّا تَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ كُلُّ يَوْمٍ تَكُونُونَ فِيهِ مَوْتٌ ثُمَّ تَحْيَوْنَ﴾ [١١]
- ٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ...﴾ [١٢]
- ٢٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٣]
- ٢٥ - قوله تعالى: ﴿تَذَرُونَهَا إِذَا هِيَ بَارِئَةٌ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيكُمْ...﴾ [١٤]
- ٢٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ...﴾ [١٥]
- ٢٨ - قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ ضُلَالِهِمْ عَنْ الضَّلَالِ الَّذِي دَعَوْا رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [١٦] ..
- ٣٤ - قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٧]
- ٣٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [١٨]
- ٣٨ - قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْمُونِ...﴾ [١٩-٢٠]
- ٣٩ - قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفَحَ﴾ [٢١] ...
- ٤٠ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ [٢٢] ..
- ٤١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ...﴾ [٢٣-٢٥]
- ٤٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا بِهَدْيٍ مِمَّنْ كَرَّمْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ...﴾ [٢٦]
- ٤٤ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْخَرْشِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنَحْنُ الْمَوْلُودُ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٧]
- ٤٥ - قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٨-٢٩]
- ٤٦ - قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ [٣٠]

- تفسير سورة الأحزاب

- ٤٩ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ [١]
- ٥١ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ [٢-٣]
- ٥٢ - قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوَاهِدِهِ...﴾ [٤]
- ٥٧ - قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [٥]

- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ...﴾ [٣٨-٤٠] ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا...﴾ [٤١-٤٢] ١٦٧
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ يَحْمِزُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٤٣] ١٦٨
- قوله تعالى: ﴿يَمِيزُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [٤٤] ١٦٩
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٤٥-٤٦] ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [٤٧-٤٨] ١٧٣
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَهَّفْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْأَلُوهُمْ...﴾ [٤٩] . ١٧٤
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ أَجْرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ...﴾ [٥٠] ١٧٨
- قوله تعالى: ﴿... تَرْجَى مِنْ نَفْسِهِ وَيَتَّقَى إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ...﴾ [٥١] ١٨٩
- قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَنَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِ مِنْ الْأُنْثَى وَلَوْ أَصْبَحْتَ حُتُبًا...﴾ [٥٢] ١٩٥
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْزَنَ لَكُمْ...﴾ [٥٣] ٢٠١
- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا مَسِيحًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا...﴾ [٥٤-٥٥] ٢١٢
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [٥٦] ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُدْزَنُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [٥٧] . ٢٢٢
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُدْزَنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا...﴾ [٥٨] ٢٢٦
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [٥٩] ٢٢٧
- قوله تعالى: ﴿... لَنْ يَنْفَعَهُ الشَّفِيعُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُفْرِكَنَّ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا...﴾ [٦٠-٦٢] ٢٣٣
- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [٦٣-٦٥] ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [٦٦-٦٧] ٢٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ [٦٨] ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُّوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ وَمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبًا﴾ [٦٩] ٢٤٠
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠-٧١] ٢٤٣
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا...﴾ [٧٢-٧٣] ٢٤٤

- تفسير سورة سبا

- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَفِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [١] ٢٥٢
- قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا...﴾ [٢-٤] ٢٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا عَلَيْنَا فَلَئِنْ أَهْلَكْنَاهُمْ لَكُنَّا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ آيِسٍ﴾ [٥] ٢٥٥

- قوله تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ أَلَيْسَ إِنَّكَ مِنْ رَحْمَتِكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [٦].....
- ٢٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَى بَيْتِكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلُّ مِرْقَةٍ إِنَّكُمْ لَعِنَّا عَذَابِ﴾ [٧].....
- ٢٥٧
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [٨]
- ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَيْئًا خَفِيفٌ بِهِمْ
- ٢٥٩
- الْأَرْضُ﴾ [٩].....
- ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ [١٠].....
- ٢٦٤
- قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةً وَاقِظِي فِي السُّرُورِ وَاعْمَلُوا صَبْلًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١] .
- ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَسَّكُنَّ الرَّيْحَ عَذُوبًا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا وَأَسْلَمَا لَهُ عَيْنَ الْفُطْرِ...﴾ [١٢].....
- ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَبَّةٍ وَنَسِيْلٍ وَجَافٍ كَالْجَوَابِ...﴾ [١٣].....
- ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿لَنَلَّا فَصَبْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ...﴾ [١٤].....
- ٢٨٧
- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَيمٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ...﴾ [١٥].....
- ٢٩١
- قوله تعالى: ﴿فَاعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِنْدٍ لَقِيلٍ﴾ [١٦].....
- ٢٩٧
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾ [١٧].....
- ٢٩٨
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرًا
- ٢٩٨
- فِيهَا لَيْالٍ وَأَيَّامًا ءَامِينَ﴾ [١٨].....
- ٣٠٠
- قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَقْنَاهُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ
- ٣٠٢
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [١٩].....
- ٣٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٠].....
- ٣٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ
- ٣٠٧
- وَرَحْمَتُكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ [٢١].....
- ٣٠٧
- قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
- ٣١٢
- الْأَرْضِ...﴾ [٢٢-٢٣].....
- ٣١٢
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْفُقْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَلَوْ أَنَّا كُنَّا لَمَلِكًا مُدَيِّ
- ٣١٣
- قًا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢٤].....
- ٣١٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا أَعْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ...﴾ [٢٥].....
- ٣١٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٦-٣٠].....
- ٣١٦
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ [٣١-٣٣].....
- ٣٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾
- ٣٢٤
- [٣٤-٣٨].....
- ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ...﴾ [٣٩].....
- ٣٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكِي إِيَّاكَ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٤٠-٤١]...

- قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَتْلِكَ بَعْضُكَ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ [٤٢-٤٥] ٣٢٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيتُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَتَّى وَقُرْدَى ثُمَّ تَفْكُرُوا مَا يَصْلَحِيكُمْ مِنْ حِجْتٍ...﴾ [٤٦] ٣٢٨
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٤٧-٤٨] .. ٣٣١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ﴾ [٤٩-٥٠] ٣٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [٥١] ٣٣٣
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَائِمًا بِهِ وَأَنْ لِمُهمُ التَّسَاوُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٢] ٣٣٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَقَذِفُوا بِالْقَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٣] ٣٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُوتُوا بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ...﴾ [٥٤] ٣٣٩
- تفسير سورة فاطر
- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْتَبَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ
- وَرِثَهُ...﴾ [١] ٣٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْجُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا...﴾ [٢] ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِسْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكَ...﴾ [٣] ٣٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ رَحْمَةً الْأُمُورِ﴾ [٤-٥] ٣٤٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [٦-٧] ... ٣٤٧
- قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا...﴾ [٨] ٣٤٨
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَوْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ صَحَابًا فَفُتِنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مِيمَةٍ﴾ [٩] ٣٥١
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾ [١٠] ٣٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا...﴾ [١١] ٣٦٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَالْآخَرُ شَالِوٌّ﴾ [١٢] ٣٦٢
- قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [١٣] ٣٦٤
- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَوَ كُفُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ...﴾ [١٤] ٣٦٥
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥] ٣٦٦
- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُ بَدْوِيكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٦-١٨] ٣٦٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [١٩-٢٢] ٣٦٩
- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [٢٣-٢٤] ٣٧١
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [٢٥-٢٨] ٣٧٢
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ [٢٩-٣٠] ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِهِ﴾ [٣١-٣٥] ٣٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [٣٦-٣٧] ٣٨٧

- ٣٩٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٣٨-٣٩]
- ٣٩٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [٤٠]
- ٣٩٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُودَا...﴾ [٤١]
- قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْذَلِ الْأَشْمِ...﴾
- ٣٩٦ [٤٢-٤٣]
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً...﴾ [٤٤]
- ٤٠٠ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابَنٍ وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ...﴾ [٤٥]
- ٤٠١ [٤٥]
- ٤٠٣ - تفسير سورة يس
- ٤٠٦ - قوله تعالى: ﴿يَس﴾ [١-٥]
- ٤١١ - قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتُوا مِنْهُمْ فَيُهْمُ غَفِلُونَ﴾ [٦-٨]
- ٤١٦ - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَبًا﴾ [٩-١١]
- ٤١٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾ [١٢]
- ٤٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ بَيْتٍ مَثَلًا لِمَنْ أَحْسَبَ الْفَرِيقَ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٣-١٩]
- ٤٢٨ - قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَفْقَهُوا أَمْرًا لِمُرْسَلِينَ﴾ [٢٠-٢٩]
- ٤٣٥ - قوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْوِسَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٣٠-٣٢] ...
- ٤٤٠ - قوله تعالى: ﴿وَوَايَةَ لِمَنْ الْأَرْضُ أَلْيَسَتْ أَيْمَانُهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣-٣٦] .
- ٤٤٢ - قوله تعالى: ﴿وَوَايَةَ لِمَنْ أَلِيلٌ نَسِلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [٣٧-٣٨]
- ٤٤٥ - قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [٣٩]
- ٤٥٠ - قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ...﴾ [٤٠]
- ٤٥٢ - قوله تعالى: ﴿وَوَايَةَ لِمَنْ أَنَا حَاسِبًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٤١-٤٤]
- ٤٥٥ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٥-٥٠]
- ٤٦١ - قوله تعالى: ﴿وَيُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [٥١-٥٤]
- ٤٦٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْمِقْنَةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ [٥٥-٥٩]
- ٤٧٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَوعَ مَادَمَ أَنْ لَا تُعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾ [٦٠-٦٤]
- قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ...﴾
- ٤٧٥ [٦٥-٦٨]
- ٤٨٠ - قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْفِجْرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [٦٩-٧٠]
- ٤٨٦ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِمْحَاتِ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَكِينُونَ...﴾ [٧١-٧٣] .
- ٤٨٧ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [٧٤-٧٦]
- ٤٨٩ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [٧٧-٧٩]
- ٤٩١ - قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ نُورٌ مِّنْهُ تُؤْفَكُونَ﴾ [٨٠-٨٣] .
- ٤٩٥ [٨٣-٨٥]
- الفهرس